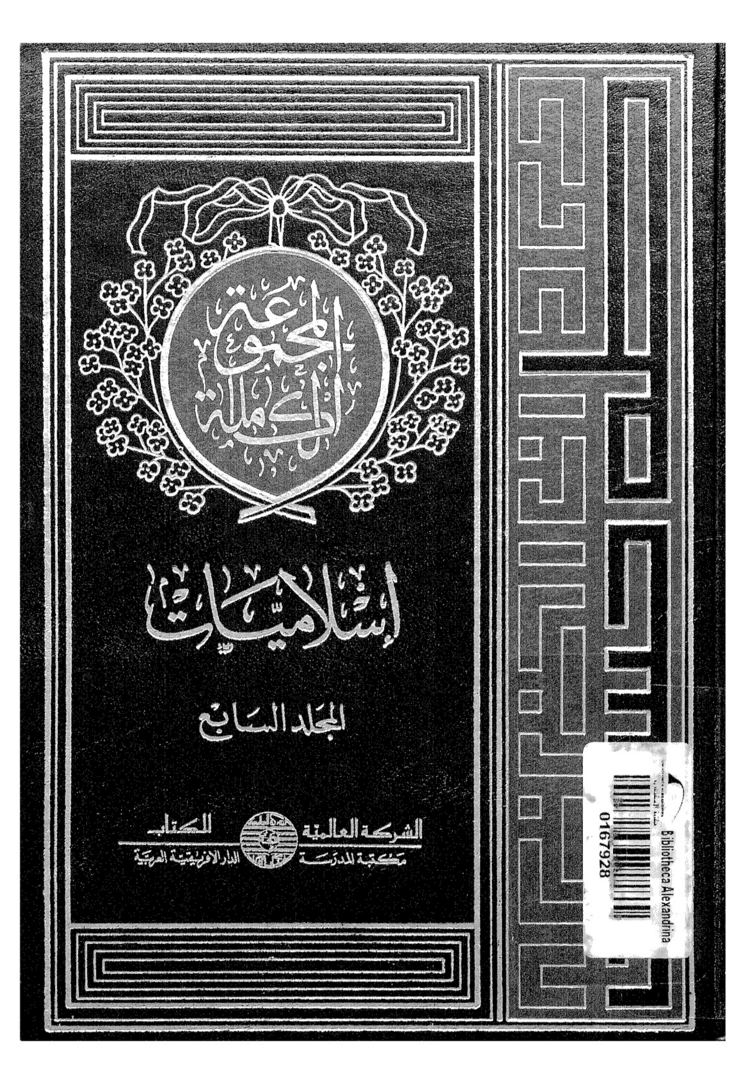

المجموعة الكاملة
إسلاميات
المجلد السابع
الشركة العالمية للكتاب
مكتبة المدرسة
الدار الإفريقية العربية
Bibliotheca Alexandrina
0167928



المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور

طه حسين

المجلد السابع



يحتوي على

الوعد الحق

مرآة الإسلام

الشركة العالمية للكتاب — مكتبة المدرسة



الشركة العالمية للكتاب ش م ل

طباعة - نشر - توزيع

مكتبة المدرسة

دار الكتاب العالمي

الدار الافريقية العربية

الادارة العامة

الصنائع - مقابل الاذاعة اللبنانية
هاتف ٣٤٩٠٥٥-٣٤٩٣٧٠ - ص ب ٣١٧٦
تلكس LE ٢٢٨٦٥ - برقياً، كتالبان
بيروت - لبنان

طه حسين

الكتاب الأول



«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »

صدق الله العظيم

١

قال ياسر بن عامر لأخويه مالك والحارث : عودا إن شئتما إلى أرض اليمن ، أو اضربا إن شئتما في الأرض العريضة ؛ فأما أنا فمقيم ، قد أعجبتني هذه الأرض فلست أعدل بها أرضاً أخرى ، ورضيت بهذه الدار فلست أبغي بها بديلا . وما رحيلي عن أرض وجدت فيها الأمنَ بعد الخوف ، والقوةَ بعد الضعف ، والسعةَ بعد الضيق ؟ !

قال أخوه مالك : بل قل ما رحيلي عن أرض فيها هذه الفتاة السوداء التي لا تملك من أمرها شيئاً ، ولكنها تملك من أمرك كل شيءٌ ؟

قال ياسر : فظنُنا بي ما شئتما من الظنون ، ولكني مقيم لن أبرّح هذه الأرض ولن أتحوّل عن هذه الدار .

قال الحارث : بُعْداً لك من فتى يؤثر الغربة على قرب الدار ، ومضَر على قحطان ، وقريشاً على عنَس . ويحْك؛ إنك لاتأمن أن تُسامَ الخسف(١)، وتُحملَ على ما تكره ، ثم تلتمس العون فلا تجده ، وتبتغي النصير فلا يجيبك إلا من يخذلُك ويعين عليك .

---

(١) سامه الخسف : أذله

قال مالك : وإن فتاتك هذه السوداء لم تنجم(١) من أرض مكة ولم تنزل من سمائها ، وإنما جُلبتْ إليها فيما يجلب إليها من الرقيق ، وإن شئت وجدت أمثالها في كل منزل تنزل فيه ، وإن شئت احتلنا لك فيها حتى نخطفها وتعيش معها آمناً بين بني أبيك وذوي مودّتك .

قال ياسر : ضعا هذا الأمر كيف شئتما ؛ فإني مقيم لن أبرح هذه الأرض ، ولن أتحول عن هذه الدار ، ولن أجزيَ أبا حُذَيفةَ عن الحسنة بالسيئة ، ولا عن المعروف بالمنكر ، ولن أرزأه شيئاً في ماله وهو الذي قد آوانا وقرانا وأحسن مثوانا (٢) . عودا إن شئتما إلى أرض اليمن ، واضربا إن شئتما في الأرض العريضة ، فأما أنا فمقيم ، وما أرى إلا أن لي في هذه الدار شأناً .

قال الحارث : شأن الرقيق الذي لا يُستكثَرَه على الرّقّ ، وإنما يسعى إليه سعياً ويمعن فيه إمعاناً !(٣) فإن رفق القوم بك وآثروك بالخير ؛ فشأن الحليف الذي يُعال ولا يَعول .

قال ياسر : عودا إن شئتما فإنني مقيم .

قال الحارث لأخيه مالك : دعه فما علمته إلا نكِداً لا خير فيه .

ورأى الصبحُ حين أسفر من الغد غلامين يخرجان من مكة يقودان راحلة قد وهبها لهما أبو حذيفة بن المغيرة ، ويسعى معهما أخوهما ياسر سعيَ المودّع لا سعي منْ أزمع الرحيل(٤) وكان هؤلاء الفتية الثلاثة قد خرجوا من دارهم بتهامة اليمن يلتمسون أخاً لهم فقدوه ، فطوّفوا في الأرض ما طوّفوا ، وبحثوا عن أخيهم ما بحثوا . فلما استيأسوا منه عادوا إلى أرضهم ، ومرّوا بمكة أثناء عودتهم ، وقد بلغ منهم الجهد ، وأضناهم سفرٌ غير قاصد(٥) . فقال بعضهم

(١) نجم الشيْ : ظهر وطلع .
(٢) رزأه ماله : أصاب منه شيئاً فنقصه ، وآوانا : أنزلنا عنده في منزله ، وقرانا : أضافنا
(٣) أمعن في الأمر : أبعد ، بالغ في الاستقصاء .
(٤) أزمع الرحيل : عزم عليه وانتواه .
(٥) أضناهم : أمرضهم وأتعبهم . سفر غير قاصد : شاق ، بعيد .

لبعض : نأوي إلى هذه القرية فنلمّ ببيتها ونسأل آلهتها ونصيب فيها حظاً من راحة ، ونسأل أهلها معونة على ما بقي لنا من الطريق .

وأووا إلى مكة ، وطافوا بالبيت ، وسألوا الآلهة فلم يجدوا عندها شيئاً ؛ ثم أقاموا في المسجد ينتظرون أن تغدو قريش إلى أنديتها . فيمرّ بهم ، حين يرتفع الضحى ، أبو حذيفة بن المغيرة المخزومي . فيرى ما أصابهم من الضرّ ، فيضمهم إليه ويكرمهم ، كما تعوّدت قريش أن تكرم الضيف .

وكان أبو حذيفة قد وكّل بخدمة هؤلاء الضيف سميّةَ بنت خيّاط ، أمة سوداء ، في أول الشباب ، عليها من الجمال نضرةٌ قاتمة بعضَ الشيْ ، وفيها من الشباب خفة ومرَحٌ ونشاط ، وفي لسانها المستعرب عذوبةٌ حسنة الموقع في الآذان والقلوب .

فكانت تغدو على هؤلاء الفتية بطعامهم أولَ النهار ، وتروح عليهم بطعامهم إذا أقبل الليل ، وتعمل في خدمتهم بين ذلك ، وتتحدّث إليهم ، وتسمع منهم بين حين وحين ، وكأنها قد وقعت في نفس هذا الفتى فحببّت إليه الإقامةَ بمكة . ومن يدري ! لعله أن يكون قد تحدّث إليها في شيْ من ذلك فأحسَ منها مثل ما أحس من نفسه : ميلَ الغريب المستوحش إلى الغريب المستوحش .

وقد همّ الفتى أن يحمل نفسه على ما تكره ، ويعودَ مع أخويه إلى حيث ينتظرهما أبٌ شيخ حزين وأمٌ شيخة ملتاعة (١) . ولكن الفتى لم يستطع أن يحمل نفسه على ما أراد . وحياةُ الناس ليست رهناً بما يريدون ، وليست مستجيبة لما يقدّرون ، وإنما هي أمور خفية يجريها القضاء ، لا يؤامر(٢) فيها أحداً ، ثم يكون لها في حياة الناس من الآثار ما لم يكن ليخطر لهم على بال . والشيْ الذي ليس فيه شك هو أن الأخوين قد خرجا من مكة يقودان راحلتهما يُيَمّمان(٣) تهامة اليمن ، فضاعا في الدنيا وفي التاريخ ، ولم يعرف أحد عنهما شيئاً ، كما

---

(١) التاع قلبه : احترق من الهم والشوق وكانت به لوعة .
(٢) يؤامر : يشاور .
(٣) ييمان : يقصدان .

لم يعرف أحدٌ عن أخيهما الضائع وأبويهما الشيخين شيئاً .

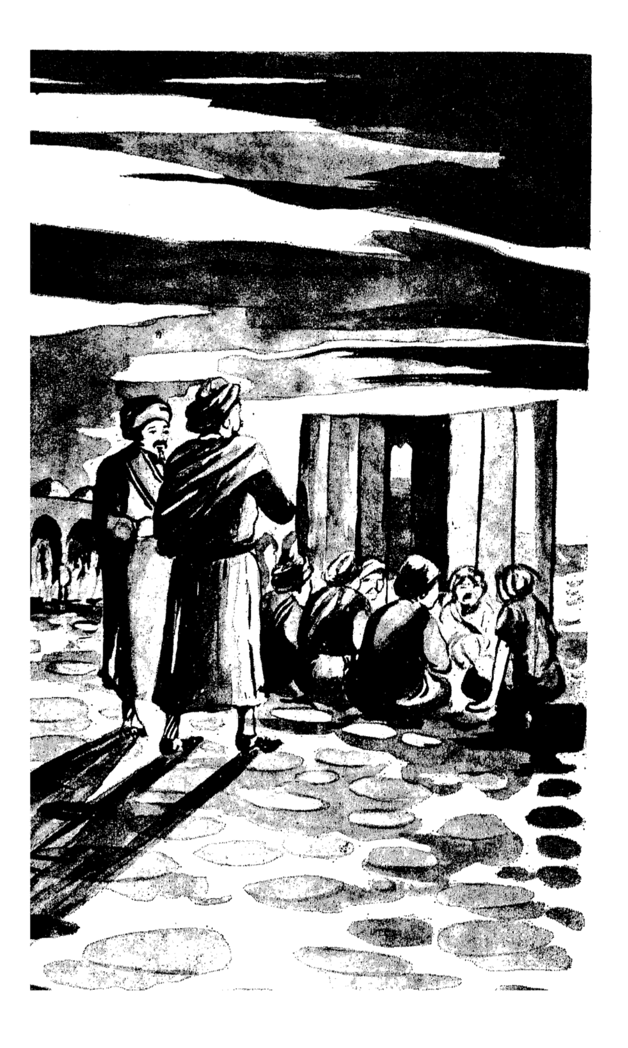
وعاد الفتى ياسر بعد أن ودّعهما إلى مكة ، فأقام فيها ضيفاً على أبي حذيفة أوّلَ الأمر ، ثم حليفاً لأبي حذيفة بعد ذلك ، ثم زوجاً لسمية أمته السوداء تلك . ومنذ ذلك الوقت عرفته الدنيا وحفظه التاريخ

٢

وذلك أن أبا حذيفة انصرف من ناديه ذات يوم ، فلقي وهو رائح إلى داره ياسراً غيرَ بعيد من المسجد ، فقال له مبتسما : ما فعل أخواك يا فتى عنس ؟ فقال الفتى : آثرا (١)قرْب الدار على بعدها ، فعادا إلى قومهما . قال أبو حذيفة : وآثرتَ بعد الدار على قربها ، فأقمتَ في مكة ! قال الفتى : بل آثرتُ هذا الحرم الآمن على غيره من مواطن الخوف ، وآثرت جوارَ هذا البيت العتيق على ما في اليمن من ضلال وغَيّ (٢). قال أبو حذيفة : وماذا تريد أن تصنع في مكة ؟ قال الفتى : ألتَمس القوتَ من مصادره . قال أبو حذيفة : فإن القوت مُيَسّرٌ لك ما بقيت لي جاراً . قال الفتى : بأبي أنت من سيد كريم تُزْهى به مخزومٌ وتزدان به قريش وتَعِزّ به البطحاء ! إنك والله ما علمتُ لسَخِيّ النفس رَضِيّ السيرة ، تحفظ الضائع وتطعم الجائع ، وتعطي السائل وتغني العائل ، وتحمي الجار وتغيث الملهوف (٣). قال أبو حذيفة : حسبك يا فتى ! لقد جزيتَ فأربيت (٤) ، وإني لأرى فيك ذكاء ولَسَناً (٥). فأنت جار لي ما أقمت في هذه القرية .

قال الفتى : لا وعدَاكَ ذمّ (٦)، ولكني أدعوك إلى خُطّة سواء بيني وبينك

(١) آثر : فضل . (٢) الغي : الضلال .
(٣) العائل : الكثير العيال . الملهوف : الحزين والمظلوم .
(٤) أربيت : زدت .
(٥) : اللسن : الفصاحة .
(٦) أي جاوزك ولم يصبك ما تذم به . وهذا من أساليب العرب التي تصطنعها في الدعاء عند الخطاب .



لا تشُقّ عليك ولا تخفف عني : تحميني مما تحمي منه نفسك وأهلك ، وأكون حرباً على من حاربتَ ، وسَلْماً لمن سالمت ، ووقاء(١) لك ولأهلك من العاديات ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا . قال أبو حذيفة : فهو الحلفُ إذن ؟ قال الفتى : نعم ، إن طابت نفسك به . قال أبو حذيفة : فقد طابت به نفسي ، واطمأن إليه قلبي ! فإذا كان الغدُ فموعدُنا المسجد . قال الفتى : فإنك من المسجد غيرُ بعيد وما أحب أن نرْجئ إلى غد ما نستطيع أن نأتيه اليوم . قال أبو حذيفة : فهلمّ إذن .

وأخذ بيد الفتى ، ورجع أدراجَه خطوات . فلما بلغ المسجد قصد الكعبة . قال الفتى : إلى أين تريد ؟ قال أبو حذيفة : أريد أن أشهد الآلهة على حلفنا . قال الفتى متضاحكاً : فأشْهد عليه قومك قبل أن يتفرّقوا ؛ فإن الآلهة مقيمة حيث هي لا تَريم (٢) . قال أبو حذيفة : ما رأيت كاليوم فتى ذكياً أريباً (٣) . ثم مضى به إلى أندية قريش ، فجعل لا يمر بناد منها إلا قال : يا معشر قريش ، اشهدوا على أني قد حالفتُ ياسر بن عامر هذا العَنْسي . وجعل لا يقول ذلك لناد من أندية قريش إلا قالوا له : سعيتَ غيرَ مذموم ؛ وحالفت غير ملوم .

فلما طوّف به على أندية قريش كلها قصَد به قصدَ الكعبة . قال الفتى : إلى أين تريد ؟ قال أبو حذيفة : إلى حيث أشهد الآلهة على حلفنا . قال الفتى متضاحكاً : وَيحك أبا حذيفة(٤) ! أتظن أن الآلهة لم تسمعك وأنت تشهد الناس ؟ فهي قد سمعت وشهدت ورضيتْ ، أم تراها لا تسمع إلا إذا دنوتَ منها كما يدنو الرجل من الرجل حين يريد أن يناجيه ؟ قال أبو حذيفة : ما أرى إلا أني قد حالفت اليوم شيطاناً ! ويحك يا فتى عنس ! فإنا قد ألفنا أن نقف من آلهتنا موقف المتحدث إليها المناجي لها . قال الفتى : فقفْ منها هذا الموقف

---

(١) الوقاء : الوقاية والصون .

(٢) لا تبرح : لا تنتقل .

(٣) الأريب : الماهر البصير الحاذق .

(٤) ويح : كلمة مدح وتعجب .

حيث شئت ؛ فإنها ينبغي أن تكون معك في كل مكان . قال أبو حذيفة وقد أخذه شيء من وجوم . كأن الفتى قد ردّ إليه شيئاً غاب عنه ، أو ردّه الى شيء غاب عنه : فلا أقل من أن نطوف بالكعبة ليتمّ لهذا الحلف حقه من الحرمة والتقديس . قال الفتى : أما هذا فنعم . ثم مضيا فطوّفا بالكعبة ما شاء الله أن يطوّفا بها ، وراحا (١) إلى دار أبي حذيفة حليفين، ولكن بينهما من الأمر أكثر مما يكون بين الحليف والحليف .

يقول أبو حذيفة للفتى في طريقهما إلى الدار : ويحك يا عنسى ! إني لأرى فيك استخفافاً بآلهتنا وازوراراً عنها (٢). أفتراك لم تنسَ آلهة عنس بعدُ ، ولم تردْ أن يخلص قلبك لغيرها ؟ فيقول الفتى : بأبي أنت يا أبا حذيفة ! والله ما ذكرتُ آلهة عنس قطّ فأنساها اليوم أو أستبقي ذكرها في قلبي ، وما أعرف أني غدوت عليها مُصْبحاً أو رحت إليها ممسياً ، أو آمنت لها بسلطان . قال أبو حذيفة : فقد صبوتَ (٣)إذن عن آلهة آبائك إلى إله النصارى أو اليهود ؟ قال الفتى : لقد لقيت أولئك وهؤلاء وسمعت منهم ، ولم أفهم عنهم ولم أحاول لأحاديثهم فهماً . قال أبو حذيفة : فليس لك إله إذن ؟ قال الفتى : لو كنت متخذاً إلهاً لعبدت البحر الذي يَرُوعني(٤) ويروّعني . أو الشمسَ التي تضيء لي أثناء النهار ، أو النجومَ التي تهديني أثناء الليل ، أو السحابَ الذي يطعمني ويسقيني . ولكن شيئاً من ذلك لا يبلغ نفسي ولا يتحدث إلى قلبي ولا يثير حاجتي إلى العبادة والطاعة والإذعان . فأنا حائر جائر عن القصد (٥) ، ألتمس الهدى فلا أجد إليه سبيلا ، فأعيش مع الناس مشاركاً لهم في الدنيا مفارقاً لهم في الدين . قال أبو حذيفة : إن لك لشأناً يا فتى عنس . قال الفتى : كغيري من الناس . إلا أني أفكر في هذا كثيراً ولا يفكرون فيه إلا قليلا .

---

(١) راحا : عادا .

(٢) ازور عنه : عدل وانحرف .

(٣) : صبا : خرج من دين إلى دين آخر .

(٤) يعجبني ويفزعني .

(٥) جار عن الشيءُ : مال عنه .

وبلغا دار أبي حذيفة فأنفقا فيها سائر النهار وشطراً من الليل يخوضان في أحاديث الدين والدنيا وفي أحاديث تهامة ونجد والحجاز .

وقد وقع حب الفتى في قلب أبي حذيفة موقعاً غريباً ، حتى قال لنفسه ولأهله حين خلا إلى أهله : ما أحببتُ غريباً قطّ كما أحببتُ هذا الفتى . ولو كنتُ متخذاً ولداً لاتخذته ولداً .

٣

وأقام ياسر ما شاء الله أن يُقيم ضيفاً على حليفه أبي حذيفة ، يغدو إلى المسجد مصبّحاً فيقول لقريش ويسمع منهم ، ويروح إلى الدار بعدَ أن تزول الشمس ، فلا يقيم فيها إلا ريثما يصيب شيئاً من طعام وراحة ، ثم يخرج فيمشي في الأسواق ، ويتعرّف أمر الناس ، ويلتمس أسباب الرزق ؛ حتى اذا يسرت له الوسائل للعمل والكسب أراد أن يتحول الى دار له، وآذن (١) أبا حذيفة بذلك ، فلم ير أبو حذيفة بذلك بأساً ، ولكنه رأى الفتى متردداً في نفسه ، لا يقدم قلبه إلا ليحجمَ ، وهو يجيل طرفه في الدار فعلَ من يجد في التحول عنها مشقة وحزناً .

قال أبوحذيفة: إني لأراك متردداً محزوناً يا فتى ،وما أعرف أنّ داري قد ضاقت بك أو أن أحداً من أهلها قد نالك بمكروه ، فما يمنعك أن تقيم فيها كما أقمتَ إلى الآن ، حتى يتسع لك العيش وتتصل بك أسبابه متينة مطمئنة ؟

قال الفتى : لا والله يا أبا حذيفة ما أنكرتني دارك ولا أنكرتها ، وما لقيتُ من ضيافتك إلا خيراً ، ولكن لي في دارك أرَباً (٢) قد كنت أظن أني أستطيع السلوّ عنه ، ثم تبين لي أن ليس لي إلى هذا السلو سبيل . قال أبو حذيفة ، وقد أخذه العجب : لك في هذه الدار أرب ! ؟ وما عسى أن يكون ؟ فأطرق الفتى

---

(١) آذن : أعلمه .

(٢) الأرب : الحاجة .

قليلا . وغشيتْ وجهه سحابة رقيقة عمراء(١) ، ثم رفع رأسه وكأنه قد أجمع أمره على شيءْ عظيم ، وقال وعلى ثغره ابتسامة فيها كثير من الجراءة ، وفيها كثير من الحياء : أَمَتُك هذه السوداء التي تسمونها سُمَيَّة ، قد وقع حبها في قلبي يا أبا حذيفة ، ولا والله ما كانت مني إليها ريبة في نظر أو حديث .

قال أبو حذيفة : فتريد أن أهبها لك ؟ قال الفتى : لا والله لا أرزؤك في مالك (٢) . قال أبو حذيفة : فإنك لا ترزؤني في مالي شيئاً، وإنما هي أمة والإماء في الدار كثير. قال ياسر : لا والله لا أرزؤك في مالك ،وما آثرتُ الحلفَ على الجوار إلا لتخفّ مؤونتي عليك، وما أحب أن تقول مخزوم : أقام في الدار مقام الضيف ، ثم لم يتحول عنها كما أقبل عليها .

قال أبو حذيفة : فإن شئت زوّجتك منها . قال الفتى وقد أغرق في ضحك متصل : هيهات يا أبا حذيفة !(٣) أتريد أن ألدّ لك الإماء والعبيد ؟

قال أبو حذيفة وقد ضرب على كتف الفتى بيده : ويلك ! لقد عنّيتني منذ اليوم ، تزوّجها وما ولدت لك من ولد فهو حر . قال ياسر : بأبي أنت من سيد كريم ! ألم أقل إنك فخر مخزوم وزينة قريش وعزّ البطحاء . قال أبو حذيفة : حسبك(٤) ، فقد أسرفت في الثناء . أقبلْ عليّ إذا كان المساء فتزوّج ، ثم تحوّل بأهلك إلى دارك الجديدة ، وعسى ألا ترى فيها إلا خيراً .

ولم يكد ياسر يتحول بسمية إلى داره حتى غفل عنه التاريخ دهراً طويلا ، كما تعوّد أن يغفل عن الدهماء(٥) حين تحيا وحين تموت وحين تُلمّ بها الأحداث وتختلف عليها الخطوب . وماذا عسى أن يصنع التاريخ بفتى من عامة الناس ودهمائها ، ليس له خطر في مكة ولا مكانة في قريش ، وإنما هو غلام

---

(١) هذا كناية عن الخجل .
(٢) لا أرزؤك في مالك : لا أصيب منه شيئاً فأنقصه .
(٣) هيهات : اسم فعل معناه بعد .
(٤) حسبك : كفاك .
(٥) الدهماء : جماعة الناس وعامتهم .

أجنبي حليف ، يعيش كأمثاله من هذه الأخلاط التي كانت تعيش في محه ساعية إلى رزقها أيسرَ السعي ، تكسب القوت ما وجدت إليه سبيلا ، فإن أعياها كسبُه وجدت حاجتها عند أحلافها من سادة قريش . وهي مع ذلك آمنة على أنفسها وعلى ما أتيح لها من مال ، لا يعدو عليها عادٍ ولا يسعى إليها مكروه .

وكان التاريخ في ذلك الوقت ، كما كان في أكثر الأوقات ، أرستقراطياً لا يحفل إلا بالسادة ، ولا يلتفت إلا إلى القادة . وكان التاريخ في ذلك الوقت ، كما كانَ في أكثر الأوقات ، ضنيناً (١) بخيلاً ومستكبراً متعالياً ، يحفل بالسادة في تحفظ ويلتفت إلى القادة في كثير من الاحتياط ، لا يسجل من أمرهم الا ما كان له شأن أو خطر . وآيةُ ذلك أنه لم يسجل من أمر قريش في تلك العصور إلا أطرافاً يسيرة ضئيلة لا تكاد تظهرنا من أمرهم على شيءٌ ؛ كأن التاريخ كان يراها أهونَ شأناً وأيسرَ خطراً من أن يمنحها عنايته، وكأنه كان يرى قياصرة الروم وأكاسرة الفرس وقادة أولئك وهؤلاء وسادتهم أحقّ بعنايته وأجدر برعايته وأحرى أن يقف عندهم ويبلو (٢) أعمالهم ويسجل أخبارهم . فأما سادة قريش وقادتها وذوو المكانة في هذه الأحياء العربية التي لا تحسن كتاباً ولا حساباً ، ولا تسخر الزمان والمكان لأمرها ، وإنما تختلس حياتها من الزمان والمكان والأحداث والخطوب اختلاساً ، فلم يكونوا أحرياء (٣) أن ينظر التاريخ إليهم إلا شزْراً (٤) ، وأن يسجل من أمرهم إلا ما فيه تفكهة للأجيال المقبلة وترويحٌ عليها ، وتسلية لها عن بعض ما يشغلها من الهم ، فكيف بالدهماء التي لا تملك المال ، ولا تصرف التجارة ، ولا تقوم بأمر الآلهة ولا تدبر السلطان ، وانما تتسقّط حياتها تسقّطاً وتتلقطها تلقطاً ، وتعيش مما يلقي إليها الأغنياء والسراة من الفتات(٥) ؟ !

---

(١) الضنين : البخيل . (٢) يبلو : يختبر .

(٣) أحرياء : جمع حري ، أي خليق وجدير .

(٤) نظر إليه شزراً : نظر إليه بجانب عينه مع إعراض .

(٥) السراة : جمع سري ، وهو صاحب المروءة في شرف .

وكان ياسر من هذه الدهماء ؛ فلم يحفل به التاريخ ولم يلتفت اليه، ولم يصحبه في حياته الطويلة ، ولم يسجل غدوه على التماس الرزق ، ولا رواحه على أهله بما اكتسب منه . حتى كان يومٌ أكره التاريخُ فيه على أن يلتفت الى الدهماء أكثر مما يلتفت الى السادة والقادة ، وعلى أن يسجّل من أمر ياسر وأمثاله من عامة الناس أكثر مما يسجل من أمر حلفائه من بني مخزوم وأمثالهم من الملأ والسادة في قريش .

في ذلك اليوم نظر التاريخ فإذا أحداثٌ ضئيلة تحدُث لا يكاد الناس يأبهون (١) لها ولا يُعْنَوْنَ بها، ولكنها لا تكاد تحدُث حتى تخفق لها القلوب وتتفتّح لها العقول، وتضطرب لها الضمائر، وحتى تعرف الدهماءُ نفسها وتشعر بحقها وتطمح الى هذا الحق وتسعى إليه جادة لا وانية(٢) ولا فاترة ، وحتى ينكر الملأ (٣) من قريش كل شيء : يرون المستضْعفين في الأرض وقد سمَتْ نفوسهم الى أشياء لم تكن تسمو إليها ، وطمعت قلوبهم في أشياء لم تكن تطمع فيها ، وانطلقتْ ألسنتهم بأشياء لم تكن تنطلق بها . ويرون الرقيق وقد طمحوا الى الحرية واشتاقوا إليها وهاموا بها ، وجعلوا يتحدثون فيما بينهم كأنهم ليسوا أقلّ من سادتهم استحقاقاً للحياة ، ولا استئهالاً (٤) للكرامة ، ولا ارتفاعاً عما ينقص ، ولا تنزهاً عما يشين (٥) . كل قد خلق جسمه من تراب ، وكل يصير جسمه الى تراب ، لا تتمايز أجسامهم حين تولد ، ولا تتمايز أجسامهم حين تموت ، وإنما تتمايز نفوسهم وقلوبهم وضمائرهم بين ذلك ، بما تقدّم من الخير ، وما تتجنب من الشر ، وبما تتقي من الإثم ، وما تصطنع من البرّ والمعروف .

ثم يتحدّثون بأن نفوسهم وقلوبهم وضمائرهم تتمايز بعد الموت بما تلقى من

---

(١) لا يأبهون لها : لا يفطنون لها .
(٢) وانية : ضعيفة .
(٣) الملأ من قريش : أشرافهم وعليتهم .
(٤) استئهالا : استحقاقاً .
(٥) يشين : يعيب .

جزاء أعمالها ؛ « فمنْ يعملَ مثقالَ ذرّة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره ». ثم يتحدّثون فيما بينهم بأن حرية الحر لا تفضّله على غيره من الناس إلا إذا آمن واتقى وعمل عملاً صالحاً ولم يؤذ الناس بيده ولا بلسانه ولا بقلبه، وأنّ رقّ الرقيق لايخسّه(١) عن غيره من الناس ما دام يؤمن ويتقي ويحسن في القول والعمل ، ويبرئُ قلبه من الإثم وضميرَه من السوء . ويتحدّثون فيما بينهم بأن الحرية والرقّ ، والغنى والفقر ، والقوة والضعف ، أعراضٌ تعرض وتزول ، ليس من شأنها أن تميز بعض الناس من بعض ، ولا أن تسوّد(٢) بعضَهم على بعض ، ولا أن تحكّم بعضهم في بعض .

وإنما يمتاز الناس بالخير والمعروف والتقوى ، ويسود الناس بالسلطان الذي لا يأتيهم من مولد ولا من ثَراء ، وإنما يأتيهم من رضا الناس عنهم ، وثقة الناس بهم ، وإيمان الناس لهم . ويَحْكُم الناس بأمر يأتيهم من السماء قد فصّل لهم الخير والشر ، وبين لهم العرْف والنكر ، وميز لهم الحلال والحرام ، لا بهذه التقاليد التي توارثوها عن آبائهم ، ولا بهذه السنن التي حفظوها عن قديمهم .

بهذا كله كان الرقيق والمستضْعفون في الأرض يتحدّثون إذا لقي بعضهم بعضاً او خلا بعضهم الى بعض . وبهذا كله جعل الرقيق والمستضْعفون في الأرض يتسامعون ثم يتداعوْن ثم يتواصَوْن . وبهذا كله رُوّع الملأ من قريش ذات يوم ، فثار ثائره ، وفار فائره ، وأجمع أمره أن يطفئ هذه الجذوة قبل أن ينتشر لهبها فلا يبقي ولا يذَر (٣) . ونظر التاريخ ذات يوم الى مكة فرأى فيها هذه الأحداثَ الصغار الكبار ، وسمع فيها هذه الأحاديثَ التي كانت تهمس بها الأفواه وتصيح بها الضمائر والقلوب والنفوس . ورأى التاريخُ فيما رأى ياسراً ذلك الفتى قد تقدمت به وبزوجه السنّ ، وقد مات حليفه

---

(١) لا يخسه : لا يجعله خسيساً دنيئاً .

(٢) تسود : تجعلهم سادة .

(٣) يذر : يترك .



أبو حذيفة ، وقد رُزق من سميّة ثلاثة أبناء قتل أحدهم في خطوب مجهولة ، وبقي الآخران يعيشان كما كان أبوهما يعيش .

ويجب أن نسجل أن التاريخ لم يبحث عن ياسر ولا عن بنيه ، وإنما أقبل ذات يوم على مكة ليرى بعض ما يجري فيها من الأحداث ، فلم يكَد يبلغ المسجد حتى رأى أندية قريش هائجة مائجة تتحدّث عن محمد وعن دعوته وعمن تبعه من المستضعفين والرقيق ، وقد تُذْكرُ دارُ أرقم بن أبي الأرقم التي اتخذها محمد لنفسه ولأصحابه نادياً ينشر منه دعوته هذه الرائعة المروّعة ؛ فتحوّل التاريخ عن هذه الأندية الصاخبة الى دار ابن أبي الأرقم ليرى محمداً وأصحابه ويسمع منهم .

ولم يكد يبلغ هذه الدار حتى رأى على بابها رجلين : أحدهما أسود طُوّال ترتفع قامته في السماء ، والآخر أصْهبُ رَبعةٌ (١)، وهما يتحاوران ؛ يقول الأسود لصاحبه : ماذا تصنع هنا ؟ فيقول له الأصهب : وأنت ماذا تصنع ؟ فيجيب الأسود : أريد أن أدخل على محمد فأسمع منه وأعلم علمه . فيقول الأصهب : وأنا أيضاً أريد ذلك . ثم يدخل الرجلان فيسمعان ويُسْلمان . ويعرف التاريخ أن الأسود الطوّال هو عمار بن ياسر ، وأن الأصهب الربعة هو صُهيب بن سنان . ومنذ ذلك الوقت يذكر التاريخ ياسراً ذلك الفتى العَنْسي ، ويتتبع خطوات ابنه عمار .

٤

أصبح ياسر ذاهلاً واجماً مشرّد اللبّ ، قد أنكر نفسه وأنكرته زوجه سميّة ؛ فقد تعوّد أن يفيق من نومه قبل أن تنشر الشمس ضوءها على بطحاء مكة وجبالها ، فلا يُريح ولا يستريح ، وإنما يضطرب في الدار ذاهباً جائياً كثير الحركة موفور النشاط ، يتحدّث الى نفسه بصوت مرتفع حتى يوقظ

(١) أصهب : أحمر اللون أو أشقره . والربعة من الرجال : من يكون بين الطول والقصر

النائمين من أهله وولده ، وهم ينكرون نشاطه وحديثه في أنفسهم ، وربما أنكروا حركته ونشاطه بألسنتهم ، وطلبوا إليه شيئاً من سكون وسكوت ، فكان يعبث بهم ويسخر منهم ، ويلحّ عليهم بحديثه وحركته ، ويؤنبهم(١) مداعباً لهم حتى يصدّهم عن النوم أو يصدّ عنهم النوم .

وكانت زوجه سمية أشدّ أهل الدار ضيقاً بهذه الحركة وإنكاراً لهذا النشاط ؛ فلم يكن شيءٌ أحبّ إليها من أن تستأخر في نومها ما وسعها ذلك كأنها كانت تتصور ما ينتظرها في الدار من عمل ستجد فيه من الجهد ما يضنيها ويشقّ عليها ، فكانت تحب أن ترجئ ذلك ما وجدت إلى إرجائه سبيلا ، ولكن الشيخ الثرثار المكثار النشيط لم يكن يكره شيئاً كما كان يكره أن يستيقظ والناس من حوله نيام؛ فلم يكن يستقرّ له قرارٌ ولا يهدأ له بالٌ حتى يثور أهل الدار جميعاً من نومهم ويأخذوا معه في حديثه الذي لا ينقضي ، يسمعون له كثيرا ويقولون له قليلا .

وكانت أحاديث ياسر مختلفة أشدّ الاختلاف ، تروع بغرابتها وطرافتها وإثارتها للشوق إلى الاستزادة والرغبة في الاستطلاع . فقد كان ياسر لا ينفك يروي غرائب الأخبار وطرائف الأحداث عن موطنه ذلك البعيد في تهامة اليمن ، وعن أسفاره تلك الكثيرة في تجارة مخزوم إلى الشام حيناً وإلى العراق حيناً وإلى ما وراء الشام والعراق أحياناً .

ولم يكن أحدٌ أعلم من ياسر بمناقب قريش ومثالبها(٢). ولم يكن أحدٌ أشدّ منه تعلقاً بالتحدث عن سادة قريش وقادتها ، يثني عليهم ، ولا يعفيهم من نقده اللاذع(٣) الذي كان يصادف هوى في نفوس السامعين له من أهله وبنيه . وأيّ شيءٌ أحبّ إلى دهماء الناس من التحدث عن السادة والقادة بما يسرّ وما يسوء ، وبما يُرضي وما يُسخط ! وكان ياسر إذا أخذ في الحديث عن قريش

---

(١) أنبه : عنفه ولامه .

(٢) المناقب : المفاخر . والمثالب : المعايب .

(٣) اللاذع : المؤلم ، القارص .

أمعن فيه ، واستهوى أفئدة سامعيه .

واستيقنت سمية أنه لن يخرج من الدار إلا حين يرتفع الضحى وتوشك الشمس أن تزول . ولكنه أفاق منْ نومه ذلك اليوم ، فلم يبْرْ من مضجعه ، ولم يتحرّك لسانه في فمه ، وإنما ظل مستلقياً مكانه لا ينشطُ ولا يقول ، ولا يدعو غيره إلى نشاط أو قول .

وأخذت سمية حظّها من نوم الصباح كما لم تتعوّد أن تأخذه قط . ولكنها مع ذلك أنكرت هدوء هذا الذي لم يتعود هدوءاً، وصَمْتَ هذا الذي لم يألف صمْتاً . فتَتَقَبَّلُ عليه وقد تكلف وجهها الابتسام والرضا ، وأضمر قلبها العبوس والخوف ، فتسأله ما خطبه ؟ وهل يجد شيئاً يكرّهه ؟ فيجيبها بصوت خافت : ليس بي بأس ، ولستُ أجد ما أكره . قالت سمية : فمالك لا تملأ الدار علينا ضجيجاً وعجيجاً ؟

قال ياسرٌ وقد جعل صوته يمتلئ ويقوّى شيئاً فشيئاً : وَيحك يا سمية ! كيف السبيل إلى إرضائك ؟ إنْ أنشطْ قلت : هلاّ خليت بيني وبين النوم ، وإن أسكنْ قلت : هلاّ ملأتَ الدار علينا ضجيجاً وعجيجاً !(١) أما إني لم أهدأ حباً في الهدوء، ولم أسكن إيثاراً للسكون، وإنما رأيت رُؤْيَـا روّعتني عن النشاط والقول . قالت سمية وقد ثاب(٢) الأمنُ إلى قلبها وصرّح وجهها الأسود المتجعد عن رضا لا تكلف فيه — قالت وهي متضاحكة : فهلاّ رأيت من آخر كل ليلة رؤْيا تروّعك وتشغلك عن النشاط والقول ! ذلك أجدرُ أن يتيح لي من الراحة والدعة ما أنا في حاجة إليه .

قال ياسر وقد همّ ثغره أن يبتسم ووجهه أن يشرق ، ولكن الرّوْع لم يلبث أن ردّه إلى الجِدّ والصرامة — قال : ويحك يا سمية ! إنها رؤْيا ليست كالرؤى، وما أرى ألا أن لها شأناً ! فما أكثرَ ما عرضتْ لي الأحلامُ ، وما أكثر ما انصرفتْ عني حين أفيق ! ولكن هذه الرؤْيا قد تركت في قلبي وعقلي

---

(١) الضجيج والعجيج : الصياح والجلبة .

(٢) ثاب : عاد .

وأمام عيني صورة مُلِحّة لا تريد أن تريم(١).

قالت : فقُص رؤياك ، لعل حديثك عنها أن يُريحك منها . قال ياسر : هيهات ! ثم استوى جالساً في بطءٍ وأخذ يقص رؤياه مستأنياً . ولم يكدْ يمضي في حديثه قليلا حتى رُوّعتْ زوجه ، وهمّت أن تكفه عن الحديث ، لولا بقيةٌ من شجاعة وفضلٌ من حياء .

قال ياسر : لن أقصّ عليك رؤيا ، ولكني ساصف لك صورة رأيتها نائماً وما زلت أراها يقظانَ : وادٍ ليس بالمسرف في السعة ولا بالمسرف في الضيق ، وإنما هو وَسطٌ بين ذلك ، يأخذ جانبيه جبلان عظيمان يرقى إليهما الطرفُ ولكنه لا يبلغ أعلاهما . وقد تشقق الجبلان عن فجوات عميقة أراها ولا أحصيها ، والنارُ من هذه الفجوات يسعى بعضها إلى بعض ، حتى تلتقي وحتى يسيل بها الوادي كما يسيل بالماء . وفي أقصى هذا الوادي من أمامي مرُوجٌ خضرٌ تجري فيها مياه عِذَابٌ لا تبلغها هذه النار ، وإنما تقف قبل أن تنتهي إليها ، وأنت قائمة في هذه المروج الخضر قد رُدّ عليك شبابك وأشرق وجهك حتى كأنه الشمس ، وأنت تبتسمين لي وتدْعينني باللحظ واللفظ ، وتشيرين إليّ بالبنان . ومن ورائي عمار يحثني على أن أقتحم النار ، ويقول في صوت يشيع فيه الحنان : أقدِمْ يا أبت ، فليس عليك بأس ، إنما هي لفحة أو لفحاتٌ (٢)ومن ورائها هذه الرياض الخضر! وسمية قد رُدّ عليها شبابها ، وشبابكَ ينتظرك إلى جانبها ليُرَدّ عليك . وأنا أسمع دعاءك ، فأهمّ أن أقتحم النار ، ولكن لَفْحَتَها يوقظني .

ثم يضرب الشيخ جبهته بيده صائحاً : ويلاه ! إني لأجد مس النار ، قالت سمية وقد أقبلت عليه مرتاعة ملتاعة : وَيحكَ ! لا بأس عليك ! قم فأصبْ شيئاً من طعام ، ثم اخرُجْ فاقصُص رؤياك هذه المرَوّعة على بعض كهاننا لعلهم أن يجدوا لها تأويلا .

---

(١) تريم : تبعد وتزول .

(٢) لفحته النار : أصابت وجهه وأحرقته .

ولم يُقبل المساء من ذلك اليوم حتى كانت رؤيا ياسر قد عبّرتْ نفسها ، وحتى وجد ياسرٌ مسّ النار .

٥

أقبل ياسر يسعى إلى المسجد ، حتى إذا بلغ نادي بني مخزوم ألقى التحية وجلس ، ولكنه لاحظ أنّ وجوه القوم لم تهشّ له ، وأنّ أصواتهم لم ترتفع بالسلام عليه ، وإنما ردّ بعضهم عليه تحية فاترة . ومضى بعضهم في حديثه كأنه لم يلق إلى هذا الطارئ بالا . فأسرّ ياسرٌ في نفسه بعضَ الموْجدَة(١)، ولكنه لم يطلْ عندها الوقوف؛ فهو يعلم أن في مخزوم صلَفاً (٢)وأنفة وكبرياء . ولولا وفاؤه بحلفه لمكان أبي حذيفة من قلبه ، لتحوّل عن مخزوم إلى حيّ آخر من أحياء قريش . ولكنه وفّى لأبي حذيفة بعد موته كما وفّى له أثناءَ حياته . ولم يكن له من هذا الوفاء بدّ ؛ فأبو حذيفة قدحفظه بعدضَيْعةوآمنهمن خوف،و زوّجه سمية أحبّ الناس إليه وآثرهم عنده،وأعتق له ولده منها قبل أن يولدوا،ثم لم يمت حتى ردّ إلى سمية حريتها ، فأصبحت دارُ ياسر دارَ حرية كاملة ، بعد أن كانت داراً نصفها حرّ ونصفها رقيق .

وكان ياسر قد أقبل على نادي مخزوم وفي نفسه أن يقص عليهم رؤياه تلك التي أهمّته وروّعته ، يطرفهم بها من جهة ، ويلتمس عندهم لها تأويلا من جهة أخرى ، فلما رأىمنهمالفتوروالإعراضأمسك لسانهفيفمه،وجلس صامتاً لا يقول شيئاً . وكانت مخزوم قد عوّدت ياسراً ألا تراه في ناد من أنديتها أو دار من دورها إلا داعبته وأثارت نشاطه للحديث . ولكنها تلقّته في هذا الضحى فاترة عنه تكاد تنكره ، لا تسأله حديثاً ولا تسوق إليه حديثاً . ولولا أنه تعوّد أن يستأني(٣)بهؤلاء المستكبرين حتى يثوبوا إليه فيعبث بكبريائهم

---

(١) الموجدة : الغضب .
(٢) الصلف : التملح والادعاء والتكبر .
(٣) استأنى : تنظر وترفق .

ويُسمعهم ما لم يكونوا يحبون أن يسمعوا ، لانصرف عنهم إلى ناد آخر من أندية قريش .

ولكنة أقام صامتاً مستأنياً يدير في نفسه الانتقام من هذا الفتور . على أنه لم ينتظر طويلا قبل أن يساق إليه الحديث ؛ فهذا عمرو بن هشام يسأله فجأة : ما أخّرك اليوم عنا يا ياسر ؟ قال ياسر مداعباً : فقد كنتُ في حاجة إلى إني (١) يا أبا الحكم ؟ قال عمرو بن هشام وهو يكتم الغيظ في نفسه : أجلْ كنتُ في حاجة إليك لأسألك عن شيْ عُمّيَ (٢)عليّ من أمرك . قال ياسرٌ : وما ذاك؟ قال عمرو بن هشام : ذاك أني لم أرك قطّ تُقرّب(٣) إلى آلهتنا ، ولم أسمعك قط تذكرها بخير .

قال ياسر متضاحكاً : فهل سمعتني قط أذكر آلهتكم بسوء ؟ وهل رأيتني قطّ آتي من الأمر ما يؤذيها ؟ قال عمرو بن هشام : فهي إذن آلهتنا نحن ، وليست منك ولست منها في شيْ ؛ قال ياسر : وما تُريد إلى ذاك ؟ قال عمرو بن هشام وقد ظهر الغضب في وجهه وفي صوته جميعاً : أريد أن أعرف مَنْ هو معنا ومَنْ هو علينا ؛ فقد آنَ لكلّ من أقام بمكة أن يصرّح عن ذات نفسه وأن يبدي دخيلة ضميره . ولقد عفونا لأحلافنا عن كثير ، ولكننا لن نعفو لهم منذ الآن عن شيْ .

قال ياسر : أمْسِكْ عليك نفسك أبا الحكم ! فإنك لم ترَ مني ولم ير قومك مني سوءاً منذ حالفتُ عمك أبا حذيفة على أن أكون سِلْماً لمن سالمتم وحرْبا على من حاربتم . وإني لأسمع الآن منك حديثاً لم أسمع مثله منذ أويت (٤) إلى حرَمكم هذا .

قال عمرو بن هشام وقد اندفع في ضحك يصور الغيظ أكثرمما يصوّر الرضا :

---

(١) الإنى : التأخر والإبطاء ، أي في حاجة إلى أن أتأخر وأبطئ .

(٢) عمي عليه الأمر : التبس وخفي .

(٣) تقرب : تقدم القرابين ، والقربان كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة وغيرها .

(٤) أوى البيت وإلى البيت : نزل فيه .

فأنت حربٌ على ابنك عمار إذن منذ اليوم ؟ قال ياسر : أبِنْ أبا الحكم ؛ فإني لا أفهم عنك منذ اليوم شيئاً . قال عمرو بن هشام: ألم تعلم أنّ ابنكقد صَبَأَ (١) أمس وآمن لمحمد وأصحابه ؟ هنالك صعق ياسر ، فانعقد لسانه واصفرّ وجهه وجعل جبينه يتفصدّ (٢)عرَقاً . وهنالك جعل سادة مخزوم يتقارضون نظرات سراعاً فيها من العَجَب أكثر مما فيها من السؤال .

وهمّ عمرو بن هشام أن يتكلم ، فقال له عمه الوليد بن المغيرة : حسبك يا ابن أخي ! ارفُقْ بهذا الشيخ فإنك قد ترى ما نزل به ، وليس عليه من جرائر(٣)ابنه شيْ ؛ فقد جاوز ابنه سن الأربعين .

وجعل السادة من مخزوم يعيدون على عمرو بن هشام مقالة الوليد . وجعل رُشدُ ياسر يثوب إليه في أثناء ذلك قليلا قليلا .

فلما آنس من القوم صمتاً قال لعمرو بن هشام : بئس ما لقِيتَ به حليفك يا أبا الحكم ! إني لم أر عماراً أمس ، ولم أره اليوم ، ولم أعرف ما كان من أمره منذ فارقته . وإنك لتضع العُنْفَ في غير موضعه وتلوم غير ملوم . فهلا عَنُفْتَ بالأرقم بن أبي الأرقم ، وهو مثلك سيد من سادات مخزوم ، وهو قد صَبَأَ قبل أن يصبأ عمار إن كان عمار قد صبأ ، وهو قد جعل داره نادياً لمحمد يلقى فيها أصحابه وينشر منها دعوته ويذكر فيها آلهتكم بما تكرهون ! ولكنك خِفتَ الأرقم بن أبي الأرقم ، لأن بني أبيه يقومون دونه(٤)إن أردته بمكروه ، فأما حليف عمك أبي حذيفة فليس هناك ! فلو كان أبو حذيفة حيّاً لفكرت وقدّرت قبل أن تلقاني هذا اللقاء .

قال ذلك ونهض متثاقلا حزيناً منكسر النفس ؛ فمضى إلى داره وترك بني مخزوم يتلاومون .

---

(١) صبأ : خرج من دينه إلى دين آخر .
(٢) يتفصد عرقاً : يسيل عرقاً .
(٣) الجرائر : جمع جريرة ، وهي الذنب والجناية .
(٤) يقومون دونه : ينصرونه ويدفعون عنه .

٦

ولم يكد يبلغ داره ويَلِج من بابها حتى أنكر من الدار ومن أهلها كل شيءْ ؛ فقد رأى زوجه سميّة فرحة مرِحة ، قد أشرق وجهها على رغم ظلمته ، وابتسم ثغرها وهي تلقاه مبتهجة النفس منبسطة الأسارير . فلا يكاد يدنو منها حتى تثب إليه وتتعلق به تُلقي إليه في صوت مبتهج تشيع فيه الغبطة وتفيض منه البهجة . أبشر ياسر فقد جاءنا عمار بخير الدنيا والآخرة ! قال ياسر دَهِشاً : الآخرة ! ما الآخرةُ ؟ ماذا تقولين ؟ إني لأعيش عيشة منكرة منذ اليوم ، تُرَوّعني أحلام الليل ، ولا أفهم ما يقال لي أثناء النهار .

قال عمار : أبشرْ يا أبت ؛ فقد جئتك بخير الدنيا والآخرة . قال ياسر : أمُفصحٌ أنت عما تريد ؟ ألم أحدّثْ أنك قد صبأتَ ! ويلك(١)! ماذا جنيتَ على أبويك ؟ !

قال عمار وهو يتضاحك رفيقاً بأبيه : بل قلْ : ماذا جنيت لأبويك ! فقد جنيتُ لكما خيرَ الدنيا والآخرة . لقد حدّثك من حدّثك بأني صبأت ، فإني لم أصْبُوْ ، وإنما أسلمت لله الذي خلق السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم ، وأرسل إلينا محمداً يهدينا سُبُلنا ويبصرُنا بأمرنا ويخرجنا من الظلمات إلى النور ، ومن الجهالة والضلالة والغيّ إلى الحكمة والهدى والرشد ، ويُبشّر منْ آمن واتقى بأن له رضا الله عنه ما عاش ، وبأن له رضا الله عنه ومثوبته له بعد أن يموت ، وينذر من كذّب وعصى بأن عليه لعنةَ الله حياً ، وبأن له نارَ جهنم يصْلاها (٢) خالداً فيها بعد أن يموت .

وسمع الشيخ هذا كله مصغياً له ، وكأن كلمات ابنه كانت تنفذ إلى قلبه دون أن تمر بأذنيه ، وقد جعل وجهه يُشرق شيئاً فشيئاً حتى استحال كله

(١) الويل : الهلاك ، ويدعى به لمن وقع في هلكة يستحقها .

(٢) يصلاها : يقاسي نارها ويحترق بها .

نوراً ، وجعلت قوته تذهب عنه شيئاً فشيئاً حتى تهالكَ وكاد ينهار ، لولا أن أسرع إليه ابنه وامرأته فأسنداه وأجلساه ، وأقبلا عليه يرفقان به ويتلطفان له ، يمسَح عمار رأسه وتمرّ سمية يدها على وجهه ، والشيخ واجم لا يتحرّك لسانه في فمه إلا بهذه الكلمات : فهو ذاك إذن ! فهو ذاك إذن !

قال عمار في صوت حلو : ماذا تقول يا أبت ؟ قال ياسر وقد احتبستْ في حلقة عبرةٌ لم يتَبِنْ صوته منها إلا بعد جهد ، وقد جعلت عيناه تسُحّان على وجهه دموعاً غزاراً — قال ياسر : هو ذاك إذن ! لقد أذكرتني يا بنيّ حديثاً كان بيني وبين أبي حذيفة حين ألممت بمكة ولم أكدْ أجاوز العشرين . أراد أن يحالفني عند آلهته فأبيت عليه ، فلما سألني عن ذلك ذكرت له أني لو كنت متخذاً إلهاً لعبدتُ البحرَ الذي يخيفني ، أوالشمسالتي تضيءُلي،أو النجومَالتي تهديني ، ولكن شيئاً من ذلك لا يبلغ قلبي ولا يتحدث إلى نفسي ولا يثير فيها رَغباً ولا رَهباً .

فقد أنبأك محمد إذن بأن هذه الآيات كلها خالقاً فطرها ودبر أمرها ، هو ذاك إذن ! ثم أطرق الشيخ إطراقة طويلة ، ثم رفع رأسه والدموع تنهلّ من عينيه غزاراً وهو يقول : هو ذاك إذن ! ومن أجل هذا آثرتُ بعدَ الدار على قربها ، واخترتُ أن أكون حليفاً لبني مخزوم على أن أكون عزيزاً في بني عَنْس ، وتركت أخويّ يعودان إلى تهامة ، وأقمت أنا في هذه البطحاء . ثم يتحول إلى سمية فيمسح رأسها بيده وهو يقول : وكان حبّك هو الذي دعاني إلى انتظار هذه الساعة . ثم يعود إلى إطراقه ، ثم يرفع رأسه ، وقد كفّتْ عيناه عن البكاء وجعلت قَطَراتٌ من دمعه تتلألأ في لحيته ، وهو يقول لابنه عمار : متى تَصْحبنا إلى محمد لنسمع منه كلمة الحق ؟ قال عمار: هلم الآن إن شئتما .

وأقبل المساء من ذلك اليوم وإذا أبو جهل عمرو بن هشام قد أقبل في فتية من أحرار مخزوم ورقيقها ، فوضعوا عماراً وأبويه في الحديد ، وأشعلوا في دار ياسر النار . يقول ياسر لسمية والقوم يَعْتلونهم(١) إلى حيث يحبسون :

---

(١) عتله : جره جراً عنيفاً وجذبه فحمله .

انظري سميّة ، هذا أول النار التي عرضتها عليّ الأحلام . فيقول عمار : ومن ورائها جنةٌ فيها نعيمٌ ورضوان للذين صدّقوا محمداً واستجابوا لما دعاهم إليه .

٧

واجتمع الملأ من قريش في المسجد حين ارتفع الضحى من الغد ، فلم يتحدّثوا في تجارة ولا بيع ، وإنما تحدثوا في هذا الحدَث العظيم الذي ابتكره فتى مخزوم في هذا البلد الآمن الذي ليس لأهله عهد بتحريق الدور على أهلها ، ووَضْع الرجال والنساء في الحديد وإذاقتهم ألوانا من العذاب ، مع أنهم لم يقتلوا ولم يسرقوا ولم يقترفوا من الآثام والذنوب ما تعودت قريش أن تنكره وتعاقب عليه .

يقول الوليد بن المغيرة لأبي جهل عمرو بن هشام : ويْحَك يا ابن أخي ! لقد أحدثت في هذا الحرم الآمن ما ليس لقريش به عهد ؛ لم تؤامرنا فيما صنعتَ ، ولم تصدُر عن ذوي أحلامنا (١) ولا عن أولي الرأي من قومك ، وإنما اتبعت هواك ، واستخفّك الغرور ، وتبعك السفهاء من فتياننا والمحمّقون من رقيقنا . وإني لأخشى أن يكون لهذا الحدث الذي أحدثته ما بعده ؛ فإن لهذا الحرم في نفوس العرب مكانته : يأمنون فيه من خوف ، ويطعمون فيه من جوع ، ويلتمسون فيه ما لا يجدون في غيره من الدعة والسعة والطمأنينة والرخاء. فكيف إذا تسامعت العرب بأن الذين يأوون إلى هذا الحرم ويستظلون بظل هذا البيت لا يجدون دعة ولا سعة ولا ينعمون بأمن ولا عافية ، وإنما تحرق عليهم دورُهم ويوضعون في الحديد ويسامون سوء العذاب!

وكيف إذا تسامعت العرب بأن فتيان قريش وسفهاءها قد بغوْا وَطغوا ،

---

(١) تؤامرنا : تستشيرنا . ولم تصدر عن ذوي أحلامنا : لم تفعل ما فعلت عن رأي العقلاء فينا . الأحلام : العقول .

وأصبحوا لا يحفلون بالملأ ولا بذوي الأحلام والرأي من قومهم ، وإنما يركبون رؤوسهم ويستجيبون لشهواتهم ويتبعون أهواءهم ؛ لا يحفظون للجار عهداً ولا يرعون للآجئ حرمة ؟ !

أما إني مشير على مخزوم بأن تطلق هؤلاء الأسارى وبأن تنصفهم منك ومن أصحابك .

قال أبو جهل عمرو بن هشام وقد انتفخ سَحْرُه(١)، وورِم أنفه ، وصعد الدم إلى وجهه وجعلت عيناه تقدَحان شرراً : هيهاتَ ، لا واللات والعُزّى لا تصلون إلى هؤلاء الأسارى وقائمُ هذا السيف في هذه اليد . وإني لأعلم أني أحدثت في هذا الحرم ما لا عهدَ لأهله به ، ولكنك تعلم يا عمّ أن محمداً قد سبقني فأحدث في هذا الحرم ما لا عهد لأهله به .

قال الوليد في رفق : وَيحك يا ابنَ أخي ! فإن محمداً لم يحرق داراً ، ولم يعنُفْ بأحد ، ولم يضَعْ أحداً في الحديد .

قال أبو جهل : بل هو فعل شراً من ذلك ، إنه أفسد علينا الرقيق ، وأفسد علينا الدهماء (٢) ، يغريهم بآلهتنا ، ثم لا يكفيه ذلك فيغريهم بأموالنا ومرافقنا ويطمعهم في مراتبنا ومنازلنا التي توارثناها ، ثم لم نخلدْ إليها ، وإنما نبذل في الاحتفاظ بها ما نملك من قوة وجهد .

ألم تر إلى هؤلاء الرقيق الذين اتبعوا محمداً ، يزعمون أنهم رجال أمثالنا ، وأنّ لهم مثل ما لنا من الحق ، وأن عليهم مثل ما علينا من التبعات ، وأنهم أكرمُ منا عند الله منزلة ، وأرفع منا عنده مكانة ؛ لأنهم يخلصون له قلوبهم ويؤمنون به وحدَه لا يشركون معه اللاتَ والعزى ومناةَ وهُبَلَ ! فهم أولو الرأي والحلم ، ونحن السفهاء والمحمّقون !

ويحك يا عم ! إنكم إن تتركوا محمداً وأصحابه ينشرون دعوتهم هذه في

---

(١) السحر : الرئة . وانتفاخ السحر كناية عن مجاوزة القدر .
(٢) الدهماء : جماعة الناس وعامتهم .

أرض مكة لا تزيدوا على أن تجعلوا عاليها سافلها ، وعلى أن تُضيعوا ما أورثكم آباؤكم من العزّ والمجد ومن الثراء والسلطان . وأيهما شرّ : أن تتسامع العرب بأن الحلماء من أهل مكة يزجرون السفهاء ويردُّونهم إلى القصد ، أم أن تتسامع العرب بأن الرقيق من أهل مكة قد أصبحوا سادة ، وبأن السادة قد أصبحوا رقيقاً ، وبأن الآلهة التي يحجُّون إليها من أقصى الأرض قد أصبحت هزواً وسخرية ؟ !

لا والله لا تصلون إلى هؤلاء الأسارى وقائمُ هذا السيف في هذه اليد .

قال أمية بن خلف : وصلَتك رحِمٌ يا أبا الحكم ! والله لقد سعيت فأحسنت السعي أمس ، ولقد قلت فأحسنت القول اليوم . وإن أمر محمد وأصحابه لشوكةٌ في جنب هذا الحي من قريش ، ولن يستقيم لهذا الحي أمره حتى تُنْزَعَ من جنبه هذه الشوكة . ولو قد بَلاَ عمُك من رقيقه وأحلافه مثلَ ما بلوت أنا من بعض أتباعي لما اشتط عليك في القول ، ولما ألحّ عليك باللوم منذ اليوم . وإن الذي صنعت بأساراك من أحلاف مخزوم ورقيقها أمس قد صنعتُ مثله بقوم من أحلاف جُمَحَ ورقيقها .

ولا والله يا معشر قريش ما لكم من أمركم خيَرَة ؛ وإنما هي الحرب المنكرة قد حُملتْ إليكم ونُصبتْ عليكم في عُقْر داركم(١) ؛ فإن أردتم أن يصبح مالكم نهباً لعبيدكم وإمائكم والطارئين عليكم من أوشاب العرب وأخلاط الناس ، وإن أردتم أن يفقد هذا البيت حرْمته ؛ وتفقد هذه الآلهة ذكرَها الطائرَ في الآفاق ؛ وتصدّ العرب عن الحج إليكم واللياذ بكم ، وتصبحوا أحدوثة في الأفواه وسَمراً للسامرين ، فَتخَلَّوا بين محمد وأصحابه وما يريدون .

وإن أردتم أن تمسكوا عليكم أموالكم ، وتحفظوا على الآلهة سلطانها ؛

(١) عقر الدار : وسطها وأحسن مكان فيها .

وتكفلوا لهذا الحرم ذكره بين الناس ، فشدّوا على أيديكم (١) ، وردّوا على أنفسكم فضلَ أحلامكم ، واستقبلوا أمركم بالحزم والجدّ ، وكفّوا هؤلاء السفهاء عما أمعنوا فيه من الفساد .

قال أبو سفيان صخر بن حرْب : أما إني لا آمن أن أمضي بتجارتكم غداً إلى الشام أو إلى اليمن ، وأن أعود إلى هذا البلد بعد أشهر فأرى أصحاب الأموال وقد شرّدوا وأزيلوا عن أماكنهم . يا معشر قريش إن التجارة خير ، وإن فيها لربحاً وسعة ، ولكن التجارة ليست مربْحة إذا لم يُحْم ظهرُها . وَيحكمْ ! إنكم تصانعون العرب لتحموا طريق تجارتكم إلى الشام واليمن ، فكيف إذا عجزتم عن حماية تجارتكم في مستقرها ؟ !

أما إني لن أبرَحَ الأرض بتجارتكم حتى أعلم أنكم ستحمون ظهري ، وأني سأعود إلى مكة فأرى أهلي كما تركتهم آمنين وادعين لم يرزأوا (٢) في أنفسهم ولا في أموالهم .

قال الوليد بن المغيرة متضاحكاً : وَيحكم ! كأنما أطرتُ بما قلت لابن أخي طائراً كان في صدوركم (٣) ! ها أنتم هؤلاء قد أفسد الخوف عليكم أمركم وأخرجكم الذعرُ عن أطواركم ، فأكبرتم من أمر هذه العصبة صغيراً من شأنها حقيراً . إنهم ما علمتُ لوادعون يتحدّثون بأحاديثهم فيما بينهم ، لم يبادوكم بشر ، ولم يَرْزأوكم في مالكم قليلا ولا كثيراً . قال أبو سفيان : فتريد أن نُنْظرَهم (٤) حتى يفعلوا ؟ قال أبو جهل : فإني أريد أن أستأصل هذا الشر قبل أن يستفحل . امضي أبا سفيان بتجارتنا حيث شئت ، فإن عليّ أن أحمي ظهرك وأن أحفظ لك مكة كما تحب أن تكون .

قال عتبة بن ربيعة : يا معشر قريش : كلكم قال فأحسن القول. إنا والله ما نرضى أن تُسَفَّه أحلامنا ولا أن تعاب آلهتنا ولا أن تتعرّض أموالنا لشر ،

---

(١) شد على يده : أعانه وقواه .
(٢) يرزأوا : يصابوا
(٣) أي هيجت غضبه وأثرته . (٤) ننظرهم : نمهلهم .

ولكن لنا في القصد والعافية ما يغنينا عن العنف والبطش ، فلنؤدّب سفهاء(١) قومنا بالأناة واللين ، ولنأخذ الرقيق والأحلاف بالشدّة والعنف ؛ فإنا إن نفعل ذلك نقرّ السلم في ذات بيننا ، ونجعلْ من الرقيق والأحلاف مثلاوعبرة ونكالا .

وقال أبو جهل : وهل فعلتُ غير هذا ؟ إني واللات والعزّى لو أطعت نفسي لقتلت الأرقم بن أبي الأرقم ، ولحرّقت داره على من فيها ، ولوجدت في ذلك شفاء لنفسي أيّ شفاء ! ولكني أوثر العافية في مخزوم ، وأتخذ من هؤلاء الأخلاط والمستضعفين نكالا للصابئين (٢) من قريش .

وقال الوليد بن المغيرة وهو ينهض متثاقلا ويضحك ساخراً: بئس والله ما تصنع يا ابن أخي ! إنما يقيس القويّ قوته إلى الأضراب والنظراء،(٣) فأما أن يقيسها إلى الأحلاف والرقيق والمستضعفين من الناس فهذا والله الجبن والخرْق(٤) ، ولكن لا رأيّ لمن لا يطاع .

وتفرّقت قريش ؛ فذهب أكثر الملأ إلى دورهم إلا أبا جهل ، فإنه ذهب في عصبة من الفتية والرقيق فاستخرج أساراه من محْبسهم ذاك الذي أنفقوا فيه الليل ، ومضى يدفعهم أمامه يتعجل خطوَهم ، وأنى للمقيد أن يسرع الخطو !

ولكن أبا جهل وأصحابه كانوا يخزونهم بالرماح والخناجر وخزاً (٥) يؤذي ويُدمي ويَشُقّ ، ولكنه لا يبلغ الأنفس ، وربما ألهبوهم ضرباً بالسياط ، وربما جذبوا لحية ياسر وعمار وشَعْر سمية وهم يتضاحكون ويتصايحون ، والناس ينثالون(٦) عليهم من كل بيت وينضمون إليهم من كل وجه . وكأن

---

(١) السفهاء : الجهلاء .
(٢) الصابئون : الذين خرجوا من دين إلى دين آخر .
(٣) الأضراب والنظراء : المتماثلون المتشابهون .
(٤) الخرق : ضعف الرأي وسوء التصرف والجهل والحمق .
(٥) الوخز : الطعن بالرمح لا يكون نافذاً .
(٦) ينثالون : يقبلون بكثرة متتابعين .

الأسارى قد تحدّثت نفوسهم وسكتت ألسنتهم ، فأجمعوا ألا يرفعوا صوتهم بشكاة وألا يظهروا ألماً ولا ضجراً .

ومضَوْا كذلك : حتى إذا بلغوا مكاناً في البطحاء وقف أبو جهل ووقف الناس معه ، ثم تقدّم حتى دنا من ياسر فقال له ساخراً منه : أباقٍ أنت على حلفك لمخزوم كما حدثتنا أمس ؟ قال ياسر : فإنك قد أخرجتنا من هذا الحلف حين بغيت علينا(١) ، فألقيت عنا عِبْئَه ووزْرَه(٢). قال أبو جهل : فقد برئت من حلفنا إذن ؟ قال ياسر : كما أبرأ من الشر والنُكرْ وما يخزي الرجل الكريم . ولم يمهله أبو جهل وإنما ضرب وجهه حتى أدماه ، وضرب القوم في وجه عمار وسمية حتى أدموْهما .

ثم تقدّم(٣)أبو جهل إلى أصحابه أن يطرحوا هؤلاء الأسارى أرضاً ففعلوا . ثم تقدم إليهم أن يأخذوهم بمكاوي النار(٤) في جنوبهم وصدورهم ففعلوا . ثم تقدم إليهم أن يضعوا على صدورهم الحجارة الثقال ففعلوا . ثم تقدم إليهم أن يصبوا على وجوههم قرَبَ الماء ففعلوا ؛ وأبو جهل ينتظر متحرق النفس أن يسمع من أحدهم صيحة أو أنة أو شكاة .

ولكن نفوس الأسارى قد تحدّث بعضها إلى بعض وفهم بعضها عن بعض ، فعقدوا ألسنتهم وعمروا قلوبهم بذكر الله ، وخلوا بين القوم وبين أجسامهم يصنعون بها ما يريدون . وعبث أبو جهل وأصحابه بأجسام هؤلاء الثلاثة حتى ملوا العبث وضاقوا به ؛ فتفرقوا عنهم بعد أن وكلُوا بها حراساً يحفظونهم على حالهم تلك حتى يعودوا إليهم حين تجنح الشمس إلى الغروب .

---

(١) بغى عليه : استطال عليه وظلمه .

(٢) عبئه ووزره : حمله الثقيل وذنبه .

(٣) تقدم إليه أن يفعل كذا : أمره به .

(٤) يأخذهم بمكاوى النار : يكويهم بالنار ويعذبهم بها .

٨

قال حرب بن أمية لعبد الله بن جُدْعان : ما رأيتُ كغلامك الرومي هذا ذكاءَ قلب ، ونفاذَ بصيرة ، وبراعة في التجارة ، ومهارة في تثمير المال .

قال عبد الله بن جدْعان . أما إذا قلت هذا فإني لا أدري أعربي هو سَبَتَه (١) الروم صبياً حين أغارت على أرض الفرس كما يقول ، أم روميّ هو سبته العرب حين أغارت مع الفرس على أرض الروم كما يقول الكلبيون الذين باعوه لي عامَ أولَ في الشام ؟

قال حرب بن أمية : إنّ فيه حمرة لا تعرفها العرب ، وإنّ لسانه يرتضخ لهجة رومية طالما سمعت مثلها في كثير من أهل الشام . فليكن عربياً أو ليكن رومياً فليس لذلك شيْ من الخطر ، ولكني لم أر مثله قط ذكاء قلب ونفاذ بصيرة وحسنَ نظر في التجارة وتثمير المال .

لقد رأيته في رحلتنا تلك إلى اليمن وحين عبرنا البحر إلى بلاد الحبشة شيطاناً من الجن ، يتنسّم (٢) مصادر الربح وموارد الكسب ، وينبئنا غير مكذّب بأنا إن ذهبنا إلى هذا الوجه أو أقمنا في هذه القرية بعنا كأحسن ما يكون البيع ، وشرينا كأحسن ما يكون الشراء . ولستُ أدري كيف تنسم ريح الربح في بلاد النجاشي ، فاتصل برجال أمثاله لا يحسنون لغتنا ولكنهم يتعاطوْن فيما بينهم رطانة رومية ، فباعهم كل ما كان معنا ، واشترى منهم ما لم نكن نطمع في شرائه ولا نقدر على حمله ، واحتال حتى أعادنا إلى مكة في السفن التي تمخر البحر لا على ظهور الإبل التي تسبح في البر .

وأشد من ذلك وأدنى غرابة من ذلك إلى العجب أنه ألقى في رُوع (٣) أولئك الناس أنهم يستطيعون إن شاءوا أن يرسلوا رسلاً منهم يحملون ما يحتاجون إليه

---

(١) سبته : أسرته .
(٢) تنسم الشيْ : تشممه ليعرف مصادره .
(٣) الروع : سواد القلب وموضع الفزع منه ، والذهن ، والعقل .

من المال ليشتروا منا إذا بلغنا أرضنا ما يملأون به سفنهم حتى لا تعود إلى مستقرها فارغة ؛ فأغنانا في موسم واحد عن رحلتين ، بل عن أكثر من رحلتين .

قال عبد الله بن جُدْعان : إنه ما علمتُ لغلامٌ صَنعٌ (١) ميمون النقيبة، ولقد استكرهت على شرائه ، ولكني لم أر منه إلا خيراً .

وخلا عبد الله بن جُدْعان مساء ذلك اليوم إلى غلامه ذاك الرومي الذي سبته العرب ، أو العربي الذي سبته الروم ، فقال له : لقد أحسنت البلاء يا صُهيب في رحلتك هذه إلى اليمن وأرض الحبشة ، ولولم يُثْن عليك حرب بن أمية لأثنى عليك هذا المال الكثير الذي رجعت به إليّ . فهل كان لك بالتجارة من عهد ؟ قال صُهَيب : هيهات ! ما أعلم أني بعت أو اشتريت قبل رحلتي هذه إلا ما يبيع الناس ويشترون من حاجتهم التي تصلح أمرهم في كل يوم . قال عبد الله بن جدعان : فهي الفطرة إذن ؟ قال صُهيب : هو ذاك .

وأطرق عبد الله بن جدعان ساعة ، وهمّ صُهيب أن ينصرف ، ولكن سيده استبقاه بالإشارة ، فأقام ينتظر أن يرفع سيده إليه رأسه وأن يصدر إليه أمره . وطال إطراق السيد حتى ملّ الغلام أو كاد . ولكن عبد الله بن جدْعان يرفع رأسه ويبسم للغلام ويقول في تحفظ وهدوء : أضائقٌ أنت بالرق يا صهيب ؟ قال صهيب : ومن ذا الذي لا يضيق بالرق ولا يتمنى أن يكون حراً ! قال عبد الله بن جدعان : فإني أريد أن أرد عليك حريتك ، وأن أملّكك أمر نفسك (٢) ، ولكن بعد أن أعرّضك لمحنة ذات خطر . قال صهيب : فأمْسكْ عليك حرّيتك هذه التي تريد أن تردّها عليّ ؛ فإن الحرية لا تباع ولا تشترى . قال عبد الله بن جدعان : وَيحك يا صهيب ! ماذا تقول ؟ لقد اشتريتك من بني كلب ، واشتراك بنو كلب من الروم أو من العرب لا أدري . قال صهيب : فإنك لم تشترني ، وإن بني كلب لم يشتروني من نفسي ،

---

(١) غلام صنع : ماهر حاذق . ميمون النقيبة : محمود المختبر .
(٢) أملكك أمر نفسك : أصيرك حراً .

وإنما عدا عليّ العادون فباعوني من بني كلب ، وباعني بنو كلب منك على كره مني لا عن رضاً ولا عن اختيار . فأنتم ترونني عبداً قناً وأنا أراني رجلا حراً ، وأنتم تتسلطون على جسمي بما تملكون من قوة ومال وسلطان ، ولكنكم لا تجدون لأنفسكم على نفسي سبيلا .

قال عبد الله بن جدعان : فما أكثر الرقيق الذين يكاتبون (١) على أنفسهم ويشترون حريتهم بالأموال والأعمال ؛ قال صهيب : هم وما يصنعون ، أما أنا فلن أكاتب ولن أشتري حريتي بمال أو عمل ! لأني ما زلت أراني حراً في نفسي . قال عبد الله بن جدعان : صدق حرب بن أمية ، إنك لذكيّ القلب جريءُ الجنان ، ولكني أريد ... قال صهيب : تريد أن تمتحنني ! فإن سلطانك علي يبيح لك أن تعرّضني لما شئت من محنة ! فمرني بما شئت فسترَاني عندما تحب ، ولكن لا تَعِدْني شيئاً ! فإني لا أكره شيئاً كما أكره الأماني والوعود .

وهمّ عبد الله بن جدعان أن يردّ عليه رَجْع حديثه ، ولكن صُهيباً لم يمهله ، وإنما قال له متعجلا : وهل لك في أن أخفف عنك بعض هذا العبءُ الذي ينوء بك (٢)، وأن أفصح لك عما يضيق به صدرك ولا ينطلق به لسانك؟ قال عبد الله بن جدعان : وإنك لتعلم دخائل الصدور ؟ !

قال صهيب : لقد نجحت في رحلتي إلى اليمن وأرض النجاشي ، وجلبت إليك مالا كثيراً ، فأنت تودّ لو أرسلتني في تجارتك إلى الشام وأرض قيصر ، وتظن أني سأجلب لك منها أكثر مما جلبت لك في رحلة الشتاء، وأنت تأمنني على مالك وتجارتك لا تخاف أن يصيبك فيهما ضير ، ولكنك لا تأمنني على نفسي ، وإنما تقدّر أني قد نشأت حراً في بلاد الروم ، وأني خليق إن رأيت هذه الأرض أن أقيم بها وألا أعود إليك ، وعسى أن أحتجز فيها ما استودعتني من تجارة ومال .

قال عبد الله بن جدعان : أما هذا فلا ، إنك عندي أمين على المال والتجارة

---

(١) مكاتبة الرقيق : أن يكتب العبد على نفسه بثمنه ، فاذا سعى وأداه عتق .

(٢) ينوء بك : يجهدك ويشق عليك .

قال صهيب : أوَ لستَ تراني بعض مالك ؟ فأمَنّي على نفسي كما تأمنني على ما سترسل معي في العروض (١) . وبعد فأرحْ نفسك من هذا العناء ، وانهض في تهيئة تجارتك إلى أرض قيصر ، فسأرحل عنك وسأعود إليك بمال لا عهد لك بمثله ؛ فأنا أعلم الناس بما يحب الروم وما يكرهون ، وليس لي في بلاد الروم أرَبٌ (٢) ، وليس لي بالإقامة فيها كلفٌ ، فقد علمتُ منذ آخر الصبا وأول الشباب أن بلاد الروم ليست لي بدار . وقد علمت منذ آخر الصبا وأول الشباب أن لي في قريتك هذه أرَباً أيّ أرب ، ولولا ذلك لما قُمتُ معك، ولما أذعنت لسلطانك . وأي شيءٍ أيسر على مثلي من أن يفوتكم إن شاء الفوت ، ولستم بذوي حرَس ولا بأصحاب شرَط . ولو قد شئت لخادعتكم فخدعتكم حتى أخرج من حرمكم هذا ، ثم تطلبونني ما وسعكم الطلب فلا تجدون إليّ سبيلا ، ولو قد أدركتموني لم تقدروا عليّ .

قال عبد الله بن جدعان : لك في قريتنا هذه أرب أيّ أرب ! وما ذاك ؟ قال صهيب : لو عرفته لأنبأتك به ، ولكنني نبّئت منذ آخر الصبا وأول الشباب أن محياي ومماتي في أرضكم هذه : أعيش في حرمكم هذا شطراً من عمري ، وأعيش في حرم آخر شطرَه الذي يبقى لي ، وأموت وأدفن في أرض الحجاز. قال عبد الله بن جدعان : وَيحك يا صهيب ! إنك لتحدّثني بالأحاجي(٣) منذ اليوم ، وإني لا أعرف في بلاد العرب حرماً غير هذا الحرم .

قال صهيب : وأنا لا أعرف في بلاد العرب حرماً غير هذا الحرم ، ولكني أحدّثك بما نُبّئْتُ به في آخر الصبا وأول الشباب ، وهو حديث سمعته من قسّ في بلاد الروم ، فلم أفهمه ولم ألق إليه بالا حتى رأيتني أباع ذات يوم من بني كلب ، وسمعت سادتي يتحدث بعضهم إلى بعض بأنهم يبيعونني بثمن ربيح حين يفد عليهم الوافدون من سكان الحرم من قريش . ولو قد شئتُ أن أفلتَ من بني كلب لما أعياني الإفلات ، ولكني أردت أن أمتحن

(١) العروض : جمع عرض وهو المتاع .
(٢) أرب : حاجة وغاية .
(٣) الأحاجي جمع أحجية ، وهو الكلام المغلق كاللغز .

بنوءة القس فألفيتها صادقة إلى الآن، وما أرى إلا أنها ستصدُق حتى تبلغ مداها . فأرسلْني في تجارتك حيث شئت ؛ فإني ناصح لك وعائد إليك . واردُدْ إليّ حريتي إن أحببت ؛ فإني مقيم في أرضكم هذه لا أريم ، وأخْرجني منها إن أردت حين يصبح الصبح ؛ فإني راجع إليها حين يمسي المساء فمقيم فيها حتى يكون ما لا بدّ من أن يكون . قال عبد الله بن جدعان : ما رأيت كاليوم مغامراً مقامراً !

قال صهيب : هو ذاك . قال عبد الله بن جدعان : فاصحبني إلى المسجد : فإني أريد أن أشهد قريشاً على أنك حرّ . قال صهيب : حسبك أن تُشهد نفسك وتُشهدني على أني حرّ ! فليس لي في شهادة غيرنا على حريتي أرب . وأصبح عبد الله بن جدعان فتحدّث في أندية قريش بأنه قد أعتق غلامه الروميّ صُهيباً وحالفه وجعله أميناً على ماله كله وعلى تجارته في رحلتي الشتاء و الصيف فسمعت قريش ولم تنكر لما تحدّث إليها به حرب بن أمية مما كان لهذا الفتى من حسن البلاء في تجارة مولاه .

وأنفق صهيب زَهرةَ شبابه تاجراً لعبد الله بن جدعان ؛ يثُمر مالَه وينشر تجارته ، فيُبْعِدُ بها طوراً في أرض النجاشي وطوراً في أرض قيصر وتارة في أرض كسرى ، حتى أصبح عبد الله بن جدعان أكثر قريش مالاً وأوسعها ثراء وأعظمها عطاء وأسخاها يداً ، وحتى قصد إليه الشعراء يبيعونه الثناء بالمال الكثير . وكان عبد الله بن جدعان كلما سمع ثناء الناس عليه وأرضاه ذلك قال لصهيب : وإنما لك شطر هذا الثناء ؛ فأنت الذي أتاح لي أسبابه ويسّر لي وسائله .

وكان عبد الله بن جدعان ربما سأل صهيباً بين حين وحين : ألا يزال لك في أرضنا هذه أرَبٌ ؟ فيجيب صهيب : أربٌ ، أي أرب ! يقول عبد الله بن جدعان : فهل تبينت أربك (١) يا صهيب ؟ فيقول صهيب : لو تبينته لما أخفيته عليك .

---

(١) تبينت أربك : أوضحته .

وأدرك الموت عبد الله بن جدعان ذات يوم ، وخلصت لصهيب نفسه كلها ، وكثر ماله ؛ وكان خليقاً إن شاء أن يتحول إلى أرض قيصر حيث نشأ، أو إلى أرض كسرى في العراق حيث ولد، ولكنه أقام بمكة لا يبرحها ، وجعل يثمر ماله مقتصداً في هذا التثمير، لا يغلو في التجارة ولا يبعد في الأرض، وجعل يحيي سنة عبد الله بن جدعان، فيطعم الجائع ويغني العائل ويعين المحتاج، وجعلت قريش تطمئن إليه وتثق به وتأنس إلى حديثه ذاك الذي لا يكاد يُبين ، حتى أصبح ذات يوم فسمع قريشاً تتحدث في أنديتها عن دار الأرقم بن أبي الأرقم ، ومن كان يجتمع فيها من الناس حول محمد بن عبد الله ، وما كان يتلى فيها من القرآن ، وما كان يدار فيها من الحديث ؛ فيحس صهيب في نفسه كأن أربه ذاك الذي رافقه منذ آخر الصبا وأول الشباب إلى آخر الشباب وأول الكهولة ، قد جعل يدنو منه قليلا قليلا ، وقد أخذت نفسه تُنازعه إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم ؛ فيصدها ويردّها ويستمسك بالبقيا (١) على ما كان بينه وبين سادة قريش من المودّة والإلف .

ولكن شوقه إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم يملأ عليه يقظة النهار ونوم الليل . حتى أصبح ذات يوم وقد أخذ نفسه بما تكره ، وخرج من داره يريد أن يمضي إلى المسجد ، ولكنه يمضي ويمضي ، ثم لا يبلغ المسجد ، وإنما يجد نفسه أمام دار الأرقم بن أبي الأرقم ، ويرى غير بعيد منه عمار بن ياسر ، فيكون بينهما ما قدّمت من حديث ، ويدخلان ويستمعان ويُسْلِمَان ويُقيمان مع أصحابهما ، حتى إذا أقبل المساء خرجوا جميعاً مُسْتَخْفِيَن . .

وافتقدت قريش صهيباً يومها ذاك ، ثم افتقدته من غد ؛ ثم تحسس أبو جهل أخباره، ثم أقبل ذات يوم وهو لا يمسك نفسه من الغضب ؛ فلما رأته قريش قال قائلها : ثارت ثورة أبي الحكم . ووقف أبو جهل على نادي قومه فاتكأ على قوسه، ثم قال في صوت المُحْنَق(٢) المغيظ : اعلموا يا معشر قريش أن صهيباً قد صبأ ، وأنه يُشارك آل ياسر في عذابهم منذ اليوم .

---

(١) البقيا : البقية .

(٢) المحنق : الحاقد : المغتاظ .

٩

لم تشهد خثعم يوماً كذلك اليوم الذي انتصرت فيه على عدو غير محارب ، والذي ملأت فيه أيديهم من الغنيمة ، لم تتكلف في ذلك عناء ، ولم تَبلُ فيه بلاء ، ولم تبذل فيه جهداً ولم تلقَ فيه كيداً ، وإنما كان الرجل منها يمد يده إلى ما يليه من المال ثم يردها وقد أصابت منه ما تريد وفوق ما تريد ، كأنما أنْهِبتْ مال النجاشي إنهاباً ، وأمرتْ أن تأخذ منه حتى ترضى ، ولم تكن ترضى بالقليل ، ولا تقنع باليسير ؛ ولو قد استطاعت لاحتوت في ذلك اليوم مال النجاشي كله ؛ فقد كان جيش أبرهة يعود منهزماً عن مكة ، قد فقد حَوْلَه وَطَوْلَه وقوته في غير حرب ، وَحُمل أميره عليلا منهوكاً يتراءى له الموت فيفظعه ويُفْزعه ، ثم تتراءى له الحياة فترد إليه شيئاً من رَوْح وراحة ، وبطانته مشغولة به جازعة عليه ، تأمُل وَجه النهار وتيأس آخره ، والجند الذين أعفاهم الموت وأبقت عليهم الطير الأبابيل (١) يسعون متخاذلين متضائلين يتحاملون على سوق (٢) لا تكاد تحملهم ، قد بلغ الجهد من أجسامهم ، وعبث اليأس بنفوسهم ؛ فهم ظلال تسوق بالمال ، إلا أنها ظلال تخاف ولا تُخيف .

وكانت خثعم قد رأت جيش أبرهة وهو يسعى إلى مكة في قوة أي قوة وعُدّة أي عدة ونشاط أي نشاط . فأما كرامها وذوو أحلامها فتنحّوْا لأبرهة عن طريقه (٣) ، وكرهوا مقاومته وأنكروا مساومته ، ورأوا أنه مقدم على إثم عظيم ، فربئوا بأنفسهم عن المشاركة فيه . وأما سفهاؤهم وذوو الطيش والنزق منهم فتفرقوا شيعاً واختلفوا أحزاباً : فمنهم مَن قاوم حتى أعيته المقاومة فاستكان ، ومنهم من ساوم فباع نفسه وأقبل على الإثم مستخفاً به غير حافل بعواقبه ، ومنهم من تنحّى عن الطريق ولم يُبعِدْ ، وإنما أقام رصداً (٤) يرقُب الجيش ويتربّص به الدوائر وينتهز منه الغفلات ، يقتل هنا ويخطف هناك ،

(١) الأبابيل : المتفرقة أو المتتابعة .

(٢) سوق : جمع ساق ، أي لا يكادون يستطيعون السير على أرجلهم .

(٣) تنحوا عن الطريق : مالوا عنه وابتعدوا .

(٤) الرصد : القوم الذين يرصدون أي يرقبون كالحرس والخدم .

ويلوذ بين ذلك بشعاف الجبال وشعابها (١) ، حتّى اضطغن(٢) عليهم أبرهة في نفسه ، وأقسم ليؤدّبنهم مُنصرفَه عن مكة أدباً تتسامع العرب به ، فتعرف للنجاشي هيبته وسلطانه ، ولكن أبرهة لم يدخل مكة ولم يمسس بيتها بسوء ، ولم ينصرف عن مكة انصراف المنتصر ولا انصراف المخفق، وإنما انصرف عنها انصراف المنهزم المخذول الذي فعل الدهر به الأفاعيل ، وإن لم ير جيشاً محارباً ولا عدواً مناوئاً، وإنما رأى طيراً أبابيل ترميه وترمي جيشه بحجارة من سجيل ، فتجعله وتجعل جيشه كعصف مأكول (٣) . وقد أسرع ذوو خاصته به إلى اليمن ، وقد نهكته العلة حتّى أشرف على الموت ، ومروا في طريقهم بخثعم فلم يبطشوا بها ولم يصبوا عليها عقاباً ولا عذاباً ، إنما بطشت بهم خثعم فصبت عليهم العقاب والعذاب ، ولم يخلصوا منها إلا بشقّ الأنفس ، ومضوا يحملون عليلهم بين الموت والحياة ، فلم يبلغوا به صنعاء إلا وقد انشق صدره عن قلبه وأدركه الموت بعد أن برّحت به العلة تبريحاً .

في ذلك اليوم ملأت خثعم أيديهم من ذائب النجاشي وجامده ، فأخذت من الذهب والفضة ، وأخذت من الإبل والخيل ما أغلّ عليها حين باعته مالا كثيراً ، وأخذت فيما أخذت نساء وفتيات من حسان الحبشة وكرائمهم كنّ يصحبن الجيش يرين في صحبته لذة وبهجة ومتاعاً ، ويرى آباؤهن وأزواجهن في استصحابهن تفريجاً عنهن وتسلية لهن وإمتاعاً لأنفسهم باستصحاب هؤلاء الحسان في هذا السفر الذي لن يجدوا فيه مشقة ولن يتكلفوا فيه جهداً ، وإنما هو تسلية للنفوس وتسرية للهموم ، وتأديب لهذه الفئة الجاهلة الغليظة من أهل البادية بهدم ذلك البيت الذي يُكبرُونَه (٤) ويعكفون عليه . ويرون أنه وحدَه خليق بالإكبار ، وأنه وحده جدير بالتقديس .

---

(١) شعاف الجبال : أعاليها الواحدة شعفة . وشعابها : ما يتفرج بينها ، الواحد شعب بالكسر .

(٢) اضطغن : أضمر الحقد والضغينة .

(٣) عصف مأكول : ورق شجر أكلته الدواب وصار روثاً .

(٤) يكبرونه : يعظمونه .



سفرٌ قاصدٌ (١) ممتعٌ يجب أن تكمل فيه للرجال لذّاتُ أجسامهم وبهجة قلوبهم وقرّة عيونهم . ومن أجل هذا استصحب قادة الجيش وأمراؤه زوجاتهم وبناتهم يمتعنهم بالحب والرحمة ، ويؤنسنهم بالود والحنان ، واستصحبوا القيان مُغنيات وعازفات وراقصات يزدن بهجة السفر بهجة ، وجمال الرحلة جمالا . ولم يخطر لهم أنهم إنما كانوا يستصحبون الحرائر والإماء ليجعلوهن نهباً لأولئك العرب الجفاة الغلاظ البادين في طريقهم إلى البيت ، ولأولئك العرب الجفاة الغلاظ الحاضرين من حول البيت (٢)..

ويخرج سُحيم بن سُهَيل الخثعمي مع الخارجين ، ويعدو مع العادين ، ويملأ يديه كما ملأ بنو أبيه أيديَهم ذهباً وفضة ونعماً وَعرضاً ، ولكنه يرى فيما يرى ناقة تسعى يقودها حبشي غليظ جهم ، يظهر عليه فضلٌ من قوة وبأس ، ولكنه متخاذل متواكل قد نهكه الجهد (٣) وأضنته العلة ، فهو يسعى مذعناً لأمر سادته ، ولو استجاب لنفسه لاستّراح في هذا الجانب أو ذاك من جوانب الطريق ؛ ولترك هذه الناقة تقود نفسها وتسعى إلى حيث تريد أو إلى حيث يريد لها القضاء . وينظر سُحيم بن سُهَيل فيرى على هذه الناقة هودجاً (٤) نفيساً قد ألقيت عليه أستارٌ من الحرير المطرز بالذهب المرصّع بشي من الجوهر ، فيستهويه ما يرى ، ويُسرع إلى العبد ورمحه يضطرب في يده . فلا يكاد العبد يراه حتى يحول إليه الناقة ويسعى بها بين يديه مستسلماً صاغراً ذليلا . قال سُحيم بن سهيل للعبد : لمن تكون هذه الناقة ؟ ولمن يكون هذا الهودج ؟ قال العبد في لهجة عربية كدرة لا تكاد تبين : إنها ابنة أخت الأمير . قال سحيم بن سهيل لنفسه وهو يدفع العبد والناقة إلى بيته : حسبي من الغنيمة هذا العبد وهذه الناقة وما تحمل من متاع نفيس . فأما ربة الهودج فليست مني ولست منها في شيْ ، ولأطْرِفنّ بها سيّداً من سادات قريش .

---

(١) سفرقاصد : سهل قريب .

(٢) البادين : سكان البادية . الحاضرين : سكان الحضر أي المدن .

(٣) نهكه الجهد : أضناه التعب .

(٤) محمل له قبة كانت تركب فيه النساء .

ويسعى والعبد يسعى بالناقة بين يديه . حتى إذا بلغ مضارب الحي أومأ (١) إلى العبد فأناخ الناقة ، ووقف غير بعيد مطرقاً إلى الأرض كأنما يلتمس فيها شيئاً . ولكن سحيماً يومئ إليه فينزل الهودج عن مستقره على ظهر الراحلة ، ويتنحى فيقف غيرَ بعيد مطرقاً إلى الأرض كأنما يلتمس فيها شيئاً . ويدنو سحيم من الهودج مترفقاً ، ويرفع أحد أستاره متلطفاً ، ثم يمد بصره في الهودج ، ثم يرده إلى نفسه وقد امتلأ وجهه ابتساماً وإشراقاً وهو يقول : حمامةٌ رشيقة أنيقة وربّ البيت ! ذلك أنه رأى فتاة رائعة الحسن على سُمْرَة بَشرتها ، بارعةَ الجمال ، فاتنةَ اللحظ ، ليست بالطويلة ولا بالبدينة ، وإنما هي ضئيلة نحيلة ، قد ملأها الذعر وملكها الروع ، ولكنها على ذلك جَلْدة (٢) متماسكة يصدّها الحياء والوقار عن أن تُظهر ما يملأ قلبها من جزَع وهلَع ومن تولّه والتياع (٣). ويمدّ سُحيم بن سهيل نظره لى الفتاة ثم يرده إلى نفسه ووجهه يزداد إشراقاً وابتساماً ، ولسانه لا يزيد على أن يقول : حمامةٌ رشيقةٌ أنيقةٌ ورب البيت! ثم يخرج الفتاة من هودجها حفياً بها (٤) متلطفاً لها يقول : لا ترَاعي لا ترَاعي يا ابنتي . فلن أريد بك سوءاً، ولن يمسك مني شيٌ تكرهينه. ثم يأخذ بيدها ويسعى بها مستأنياً (٥)، والفتاة تُطيعه . وكيف لها بغير الطاعة! حتى إذا دخل بها إلى أهله قال لأمرأته في صوت حازم صارم : استوصي بهذه الحمامة خيراً ؛ فإن دار خثعم ليست لها بدار ، وإنما مكانها عند سيد من سادات قريش . ثم يخرج فيحرز الهودج والناقة والعبد ، ويعدو ليدرك الناهبين من بني أبيه عسى أن يصيب من الغنيمة فوق ما أصاب .

ولم يمضِ شهر بعد ذلك اليوم حتى كان سُحَيم بن سُهَيل عند خلَف بن وهب الجمحي في ضَيْعة له بالسَّراة ، قد أقبل ومعه أميرته تلك الفتاة

---

(١) أومأ : أشار .

(٢) الروع : الفزع . جلدة : قوية شديدة ذات صبر .

(٣) التوله : الحزن الشديد . الالتياع : احتراق القلب من الهم والشوق .

(٤) حفيا بها : مبالغاً في إكرامها وإظهار الفرح بها .

(٥) مستأنياً : مترفقاً .

الحبشية حتّى أناخ عند دار خلف . وتلقّاه أهل الدار كما تعوّد العرب وكما تعودت قريش أن تتلقى ضيفها ، ولكنه لم يكد يفرغ من تحيته حتّى قال : لو تعلم بماذا أقبلت عليك يا سيد جُمَح ! قال خلف : بالخير ، وما أقبلتَ قطّ إلا بخير . قال سُحيم : أقبلت عليك بابنة أخت الأمير ، ذلك الذي أقبل غازياً للبيت فردّه رب البيت مخذولا مدحوراً (١) . قال خلف : ابنة أخت أبرهة ؟ قال سُحَيم : نعم ابنة أخت أبرهة . قال ما اسمها ؟ قال سُحيم : ما أدري ، ولكن لم أكد أرى جسمها الضئيل الرشيق الجميل حتّى سميتها حمامة ، وحتّى رأيت أنها لا تصلح لأحد من خثعم ولا لأحد من العرب إلا أن يكون سيداً من سادات قريش حُماة البيت وسدنة (٢) الآلهة ، وأنت تعلم ما بيني وبينك من الحلف والود القديم .

وهمّ خلف أن يسأله عما يريد لها من ثمن . ولكن سُحَيماً قال له عَجلا : مهلا أبا أمية ، إني لم آتك بهذه الأميرة تاجراً . وإنما أتيتك بها مطرفاً لك هدية الصديق إلى الصديق. قال خلف : وَصَلَتكَ رَحِمٌ ! وأظهر الرضا و الاستبشار والشكر ، وعرف في دخيلة نفسه أن هدايا الأعراب تُقبل وتُجزَى بخير منها . ثم أمر بالفتاة فولّت إلى حيث أهله ، لم ينظر إليها ولم يحفل بالنظر إليها . ثم تحدّث إلى سُحَيم فيما يتحدث فيه المضيف إلى الضيف ساعة ، ثم أطرق إطراقة طويلة . ووقع في نفس سُحَيم أن طُرْفته لم تبلغ من نفس صديقه ما كان يريد . ولكن خلفاً يرفع رأسه ويقول : هل تعلم يا سُحَيم أنك لم تُسْد إليّ معروفاً كهذا المعروف الذي أسديته إليّ منذ اليوم ؟

إنا لم نُقاتل أبرهة ، ولم نَذُدْ عن البيت ، وإنما أمرنا أن نتفرق عنه وأن نترك حمايته لربه . وقد حَمى صاحب البيت بيته وردّ عنا أبرهة وفيله وأحباشه ونحن ننظر إلى ذلك من قمم الجبال ومن ثنايا الطرق التي أوينا إليها وتفرّقنا فيها . فلما ارتد عنا العدو ثُبنا (٣) إلى مكة وعدنا إلى بيوتنا ، وفي نفوس كثيرة

(١) مدحوراً : مطروداً .
(٢) السدنة : جمع سادن ، وهم خدم الكعبة وحجابها .
(٣) ثبنا : رجعنا .

منا حسرات ؛ لأنا لم نؤدّ لهذا البيت حقه علينا من الذود عنه والقيام دونه(١). فأنت حين تحمل إليّ هذه الأميرة إنما تتيح لي أن أشفي نفسي . فوربّ هذه البنيّة (٢) التي لم أذد عنها لأذلنّ أميرتك هذه الحبشية ذلاً لم تعرفه الحبشيات بعد . وأول ذلك أنها لن تدخل مكة ، ولن تطأ أرض الحرم ، فقد ردّ صاحبُ الحرم هذا الرّجسَ (٣) عن أرضه وبيته .

قال سُحَيم : وَيحك أبا أمية ! لو عرفت أنك ستلقى هذه الحمامة الرشيقة الأنيقة هذا اللقاء السيْ لآثرتُ بها نفسي . قال خلف متضاحكاً : هيهات ! إنما هو أمرٌ قد دبره من هو أعظم منك ومني سلطاناً . إن هذه الأميرة يجب أن تستذلّ قريباً من هذا الحرم الذي أراد قومها أن يستذلوه ، وإنها ما عاشت لن تعرف الحرّية ولن تلد الأحرار .

قال سُحيم : فأنت إذن تربأ بنفسك عنها (٤)، فارْدُدْها إليّ . قال خلف وقد أغرق في الضحك : هيهات ! إني أربأ بك أنت عنها أيضاً ! فقد قلت إنها ما عشتُ لن تلد الأحرار . إن لي في هذه الضيعة إبلاً وشاء يرعاها غلمان لي فيهم الأسود والأصفر ، فسترعى معهم هذه الإبل والشاء . وهمّ سُحَيم أن يراجع صديقه في بعض ما قال ، ولكن خلفاً حوّل الحديث وشغل صاحبه عنه بأنباء اليمن وأحداث تهامة والحجاز .

ودخل خَلَفٌ على أهله بعد أن عشّى الناس وتقدم الليل ، فألفى امرأته محزونة كئيباً ، فلما سألها عن أمرها لم تُردّ عليه جواباً ، وإنما قالت له في لهجة حزينة : ماذا تريد أن تصنع بهذه الفتاة الحبشية الحسناء التي جلبها لك سُحَيم ؟ قال خَلَفٌ وكأنه أراد أن يثير في نفسها شيئاً من غيظ : استوصي بها خيراً أمّ أمية : فإنها ابنة أخت الأمير صاحب الفيل . قالت أم أمية وقد

(١) الذود عنه والقيام دونه : الدفاع عنه وحمايته .

(٢) البنية : الكعبة .

(٣) الرجس : القذر والقبيح .

(٤) تربأ بنفسك عنها : تتعالى وتترفع .

أجهشت بالبكاء : لم يبقَ إلا أن نرفُق بالذين غَزَوْا دارنا وأرادو أن يستبيحوا الحَرَمَ وأن يهدموا البيت . هنالك أقبل خلفٌ على امرأته فمسح رأسها وهو يقول : لا عليك أم أمية(١) ! فما أردت إلا إلى الدعابة . إن هذه الفتاة لم تعرف في حياتها إلى الآن إلاّ العزة والكرامة ، وإني قد أقسمت حين أهداها إليّ سُحيم ألا ترى منذ اليوم إلا الذّلة والهون . إني لم أبل(٢) في حماية الحرم شيئاً من بلاء، فلا أقلّ من أن أذلّ الحبشة في أميرتهم هذه .

قالت أمّ أمية : فاجعلها لي خادماً إذن . قال خلف وهو يضحك : هيهات ؛ ليستْ خدمتك ذلّة لها أم أمية . قالت أم أمية : اجعلها لي خادماً ، وسترى كيف أذيقها الذّل . قال خلف : قد فعلتُ على أن تُقيم في ضيعتنا هذه بالسراة وعلى ألا تَطأ الحرم ولا تدخل مكة ؛ فإن ربّ هذا البيت قد ردّ هؤلاء الناس عن الحرم ، وما أريد أن أخالف عن أمره ولا أن أوطئها الحرم ، حتى ولو كانت أمَة خادماً ، ولكني سأرْعيها الإبل والشاء فيمن يرعى الإبل والشاء من عبيدنا وإمائنا . قالت أم أمية : ما أجدرك أن تسود في قريش !

وكان لخلف غلام من مولّدي الحبشة يقال له رَبَاح قد نيف على العشرين ، وكان ذكياً صَنَاعَ اليد حازم الرأي ، قد أرضى سيده حتى أعتقه وجعله قَيما(٣) على ضيعته تلك في السراة . فلما أصبح خلفٌ دعا إليه مولاه وقال وهو يبتسم : إيه يا ربَاح ! هذه أميرة من أمرائكم قد جُلبتْ إلينا أمس ، وقد علمتَ ما كان من قومك ، وإني قد أزمعت(٤) أن أرعيها الإبل والشاء ، فهل أكلها إليك لتذيقها من الذّل والهون ما أرى أنها أهل له ؟ قال رباح : وما يمنعك من ذلك وقد رأيت صنيعي بغلمانك على أختلاف أجناسهم ؟ ألست آخذهم بالحزم والصرامة حتى أحملهم على الجادّة(٥) في خدمتك ؟ قال خلف : هو

(١) لا عليك : لا تهتمي ولا تحزني .
(٢) أبل في الحرب : أظهر فيها بأسه حتى بلاه الناس وامتحنوه .
(٣) القيم على الشيء : المتولي أمره .
(٤) أزمعت : عزمت ونويت .
(٥) الجادة : الطريق المستقيمة التي لا انحراف فيها .

ذاك ، فخذ هذه الفتاة فألبسها ثياب الرّعيان وأرسلها مع أمثالها . قال رباح : فإني لا أرى لها في هذا إذلالاً ولا امتهاناً، ولكن عندي خُطة أعرضها عليك عسى أن تبلغ بها ما تريد . قال خلف : هات .

قال رباح: فإني لستمن أمراء الحبشة ولامن سادتها وإنما انا من دَهْمائها (١)، وفي من الزنج عرقٌ ، ولو لم أجْلَبْ إلى بلادكم هذه لما طمعت أن أكون خادماً في قصر هذه الأميرة . قال خلف وقد ابتسم قلبه وثغره : فأنت تريد أن تتخذها لنفسك زوجاً . قال رباح : إن كنت إنما تريد إذلالها وامتهانها وإذلال سادة الحبشةُ وقادتها فاجعلها زوجاً لغلام زنجي من غلمانك . قال خلف : قد فعلتُ ، فكن لها زوجاً منذ الآن ، وإذا ارتفع الضحى فاضمم أهلك إليك .

وكان الزنجي في خطته هذه ماكراً ماهراً ، ولعله لم يمكر بسيده قبل يومه ذاك ولم يكذب عليه ؛ فقد عرف من شأن الأميرة ما عرف ، واستبان له أن سيده يريد أن يسومها الخسف (٢) ، وشق عليه ذلك ، وقدّر في نفسه أن يعمل ما استطاع لصيانتها مما يُدَبّر لها من الهوان،فلم يهتد إلا إلى هذه الخطة. فلما رأى أن الأميرة قد أصبحت له زوجاً طابت نفسه واطمأن قلبه ورضي ضميره ، وعرف أنه سيضمها إليه وسيتخذها لنفسه صَنَماً يخلص له الحب ويؤثره بالود ، ويقدّم له من آيات الإكبار والإجلال ما يستطيع مثله أن يقدّم لمثلها في هذه الحال السيئة التي هما فيها . وعسى الأيام أن تُحدثَ بعد ذلك أمراً .

وضم رباح زوجه لأميرة إليه ، فأسكنها داره الفقيرة الحقيرة ، وجدّ في إكرامها والرفق بها ، واختصها بكل ما استطاع أن يختصها به من المحبة والمودة والتوقير ، يغدو عليها بما تحب ، ويروح عليها بما تحب ، وَيُجَنّبها ما تكره (٣) أثناء النهار ، فإذا كان الليل وآن له أن يأوي إلى مضجعه ألقى وسادة من وراء

---

(١) الدهماء : عامة الناس .
(٢) يسومها الخسف : يذلها .
(٣) يجنبها ما تكره : يبعده عنها

باب البيت ورمى نفسه عليها ، وأنفق الليل نائماً أو يقظان يُعنى بزوجه ويسهر عليها ، لا يمسها ولا يدنو منها .

وقد أقبلت الفتاة على زوجها مذعنة مستكينة(١). فلما رأت إكباره لها ورفقه بها اطمأنت إليه وأنست به واحتفظت بمكانتها منه، فجعلت تتحدث إليه حديث السيد إلى العبد ، ولكن في شيء من التواضع والأناة وحسن التأتي ، وجعل هو كلما رأى منها رفقاً به وعطفاً عليه ازداد لها حباً واشتد إكباره لها وتوقيره لمكانتها . وأنفقا على ذلك أشهراً وأشهراً والفتى حَفِيٌّ(٢) بزوجه لا يَدَع شيئاً يقدر عليه إلا أتاه ليجنبها ما تكره ، وليجعل الرقّ أخف عليها حملا ، ولييسر لها الصبر على محنتها . ولكن أمور الناس تجري على غير ما يُقدّرون ويدبرون .

فقد أزمع الفتى في نفسه أن يسير مع هذه الفتاة سيرة الخادم المهين مع السيدة الكريمة المستعلية التي تملك من أمره كل شيء ، وأزمع في نفسه أن هذا الزواج ليس إلا خداعاً لهذا السيد العربي الذي أراد أن يهين أميرة من أميرات الحبشة . وأيّ بأس عليه في أن ينصَح لسيده ما وسعته النصيحة ، ويُخلص في خدمته ما وجد إلى الإخلاص فيها سبيلا ، ويقوم على ماله أحسن قيام وأرفقه : يدّبره ويثمره كأحسن ما يكون التدبير والتثمير ، لا يستثني من ذلك كله إلا هذه الفتاة ، فإنه لا ينصح فيها لمولاه ، ولا يطيع فيها أمره ، وإنما ينصح فيها لنفسه وقومه ، فيؤثرها بالحب ويختصها بالإكبار والكرامة رعاية لمنزلتها في بلادها تلك البعيدة النائية .

هي زوجه عند خلف وأضرابه من سادة قريش ، وهي زوجه عند هؤلاء الغلمان الذين يسوسهم بالحزم ويأخذهم بالعنف ، ولكنها مولاته وأميرته فيما بينها وبينه وفيما بينه وبين نفسه .

أضمر الفتى ذلك في قلبه ، وفهمت عنه الفتاة ما أضمر ، فقبلته راضية ،

---

(١) مذعنة مستكينة : منقادة خاضعة ذليلة .

(٢) حفي بزوجه : مبالغ في إكرامها وإظهار الفرح بها .



واطمأنت إليه مغتبطة ، واعتقدته في ضميرها مخلصة ، وسارت معه سيرة الأميرة لا سيرة الزوج ؛ ولكنه يغدو عليها بالطاعة والرضا ، ويروح عليها بالطاعة والرضا ، يقوم دونها (١) ما أضاء النهار ، ويسهر عليها ما أظلم الليل . وهي ترى ذلك لها حقاً أول الأمر ، ثم تفكر وتقدّر فتعلم أنها أمَةٌ (٢) ليس لها حقٌ على أحد ، وإنما لسادتها عليها الحق كل الحق ، ولهذا الغلام عليها نصيب من حق سادتها ، فهم قد جعلوها له زوجاً ، وجعلوا له عليها حقاً .

تفكر الفتاة في هذا فتنأى عنه بجانبها أول الأمر ، ثم تعاود التفكير فيه وتعاود النأي عنه . ثم يتصل تفكيرها فيه ، ويتصل برّ الفتى لها ورفقه بها وإيثاره إياها بالطيب من نفسه وبالطيب من الحياة ، إن كان في حياة الرقيق شيءٌ من الطيبات . وإذا الفتاة تجد في نفسها عطفاً على هذا الفتى ، ثم ميلا إليه ، ثم احتياجاً إلى مكانه منها ، ثم وحشة حين يغيب عنها فيطيل الغياب .

وتمضي أيام وأسابيع والفتى ماض في حبه الخالص وبره الصادق ، والفتاة ماضية في هذا الاضطراب القلق المقلق . ثم تحس الفتاة حاجتها إلى أن تأنس إلى الفتى أكثر مما أنست إليه ، وإلى أن يأنس الفتى إليها أكثر مما أنس إليها أثناء هذه الشهور الطوال . تود لو استطاعت أن تُلغي ما بينها وبينه من الكلفة ، وأن تتحدث إليه ويتحدث إليها حديث الرفيق الى الرفيق ولكنها لا تجد الوسيلة إلى ذلك قريبة ولا ميسرة ؛ فقلبها يبسم للفتى ، وثغرها يريد أن يبتسم فيرده عن الابتسام فضلٌ من حياء . ولكنها مع ذلك تلحظ الفتى حين يُقبل عليها أو حين يتحدث إليها في بعض الأمر لحظاً فيه شيءٌ من دعة ورفق وأنس ، ويبلغ لحظها من الفتى أعماق نفسه فيملؤها غبطة وفرحاً ورضاً ، ثم لا يزيد على ذلك .

فلم يُحدّث الفتى نفسه بأمل قريب أو بعيد ، ولم يُخطر الفتى على باله أن من الممكن أن تُلغى المسافات والآماد بينه وبين أميرته ، أو ينظر إليها ذات

---

(١) يقوم دونها : يحميها ويحافظ عليها .
(٢) أمة : جارية .

صباح أو ذات مساء نظرة الطامع أو الطامح ، وإنما هي بالقياس إليه أميرة قد استقرت على عرش يمكن أن يرقى إليه الطرف ولا يمكن أن ترقى إليه النفس ، فضلا عن أن ترقى إليه القدمان . وكذلك أصبح الأمر بين هذين الرفيقين أمراً عجباً : هما زوجان أمام الأحرار والرقيق ، وهما زوجان أمام العرف الذي اصطلح الناس عليه . ولكن الفتى يكبر الفتاة عن أن تكون له زوجاً ، والفتاة لا تكبر نفسها عن ذلك ، ولا تتمنى شيئاً غيره ، ولا تجد السبيل إليه ، حتى استحالت الصلة بينهما إلى شيءٍ غير مألوف فالفتاة عاشقة وامقة (١) ، ولكن الفتى يرى نفسه أقلّ من العشق وأصغر من الوموق . وربما ضاقت الفتاة بهذه الصلة التي جعلت تنكرها ، وربما وجدت(٢) على الفتى وظنت به الغرور والكبرياء ، وإن لم يجد الفتى في نفسه إلا التواضع والهوان . ولولا حرص الفتى على أن يكون رفيقاً رقيقاً ، وحرْص الفتاة على أن تكون عارفة للجميل شاكرة للنعمة مقرة بالمعروف ، لجاز أن يَفسُد الأمر بينهما . والفساد لا يُسرع إلى شيءٍ كما يسرع إلى صلة المحبين حين يبلغ بينهما أقصاه ، وحين تثور الصعاب وتقوم العقاب (٣) بينه وبين غايته . فقد جعل صدر الفتاة يضيق ، وجعل السأم يسعى إلى نفسها ، وجعلت لا تُحسّ شيئاً إلا أنكرته ، وجعلت تشعر بأن خُلقها يريد أن يسوء . وأحس الفتى منها بعض ذلك ، فغلا في الرفق(٤) ، وأمعن في التلطف . واشتد ضيق الفتاة بذلك حتى قالت له ذات يوم :

إنك لتغلو في الرفق بي والتلطف إليّ ، وإنك لتريد الإحسان فتخطئه إلى الإساءة ، وإنك لتعلم أني محتاجة منك إلى شيءٍ غير هذا التلطف والترفق .

قال الفتى في تواضع وتضاؤل : وما ذاك ؟ قالت الفتاة في سخرية مُرّة لاذعة تمزق القلب : إنك لتعلم أنك حر وأني ...

---

(١) وامقة : محبة عاشقة .

(٢) وجدت عليه : غضبت .

(٣) العقاب : جمع العقبة ، وهي المرقى الصعب . وتقوم العقاب بينه وبين غايته : تحول الأمور الصعبة دون ما يريد .

(٤) غلا في الشيء : بالغ فيه .

قال الفتى : مهلا ! إني حديث عهد بالحرية ؛ فقد كنت قناً (١)منذ عامين . قالت : قناً منذ عامين ، وقد رُدّتْ إليك الحرّية وانحط عنك الرق(٢)، فأنت أرفع مني مكاناً وأحسن مني حالا . فما تواضعك وتضاؤلك وإمعانك في العناية بما مضى من الدهر ، وأنت خليق لا أقول بأن تستكبر وتستعلي ، وإنما أقول بأن تذكر ما نحن عليه اليوم ، وما يمكن أن نصير إليه غداً . إنك لتذكر أني كنت أميرة ، وتحفظ لي حقّ الإمْرَة ، ولكنك أجدر أن تذكر أن الإمرة قد مضت مع الأيام التي مضت ، وأني قد صرت إلى الرقّ حين عُدتَ أنت إلى الحرية . وأنت بعد هذا كله قد اتّخذتني زوجاً .

قال الفتى : إنما اتخذتك زوجاً لأردّ عنك ما يراد بك من سوء . قالت الفتاة : فقد فعلتَ ، وإني لذلك شاكرة ، ولكنك اتخذتني لنفسك زوجاً ، فليكن الأمر بيننا كما يكون بين الأزواج . هنالك انهلت(٣)دموع غزار من عيني الفتى ، ولم يعرف أكانت دموع الحزن أم دموع السرور . وهنالك صعد الدم إلى وجه الفتاة فأسبغ عليه حمرة قانية لم تعرف أكانت حمرة الخجل أم حمرة الابتهاج بأنها قد اقتحمت ما كان بينها وبين زوجها وشقيق نفسها من العقاب ؟ !

أقبل خلفٌ ذات يوم فألمّ بضيعته في السراة ، وعرف من أمرها ما كان يريد أن يعرف : وسمع من قيّمه رباح ما كان يحب أن يسمع ، ورضي عما رأى وما سمع وما عرف . فأمور الضيعة تجري على خير ما كان يحب : مال كثير وغلة غزيرة ، وأمانة من رباح لا يرقى إليها الشكّ . وقد بلغ الرضا من نفس خلف أن تمنى أن يُحسن إلى قيّمه وأن يكافئه على ما بذل من جهد ، فأهدى إليه إبلاً وشاء ، وفضلا مما تُغله (٤) الضيعة من ثمر الأرض، وتلقى منه شكره للجميل ، فاغتبطت نفسه واطمأن قلبه . وهمّ القيم أن ينصرف راضياً موفوراً ،

---

(١) القن : العبد .
(٢) انحط عنه الرق : صار حراً .
(٣) انهلت : سالت .
(٤) تغله : تخرجه من الغلة .

ولكن خلفاً يستوقفه ويسأله في دعابة حلوة : إيه يا رباح أيكما العقيم ؟ فقد مضى دهر منذ أملكتك تلك الحمامة الحبشية ، ولم أر لكما ولداً .

فوجم القيم شيئاً ، وهمّ أن يتكلم ولكن الحياء عقدَ لسانه ، فغض بصره وأطرق إلى الأرض . وألح عليه خلفٌ في السؤال وأعاد إليه مقالته متضاحكاً : إيه يا رباح ! أيكما العقيم ؟ قال رباح وقد عاد إليه شيءٌ من جراءة وشيءٌ من حِفاظ(١) وما يعنيك أن نعقم أو أن يكون لنا الولد ؟ قال خلف : على رسلك(٢) يا رباح ! إن تكن حراً فإن حمامتك أمةٌ . قال رباح مغضباً : فأنت إذن زوّجتنيها لتستغلها وتستغلني كما تستغل الإبل والشاء ! قال خلفٌ : إنك لغضوب يا رباح . إني لم أردْ أن أسوءك ، وإنما أردت أن أرفق بك وأن أعرف بعض أمرك .

قال رباح : فاعرف إذن من أمري ما تحب . ثم ضرب بيده على جبهته وهو يقول : ويلاه ! لقد أنسيت أنها أمَةٌ ، وأن ابنها سيكون قناً مثلها . قال خلف : وإن لها لابناً يا رباح ؟ قال رباح : نعم ، ولو أطاعتني نفسي ، ولو أطاعتني هي لوأدته(٣) كما تئدون بناتكم ، فليس مما يسرّ ولا يرضي أن يعرف الرجل أنه يُستَفْحَل كما تُستفحل الإبل . قال خلف وقد بدا في صوته شيءٌ من الأسى : ويْحك يا رباح ! إنك لتشقّ على نفسك وتشق عليّ في غير طائل . وايْمُ الله ما أردت استغلالك ولا استفحالك ! وإنك لتذكر كيف تقدّمتُ إليك أن تُرْعي هذه الفتاة مع رُعيانِنا ، فتمنيت عليّ أن أجعلها لك زوجاً ، وزعمتَ لي أن ذلك أبلغ فيما كنت أريد لها من الذل . فما خطبك ؟ وماذا عَرَضَ لك ؟ ...

هنالك ثابت إلى رباح نفسه ، وذكر احتياله في صيانة الأميرة مما كان يراد بها من سوء ، وذكر أنه لم يخدع مولاه ولم يكذب عليه قط إلا هذه المرة ،

---

(١) الحفاظ : الأنفة والحمية والمحافظة .
(٢) على رسلك : على مهلك ، تأن .
(٣) وأدته : دفنته حياً .

وحرّص على أن يخفي خداعه وكذبه مخافةَ أن يصيبه ويصيب زوجه بعض الشر ، فقال وهو يتكلف ضحكاً خير منه البكاء : وماذا تريد أن أقول لك ؟ لقد وقعت في نفسي فأحببتها . قال خلف : أحببتها وكنت تريد أن تُذلّها ؛ قال رباح : أميرة صارت إلى الرقّ وزُوّجت من عبد لم يكن ليطمع في خدمتها ، فاحتملتْ ذلك مذعنة(١)له . ثم راضية عنه ، ثم سعيدة به ؛ فكيف تريد أن أذلها أو أهينها ؟

قال خلف في صوته الحزين : هو ذاك ، هو ذاك ! قد ألغى الرق ما كان بينكما من تفاوت الدرجة واختلاف المنزلة . قال رباح متضاحكاً : أليس غريباً أن يكون الرق هو الذي يسوّي بين الناس ويُلغي ما بينهم من تفاوت الدرجة واختلاف المنزلة ، وأن تكون الحرية هي التي تفرّق بين الناس فتجعل منهم الغني والفقير والقادر والعاجز ، والقوي والضعيف ،والسيد والمسود ؟ متى ينقضي هذا الليل ، ومتى يُسفر عن الصبح المشرق الجميل !

قال خلف ! ويْحك ! ماذا تقول ؟ أيّ ليل وأي صباح ! قال رباح : الليل هو هذا الدهر الذي نعيش فيه والذي يسوّي فيه الرقّ بين الأرقاء ، وتفرق فيه الحرية بين الأحرار . والصبح هو الزمان المقبل الذي يسوّى فيه بين الأحرار والعبيد ،ويتمايز الناس فيه بأعمالهم وبلائهم.لا بمنازلهم وحظوظهم من الثراء . قال خلف ، وقد أغرق في الضحك : لقد تكهنت يا رباح منذ اليوم ! دع ليلك المظلم وصبحك المشرق . وحدثني عن صبيك هذا الذي كنت تريد أن تئده منذ حين ، ما اسمه ؟ وما شكله ؟

قال رباح : إنك لتسخر من ليلي وصبحي ، وإن ليلي لمنجل ، وعسى أن ندرك انجلاءه ، وإن صبحي لمسفر وعسى أن ندرك إسفاره ؛ فإن لم ندركه نحن فسيدركه ابنك أمية وسيدركه ابني بلال .

فهزّ خلف رأسه ورفع كتفيه وقال : حَسْبُكَ يا رباح ، تحدث بهذا إلى

(١) مذعنة : منقادة خاضعة .

غيري ؛ أما أنا فإني زائد في عطائك لمكان هذا الصبي من أسرتك ، ولولا أن قسماً عظيما قد سبق مني لرددت إلى زوجك حريتها ولجعلت ابنك حراً مثلك ، ولكنك تعلم أنها أقبلت غازية لنا مستخفة بنا منتهكة لحرماتنا (١) . فأمسك عليك أهلك(٢)، وعيشا سعيدين بصبيكما ، فلن يتمسكم ما حييت سوء، ولكني أقدر لكم على أكثر من ذلك .

قال رباح وهو يهز رأسه ساخراً : أقبلتْ لكم غازية ! أقبلتْ لكم غازية ! وماذا كانت تعرف من أمر الغزو ! لقد كانت فتاة غافلة لا تكاد تعقل نفسها ، ولكن الكبار يأثمون فيؤخذ الصغار باثامهم . قال خلفٌ : ما رأيت كاليوم حكيما . انصرف الآن عني واستقبل حياتك سعيداً موفوراً ، ولا تذع حكمتك هذه في الناس فيصيبك منها بعض ما تكره .

وعاش رباح وحمامة ما شاء الله أن يعيشا ، قد رضيا من الحياة بما قسم لهما ، وفرغ لابنيهما بلال وأخيه الذي نسي التاريخ اسمه وذكر بعض أمره ، يُنشّئانهما كما تعود أمثالهما تنشيءُ أبنائهم في منزلة وَسَط بين منزلةالأحرار ومنزلة الرقيق . ثم أنصرفا عن هذه الدنيا وتركا فيها هذين الغلامين يعملان في ضيعة خلف ، ويسعيان ، في خدمة جُمَحَ كلها . وعاش خلف ما شاء الله أن يعيش ، ثم انصرف عن هذه الدنيا وترك ابنه أمية فتى قوياً جَلداً،وارثاً مع إخوته لما ترك من العروض والأرض ومن النعم والرقيق . لم يشهد رباح ولم تشهد حمامة ولم يشهد خلفٌ انحسار الليل المظلم وإسفار الصبح المشرق ، وإنما رأى بلال إسفار الصبح ، فامتلأ قلبه به نوراً ، ورأى أمية إسفار الصبح فامتلأ قلبه به ظلمة . وآل(٣)أمر بلال إلى أن أصبح من أحبّ الناس إلى النبيّ وآثرهم عنده ؛ وآل أمر أمية إلى أن أصبح من أبغض الناس إلى النبيّ حتى قُتل يوم بدر ، وأورث بغضه وعداءه للنبي أخاه أبياً ذلك الذي همّ أن يقتل النبيّ يوم أحد ولكن النبي يمسه برمحه فيفتح له باب الموت .

---

(١) منتهكة لحرماتنا : معتدية علينا . وانتهك حرمته : تناولها بما لا يحل .
(٢) أمسك عليك أهلك : احتفظ بهم .
(٣) آل أمره : رجع وانتهى .

ويقبل أمية ذات يوم ليشهد ما كان أبو جهل يصبّ على آل ياسر من العذاب فيقف ثم ينظر ثم يرى ثم يهزّ رأسه ثم يقول لأبي جهل : إذا كان الغد فأقْبلْ على دار جُمحَ لترى كيف نعذّب الصابئين من مستضعفينا ، وكيف نعذب زعيمهم بلالا !

١٠

شَدّ ما تعنفون الصبي وتشتطون عليه(١) ! ما رأيت كاليوم رجالا قُساة القلوب جُفاة الطباع غلاظ الأكباد !..

قالت ذلك أمّ أنمار ، ثم ألقت بنفسها بين أولئك الرهط(٢) من أعراب بني عامر ، فجعلت تدفع في صدر احدهم بقبضَة يدها اليمنى ، وتجذب ثوب أحدهم الآخر بيدها اليسرى ، تريد أن تردّهما عن ذلك الصبي الذي ألحوا عليه صَفْعاً وتأنيباً (٣). وكان أولئك الرهط من بني عامر قدأقبلوا من نجد يسوقون بين أيديهم مطايا تحمل تجارة من حَبّ العراق . فلما باعوا تجارتهم وباعوا الرواحل التي كانت تحمل هذه التجارة ، أرادوا أن يبيعوا غلامهم ذاك ، فعرضوه هنا وهناك ، ولكنهم لم يجدوا طالباً له ولا راغباً فيه ، فأحْفظتْ(٤)عليه نفوسهم وقست عليه قلوبهم ،وهمّوا أن ينصرفوا به ليعرضوه على من يمرون بهم من أحياء العرب ، لعلهم أن يجدوا له مشترياً. ولكن الغلام أظهر شيئاً من التمنع والتأبي ؛ كانت نفسه تكره أن ينقلب معهم لكثرة ما صبّوا عليه من الأذى وما نالوه به من المساءة . فلما أظهر الامتناع عليهم جدّوا في تأديبه وتأنيبه.وأدركتهم أم أنمار الخزاعية وهم يصنعون به هذا الصنيع ، فرقّ له قلبها ، ورحمته مما كان يلَقى من الضر ، فاندفعت تردهم

---

(١) عنفه : عامله بشدة ولم يرفق به . اشتط أفرط في الظلم .

(٢) الرهط : الجماعة دون العشرة .

(٣) صفعه : ضرب قفاه أو بدنه بكفه مبسوطة . وصفعه : ضربه على رأسه . وأنبه : عنفه

(٤) أحفظه : أغضبه

عنه وتحميه . قال أحد أولئك الرهط من بني عامر لأمّ أنمار : ما أنت وذاك ؟ ما رأينا كاليوم امرأة سَوء؟ ولو كنت في غير هذا الحرم لمسّك منا بعض ما تكرهين .

قالت أمّ أنمار وقد أخذ الغضب يسكت عنها ، وأخذ الابتسام يسعى في وجهها المتجعد : ولكني في هذا الحرم ، فلن تصل إليّ أيديكم . ألا تستحيون من أجسامكم هذه الطوال العراض ، ومن لحاكم هذه التي وَخَطها (١) الشيب ، ومن لممكم(٢) هذه التي ترسلونها على أكتافكم أن تبطشوا بهذا الصبي النحيف الضعيف ؟ ! قال أحد العامريين : لو أهمّك من طعامه ومؤنته ما يهمنا لما رَحمته ولا رَفَقت به ! إنه والله لغلامُ سَوْء ، يكلفنا من المؤونة ما يكلفنا ثم لا يغني عنا شيئاً ، ثم لا يكفيه ذلك حتى يُخالف عن أمرنا ويأبى أن يتبعنا ، كأنما أعجبته هذه القرية مع أنه لم يُعجِبْ من أهلها أحداً . قالت أمّ أنمار : فإنه قد أعجبني . قال العامري : فأدّي إلينا ثمنه ثم خذيه ، لاباركت الآلهة فيه . وكانت بينهم وبين أمّ أنمار مساومة طالت والتوت وكثر فيها الأخذ والرد والجذب والشدّ ، وانتهت بشراء أمّ أنمار الغلام بثمن بخس دراهمَ معدودة . وانصرف العامريون وقد ألقوا عن أنفسهم عبئاً ثقيلا . وعادت أم أنمار إلى دارها في حي بني زهرة تجرّ بيدها هذا الغلام الضئيل النحيل الذي مسه الضر وبلغ منه الجهد وكاد يقتله الجوع . وكانت كلما مرت بجماعة من رجال بني زُهرَة أو نسائهم قال لها أولئك أو هؤلاء : ويَحْكِ أمّ أنمار ! ما هذا الطفل الذي تجرينه ؟! فتجيب : وما أنتم وذاك ! غلام اشتريته لأؤمنه من خوف وأطعمه من جوع ، وأتخذه لي خادماً ولابني رفيقاً .

وبلغت أمّ أنمار بالغلام دارها فأطعمته وسقته وكسته حتى رضي ، وحتى ظهر في وجهه البائس الحزين شيءٌ من رضا وأمن وابتسام . ثم آخت بينه وبين ابنها عبد العزّى وتركتهما يلعبان ، وانصرفت لشأنها ، فطوّفت في دور كثيرة

---

(١) وخطها الشيب : خالط سواد شعرها.

(٢) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الاذن .

من دور مكة ومعها أداتها التي كانت تكسب بها قوتها وقوت ابنها ،وكانت خاتنة . وكانت تقول في نفسها منذ ذلك اليوم : وَيْحك أمّ أنمار ! قد كنت تعولين نفسك وصبياً واحداً فأصبحت تعولين نفسك وصبيين . ثم تقول لنفسها : لا تراعي أمّ أنمار ! فإنّ هذا الصبي متى استرد شيئاً من قوة وتقدّمت بهالسنّ شيئاً ، فقد ينفعك ويَغُلّ عليك(١)من المال ما يقيم أوَده(٢) ويُعينك على نائبات الأيام .

وكانت أمّ أنمار هذه امرأة خزاعية قد ألمتْ بمكة وتَزَوّجتْ من بعض أحلاف زُهرة فيها ، وعاشت تسعى بأداتها في دور قريش ، وكان الشباب قد انصرم عنها ، وجعلت الشيخوخة تسعى إليها مبطئة ، وكانت كثيرة الصمت ، إلا أن تُثار إلى الكلام ، وهناك لا تجد إلى السكوت ولا يجد إليها السكوت سبيلا .

فلما عادت مساء ذلك اليوم وجدت ابنها وغلامها قد تصرفا في فنون اللعب حتى أدركهما بعض الجهد ، فأطعمتهما وسقتهما . ثم أخذت تتحدث إلى الغلام في دعة ورفق . قالت له : ما اسمك يا بني ؟ قال الغلام : خبّاب. قالت أمّ أنمار : خبّاب ابن مَنْ ؟ قال الغلام : خباب بن الأرَتّ . ولكنه لم ينطق الراء كما ينطقها الصبية حين يكمل خَلْقُهم وتستقيم ألسنتهم ، وإنما انحرف بها بين شيء من اللام والياء . قالت أمّ أنمار : خباب بن الأرت؟ من أي أحياء العرب أنت يا بني ؟ قال الغلام : أحياء العرب ! أحياء العرب! لا أدري . قالت أمّ أنمار : أأعجميّ أنت ؟ قال الصبي أعجمي ؟ أعجمي! لا أدري . قالت أمّ أنمار : وما اسم أمك يا بني؟ هناك انتحب الصبي حتى رقّ له قلب العجوز ، فكفّت عن سؤاله ، وجعلت ترفق به وتكفكف دمعه حتى ثاب إليه شيء من طمأنينة وهدوء، ثم آوته إلى مضجعه ، وما زالت تلطف به حتى أسلمته إلى النوم ، وقد أرجأت تَعرّف قصته إلى غد أو بعد غد .

---

(١) يغل عليك من المال : يأتيك به . أغل على عياله أتاهم بالغلة .

(٢) الأود : الاعوجاج والكد والتعب . ويقيم أوده : يسد حاجته .

وقد حاولت أمّ أنمار من الغد وبعد الغد أن تستوفي قصة الصبي ، فعرفت منه بعد لأي وبعد نحيب وشهيق ، وبعد رفق كثير به وعطف كثير عليه ،أن هؤلاء الرهط من بني عامر أصابوا أسرته على غرّة والحي خُلوفٌ (١)،فقاومهم أبوه ما استطاع ، ولكنهم قتلوه على أعين امرأته وابنته الفتاة أسماء وابنههذا الصبي ، ثم استاقوا ماله وسَبَوْا أهله(٢)، وباعوا أمّه في حي من أحياء العرب. وباعوا أخته في حي آخر من أحياء العرب ، وأقبلوا به بمال أبيه .فباعوا المال في غير جهد ، وكسد الصبي في أيديهم(٣)حتى اشترته أمّ أنمار . ومنذ ذلك الوقت لم تَسِرْ أمّ أنمار مع هذا الصبي سيرة السيدة مع العبد ، وإنما سارت معه سيرة الأمّ مع ابنها ، ومضت الشهور والأعوام ، وأنسي الفتى أو كاد ينسى أنه غلام أمّ أنمار ، واستيقن الفتى أو كاد يستيقن أنه ابنها وأخو ابنها عبد العزّى، وشبوقد وطّن نفسه(٤)على أنه تميمي حليف لبني زهرة . ولما استطاع العمل أسلمته أمّ أنمار إلى رجل قَيْنٍ(٥)تعلم عنده صناعةالحديد والسلاح ولم ينيّف على العشرين من عمره حتى كان قد كسب لأمه ولنفسه شيئاً من مال، واشتغل بحانوت يتخذ فيه صناعة الحديد والسلاح .

وقد نشأ الغلام نشأة أمثاله من هؤلاء الأخلاط الذين يُجْلَبُون إلى مكة أو تُلقي آباءهم إليها الأقدار . نشأ غلاماً لا يحسّ ثِقل الرق ، ولكنه لا يذوق حلاوة الحرية ، وإنما هو شيءٌ بين ذلك ، ليس كامل الرق وليس كامل الحرية .

يرى من حوله شيوخاً سادة وشباباً مترفين ؛ ويرى من حوله شيوخاً أذلّة مستضعفين وشباباً تطمح نفوسهم وتقصر أيديهم وهممهم وأسبابهم عن بلوغ ما يطمحون إليه . وقد استقر في نفوس الشيوخ المستضعفين إذعانٌ للقدر

(١) الغرة : الغفلة . خلوف : غائبون .
(٢) استاقوا ماله : استولوا على إبله وساقوها أمامهم . وسبوا أهله : أسروهم .
(٣) كسد الصبي : لم يبع لقلة الراغبين فيه .
(٤) وطن نفسه على الأمر وللأمر : هيأها لفعله وحملها عليه .
(٥) القين : الحداد ، جمعه قيون وأقيان .

واستسلام للقضاء، و أظهروا لساداتهم الإكبار وأضمروا لهم البغض والشنآن(١). واستقر في نفوس الشباب الطامحين غيظ لا تُطفأ ناره ، وحسدٌ لا تُكْسَرُ حدّته (٢)، يرون أنهم ليسوا أقل من الشباب المترفين ذكاء قلوب ، وجلاء عقول ونفاذ بصائر(٣)، ولكنهم أقل منهم مالا وأضعف منهم قوة وأقصر منهم يداً ، قد أمسكتهم الحياة في حال لا تلائمهم ولا يلائمونها ، وحيل بينهم وبين الرقي إلى خير منها ،وقُضي عليهم أن يظلوا أتباعاً ، يَحيون أتباعاً و يموتون أتباعاً ، لا أمل لهم في سعة ولا في دعة(٤) ولا في مجد ولا في ارتقاء . فهم كالجياد المشدودة التي تَعلكُ(٥) شكائمها ، ويكاد المرَح والنشاط يُخرجها من جلودها . وكان هؤلاء الشباب إذا خلا بعضهم إلى بعض تحدثوا في حالتهم تلك فنوناً من الأحاديث ، كانت تنتهي بهم دائماً إلى الحسرة الدفينة والغيظ المكظوم . كانوا يقلّبون وجوههم فيما حولهم من القرى الحاضرة ، ومن أحياء العرب البادية ، فتتقطع بهم الآمال ، وَيُرَدَّون إلى العجز واليأس . يرون أن الحياة في مكة خير ما يمكن أن يتاح لهم ولأمثالهم من ضروب العيش . في مكة الأمن والسلم ، والقوتُ يُكسبُ في غير مشقة شاقة ولا جهد عسير . وليس في مكة مغامرة بالنفس ولا بالمال . وفي مكة الموسم الذي يجلب إليها وإلى ما حولها قبائل العرب وتجارتها من كل فج . فالحياة فيها وادعة خصبة ، ولكنها على ذلك مُغلقة إلا على الذين يُتيح لهم الغنى والمولد وشرف النسب أن يفتحوا أبوابها ويخرجوا منها إلى آفاق الأرض البعيدة ، ثم يعودون وقد ملأوا أيديهم بالمال ومتعوا أنفسهم بالرحلة والتنقل في الأقطار .

ولكن خباباً يلقى صديقاً له ذات يوم ، فلا يكاد يتحدث إليه ببعض ما كان

---

(١) الشنآن : البغض والعداوة .

(٢) لا تكسر حدته : لا تخف شدته ولا يسكن .

(٣) نفاذ بصائر : سلامة تفكير .

(٤) الدعة : الراحة وخفض العيش .

(٥) تعلك شكائمها : تمضغ الحديدة المعترضة في فمها .

يدور بينهما من حديث حتى يرى منه ازورارا (١) عن اليأس وانحرافاً عن الحزن وتعلقاً بأمل مشرق بعيد . يقول خباب لصاحبه : ما خَطْبُكَ؟ إني لأرى من شأنك شيئاً لم أعهده ، وما أنكرتُ من صديقي أحداً كما أنكرك منذ اليوم. فلا يجيبه صديقه بما تعوّد أن يُجيبه بمثله من رَجْع الحديث ، وإنما يتلو عليه :

اقرأ باسم ربِّك الذي خَلَق . خَلَق الإنْسان مِن علق (٢) . اقرأ وربك الأكرمُ . الَّذي علَّم بالقَلَم . علَّم الإنْسانَ ما لم يعْلَمْ .. كلا ، إنَّ الإنْسانَ لَيطْغَى أَنْ رآهُ اسْتغْنَى . إنَّ إلى ربِّك الرُّجْعى » .

فلا يكاد خبَّاب يسمع هذا الكلام حتى تجري في بدنه رعدة تصطكّ لها أسنانه وركبتاه (٣) ، ويتركه صاحبه ساعة ، حتى إذا هدأت رعدته وثاب إليه أمنه واستقر جسمه ، قال لصاحبه : وَيْحَكَ ! أعدْ عليّ ما قلت ؛ فإني أجد له في قلبي حراً ولا يكاد عقلي يفهمه . ويعيد عليه صاحبه تلك الآيات مرة ومرة . وإذا خباب يردّ على صاحبه فيتلو :

« كلا إنَّ الإنْسانَ لَيطْغَى أَنْ رآهُ اسْتغْنَى . إنَّ إلى ربِّك الرُّجْعى » .

ما هذا القول ؟ إنه ليس من عندك ، أين سمعته ؟ أو ممن سمعته ؟ وهل لي إلى أن أسمع مثله من سبيل ؟ قال صاحبه : نعم ! إن شئت فاصحبني إلى الأمين ؛ فإنه يتلو علينا هذا القول الذي يتنزل عليه من السماء .

ويُقبل أبو جهل ذات صباح على نادي قومه في المسجد فيقول وهو يضحك

---

(١) الازورار : العدول عن الشيء والانحراف عنه .

(٢) العلق : الدم .

(٣) تصطك : تضطرب وتضرب احداهما الأخرى .

ملء شدقيه(١) ويضرب فخذه بيده : يا معشر قريش ؛ اغدوا إن شئتم على منظر عَجب . إنّ ابن الخاتنة قد صبأ ، وإنا محرقوه بالنار ، قبل أن ينتصف النهار .

١١

أقبل مسعود بن غافل مع الحجيج من هُذَيْل ، فنزل في مكة على عبْد بن الحارث بن زُهْرَة بن كلاب ، وكان بينهما صهرٌ ، فأقام مسعودٌ عند أصهاره حتى انقضى الموسم . فلما همّ بالرجوع إلى موطنه من أرض هذيل قال لمضيفه : ألستَ ترى أن عهدك بارض هذيل بعيد ، وأن لك عندنا ابنة لها عليك بعض الحق ، وأن لابنتك هذه ابنة ليس حقها عليك بأقل من حق أمها ؟ قال عبد بن الحارث : صدقت ، إن عهدي بأرض هذيل لبعيد ، وإن لابنتي هاتين عليّ لحقاً عظيما ، ولكنك تعلم أن تلك الحرب قد أفسدت ما بيننا وبين قيس من الأسباب . ومع أن تلك الحرب قد وضعت أوزارها (٢) وجعلت أمورنا تستقيم قليلا قليلا ، فإن قريشاً لا تطرق نجداً إلا متحفظة محتاطة . قال مسعود : ماذا تقول ؟ إنكم معشر قريش أهل الحرم وحُماة البيت ، يأمن فيكم الخائف ويأوى إليكم الضائع ، ويجد الملهوف عندكم معونة وغوثاً ؛ فما ينبغي أن تكون الأرض كلها إلا حرَماً لكم تأمنون فيه من خوف ولا تعدو عليكم فيه العاديات (٣) . قال عبد بن الحارث : قد يكون ذلك كما قلت ، ولكنك رأيت قيساً تغزونا في أرضنا ، لا ترجو لبيتنا ولا لحرمنا وقاراً (٤). فمن يؤمن قريشياً أن تغوله من قيس وأحلافه غائلة(٥)؟ قال مسعود وقد أحفظه (٦) ما سمع :

---

(١) الشدق : زاوية الفم ، ويضحك ملء شدقيه : يضحك ضحكاً قوياً .
(٢) وضعت الحرب أوزارها : انقضت . وأوزار الحرب أثقالها .
(٣) تعدو عليكم العاديات : تنزل بكم المصائب . وعدا عليه : وثب ، وظلمه .
(٤) لا ترجو هنا : لا تخاف . والوقار : العظمة ، أي لا تهاب بيتنا ولا ترهبه .
(٥) تغوله : تهلكه وتأخذه من حيث لا يدري ، والغائلة : الداهية المهلكة .
(٦) أحفظه : أغضبه .

وإنك أنت لتقول ذلك ، ولك في هذيل صهر ، وتقول ذلك وابنتاك عندي ! قال عبد : وَصَلَتْكَ رَحِمٌ ! فإني لا أخاف شيئاً في أرض هذيل ، ولا يخاف غيري شيئاً في أرض هذيل ، ولكننا لا نبلغ أرضكم حتى نمرّ بحي من أحياء قيس أو أحلافها . قال مسعود : ويحك ! فإن شئت فاجعل بينك وبيني حلفاً يحميك من العاديات في كل أرض تصل إليها يد هذيل ، ويحميني من الغوائل في كل أرض تبلغها يد قريش . قال عبد : قد فعلت .

ولم يعد مسعود إلى أرض هذيل وحده ، وإنما ذهب معه إليها حليفه وذو صهره عبد بن الحارث بن زُهْرَة بن كلاب . فزار عنده ابنته هند ، وقد مات عنها زوجها ابن عبد وُدّ ، وزار بنتها أمّ عبْد ، وقبل طفلها الصغير عبدالله ابن مسعود . وأقام ما أقام في أرض هذيل ، ثم انحدر إلى مكة ، فلم يطل فيها مقامه حتى أدركه الموت ، ونشأ الصبي الهذليّ من قبل آبائه ، القرشي من قبل أمه ، في أرض هذيل نشأة أمثاله من أهل البادية : حياة أدنى إلى الشظف (١) منها إلى اللين ، وأقرب إلى العسر منها إلى اليسر ، ولا يكاد الصبي يبلغ أول الشباب حتى يفقد أباه ، وحتى تضيق به سبل العيش في أرض نجد ، فيهبط مكة ليأوى إلى أخواله من بني زُهْرَة ، ويقيم ما شاء الله أن يقيم عزيزاً بأخواله وبالحلف الذي كان بينهم وبين أبيه . ولم يكن الشباب من أهل مكة يألفون حياة البطالة والترف إلا أن يكونوا من أبناء السادة والأغنياء ، وإنما كان سبيل الفتى من أوساط الناس في قريش وأحلافها إذا بلغ السن التي يستطيع أن يكسب فيها القوت أن يسعى على رزقه كما يستطيع ، لا يرى بذلك بأساً ولا يجد فيه جُناحاً(٢). وإنما البأس كل البأس والجناح كل الجناح أن يعيش الفتى كلاًّ(٣) على آبائه أو أخواله .

وقد سعى عبد الله بن مسعود على رزقه ، والتمس القوت من مصادره ،

---

(١) شظف العيش : ضيقه وشدته .

(٢) الجناح : الإثم .

(٣) الكل : العالة على غيره .

فعرض نفسه على كثير من الناس ، وجرّب كثيراً من فنون العمل ؛ ولكن شيئاً واحداً راقه وأعجبه ولاءم طبيعته الهادئة ونفسه الراضية وقلبه المطمئن السليم ، فأصبح راعياً لعقبة بن أبي مُعيْط ، يرعى عليه غُنيمات له في ظاهر مكة ، يغدو بها مع الصبح ويروح بها مع الليل ، وينفق نهاره معها راضياً وادعاً ، قد خلا إلى نفسه ، فأمن غائلة الناس وأمن الناس غوائله .

وإنه لفي غنيماته تلك ذات يوم . وإذا رجلان يقفان عليه ، وقد ظهر على وجهيهما شيءٌ من خوف أخذ يذهب شيئاً فشيئاً ، فيستريح الرجلان ساعة مما أدركهما من الجهد ، وكأنهما قد اضْطُرّا إلى كثير من العَدْو أمام قوم كانوا يَجِدّون في آثارهما. وينظر الفتى إليهما صامتاً لا يقول لهما شيئاً. وما الذي يعنيه من أمرهما ، وهو إنما خلا إلى غنماته تلك ليصرف نفسه عن أمر الناس ويصرف الناس عن أمره ! ولكن أحد الرجلين يسأله فيقول : يا غلام ، هل عندك من لبن تسقينا فإنّا ظماء ؟ قال الغلام : إني مؤتمن ، ولن أسقيكما . ولو كانت هذه الغنيمات لي لما بخلت عليكما بما ينقع الغلة ويَبل الصدى (١). فينظر أحد الرجلين إلى صاحبه نظرة مطمئنة كأنه يقول له : لقد أصاب الغلام وآثر البرّ. ثم يحوّل الرجل نظره المطمئن إلى الغلام ويقول : فهل عندك من جَذَعة(٢) لم يَنزُ عليها الفحل ؟ قال الغلام : أما هذا فنعم . ثم يمضي غير بعيد ويعود ومعه شاة ؛ فيعتقلها الرجل ذو النظر المطمئن ، ثم يمسح على ضرعها ويدعو بكلام يسمعه الغلام ولا يعقله . وينظر الغلام فإذا الضرع قد حفَل وإذا الرجل الآخر يأتي صاحبه بصخرة متقعرة ، فيحلب فيها ويسقيه . ثم يسقي الغلام . ثم يشرب هو ، ثم يقول للضرع : اقلص(٣)، فيعود الضرع كعهده قبل أن تُعتقل الشاة .

هنالك يُبْهَتُ(٤) الفتى فينعقد لسانه فلا يقول شيئاً ، وإنما يقف واجماً

---

(١) ينقع : يروي . الغلة : العطش الشديد ، وكذلك الصدى .
(٢) الجذعة : الصغيرة .
(٣) أقلص : ارتفع .
(٤) يبهت : يدهش ويسكت متحيراً .

ذاهلا يردّد طرفه الحائر بين الرجلين . ويظل الفتى كذلك ، وقد انصرف عنه ذو النظر المطمئن وصاحبه ومضيا مستأنيين لا ينظران إليهولا يقولان له شيئاً . ولم يَدْرِ الفتى أطال وقوفه ذلك الحائر أم قصر ، ولم يدر الفتى ماذا صنع ولا فيم فكر بقية يومه ، وإنما يرى نفسه حين تنصرف الشمس إلى مغربها مجررة أذيالها تلك الشاحبة التي تتعلق بأعالي الربى ورؤوس الجبال ريثما تسحبها الشمس أو يمحوها الليل — يرى نفسه في تلك الساعة رائحاً إلى مكة وبين يديه غنيماته يَهشّ(١) عليها بعصاه دون أن يفكر فيها أو يحفل بها ، وقد امتلأت نفسه بخاطر يُحسه ولا يتبينه . ثم يرى نفسه وقد آوى الغنيمات إلى حظيرتها ، وأقبل يسعى هادئاً مطمئن الخطو ذاهل النفس مع ذلك مُشرّد العقل يلتمس عُقبة بن أبي مُعيط ، فيراه قد جلس في صحن داره ومن حوله بنوه وبعض ذوي قرابته ، فيسعى الفتى حتى يقف منه غير بعيد ، ثم يقول : أي أبا الوليد ، أغْد(٢) مع غنيماتك غيري من رفيقك وأحلافك ! فإني عن رعيها راغب منذ اليوم . قال عقبة : وَيْحكَ يا فتى هذيل ! ماذاأنكرت مناأومنها؟قال الفتى لم أنكر منكم ولا منها شيئاً ، ولكني رغبت عن رعي الغنم . ثم ولّى لا يسمع لما كان يقال له ، ولا يحفل(٣) بما كان يُظن به . ولم يعد إلى بيته ، وإنما عاد إلى ذلك المكان الذي كان يرعى فيه غُنيماته ، واستحضر في نفسه ذينك الرجلين يعروهما بعض الروع(٤) ويثوب إليهما الهدوء قليلا قليلا ، ويستسقيانه فيأبى عليهما . واستحضر في نفسه الشاة الجذَعة التي لا عهد لضرعها باللبن ، ثم رأى ضرعها يحفل(٥) ، ورأى اللبن يشخب منه في تلك الصخرة الجوفاء . ثم استحضر ذوق ذلك اللبن الذي شربه ، فلم يذكر أنه شرب مثله قط . وحاول أن يذكر ذلك الكلام الذي دعا به الرجل ذو النظر المطمئن وهو يمسح ضرع

---

(١) هش الورق بعصاه : خبطه ليسقط .

(٢) أي اجعل غيري يغدو مع غنيماتك .

(٣) يحفل : يبالي ويهتم .

(٤) يعروهما : ينزل بهما . الروع : الفزع .

(٥) يحفل : يتجمع فيه اللبن بكثرة .

الشاة فلم يذكر منه شيئاً ؛ فهاله ذلك ، ورابه من نفسه كلها ريب[١] ، فلم يحرص قط على شيْ حرصه على أن يحفظ ذلك الكلام ، وكان عهده بنفسه ألا يسمع شيئاً إلا استقرّ في قلبه كأنه نُقش فيه نقشاً . فيقول الفتّى لنفسه : إن لهذا الرجل ذي النظر المطمئن وصاحبه وكلامه لشأناً . وقد طال مكث الفتّى بهذا المكان ساكتاً ساكناً يدير طرْفه من حوله ، ثم يقلب طرفه في السماء لا يكاد يفكر في شيْ ، أو لا يكاد يحقق شيئاً مما يفكر فيه ، وإنما يرى في نفسه أول الأمر ، ثم من حوله بعد ذلك ، صورة الرجل المطمئن معتقلا شاته تلك ماسحاً ضرعها متكلماً بذلك الكلام الذي سمعه ولم يعقله ، والذي يحاول أن يذكره فلا يجد إلى ذكره سبيلا .

وينصرف الفتّى عن مكانه ذاك حين تقدّم الليل ، ولكنه لا يعود إلى مكة ، وإنما يهيم فيما حوله من الأرض مستأنساً إلى وحشته حريصاً على وحدته ، لا يحس جهداً ولا تعباً ولا حاجة إلى النوم ، ولا يحس ظمأ ولا جوعاً ، وإنما يجد في فمه ذوق اللبن ، ويرى في عينه صورة ذلك الرجل المطمئن الوادع ، ويسمع في أذنيه صوت ذلك الرجل ممتلئاً عذباً يجري بكلامه ذاك الذي لا يذكره كما يجري الينبوع الرقيق الصافي بالعذب الزّلال . وأنفق الفتّى ليلته تلك لم يظله سقف ولم يؤوه مضجع . حتّى إذا تجلت شمس النهار عاد إلى مكة حين يغدو منها الرعيان . ولم يستقر قراره حتّى عرف ذلك الرجل المطمئن وصاحبه ، ومكانهما ، فيسعى حتّى يجد محمداً رسول الله . فإذا دنا منه ألقى النبي إليه نظرة مطمئنة ، وابتسم له ، والفتّى يدنو منه حتّى يبلغه ، ثم يجلس بين يديه ، ثم يقول له في صوت رقيق يضطرب اضطراباً خفياً : عَلّمني من هذا الكلام الذي سمعته منك أمس . قال النبي مبتسما له : إنك غلام مُعلّمٌ . ومنذ ذلك الوقت استقر في نفس الفتّى أنه لم يُخلق لنفسه ولا لأهله ولا لغنيمات عقبة بن أبي معيط ، وإنما خلق ليلزم محمداً هذا الأمين ، فيسمع منه ويحفظ عنه ويدعو بدعوته . وكان الفتّى خفيفاً نحيفاً دقيق الجسم سريع الحركة عظيم النشاط ، فلم يكد

---

(١) رابه : أوقعه في الريب وهو الشك والتهمة وقلق النفس واضطرابها .

يلزم رسول الله أياماً ويسمع منه ويحفظ ما قال حتّى رأته قريش في أنحاء مكة متنقلا بذكر محمد وكلامه يذيعه في كل وجه، ويُفشيه في كل مجلس، ويتحدث به في كل مكان. وكان لخفته وسُرعته مصدر عناء لقريش، تراه في هذا المكان فلا تكاد تَهمّ به حتّى تنظر فإذا هو قد استخفى وانتقل إلى مكان آخر، لا يدرون كيف انتقل إليه. فكان المتتبعون للنبي وأصحابه يرون هذا الفتى في كل مكان ولا يكادون يظفرون به مع ذلك في أي مكان! حتّى قال أبو جهل ذات يوم: ما ضقت بأحد من أصحاب محمد كما أضيق بهذا الفتى الهذلي أراه في كل وجه مذيعاً بدعوة محمد مفسداً بها قلوب الناس، ولا أجد لي عليه سبيلا. ولو قد ظفرت به لما أبقيت عليه (١). قال عُتبة ابن أبي ربيعة: مهلا أبا الحكم، لا تبطش بهذا الفتى الهذليّ، فإن زُهرة لن تُسلمه، وإنك إن تنله بسوء تؤلب هذيلا كلها(٢) على قريش وتقطع عليها طريقاً لا تحرص على شيء كما تحرص على أمنه وسلمه. قال أبو جهل: هو ذاك، ولكن أقسم مع ذلك لأذيقنّ هذا الفتى بعض ما يكره إن قدرت عليه. ولم يقدر عليه أبو جهل إلا بأخرة حين أذن النبي لأصحابه في الهجرة إلى أرض الحبشة. مر أبو جهل ذات يوم غير بعيد من المسجد، فرأى رهطاً من الناس قد تحلّقوا(٣) حول رجل ضئيل نحيل، وخيل إليه من بعيد أنه يقول لهم وأنهم يسمعون له، فأستأنى(٤) أبو جهل في مشيته، وضاءل من شخصه، وتمسح بالجدران، ومضى كذلك مستخفياً أو كالمستخفي، حتّى فجأ القوم، فوقف منهم غير بعيد، يراهم ولا يرونه، وتسمّع لصوت ذلك الرجل الضئيل النحيل، فإذا صوتٌ عذب يتلو كلاماً عذباً، فيصغى أبو جهل بنفسه كلها ليسمع ما يجري به هذا الصوت العذب من هذا الكلام العذب، وإذا ابن مسعود يتلو على من حوله هذه الآيات الروائع من سورة الفرقان:

---

(١) أبقيت عليه: تركه حياً.

(٢) تؤلب هذيلا: تثير عداوتها.

(٣) تحلقوا: تجمعوا في حلقة.

(٤) استأنى: تمهل.

« عبادُ الرّحْمن الذين يمشونَ علَى الأَرْض هَوْناً وإذا خَاطَبهمُ الجاهلونَ قَالُوا سلَاماً . والذينَ يبيتونَ لربِّهم سُجّدًا وقياماً . والذين يقُولونَ ربّنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ، إنَّها ساءت مستقرًّا ومُقاما . والذين إذا أَنفقوا لم يُسرفوا ولم يقترُوا وكان بينَ ذلك قَواماً . والذين لا يدْعُونَ مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحقّ ولا يزنون ومنْ يفعلْ ذَلك يلقَ أثاماً . يضاعف لهُ العذَاب يوْم القيامة ويخْلُدْ فيه مهاناً . إلا منْ تاب وآمنَ وعمل عملًا صالحاً فَأُولئك يُبدِّلُ اللهُ سيئاتهمْ حسنات وكانَ اللهُ غَفورًا رحيما . ومنْ تَاب وعملَ صالحاً فإنَّه يتوبُ إلى الله متاباً . والذين لا يشْهدُونَ الزّور وإذا مرُّوا باللغو مرُّوا كراماً ... » .

وكان أبو جهل يسمع لهذا الذكر فيخفق له قلبه وتخشع له نفسه ، ولو قد أرسل طبعه على سجيته لقال كما سمع بعض أولئك الرهط ، يقول لعبد الله بن مسعود في صوت تحتبس فيه الزفرات : إني والله لأحُبّ أن أكون من هؤلاء . ولكن أبا جهل لا يُرسل طبعه على سجيته ، وإنما يدعو حسدَه وكبرياءه وأنفته ، ثم ينصب على أولئك الرهط كما ينصبّ الصقر على فريسته وهو يصيح : بؤساً لكم من رهط سَوء! ما رأيت كاليوم جراءة . إنكم لتجتمعون حول هذا الرجل وتستمعون له ، وليست أندية قريش منكم ببعيد . فما يمنعكم أن تقتحموا علينا المسجد وأن تتحلقوا فيه ! ولم يكد أولئك الرهط يرون ذلك الشخص البشع ، ويسمعون ذلك الصوت المنكر حتى تفرقوا سراعاً . وظل

ابن مسعود قائماً مكانه لا يَريم(١) . فيدنو منه أبو جهل مُغضباً وهو يقول : ويلك يا ابن أمّ عبد ! ما تزال تفسد علينا أحلافنا ورقيقنا ، وما أراك منتهياً حتى تصيبك مني بائقة(٢). وهمّ ابن مسعود أن يرد عليه مقالته ، ولكن أبا جهل لا يمهله ، وإنما يعلوه بالقوس فيشجه . وقد أخذ الدم يتحدّر على وجهه ، ولكنه لم يحفل بذلك ، وإنما يسرع في خفة إلى أبي جهل وهو يقول : فأما إذا فعلت ما فعلت فخذها وأنا فتى هذيل ! ثم يدفع في صدر أبي جهل بإحدى يديه ويلطم وجهه بيده الأخرى ، ثم ينصرف عنه مستأنياً متمهلا ، ويتركه قائماً واجماً قد أخذه الذهول ، لم يكن يُقدّر أن حليفاً من أحلاف قريش يستطيع أن يدفع في صدره ويلطم حُرّ وجهه . ثم تثوب إلى أبي جهل نفسه فيصيح يا ابن مسعود ، لن تُفلت بها يا راعي الغنم . قال ابن مسعود : ولن تُفلت بما فعلت يا عدوّ الله .

ويمضي كلا الرجلين إلى أصحابه . فأما ابن مسعود فيلقى رهطاً من أصحاب النبي ، فيقول لهم وعلى ثغره ابتسامة وفي عينيه دمعتان تترقرقان : لا مُقامَ لي بمكة منذ اليوم ؛ فقد لطمت وجه أبي جهل . والله إني بالهجرة لفرح ، وإني بها لمحزون : فيها ثواب الله ومغفرته ، وفيها فراق رسول الله دهراً لا أدري أيقصر أم يطول . وأما أبو جهل فيعود إلى نادي قومه وقد انكسرت نفسه واستخذى ضميره ، ولكنه على ذلك يُظهر الغضب والكبرياء ويقول لأهل ناديه : ويحكم يا بني مخزوم ! إن كانت لكم بقية من عزة فأمكنوني من ابن أم عبد ، فإنه أتى إليّ ذنباً لا يغسله إلا دمه . ويلتمس القوم عبد الله بن مسعود في مكة وما حولها فلا يظفرون به ولا يقدرون عليه ولا يرى أبو جهل خَصْمَه إلا يوم بدر .

---

(١) لا يريم : لا يبرح ولا يتنقل .

(٢) البائقة : الهلاك والشر .

١٢

أقبل سلاّم بن حبير القُرَظي من الشام ، كعهده في كل عام ، بتجارة عظيمة فيها فنون من العروض وضروب من المتاع ، بعضه مما تخرج الشام ، وبعضه مما يصنع أهل الجزيرة ، وبعضه مما تحمله الروم إلى دمشق وبُصرى وتبيعه من قوافل العرب واليهود ليحملوه إلى الأرض البعيدة ، التي لا تصل إليها يد قيصر ولا يبلغها سلطانه في نجد والحجاز وفي تهامة واليمن . ولم يكد سلاّم بن حبير يستقر في بني قُرَيظة ويريح نفسه من سفر شاق طويل ، حتى عرض متاعه ذاك المختلف للناس ، فأقبل عليه أهل يثرب من الأوس والخزرج ، وأقبل عليه مَنْ حول يثرب من يهود ينظرون ويشترون ولم تمض أيام حتى كان سلاّم بن حبير قد باع تجارته وأفاد منها مالا كثيراً . ولولا هذا الصبي الذي عرضه سلام على العرب فرغبوا عنه ، وعلى اليهود فزهدوا فيه ، لرضيت نفس سلام كل الرضا ، ولأنفق الأشهر المقبلة مطمئناً مغتبطاً مجوّلا في أحياء يثرب مرسلا رقيقه وأحلافه فيما حول يثرب من أحياء العرب واليهود وفي أعماق البادية ، يجلبون له من المتاع الذي يحمله إلى الشام متى أقبل فصل الرحلة إلى الشام .

ولكن هذا الصبي كان غُصّة (١) في حلقه وحسرة في قلبه ، قد اشتراه في بُصرى من بعض الكلبيين بثمن بخس زهيد ، وقدّر في نفسه أنه سيبيعه من بعض أهل يثرب فيربح في ثمنه ذاك الذي أداه مثليه أو أمثاله ، ولكن أهل يثرب من العرب واليهود لم يعهدوا سلاّماً جالباً للرقيق أو متّجراً فيه . فلما رأوه يعرض عليهم هذا الصبي ويلح في عرضه ويرغّب في شرائه أنكروا منه ذلك وظنوا به الظنون . وقال قائلهم : إنما اشترى سلاّم هذا الغلام لنفسه ، فلا نأمن أن يكون قد رأى فيه من العيب أو الآفة ما زهّده فيه ، فهو يبيعنا ما ليس له فيه أرب . وكان الصبي بادي السقم ظاهر الضر ، كأنه قد لقي من الذين

(١) الغصة : ما يعترض حلق الشارب . والمراد عائقاً وحائلا دون غبطته .

اتّجروا فيه شراً ونُكراً . ولم يكن يُحسن العربية ، بل لم يكن يستطيع أن يُفصح عن ذات نفسه . ولم يكن يُحسن الرومية بل لم يكن ينطق منها حرفاً ، وإنما كان إذا كلمه سيده أو غير سيده من الناس التوى لسانه بألفاظ فارسية لا يفهمها عنه أحد . وكان سَلاّم يزعم الناس أن هذا الصبي ذكي الفؤاد صَنَاعُ(١) اليد موفور النشاط إذا صلحت حاله ووجد من الطعام ما يقيم أوده . وكان يزعم لهم أنه سليل أسرة فارسية شريفة أقبلت من إصْطَخر حتى استقرت في الأبُلّة ، فملكت أرضاً واسعة وزارعت فيها النبط ، وملكت تجارة عريضة كانت تُصرفها في أطراف العراق .

فإذا سئل من أنباء هذه الأسرة عن أكثر من ذلك لم يُحِرْ جواباً (٢)، وإنما يقول : زعم لي من باعني هذا الصبي أن العرب اختطفوه حين أغاروا مع الروم على الأبلة ، فباعوه من بني كلب ، وتعرّض به بنو كلب في بصْرَى يريدون أن يبيعوه لبعض تجار العرب أو اليهود . وقد رأيته فرقّ له قلبي ومالت إليه نفسي ، وقدّرت أن سيكون له شأن أي شأن ، فاشتريته فيما اشتريت من المتاع والعروض .

هنالك كان الناس يقولون له : فلم لا تُمسكه عليك(٣) إذن ؟ فيقول : إن ما أنفقت من المال فيه أحب إليّ وآثر عندي منه .

وماذا أصنع بصبي لا أحسن القيام عليه ولا يُحسن هو أن يقوم على نفسه ، وليس لي أهل أكله إليهم ؟ والصبي مع ذلك ذكي القلب صناع اليد موفور النشاط إن صلحت حاله واصاب من الطعام ما يقيم أوده . انظروا إلى عينيه كيف تدوران ولا تكادان تستقران على شيء. إنه سريع الحس يخطف ما يرى دون أن يثبته (٤) . وانظروا إليهما كيف تتوقدان كأنهما جذوتان . ولكن الناس

---

(١) صناع : ماهر حاذق في عمله.

(٢) لم يرد جوابا .

(٣) تمسكه عليك : تحتفظ به لنفسك .

(٤) دون أن يثبته : دون أن يعرفه حق المعرفة .

كانوا يسمعون ويضحكون وينصرفون ويتركون سلاّماً وفي قلبه حسرة على ما أنفق من مال وعلى ما كان يرجو من ربح .

وتمر ثُبيْتة بنت يَعار الأوسية بسلاّم ذاتَ ضحى وهو يعرض صبيه هذا في بعض أسواق يثرب ، فلا تكاد تنظر إلى الصبي حتى ترحمه ، ثم لا تكاد تطيل النظر إليه حتى تقع في قلبها الرغبة في شرائه . قالت ثبيتة : ما اسم صبيك هذا يا ابن حبير ؟ قال سلاّم : زعم من باعه لي من بني كلب ان اسمه سالم . قالت : سالم ابن من ؟ قال سلام : لا أدري ؛ ولكني اشتريته من كلبي يسمى معْقِلا ، وزعم لي أن أسرته أسرة شريفة أقبلت ... قالت ثبيتة : أقبلت من إصطخر فنزلت الأبلة وزارعت النبط وصرّفت تجارتها في أطراف العراق ، قد حفظنا ذلك عن ظهر قلب ؛ فإني له مشترية ، فبكم تبيعه مني ؟ قال سلاّم وقد ابتسم قلبه ورضيت نفسه ، ولكنه استبقى في وجهه الجد والحزم : فإني لا أريد إلا ما أديت من ثمن وما أنفقت عليه منذ اشتريته . وتتصل المساومة بينها وبينه ، وتعود إلى دارها بالصبي وقد ربح اليهودي فأحسن الربح ، وربحت هي بشراء هذا الصبي ربحاً لا يقوّم بالدراهم ولا بالدنانير .

ذلك أنها لم تشتره متجرة ولا مبتغية كسباً ، وإنما آثرت بشرائه الخير والبر والمعروف ، لم تُرد إلى شيء آخر . وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي إلى دارها : بُعداً لهذه الحياة التي لا يرحم الإنسان فيها الإنسان(٢) ؛ ولا يرأف القوي فيها بالضعيف ، ولا ترقّ فيها القلوب للأمّ حين تفقد صبيها ، وللصبي حين ينشأ لا يعرف لنفسه أماً ولا أباً ولا فصيلة يأوي إليها ؛ وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي إلى دارها : لو أن لي صبيا مثله فعدا عليه العادون ومَضَوا به في غير مذهب من الأرض (٣) كيف كنت ألقى ذلك ! وكيف كنت أحتمله أو أصبر عليه ! وهل كنت أسلو عن صبيي آخر الدهر !

هيهات ! لو كان لي صبي مثله وعدا عليه العادون وذهبوا به في غير مذهب من الأرض لذكرته مصبحة وممسية ، ولذكرته يقظى ونائمة ، ولتبعته نفسي

(١) بعداً له : دعاء عليه ، أي أبعده الله . (٢) عدا : وثب . مذهب : طريق .

وذهبت في تصوّر حاله المذاهب ، ولما اطمأنت للعيش ولا نَعِمت بالحياة ولا استمتعت بطيبات هذه الدنيا . وكانت ترى أم الصبي وقد انتزع منها ابنها وهي تشهد انتزاعه ، أو اختطف ابنها وهي لا ترى اختطافه ، وكانت ترَى تَوَلّه (١) تلك الأم وتفجعها وحسرتها التي لا تخمد ولوعتها التي لا تنطفىء ودموعها التي لا تغيض .

وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي إلى دارها : هذا غلام قد اختطف من ملك كسرى ، لم يستطع جند كسرى أن يحموه ولا أن يَرُدّوا عنه العاديات ، فكيف بنا نحن في يثرب ، هذه المدينة الخائفة التي يحيط بها اليهود والأعراب من جميع أقطارها ، والتي يسلّ بعض أهلها السيف على بعض ، والتي لا يأمن أهلها أن تدور عليهم دائرة ، أو تنوبهم نائبة ، أو يُلم بهم خطبٌ من الخطوب ؟ فلما بلغت الدار واستقرت فيها ، وَعُنِيَتْ بالصبي حتى أمن بعد خوف ، وأنس بعد وحشة ، وطعم بعد جوع ، قالت لنفسها في نفسها : هيهات أن أتخذ الأزواج أو أن يكون لي من الولد من يصيبه مثل ما أصاب هذا الصبي ، ومن أذوق فيه من الحزن والثكل مثل ما ذاقت في هذا الصبي أمه تلك الفارسية ونساء أمثالها كثير . ولو استجابت الحياة لثبيتة لأنفقت أيامها معنية بهذا الصبي الفارسي ، ولاتخذته لنفسها ولداً أو شيئاً يشبه الولد . ولكن الناس يقدّرون ويدبرون ، والأيام تجري على غير ما قدّروا ودبروا .

فقد عُنيت ثُبيتة بسالم حتى ربا جسمه ونما عقله ، وأصبح غلاماً ذكي القلب ، سريع الحس ، حديد اللسان كما قدّر اليهودي ، أو أكثر مما قدّر . وكانت ثُبيتة له محبة وبه مغتبطة وعنه راضية . وقد خطبها الرجال من الأوس والخزرج ومن أشراف البادية حول يثرب ، فامتنعت عليهم ، واعتلت على أهلها في ذلك حتى أعيتهم . ولكن وفد قريش يمرون بيثرب مُنصرَفهم من الشام ذات عام ، فيمكثون فيها أياماً . ويسمع أبو حذيفة هُشيم بن عُتبة بن ربيعة بحديث

---

(١) التوله : الحزن الشديد .

ثبيتة هذه وقصة غلامها ذاك ، فيعجبه ما يسمع ، ثم يحب أن يتزيد من أخبارها فَيُلم بقومها ويقول لهم ويسمع منهم ، فتقع ثبيتة من نفسه موقعاً حسناً ، مع أنه لم يرها ولم يسمع لها ، وإنما سمع عنها فرضي ، وإذا هو يخطب هذه الفتاة الأبية ، فتمتنع عليه أول الأمر ، حتى إذا علمت بمكانه من قريش وبأنه من أشرافها وذوي المنزلة الرفيعة فيها ، وبأنه من أصحاب البيت وأهل الحرم الذي رُدّ عنه أصحاب الفيل ، والذي لا يعدو عليه إلا الفجرةُ الآثمون ، شكت يوماً ويوماً ، ثم أصبحت مستجيبة لخطبة هذا المكي .

ويعود أبو حذيفة بأهله وبسالم إلى مكة في وفد قريش ؛ فلا يكاد يستقر فيها حتى ينكر من أمرها بعض الشيء . لقد أصبح فغدا على أندية قريش ، ثم أمسى فراح إلى أندية قريش ، ولكنه يعرف من أمر هذه الأندية كثيراً ، وينكر من أمرها كثيراً . تريد نفسه أن تطمئن وأن تأمن وأن ترضى ، كما تعودت من قبل ، ولكنها لا تجد إلى الطمأنينة ولا إلى الأمن ولا إلى الرضا سبيلا يحس أبو حذيفة كأن شيئاً ينقص هذه الأندية ، وكأن حدثاً قد حدث في مكة لا يدري أيسيرٌ هو أم خطير ، ولكن شيئاً قد حدث فتغيّر من أمر قومه تغيراً يحسه ولا يحققه .

ثم يلتمس بعض صديقه في أندية قريش فلا يجدهم . يسأل : أين عثمان بن عفان الأموي ؟ وأين طلحة بن عبيد الله التيمي ؟ وأين فلان وفلان من ذوي مودته ؟ فلا يجيبه قومه بالتصريح ، وإنما يُؤْثِرُ بعضهم الصمت ، ويذهب بعضهم مذهب التورية ، ويلوي بعضهم ألسنتهم بأحاديث لا تُفصح ولا تُبين . ويرى أبو حذيفة ويسمع ، فيبعد الأمد بينه وبين الطمأنينة والأمن والرضا . ثم يصبح ذات يوم وقد انجلت له بصيرته ، ووضح له وجهُ الحزم من أمره . إن صديقه أولئك بمكة لم يفارقوها ولم يبرحوا أرض الحرم ، فماله يسأل عنهم ولا يُلمّ بهم ؛ ولا يكاد هذا الخاطر يخطر له حتى يقصد قصْد فلان أو فلان من أولئك الصديق .

وقد ألمّ بعثمان بن عفّان وكان له خليلا على ما كان بينهما من تفاوت

في السن . كان عثمان قد تخطّى الأربعين أو كاد ، وكان أبو حذيفة لم يبلغ الثلاثين بعدُ ، ولكن الود كان بينهما قديماً متيناً ، زادته الصحبة في الإسفار قوة وأيداً . فلما بلغ أبو حذيفة دار عثمان ودخل عليه تلقاه صديقه بما تعوّد أن يتلقاه به من البشر والبشاشة ومن الرفق واللين . ولكن أبا حذيفة آنس من صديقه على ذلك كله شيئاً من تحفظ واحتشام . قال أبو حذيفة : لقد التمستك (١) أبا عمرو في أندية قريش منذ عاد الوفد إلى مكة فلم أجدك ، فما عسى أن يكون قد حبسك عن قومك ؟ قال عثمان : لم أنشطْ لهذه الأندية ولا لما يدور فيها من حديث . قال أبو حذيفة : فهل أنكرت من قومك شيئاً ؟ وهنا سكت عثمان ولم يُجب . فأعاد عليه أبو حذيفة مقالته ، فأمعن عثمان في الصمت . قال أبو حذيفة : إن لك أبا عمرو لشأنا ولا واللاّت والعزى . ولكن عثمانُ لم يكدْ يسمع قَسمه هذا حتى لوى وجهه (٢).

وينظر أبو حذيفة فإذا وجه صاحبه قد اربْدّ وظهر فيه غضبٌ لم يألفه منه قط . قال أبو حذيفة : وَيْحك أبا عمرو ! إنك لتعرف ما بينك وبيني من الود ، وإنك لي لخليل وفيّ أمين ، فأظْهِرني على ذات نفسك . قال عثمان في صوت وادع لين : فإن شئت أن تستبقي ما بيننا من الود فلا تذكر اللات والعزّى وهذه الآلهة التي لا تغني عنكم شيئاً . هنالك وجم(٣) أبو حذيفة وجمة قصيرة ، ثم قال : وَيْحك أبا عمرو ! فإنك إذن قد صبوْت ؟ قال عثمان في صوت أشد دعة وأعظم ليناً : لم أصبوْ أبا حذيفة ، وإنما اهتديت : إنك فتى حازم رشيد لم تتقدم بك السنّ بعد ، ولكن رأيت الدنيا وطوّفت في أقطار الأرض وبلوت أخبار الناس وجرّبت الأحداث والخطوب ، أفترى من الرشد أن يؤمن مثلك ومثلي لأنصاب(٤) من خشب وصخر صوّرها الناس بأيديهم ، ويستطيع من شاء منهم أن يجعلها جُذاذاً(٥)؟

---

(١) التمستك : طلبتك وبحثت عنك .
(٢) لوى وجهه : أماله وأعرض .
(٣) وجم : سكت وعجز عن التكلم .
(٤) الأنصاب : جمع نصب ، وهو ما عبد من دون الله من الأصنام .
(٥) جذاذاً : قطعاً .

قال أبو حذيفة : ما أراك أبا عمرو إلا رشيداً ، ولكني لم أفكر في هذه الأشياء قط ، وإنما وجدت قومنا يعبدون هذه الأنصاب فصنعت صنيعهم . قال عثمان : وإذا أسفر الهدى وحصحص الحق(٢) ؟ قال أبو حذيفة : فقد وجب علينا أن نهتدي ونَتَبع الحق ، متى تستصحبني إلى محمد ؟ قال عثمان الآن إن شئت .

وأمسى أبو حذيفة مسلماً ، ودخل بإسلامه على ثُبيتة ؛ فلم تكد تسمع له حتى آمنت بمحمد وما جاء به . وسمع الغلام سالم حديثهما فمالت إليه نفسه ، وإذا هو يؤمن كما آمنا . ولم يتقدّم الليل حتى زادت بيوت الإسلام في مكة بيتاً .

وتمضي أيام قليلة وإذا ثبيتة تعلم أن محمداً يدعو إلى إعتاق الرقيق ، ويعد الذين يَفكّون الرقاب مغفرة من الله ورحمة ورضواناً . فتدعو إليها غلامها ذاك الفارسي وتقول له : اذهب سالم فإني قد سيبتك لله عزّ وَجلّ ، فوال من شئت . قال سالم لأبي حذيفة : فهل لك في أن تكون لي ولياً ؟ قال أبو حذيفة : هيهات ! لن أتخذك مولى ، وإنما أنت ابن لي منذ اليوم .

١٣

دخل عبد الله بن سُهَيل بن عمرو على أخته سَهْلة بنت سُهَيل زائراً عند زوجها أبي حُذيفة بن عُتبةَ بن ربيعة ، فرأى منها إقبالا عليه أكثر مما تعود أن يرى منها منذ حين، ووقع ذلك من نفسه موقعاً حسناً ، فجعل يحدث أخته بما شاء من أحاديث قومه يريد أن يسرها ويُفكهها : يعبث بالشيوخ وذوي الأسنان من قريش طوراً ، ويتندّر بمرح الشباب من قريش طورا آخر ، وأخته تسمع له فتضحك وتعجب ، وتَهم أن تشاركه في بعض حديثه وأن تذكر معه أيام الصبا ، ولكنها لا تلبث أن تكفّ نفسها عن ذلك وأن

---

(١) أسفر : أضاء . حصحص : بان وظهر .

تُؤْثر الصمت ، وتدعوه إلى أن يقول . وقد لاحظ عبد الله أن أخته على نشاطها له وإقبالها عليه ربما عرض لها شيءٌ من ذهول بين حين وحين ، كأنما كانت تغيب عنه ثم تثوب إليه .

وقد أنكر الفتى من أخته نشاطها وذهولها جميعاً ، ولكنه أسرّ ذلك في نفسه ولم يُبده لها ، ومضى فيما كان يسوق من حديث ضاحكاً مضحكاً ، حتى إذا أنفق معها ساعة غير قصيرة همّ أن ينصرف . وقامت أخته تريد أن تسعى معه مشيعة إلى فناء الدار . ولكن عبد الله ينحني على أخته ، يريد أن يضمها إليه ، وأن يُقبلها ، فتَتَذعَرُ سهلة وتتراجع شيئاً . وينظر إليها عبد الله في شيءٍ من حيرة ودَهش ، وتنظر هي إلى عبد الله في دهَش وحيرة . ثم يعود عبد الله إلى مكانه فيجلس ، وتظل سهلة قائمة واجمة كأنها لا تدري ماذا تصنع ولا تعرف كيف تقول .

قال عبد الله بعد هنيهة : إن أمرك لعجيب منذ اليوم يا سهلة ، أليس قد أزمعتم الهجرة من غد ؟ قالت سهلة وقد ظهر عليها الروع : أي هجرة ؟ هنالك أغرق عبد الله في الضحك ، ثم قال : ما رأيت كاليوم فتاة غرة (١) تريد أن تمكر بأخيها . إن هجرة أصحاب محمد إلى أرض الحبشة ليست سراً مكتوماً ، وإنما هو حديث الناس في مجالسهم وحديث الملأ(٢) من قريش في أنديتهم ، وإن قريشاً لو شاءت لأخذت على أصحاب محمد طرق هجرتهم (٣) ، ولكنها لا تشاء ، ولعلها لا تكره هذه الهجرة . فقد جعلت قريش تسأم محمداً وأصحابه وتسأم الكيد لهم والمكر بهم والإلحاح على المستضعفين منهم بالفتنة والعذاب . وقد فرحت قريش بهجرتهم هذه ، وقال الملأ منها شرّ يُصرَفُ عنّا وراحة تُهدى إلينا . وإن أعين قريش ليقظة ساهرة على محمد ونفر من أصحابه ؛

(١) الغر : من لا خبرة له .

(٢) الملأ : السادة الأشراف .

(٣) أخذ عليه الطريق : تعرض له ومنعه .

فهؤلاء رهائن قريش لا تُخلي بينهم وبين الطريق إن أرادوا أن يدفعوا أنفسهم إلى الطريق . فأما المستضعفون وأشباه المستضعفين فليس لقريش فيهم أَرَبُ .

وكانت سهلة تسمع لهذا الحديث وآيات الروع والحزن والرضا تختلف على وجهها ، وهي مع ذلك قائمة تسمع من أخيها ولا ترد عليه جواباً . قال عبد الله : وقد ظننت إذن وظن زوجك أن قريشاً عنكما غافلة . هيهات ! إن عُتبةَ والوليد بن عتبة ليعلمان من أمر أبي حذيفة مثل ما يعلم سهيل وعبد الله من أمر سهلة ؛ وإن قريشاً لتعلم من أمركما مثل ما يعلم أبواكما ، ولكن قريشاً لا تحبسكما لأن لها في أبويكما وأخويكما أرباً . ولكننا نحن لا نحبسكما أيضاً ؛ لأنا نُؤْثركما بالحب في أعماق نفوسنا ودخائل قلوبنا ، ونكره لكما حياة التستّر والاستخفاء هذه التي تحتملانها في مشقة أي مشقة وعناء أي عناء ولا نضيق بأن تجدا في هجرتكما هذه أمناً بعد خوف وفرجاً بعد حرج . ولولا أن تقول قريش : ضَعُفَ سهيل فلم يُطقْ على فراق ابنته صبراً لما زرتك الآن وحدي ، ولزارك أبوك فنظر إليك قبل فراق ليس يدري ولست تدرين أيطول أم يقصر ، ولكنه يرى كما أنك ترين أوله ، ولا يعرف كما أنك لا تعرفين آخره . وليس يعنيني ما تقول قريش فيّ ، وعسى أن أجد في مقت قريش لي رضا وفي استخفافها بي حبوراً . أسمعت الآن عني ؟

قالت سهلة : ألم تر أنك منذ دخلت عليّ إنما تتحدث وحدك وأنا سمع ولا أرد عليك ؟ قال عبد الله : بلى ! وهذا بعض ما أثار في نفسي ما ترين من العجب ولكني لم أفهم هذا الذعر الذي اشتمل عليك حين أردت أن أضمك وأن أقبّلك مُوَدعاً . قالت سهلة ولم تستطع أن تمنع ابتسامة حلوة ارتسمت على ثغرها وضحكة عذبة جرت في صوتها : فإنك مُشرك ، وما أحبّ مس المشركين . قال عبد الله وقد ظهر في وجهه الحزم : أوقَدْ بلغ بكم حب محمد والاستجابة لدينه أن تصُدوا عن إخوانكم ؟ قالت سهلة وقد زالت ابتسامتها عن ثغرها وجرى في صوتها حزم صارم لم يثبت له قلب الفتى وإنما اتصل له خفقانه : لو قد أحببت محمداً واستجبت لدينه لعرفت أن الصد عن الإخوان والآباء في سبيله ليس شيئاً .

تعلمْ(١)يا أخي أنا نحب الله ورسوله أكثر مما نحب آباءنا وأمهاتنا وإخواننا ، وأكثر مما نحب الدنيا كلها وما فيها من كل شيءٍ ، وأكثر مما نحب أنفسنا . ولقد حدثتني آنفاً بأن قريشاً راضية عن هجرتنا ، فتعلمْ أنا نحن عنها غير راضين . ولولا أن أذن لنا فيها محمد ودعانا إليها لآثرنا الفتنة والعذاب والموت قريباً منه على الدعة والسعة والراحة والرّوح والأمن والرضا بعيداً عنه في أي قطر من أقطار الأرض .

قال عبد الله وقد أطرق مفكراً : هو ذاك إذن ! محمد أحبّ إليكم من آبائكم وأمهاتكم وإخوانكم ومن الدنيا كلها ومما فيها من كل شيءٍ ! ومحمد أحب إليكم من أنفسكم ؛ قالت سهلة : ولو قد أحببتَ محمداً كما نحبه لعرف قلبك الحب الذي يُعطي ولا يريد أن يأخذ ، والذي لا يبتغي لنفسه ثمناً من لذة الجسم أو نعيم النفس .

ويدخل أبو حذَيفةَ فيرى عبد الله مطرقاً مغرقاً في التفكير ، ويرى امرأته سهلة قائمة تنظر إليه نظرات حازمة قوية ، ولكن فيها شيئاً من أمل وشيئاً من حنان . فينظر أبو حذيفة إلى امرأته ثم ينظر إلى عبد الله ثم يقول في صوت عميق : هل تنبئينني يا سهلة بأن الله قد أنزل السكينة على قلب أخيك ؟ وَهَمّتْ سهلة أن تجيب ، ولكن عبد الله يرفع رأسه ويسبق أخته إلى الحديث فيقول : السكينة ! السكينة ! ... ما عسى أن تكون هذه السكينة ؟ إن لكم لألفاظاً تديرونها في أفواهكم وتَتَقَرّعون بها آذاننا ، ولكنا لا نحصّل لها معنى . هذه تزعم أنكم تحبون محمداً أكثر مما تحبون آباءكم وإخوانكم وأنفسكم ، وأنت تسألها هل أنزل الله على قلبي السكينة . ما عسى أن تكون هذه السكينة ؛ وما عسى أن يكون محمد قد صنع بقلوبكم حتى استأثر بها من دون آبائكم وإخوانكم وأنفسكم ؟

قال أبو حذيفة في صوت رفيق : لم يصنع محمد بقلوبنا إلا أنه نقاها من الغيّ ،

---

(١) تعلم : اعلم .

وجلاها من الضلال ، واستنزل عليها السكينة التي ملأتها أمناً ورضا وثقة وأملاً وحالت بينها وبين الخوف والشك والقنوط . ثم يتلو قول الله عز وجل :

« إنَّ الذينَ لا يرْجونَ لقاءنا ورضُوا بالحياة الدّنْيا واطْمأنُّوا بها والذينَ هُمْ عنْ آياتنا غَافلونَ . أُولئك مأْواهُمُ النارُ بما كانُوا يكسبونَ » .

ولا يكاد الفتى يسمع هاتين الآيتين حتى تأخذه رِعْدَةٌ عنيفة ويتفصّد(١) جبينه عرقاً ، ويمضي أبو حذيفة في تلاوته فيقرأ :

« إنَّ الذينَ آمنوا وعملوا الصّالحات يهديهمْ ربُّهم بإيمانهمْ تَجري منْ تَحتهمُ الأَنْهارُ في جنات النعيم . دعْواهُمْ فيها سُبحانَك اللهمّ وتَحيَّتهمْ فيها سلامٌ وآخرُ دعواهُمْ أَنِ الحمدُ لله ربّ العالمين » .

ولا يبلغ أبو حذيفة آخر هذه الآيات حتى يهدأ رَوْع الفتى ويثوب إلى قلبه الأمن ، وينظر إلى أبي حذيفة مبتسماً ، ويقول في صوت تَشيع فيه دُعابة حلوة : وَيْحك ! إني أحسّ كأن سكينتكم هذه تسعى إلى قلبي . أذاهب أنت بي أبا حُذَيفة إلى محمد لأتلقاها منه ؟

وأمسى عبد الله مسلماً قد عاد إلى أخته وجلس إليها وإلى أبي حذيفة وسالم يسمع منهم القرآن . تقول له سهلة مُنصرَفه عنها حين تقدم الليل : أمُهاجر أنت معنا يا أخي ؟ قال عبد الله : عزيزٌ عليّ أن تنأى بكم الدار ، ولكني لم

---

(١) يتفصد : يسيل .

أسمع من رسول الله القرآن وحديثه إلا اليوم ، وإني لأوثر أن ألزمه ما وسعني لزومه ، فاذهبوا راشدين .

وأصبح أبو حذيفة فانطلق بأمرأته وابنه سالم فيمن انطلق إلى أرض الحبشة من المسلمين . حتى إذا كانت الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة كان عبد الله بن سهيل أحد المشاركين فيها . وقد جلس سهيل في داره محزوناً كئيباً ، وافتقدته قريش حين رأت تخلفه عن أنديتها أياماً ، فأقبل عُتبة بن ربيعة وشَيبة بن ربيعة وأبو جهل عمرو بن هشام فاستأذنوا عليه . ولو قد أطاع نفسه لمنعهم الإذن ، ولكن للسادة من قريش حقوقاً لا يُلتوى بها . فيدخل القوم على سهيل ، ولا يكادون يتحدثون إليه حتى يروا حزنه وضيق صدره . يقول عتبة بن ربيعة : وَيْحك أبا عبد الله ! لقد هاجر ابني فما ساءني هجرته ، فيقول سهيل : وهل جرّ علينا الشرّ كله إلا ابنك ! لم يكفه أن يُصبِّئ ابني حتى أصبأ أخاها وانصرف بهما جميعاً إلى أرض النجاشي . قال أبو جهل : لو عرفت قريش كيف تؤدب سفهاءها لما أصابكما ما تريان ، ولو استجابت لي قريش لاجتثثت الشجرة من أصلها(١). فيقول شيبة بن ربيعة : على رسلك(٢) أبا الحكم ! أما هذه فلم يأت إبّانها(٣) بعدُ .

وما زال القوم بسهيل حتى يخرجوه ويردوه إلى ما ألف منهم وألفوا منه . ويمضي من الأيام والأشهر ما شاء الله أن يمضي ، وهؤلاء نفر من مهاجرة الحبشة يعودون إلى مكة ، منهم من يُعلن عودته ومنهم من يستخفي بها . وعاد في هؤلاء النفر عبد الله بن سهيل ؛ فيلقاه أبوه أحسن لقاء ، ويتحدث إليه حديث البشاشة والبشر والفتى متحفظ متأثم ، كأنه يرى في الاستماع لحديث أبيه بأساً . ولكن سهيلا يضرب إحدى يديه بالأخرى ، فما هي إلا أن يستجيب له أعبُد شداد يُحيطون بعبد الله ، فيوثقونه ثم يحملونه سجيناً إلى أعماق الدار ومنذ اليوم يُذيقه أبوه من الفتنة شيئاً عظيماً .

---

(١) اجتث الشجرة : قلعها .
(٢) على رسلك : تمهل .
(٣) إبانها : وقتها وحينها .

١٤

لم تعرف مكة في تاريخها الطويل القديم يوماً كذلك اليوم المشهود ، وإن كانت قد عرفتْ بعده أياماً مشهودة ليست أقلّ منه شدة ونُكراً .

كانت بلداً آمناً ، لا يعرف أهله كيداً ولا مكراً ولا بغضاً ولا عداء ، وإنما يستقبلون أمورهم راضين عنها مبتهجين بها مطمئنين إليها . يكون بينهم التنافس في المال والاستباق إلى المجد ، ولكنهم على ذلك لا يبغي بعضهم على بعض ، ولا يبطش بعضهم ببعض ، وإنما تجري أمورهم على الدعة والإسماح . وأقصى ما يبلغ الشر بينهم أن يقول بعضهم لبعض قليلا أو كثيراً مما يكره من القول ، ثم لا يلبثون أن يعود بعضهم على بعض بالعافية ، وأن يُهدي بعضهم إلى بعض ألوان البر والمعروف . وقد عرفت العرب القاصية والدانية ذلك من أمرهم ، فهوت(١) إليهم الأفئدة ، وعطفت عليهم القلوب ، واتصلت بهم الآمال ، وتعلقت بهم النفوس ، حتى أصبح بلدهم وما حوله من الأرض حرَماً آمناً يأوي إليه الخائف ويلوذ به الملهوف (٢) . ولكن مكة تُصبح في ذلك اليوم وقد أظهرت لها السماء ابتساماً ، فملأت بطاحها وجبالها ورُباها بأشعة الشمس المشرقة الرائعة ، ولكنها أضمرت لها عُبوساً أيّ عبوس ، فملأت قلوب نفر من أبنائها بالظلمة المظلمة والكيد المفضي بأهله إلى شرّ ما ينتهي إليه الناس .

أصبحت قريش في ذلك اليوم ، فغدا الملأ منها إلى أنديتهم في المسجد ، وأخذوا فيما كانوا يأخذون فيه من حديث ، إلا نفر منهم لم يذهبوا إلى المسجد ولم يحضروا أندية قومهم ، ولم يشغلوا أنفسهم ببيع أو شراء ، ولم يسروا(٣) عن أنفسهم بصيد أو طرد أو مُجون . وإنما شُغلوا بشيءٍ غير ذلك كله : شُغلوا بتهيئة العذاب وجه النهار ، وشُغلوا بشهود العذاب وسط النهار ، وشغلوا

---

(١) هوت : مالت وأحبت .
(٢) الملهوف : الحزين ذهب له مال أو فجع بحميم ، والمظلوم ينادي ويستغيث .
(٣) يسري عنه نفسه : يرفه ويكشف عنها الهم .

بالتحدث عن العذاب آخر النهار . ولكنهم لم يتحدثوا عنه وحدهم . وإنما تحدثت عنه قريش كلها ، ولم تَبقَ في مكة دار إلا ذكر فيها أمر ياسر وامرأته وابنه ، وأمر صُهَيب ، وأمر خبّاب . وأمر بلال . وكانت أحاديث قريش عما صُبّ على هؤلاء الرهط من العذاب مختلفة أشدّ الاختلاف : فأمّا شيوخ قريش وذوو أحلامها فكانوا يجدون في سيرة أبي جهل وأضرابه غلواً في الشرّ وإسرافاً في القسوة ، ولكنهم على ذلك كانوا يعللون أنفسهم بأن هذه الشدة قد تخوف محمداً وأصحابه وتردهم إلى شيءٍ من القصد والأناة ، وإلى أنها قد تَرْدَعُ (١) الرقيق والمستضعفين وتُريهم ما ينتظر الذين يَصْبُون منهم إلى محمد وأصحابه من البأس والضر والعذاب . فكانت ضمائرهم تُنكر وقلوبهم تسكت ، وألسنتهم تعرف .

وأما الشباب من قريش فكان أكثرهم يرى في هذا البدْع لوناً مستحدثاً من التسلية والتسرية والاشتغال عن النفس وعما تعودت أن تتلهى به من ألوان العبث والمجون وفي غرائز الناس ميلٌ إلى الشرّ ، واستحبابٌ للنكر ، واستعذاب للعذاب حين يَمس غيرهم ويدفعهم إلى فنون من الألم وضروب من الحركات التي يثيرها الألم ، وإلى ألوان من الشكاة التي يبعثها الألم .

وفي قلوب الشباب قسوة وخفة ، وفي أحلامهم نَزَق وطيش(٢). فهم ينظرون إلى من يُمتحنُ في بدنه ، ويأتي من الحركة والقول ما يُسليهمَ ويُلهيهم ، على أنه متاع لأبصارهم ونفوسهم ؛ ولا يقدّرون أن هذا العذاب يمكن أن يُصَبّ عليهم ، وأن هذه الحركات والشكاة يمكن أن تصدُرَ عنهم ، فتُضْحكَ منهم قوماً آخرين . ولو قد وضع الإنسان نفسه موضع الذين يُصَبّ عليهم العذاب . لجنّبَ الناسَ شرّاً كثيراً .

فكان أولئك الشباب من قريش يتحدثون ببراعة أبي جهل فيما كان يخترع من ألوان الفتنة والمحنة راضين عنها مُعجبين بها . وكانوا يتحدثون عن

---

(١) تردع : تكف وترد .
(٢) النزق والطيش : الخفة .

احتمال أولئك الرهط للفتنة في أنفسهم بالجلد والصبر والأناة في كثير من الإعجاب . كما كانوا يتحدثون في عبث وسخرية بما كانت أجسام أولئك الرهط تأتي من الحركات حين يمسها العذاب .

قال الحارث بن هشام لابن أخيه عكرمة بن أبي جهل : ألم تر إلى سُمَيَّة كيف كان جسمها يتلوّى حين كانت السياط تُلهبه بغير حساب ، دون أن يَفترّ فمها عن صيحة أو أنّة أو شهيق ، وهي التي كنا نُثيرها إلى الخوف أو نثير الخوف إليها بأيسر ما كنا نأتي من الحركات ، نعبث بها ونسخر منها حين نراها تثور كأنما دُفعتْ من الأرض بلولب خفي ! قال عكرمة : لم أعجبْ لشيءٌ كما عَجبتُ لزوجها الشيخ الذي مُزق جسمه بالسياط وحرّق بالنار ليذكر الآلهة بخير ، فلم يظفر منه أبي إلا بشتم الآلهة والاستهزاء بها . أما ابنه عمار فقد سكت صوته ، وسكن جسمه للعذاب ، وارتسمت على ثغره ابتسامة حلوة مُرّة ، ما أدري كانت تصور الرضا أم كانت تصور الغيظ ! ولكنها ارتسمت في نفسي أشدّ مما ارتسمت على ثغره ؛ وما أرى أنها ستغيب عني آخر الدهر . قال صَفْوَان ابن أمية : فكيف لو رأيتما بلالاً ذلك الحبشي والفتية من الأحرار والرقيق أيتنازعون جسمه يأخذ كلّ منهم بطرف ، كأنما كانوا يريدون أن يقتسموه بينهم ، وهو في أثناء ذلك لا يئن ولا يشكو وإنما يثني على محمد ويذكر إلهه ذاك بالخير . قال خالد بن الوليد : أما أنا فقد رأيت من صُهَيب عجباً : رأيت القوم يعذّبونه بالنار وينوشونه(١) بالرماح ويُلهبونَ جسمه بالسياط ، وهو على ذلك يتحدث إليهم حديث من لا يحفل بما كانوا ينالونه به من الأذى . وربما اشتد عليه البأس فعقد لسانه عن القول برهة ، وأجرى على جبينه شيئاً من عرق ، ثم لا يلبث أن تثوب إليه نفسه ويعود إلى التحدث إلى معذّبيه في بعض أمرهم ، كأنهم لم ينالوه بمكروه . وما يزالون به يعذبونه بالحديد والنار والسياط وما يزال بهم يعذّبهم بهدوئه وثباته وتحدّثه إليهم في أيسر أمورهم ، حتى إذا أملّهم أو كاد يُملهم ضاعفوا له العذاب ، وخرجوا في ذلك عن أطوارهم ،

---

(١) ينوشونه : يتناولونه ويطعنونه .

فيسعى إلى صُهيب شيءٌ من ذهول ، ثم يأخذه شيءٌ يشبه السكر ، فيمضي في حديثه ، ولكنه يقول للقوم غير الصواب . ويعرف القوم أنهم قد بلغوا منه بعض ما كانوا يريدون ، فيكفُون (١) عنه مكا ويهم ورماحهم وسياطهم ، وأشهد لقد انصرفت عن هؤلاء القوم وإني لبعض أمرهم لكاره . قال الحارث بن هشام : اسكتْ لا يَسمعك ابن عمك فيصيبك منه بعض ما تكره .

كذلك كان الشباب من قريش يُعجبون بأولئك الرهط (٢) المعذّبين ، ويعجبون منهم ، يستهزئون بهم طوراً ويعطفون عليهم طوراً آخر .

وأما المستضعفون والرقيق فكانوا يرون الشر ويَعْيَون عليه حين يُطلبُ إليهم أن يُعينوا عليه ، تكرّه نفوسهم وترضى عنهم ألسنتهم ؛ قد ملأ الخوف أكثرهم ، وتَسرب الحب والإشفاق إلى قلوب فريق منهم ؛ فهم ينتهزون الفرص ويتربصون بقريش الدوائر(٣)، ويتحدثون إلى أنفسهم ، وربما تحدث بعضهم إلى بعض ، إذا خلا بعضهم إلى بعض ، بأن الخير كل الخير عند محمد وأصحابه . وبأن الخير كل الخير في أن ينحازوا إليهم . فالضعف إلى الضعف قوة . ومن يدري ! لعل الله أن ينتصف لهم ولأمثالهم بمحمد وأصحابه من أولئك البغاة الظالمين . وأما المسلمون الذين صُرف عنهم العذاب ونحيتْ عنهم الفتنة فكانوا يشهدون وفي نفوسهم ألمٌ وأملٌ ، وفي قلوبهم حزنٌ وثقة ، قد اطمأنوا إلى أن العاقبة لهم ، واستيقنوا بأن الله منجز وعده ، ولكنهم على ذلك يرحمون إخوانهم ، وربما تمنوا لو كانو امكانهم فاحتملوا عنهم بعض مايحتملون من الأذى .

وربما كان أصدق وصف لمكة حين أمسى المساء من ذلك اليوم أن أكثر أهلها كانوا حائرين ، يرون الفتنة ولا يدرون أيعرفونها أم ينكرونها ! لأنهم لا يعرفون أخيرٌ هي أم شرّ ! وأن أقل أهلها كانوا قد صَدقوا الله ما عاهدوا

---

(١) يكفون : يمنعون .

(٢) الرهط : الجماعة دون العشرة .

(٣) يتربص به الدوائر : ينتظر نزول الدواهي .

عليه ، فرضيت نفوسهم واطمأنت قلوبهم واستيقنوا أن العاقبة للمتقين . ولو كشف الغطاء عن أهل مكة لرأوا حين تقدم الليل من ذلك اليوم أن من حول مكة أعياداً يحفل بها الشياطين وقد استخفهم الفرح واستهواهم الطرب ، ورأوا أصحاب محمد يعذبون أشد العذاب وأقساه ، فغرّهم بالله وبأنفسهم الغرور ، وظنوا أن فتنة هؤلاء الرهط ستحفظ لهم سلطانهم على مكة ، وستمكن لهم في قلوب قريش .

وأصبح أصحاب النبي صلى عليه الله وسلم فتحدثوا إليه من أمر الفتنة بما علموا ، ولكنه تحدث إليهم من أمرها بما لم يعلموا ، لا لأنه شهد الفتنة ، أو رأى كيف كانت تُصَبّ على المستضعفين من أصحابه ، بل لأن أمر الفتنة كله قد أوحي إليه .

وخرج النبي وأصحابه فتفرّقوا في أحياء مكة يسعىّ بعضهم هنا ويسعى بعضهم هناك ، يلتمسون فضلا من ربهم ، ويريدون في أكبر الظن مُواساة لهؤلاء المستضعفين الذين كانوا يُفتنون عن دينهم ويعذّبون في الله . ويمشي النبي صلى الله عليه وسلم في بعض بطحاء مكة وقد وضع يده في يد عثمان بن عفان ، وما يزالان يتماشيان حتّى يبلغا آل ياسر ، وقد سطحوا على الأرض مُوثقين ، ووُضعت على صدورهم الصخور الثقال ، وجعل المشركون يمسونهم بالنار حيناً بعد حين ، وربما وخزوهم بالخناجر والحراب ، وثلاثتهم سكوت لا ينطقون حرفاً ، والمشركون قد ملأ قلوبهم الغيظ ؛ لأنهم لا يبلغون منهم شيئاً . وقد أنكروا صمتهم الذي اتصل منذ أخذ في تعذيبهم مع الضحى ، حتّى جعلوا يشتطون عليهم في البأس(١)ليستخرجوا منهم أنة أو شكاة ولكنهم ماضون في الصمت ، قد ثبت الله قلوبهم ، وصرف عن نفوسهم الجزع والتهلّعَ . فإذا مرّ النبي وصاحبه بهؤلاء الرهط المعذبين سمع المشركون صوت ياسر لأول مرة من يومهم ذاك ، سمعوا صوت ياسر لا يتجه إليهم وإنما يتجه إلى النبي فيقول : الدهر هكذا يا رسول الله . قال رسول الله : أبشروا آل

---

(١) يشتطون عليهم في البأس : يبالغون في قسوتهم .

ياسر ؛ فإن موعدكم الجنة . هنالك يسمع المشركون صوت سُمَيّة لأول مرة من يومهم ذاك ، يسمعون صوت سمية لا يتجه إليهم وإنما يتجه إلى النبي فيقول : أشهد أنك رسول الله ، وأشهد أن وعدك الحق . وهنالك يسمع المشركون صوت عمار لأول مرة من يومهم ذاك ، يسمعونه لا يتجه إلى أبويه ، ولا يتجه إلى النبي وصاحبه ، وإنما يتجه إليهم هم فيقول : عذبونا يا أعداء الله ما شئتم ؛ فإن موعدنا الجنة وأنوفكم راغمة. هنالك يخرج المشركون عن أطوارهم(١) ويَتَصَبَّبُون على أولئك الرهط من العذاب ما ليس إلى وصفه سبيل .

ويمضي أبو بكر في بعض بطحاء مكة فيرى بلالا وقد عُذّب حتى ملت قريش تعذيبه . عذّبوه بالنار والماء ، وعذّبوه بالحديد والسياط ، طرحوه على الأرض في الرمضاء(٢) ، وأثقلوه بالصخر ، يريدونه على أن يذكر آلهتهم بخير فلا يسمعون منه إلا : أحدٌ ، أحَد. يقول له أمية بن خلف : اذكر آلهتنا بخير يا بلال يُرفعْ عنك العذاب ، فيجيب : إنّ لساني لا يطاوعني . ثم يمضي في ذكره قائلا : أحد ، أحد . فيملّ أمية بن خلف وأصحابهُ فيضعون عنه أثقاله ثم يقيمونه . ثم يضعون الحبال : حبلا في إحدى ذراعيه وحبلا في ذراعه الأخرى ، وحبلا في إحدى ساقيه وحبلا في ساقه الأخرى ، ثم يدعون الصبية ويُلقون إليهم الحبال ، ويأمرونهم أن يعدُوا ببلال حتى يجهدوا أنفسهم ويجهدوه . ويفعل الصبية ما أمروا ، فَيَعدُون به إلى اليمين ، ويعدون به إلى شمال ، ويَعدُون به إلى أمام ، ويعدُون به إلى وراء ، وهم يتصايحون ويتضاحكون ، وأمية بن خلف وأصحابه ينظرون ويتعابثون ، وبلال لا يحفل بشيْ من ذلك ، وإنما هو يتبع العادين به حيث يَعدُون ، لا يقاوم ولا يتمنع ولا ينفكّ لسانهُ عما أخذ فيه من ذكر : أحد ، أحد ، أحد ، أحد ، وقد بلغ الجهد من الصبية حتى جعلوا يلهثون ، ثم تراخت أيديهم وألقوا بحبالهم إلى الأرض . وظلّ بلال قائماً ماضياً في ذكره : أحد ، أحد . حتى يبلغ الغيظ من أمية وأصحابه ،

---

(١) خرج عن طوره : جاوز حده وقدره .

(٢) الرمْضاء : الأرض الحامية من حرارة الشمس الشديدة .

فيدفع بعضهم في صدر بلال حتى يُلقوه على الارض إلى ظهره .

فيسقط ويُسمعُ لسقوطه صوتٌ مُرَوِّع ، ولكن ذكره متصل : أحد ، أحد .

وَيهمّ أمية أن يبطش به ليسكت هذا الصوت ويقطع هذا الذكر ، ولكن أبا بكر يعرض له قائلا : وَيْحكم ! فيم تعذبون هذا الرجل ؟ قال أمية : وما أنت وذاك يا أبن أبي قحافة ؟ عبدٌ لنا نَصْنعُ به ما نشاء . قال أبو بكر : هو عبد الله قبل أن يكون عبدك يا أمية . إنك إن تأت على نفسه تأثَمْ وَتُضَيِّع مالكَ ، فهل لك في شيْ خير من ذلك ؟ قال أمية : وما ذاك ؟ قال أبو بكر : أشتري منك هذا الرجل ، واحتكم في ثمنه . قال أمية وقد ضجر ببلال وتأديبه وتعذيبه : قد فعلتُ ، فأدّ إليّ ثمنه سبع أواق . قال أبو بكر : فخلّ سَبيله وَرُحْ معي إلى حيث أوَدّي إليك مالك . قال أمية : أدّ إليّ مالي أخلُ عنه . قال أبو بكر : وَيحكَ يا أمية ! متى عهدْتني ألتوي عليك بالدّين ؟ ! قال أمية وقد استحيا : صدقتَ ، خُذْ غلامك وأرسلْ إليّ ثمنه متى شئت . قال أبو بكر : إنما هي روحي إلى أهلي ثم يؤدى مالك إليك .

وأخذ أبو بكر بلالاً من يده فانطلق به إلى داره ، وهنالك رفق به وَخفّفَ عنه بعض ما وجد من الضر ، وأرسل إلى أمية ماله . وَتَلبّثَ في داره يرفُق ببلال وَيَتحدّثْ إليه ، ويقرأ عليه من آيات الذكر ، حتى إذا عاد رسوله وعرف أبو بكر أن أمية قد قبض ماله التفت إلى بلال وابتسم له وقال : انطلق بلالُ فأنت حرّ .

وأمسى أبو بكر فلقي رسول الله فأنبأه بما رأى من فتنة بلال ، وبأنه لم يستطع أن يستنقذه حتى أشتراه . قال النبي صلى عليه الله وسلم : الشركة يا أبا بكر . قال أبو بكر فإني قد أعتقته يا رسول الله !

ومرّ قومٌ آخرون من أصحاب النبي بحيّ آخر من أحياء قريش فيرون ،

ويا هول ما يرون ! ناراً عظيمة قد أجّجتْ ، ويرون رجلا قد شدّ وَثاقه(١) ، ويرون قوماً يحملونه ويُدنونه من النار حتى توشك أن تُحيط به ، ثم يختطفونه اختطافاً فيبعدون به عن النار ، ثم يُقيمونه أمامهم مشدوداً مقيداً، ثم يتقدّم أحدهم فيدفع برجله في صدره دفعة تُسقطه إلى ظهره وهم يتضاحكون ، ثم يعودون فيفعلون به مثل فعلهم الأول . يقول له قائلهم : اذكرْ آلهتنا بخير وقَعْ(٢) في محمد ودينه أو لتميتنكَ هذه النار وهذه الأرض ! فلا يسمعون منه إلا : أشهد أن محمداً رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق . وما يزالون يقدّمونه إلى النار ويؤخرونَهُ عنها ، ويدفعونه إلى الأرض ثم يردّونه قائماً حتى يُغشى عليه . هنالك يقول بعضهم لبعض : أبقوا عليه يا معشر قريش ، لا تأتوا على نفسه ، فيسألكم عنه حلفاؤه من زُهْرة .

ويعود أصحاب النبي فينبئون اخوانهم بما رأوا من أمر خباب ابن الأرتّ . وتمضي أمور قريش والمستضعفين من المسلمين على هذا النحو الأيام ثم الأشهر ثم السنين ، لا تبلغ قريش من هؤلاء المستضعفين شيئاً في دينهم ، إلا أن تكون كلمة الله قد حقت على بعضهم فيفتَنَ عن دينه ويكفر بعد إسلام ،أو أن يكون الله قد آثر بعضهم بالحسنى فيختاره لجواره ويجعل له عنده مقاماً محموداً .

اجتمعت قريش ذات يوم لأمر عظيم حين انتصف الليل ، زعم لها أبو جهل أنه بالغٌ من ياسر وأهله ما يريد ؛ فقد عذبهم حتى أشفوا على الموت ، ولن يتركهم حتى يذكروا آلهة قريش بخير ويقعوا(٣) في محمد بما يكره . قال عتْبة بن ربيعة : هيهات أبا الحكم ؛ إن ياسراً رجلٌ جَلْدٌ(٤)، وإنه ما علمت ليؤثر الموت على أن يُبلغك ما ترضى . قال أبو جهل : فإن ذكر آلهتنا بخير وذكر محمداً بسوء ؟ قال عتْبة بن ربيعة : هيهات يا أبا الحكم ! إنما هي أماني ، وما

---

(١) الوثاق : ما يشد به من قيد وحبل .

(٢) وقع في محمد : سبهُ .

(٣) يقعوا في محمد : يسبوه ويعيبوه ويغتابوه .

(٤) جلد : شديد، قوي، صبور .

أرى إلا أنك قد أزمعت أن تأتي على نفس هذا الشيخ . قال أبو جهل : فإن ذكر آلهتنا بخير وذكر محمداً بسوء؟ قال عتبة : فلك عشرون من الإبل . قال شيبة بن ربيعة : ولك مني مثلها . قال أبو جهل : إن مالكما عليكما لهين . قال عتبة : فإن أتيتَ على نفس ياسر .. قال شيبة : دون أن تبلغ منه ما تريد ونريد ؟ قال أبو جهل : فاحتكما إذن. قال عتبة : لن نحتكم ولن نرزأك(١) في مالك شيئاً ، وحَسبنا أن تظهر من نفسك على عنادها . وأقبل الذين استخفتهم هذه المناظرة فشهدوا عذاب ياسر وسُمَيَّةَ وَعَمار .

ولم تر قريش من العذاب في مكة مثل ما رأت ذلك اليوم ، ولكنها على ذلك لم تظفر بشيْ مما أمّلتْ . أقبل أبو جهل ومعه أصحابه ، فرأى الناس أنطاعاً من أدَم(٢) يسع كلّ نطع منها رجلا وقد مُلئتْ ماء ، ورأوا ناراً مؤجحة وَمَكاويَ قد أحميَ عليها ، ورأوا تلك الأسرة قد شُدّ وثاق كل منها وألقي ثلاثتهم في جانب من الطريق كما يُلقَى المتاع غير ذي خطر . فلما بلغ أبو جهل وأصحابه مكان العذاب أمر غلمانه فوضعوا بين يديه ياسراً وسمية وعماراً ، وألسنتهم لا تفتر عن ذكر الله . فألهب أجسامهم بالسياط ، ثم أذاقها مسّ النار ، ثم صبّ عليها قرب الماء ، ثم عاد فيهم سيرته تلك مرّة وَمرّة ، ثم أمر فغطوا في الأنطاع التي ملئت ماء حتى انقطعت أنفاسهم أو كادت ، ثم ردّهم إلى الهواء ، وانتظر بهم حتى أفاقوا ، وتسمع لما ينطقون به بعد أن ثاب إليهم شيْ من قوة ، فإذا هم يذكرون الله وَيُثنون على محمد . قال أبو جهل لسمية وقد بلغ منه الغيظ أقصاه : لتذكرُنّ آلهتنا بخير ولتذكرنّ محمداً بسوء أو لتموتنّ . تَعلمي أنك لن تَريْ مساء هذا اليوم إلا أن تكفري بمحمد وربه . قالت سمية بصوت هادئ متقطع قليلا : بؤساً لك ولآلهتك ! وهل شيْ أحبّ إليّ من الموت الذي يريحني من النظر الى وجهك هذا القبيح ! هنالك تضاحك عتبة وشيبة بن ربيعة ، وأخرج الحنق أبا جهل عن طوره فجعل يضرب في بطن سمية برجله

(١) لن نرزأك في مالك : لن نأخذ منه شيئاً ينقصه .

(٢) الأنطاع : جمع نطع وهو بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس . والأدم : الجلد . والمقصود هنا قرب الماء .

وهي تقول له في صوتها الهادئ المتقطع : بؤساً لك ولآلمتك ! ويجن جنون أبي جهل . فيطعن سمية بحربة كانت في يده فتشهق شهقة خفيفة ثم تكون أول شهيد في الإسلام .

يقول ياسر : قتلتها يا عدوّ الله ! بؤساً لك ولآلهتك ! ويقول عمار : قتلتها يا عدو الله بؤساً لك ولآلهتك ! ليمتلئ قلبك غيظاً وحنقاً ! فإن رسول الله قد ضرب لها موعداً في الجنة . قال ياسر : أشهد أن وعد الله حق . ولكن أبا جهل لم يمهله ، وإنما يضرب في بطنه برجله فيشهق ياسرٌ شهقة ثم يُصبح ثاني شهيد في الإسلام .

قال عُتبة وشيبة بن ربيعة : ألم تُحكمنا إن لم تبلغ من ياسر وامرأته شيئاً ؟ فسكت أبو جهل ، وقال الملأ من قريش : بلى ! نحن على ذلك شهداء . قال عتبة : فينبغي أن تطلق هذا الرجل وأن تخلي بينه وبين الحرية ليواري أبويه .

وراح أبو جهل من يومه ذاك إلى أهله مَغيظاً مُحْنقاً منكسر النفس ، لا يدري أغاظه أن أفلت منه هذان الشهيدان دون أن يبلغ منهما ما أحبّ ، أم غاظه أن صبرهما وثباتهما وإقدامهما على الموت في غير جزع ولا هلع ولا اضطراب إنما هو انتصار لمحمد ودينه الجديد على قريش ودينها القديم .

فأصحاب محمد يموتون في سبيله وفي سبيل دينه ، وضعفاء قريش وأشرافها وأحلافها يسعون إلى محمد فيؤمنون له ، يستخفي بذلك أكثرهم ويعلن ذلك أقلهم ، ولكنهم يسعون إليه ويؤمنون له على كل حال ، وهؤلاء المستضعفون وهؤلاء الرقيق الذين كانوا يؤمنون لأشراف قريش بالسيادة ويدينون لهم بالطاعة ويرهبونهم غائبين وشاهدين ، قد أخذوا يتمردون عليهم ويثورون بهم وينكرون سيادتهم وسلطانهم ، يبادونهم بذلك أحياناً ويُخفون ذلك عليهم أحياناً أخرى ، فإذا أخذتْ منهم قريش هذا الحرّ أو ذاك الرقيق لم يهابا ولم يرهبا ولم يُذعنا ولم يستكينا ، وإنما استقبلا العذاب والفتنة وقلوبهما راضية

ونفوسهما مطمئنة وعلى ثغريهما ابتسامات تُحفظ وتملأ النفوس حنَقاً (١).

أغاظ أبا جهل هذا كله ، أم غاظه أن محمداً يسمع ويرى ويعلم من انباء الفتنة والعذاب ما تعلمه قريش كلها ، فلا يهاب ولا يَرْهب ولا يترك شيئاً مما هو فيه من نشر دينه الجديد والدعوة إليه ، ثم هو لا يكتفي بذلك وإنما يخرج مع بعض أصحابه فيواسي من يعذبون من أتباعه بما يقول لهم من هذا الكلام الذي يلتهمونه التهاماً ، والذي يزيدهم على الفتنة والمحنة صبراً وتثبيتاً . وأي سخر من قريش أشدّ من هذا السخر ! وأيّ استفزاز لقريش أشدّ من هذا الاستفزاز ! وأيّ ازدراء لسلطانها أشدّ من هذا الازدراء ! وأيّ استهزاء بالملأ من أشرافها أشدّ من هذا الاستهزاء ! وما عسى أن تقول العرب في أقصى الأرض وأدناها حين تعلم أن في جنب قريش شوكة أعيتْ سادتها وقادتها وذوي أحلامها ، فلم يستطيعوا لها انتزاعاً ، وإنما ثبتت لكيدهم ومكرهم ، ثم جعلتْ تُنبت من حولها شوكاً صغاراً ، إن لم تكن مثلها قوة وحدة وأيداً فهي تنشر الأذى وتُشيع الألم ، وتوشك أن تجعل جسم قريش كله عليلاً لا أملَ له في برء أو شفاء ؟

أغاظ هذا كله أبا جهل ، أم غاظه أن الملأ من قريش رأوا أن شدّتهم لم تغن عنهم ولا عن آلهتهم شيئاً ، وإنما انتهت إلى القتل الذي لا تحبه قريش ، والذي لا يزيد محمداً وأصحابه ألا استمساكاً بدينهم وصبراً فيه ؟ أم أغاظه أن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة قد ظفرا به وظهرا عليه وشمّتا بما كان يُظهر من حزم وصرامة وجد ، ويوشكان بعد هذا الإخفاق أن يستأثرا بسمع قريش وقلبها وحبها وقيادها ؟ أم غاظ أبا جهل كلّ هذا مجتمعاً ؟ لست أدري ، و لكني أعلم أنه راح إلى أهله مغيظاً محنقاً يظهر الغضب ويخفي أنكسار النفس. وقد ساء لذلك خُلقه ، فلم يستطع أحد من أهله أن يقول له شيئاً أو يسمع منه شيئاً .

---

(١) تحفظ : تغضب وتغيظ . الحنق : شدة الاغتياظ .

لم يجلس إلى طعام ولم يسمع لحديث ، وإنما خلا إلى نفسه فأنفق ليلة ثائرة حزينه كئيباً لم يذق فيها النوم إلا غراراً(١).

كذلك راح أبو جهل إلى داره وأنفق ليلته فيها . فأما عمار فقد حُمل إلى داره ، وحُمل معه أبواه : حملهم قوم من قريش فيهم المسلم وفيهم غير المسلم ، قد نَسوا أو تَناسوْا ما بينهم من خصومة، وذكروا أن بينهم مكروباً يجب أن يُواسَى ، وميتين يجب أن يُوارَيا في التراب . وقد نهضوا بهذا كله التعاونين كأحسن ما يكون التعاون ؛ فرفقوا بعمار ، ولم يكن في حاجة إلى الرفق ، وأعانوه على دفن أبويه وكان إلى معونتهم على ذلك محتاجاً . وعاد عمار بعد أن وارى أبويه إلى داره وقد تفرّق عنه المشركون والتأمتْ حوله جماعة من المسلمين . وكان عمار يجد في جسمه ألم العذاب ، ويجد في قلبه حلاوة الإيمان ، ويجد في نفسه لَذْعَ الحزن على أبويه ، يقول له عثمان بن عفان : ما يحزنك عليهما وقد استوفيا نصيبهما من الدنيا وسبقاك إلى نعيم الله ورضوانه ؟ ألم تسمع نبي الله وهو يضرب لكم موعداً في الجنة مَرّةً ، ويدعوكم إلى الصبر مرة أخرى ، وهو يقول : اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلتَ ؟ قال عمار صدقتَ أبا عمرو ، ما ينبغي أن أحزن عليهما ، وإنما ينبغي أن أستبشر لهما وقد سبقا إلى الجنة ، وعَدَهما بذلك رسول الله ووَعْدُ الله حق . قال عثمان : فإن رسول الله قد وعدك بما وعدهما به ! قال عمار : هيهات أبا عمرو ! لو متّ معهما لكنت خليقاً أن أرضى ، ولكنهما ذهبا وبقيت ، وفي الحياة فتنة وفي النفس ضعف . وإنه ليحزنني أن فاتني بهما الموت فأصبحت معرّضاً لما يتعرض الناس له من الإثم الذي يُحبط العمل(٢) ، ومن السيئات التي تمحو الحسنات .

قال عثمان : ما ينبغي أن تيأس من رَوح الله ولا أن تَقنط من رحمته . وإنك معرض للإثم كما أنك معرّض للعمل الصالح . وإنك معرّض للسيئات كما أنك معرض للحسنات . وما ينبغي أن تكره الحياة وفيها رسولُ الله . قال عمار :

---

(١) غراراً : قليلا .

(٢) حبط عمله : فسد وذهب سدى .

أما هذا فنعمْ . ثم نهض كأنه لا يجد ألماً ولا سَقماً ولا عناء ، وكأنما رُدّتْ إليه قوته كأقوى ما تكون قوة الرجال . نهض وهو يقول لعثمان وأصحابه : وَيْحَكم ! ما يحبسنا عن رسول الله ! ومضوْا إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم فجلسوا مع غيرهم من جماعة المسلمين إلى النبي يسمعون له وهو يعظهم ويزُكيهم ويتلو عليهم القرآن . قال أبو جهل لعتبة بن أبي ربيعة وأخيه شيبة : أما إنكما قد استنقذتما حُشاشة عمار من الموت ! ولو قد خلّيتما بيني وبينه لَتُوُورى في التراب ثلاثة لا إثنان . قال عُتبة . فقد خففنا عنك الوزر أبا الحكم . قال أبو جهل وقد ابتسم ثغره عن نية منكرة ورأي بشع : إني لا أحب لعدوي أن يموت ! لأن ذلك يُريحه ويكفّ عنه بأسي ويبّردُ على قلبي ما فيه من الغلّ[1]. وإنما أحبّ له أن يحيا لأذيقه البأس مجدّداً،ولأجرّعه غُصَصَ العذاب شيئاً بعد شيْ . لا واللات والعزّى لا تعرضان بيني وبين عمار منذ اليوم إلا أن تريدا إثارة الشر بين حيكما وبين مخزوم كلها . فقد كان ياسر لنا حليفاً ، وكانت سمية لنا أمَة ، وما زلنا نرى عماراً لنا عبداً . قال شيبة . فإن عمك أبا حذيفة قد أعتق عماراً وأخويه . قال أبو جهل : فإن لنا ولاءهم على كل حال . قال عتبة : هو ذاك . وأضمر أبو جهل في نفسه ما أضمر ، وادّخَرَ الله لعمار من الكرامة ما ادّخَرَ ؛ فقد اتصلت فتنة عمار ما أقام بمكة .

وافتنّ أبو جهل في هذه الفتنة حتى جعلها أحاديث . وأول ما قدّر من ذلك أن يحفظ على عمار حياته وحريته فلا يأتي على نفسه ولا يُلقيه في غيابات السجن ، وإنما يجعله لمحمد وأصحابه نكالا : يفتنه كلما أحسّ الحاجة إلى أن يفتنه ، ويعذبه كلما أحس الشوق إلى أن يشهد مشهد العذاب . وكأنه حالف الشيطان على أن يوفي عماراً من العذاب ما لم يستطع أن يَصُبّ على أبويه ، وأن يظفر منه بما لم يظفر به من ياسر وسمية ، فيضطره إلى أن يذكر آلهته بخيروأن ينال من محمد صلى الله عليه وسلم . وأعانه الشيطان على ذلك كله ، وأعانه عليه قوم آخرون من سفهاء قريش . فترك عماراً آمناً مُعافى في نفسه

---

(١) الغل : الحقد والغش .

وبدنه ودينه ، لم ينله بأذى ، ولم يعرض له بسوء ، حتى استراح عمار من محنته وظنّ أنه قد أمنَ الفتنة . فكان يغدو على دار الأرقم بن أبي الأرقم ، فيسمع من النبي ويتحدث إليه ، ثم يروح إلى داره وقد اتخذ فيها ما لم يتخذه مسلم قبله في داره : اتخذ فيها مسجداً يعبد الله فيه أكثر الليل . حتى أنزل الله في ذلك قرآناً :

« أَمَّنْ هُو قَانِتٌ آناءَ الليل ساجدًا وقائماً يحذَرُ الآخرةَ ويرجو رحْمةَ رّبه ، قُلْ هَلْ يسْتوي الذينَ يعلمونَ والذين لا يعلمونَ إنَّما يتذكرُ أُولو الأَلباب »

فيما تحدث به ابن عباس .

ولكن أصحاب النبي يجتمعون ذات يوم في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، حتى إذا ارتفع الضحى افتقدوا عماراً بينهم فلم يجدوه . فإذا ذكروا ذلك أنبأهم النبي صلى عليه وسلم بأن عماراً يُعذب في الله . ثم يمر النبي بعد أن يتقدم النهار بمكان في بطحاء مكة فيرى أبا جهل وقد عاد في عمار سيرته الأولى : نارٌ موْججة ، وماء مجتمع في نطع من الأدَم ، وعمار قد ألقي بينهما ، وجعل السفهاء من قريش ينوشونه بالرماح ويحرقونه بالنار ، وعمار صابر صامت يذكر الله في قلبه ويكف لسانه عن القول . فإذا رأى النبي ذلك قال : يانار كوني بَرْداً وسلاماً على عمار كما كنت برداً وسلاماً على إبراهيم . وقد سلط أبو جهل من النار على عمار أثناء فتنته الطويلة له ما كان خليقاً أن يأتي على نفسه . ولكن الله يقول لعباده : » ادْعُوني أسْتجبْ لكمْ « . وقد دعاه في عمار أحبّ عباده إليه وأرضاهم عنده . ولله حكمة بالغة ، ولكل أجل كتاب .

وقد احتمل عمار في ذلك اليوم من العذاب ما يُطيقه الرجال وما لا يطيقونه ، حتى إذا جنحت الشمس لمغربها كفّ عنه العذاب وردّ إلى داره . وأمهله أبو جهل بعد ذلك أياماً طوالا حتى ظن عمار أنه لن يُفتن مرة أخرى . ولكن أبا جهل لم يُمهله إلا ليشتد عليه في الفتنة ويُضاعفَ لهُ العذاب . ويراه النبي

ذات يوم ، وقد بلغ الحزن من نفسه وقلبه ما لم يبلغه منهما قط ، وعيناه تنهلاّن بدموع غزار ، فيدنو النبي منه رفيقاً به ، فيكفكف دمعه ويَمسح عينيه ويقول : وَيْحكَ ابنَ سُمَيّةَ ! أخذك الكفار فغطوك في الماء حتى قلت كذا وكذا ، فإن عادوا فعدْ ! ولكنهم لم يعودوا من فورهم ، وإنما انتظروا بعمار حتى أطعموه في العافية ، ثم أخذوه فعذّبوه وفتنوه ، ثم تركوه . وأقبل عمار على النبي خزيان أسفاً تنهلّ دموعه غزاراً على وجه مُرْبدّ كئيب . فلما رآه النبي قال : ما وراءك ؟ قال عمار وهو ينتحب : شرٌّ يا رسول الله ، والله ما تركوني حتى ذكرت آلهتهم بخير وذكرتك بما تكره ويحبون . قال رسول الله : فكيف تجد قلبك ؟ قال عمار : أجده مطمئناً بالإيمان . قال رسول الله : فإن عادوا فعد . وأنزل الله في ذلك قرآنا :

« منْ كفر بالله منْ بعد إيمانه إلَّا منْ أُكره وقَلبهُ مُطمئنٌّ بالإيمان ولكنْ منْ شَرح بالكفر صدْرًا فعليهمْ غَضَب منَ الله ولهمْ عذَابٌ عظيم » .

ولم يخلص عمار من هذه الفتنة المنكرة التي كانت تتلاحق طوراً وتتقطع طوراً آخر إلا حين أذن الله للمسلمين في الهجرة إلى أرض الحبشة . فهاجر عمار الهجرة الثانية ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة ، فعاش مع رسول الله آمناً سالماً موفوراً .

١٥

استوثق رسول الله صلى الله وسلم لدعوته ولأصحابه ولنفسه من حيّيْ يثرب : الأوْس والخزرج ، وعاهدهم أن يُؤْوُوه وينصروه ، ويحموا ظهره ويُقاتلوا من دونه من بَغَى عليه أو أراده بسوء حتى يُبلغ رسالات ربه . وبايعه

على هذا العهد نُقباء(١) هذين الحيين الأوس والخزرج . ثم أذن الله بعد ذلك لرسوله وللمسلمين في الهجرة إلى مستقرهم الجديد . وكان الإسلام قد سبقهم إلى يثرب ، بشّر به مَنْ أرسله رسول الله ليبشر به . فكانت الهجرة إلى دار استقر فيها الإسلام قبل أن يستقر فيها المهاجرون . وقد أذن رسول الله لأصحابه في الهجرة إلى المدينة ، فجعلوا يذهبون إليها أرسالا ، وهو صلى الله عليه وسلم مقيم بمكة ينتظر أن يأذن الله له في الخروج. واجتمعت جماعة المسلمين المهاجرين إلى إخوانهم من الأنصار في قُبَاء ، وجعلوا ينتظرون أن يقدّم عليهم رسول الله . وكانوا في أثناء ذلك يقيمون الصلاة كما كانوا يقيمونها بمكة . وينظر المسلمون فإذا أقرؤهم للقرآن وأحفظهم عن النبي سالمٌ بن أبي حذيفة ، فيقدّمونَهُ ليؤمّهم(٢) في الصلاة ، وفيهم أعلامٌ من المهاجرين ، منهم عمر بن الخطاب الذي كان إسلامه فتحاً ، وهجرته نصراً ، وخلافته رحمة ، كما قال فيما بعد عبد الله بن مسعود .

وينظر المشركون والمنافقون من الأوس والخزرج فيرون هذه الجماعة من المهاجرين والأنصار يقدّمون سالماً ليؤمّهم في الصلاة . فيكبرون من أمر سالم هذا باديء الرأي ، ثم لا يلبثون أن يتذكروه ويعرفوه .

يقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هذا الرجل الذي يصلّي بهذه الناجمة من أصحاب محمد مَنْ هاجَرَ منهم إلى المدينة ومَنْ كان من أهلها ؟

إنه سالم ... ألا تذكرون سالماً ؟ فيجهد القوم أنفسهم ليذكروه ، ولكن بعضهم يعيد عليهم قصة ذلك اليهودي الذي كان يعرض على العرب واليهود صبياً حَدَثاً لا يُحسِن العربية ولا يفهمها . وما هي إلا أن يسمعوا بدء هذه القصة حتى يستحضروا سائرها ، وحتى يروا ذلك الصبي الذي مسه الضر وظهر عليه البؤس وزهد فيه العرب واليهود جميعاً ، واشترته ثُبيتة بنت يعار ، لا رغبة فيه بل عطفاً عليه .

---

(١) نقباء : جمع نقيب وهو عريف القوم وسيدهم .
(٢) يؤمهم : يتقدمهم ويكون لهم إماماً .

ثم يقول بعضهم لبعض : لو عاش سلّام بن حبير لرأى من صبيه ذاك عجباً .. ثم يقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هذه الناجمة من أصحاب محمد يؤمّهم فارسي قد كان بالأمس عبداً ؟ ثم يردّ بعضهم على بعض رَجْعَ هذا الحديث فيقول : إن لهؤلاء الناس لشأناً .

إنهم يُسوّدون العبيد ، ويُلغون ما بين الأحرار والرقيق من الفروق ، وإنا لنرحم قريشاً مما ألمّ بها ، وإنّا لَنعذر قريشاً مما فعلتْ بمحمد وأصحابه . ولو استطعنا لفتناهم كما فتنتهم قريش ، ولنفيناهم عن أرضنا كما نفتهم قريش . ولكن هل إلى هذا من سبيل ؟

فيقول قائلهم : هيهات ! لقد آمن لهم أولو البأس والقوة من قومنا . ولكن فريقاً من هؤلاء المتحدّثين يسمعون ثم ينكرون ثم يُؤثرون الصمت ، ثم يخلو بعضهم إلى بعض فيستأنفون بينهم حديثاً جديداً يَعجبون فيه من أمر هذا الذي كان عبداً بالأمس ، ثم هو يَؤم الأحرار في صلاتهم اليوم . ثم يتتبعون المهاجرين فيرون فيهم نفراً غير قليل من الرقيق الذين أعتقوا ، أعتقهم إسلامهم . ثم يتتبعون سيرة الأحرار الأشراف من المسلمين مع هؤلاء الذين رُدّتْ عليهم الحرية بعد أن نشأوا في الرق ، فيرونها تقوم على الإخاء والعدل والنَّصَفة والمساواة .

ثم يتحدّثون في ذلك إلى المسلمين من قومهم ، فيقول لهم هؤلاء : إن الإسلام لا يفرق بين الحر والرقيق ، ولا بين الناس إلا بالتقوى ، وبما يقدّمون بين أيديهم من البر والخير وعمل الصالحات . هنالك تطمح قلوبهم إلى هذه المساواة التي لم يسمعوا بها من قبل ، وإلى هذا العدل الذي لم يألفوه ، وإذا هم يميلون إلى الإسلام ، ثم يسرعون إليه ، ثم يحرصون على أن يؤمهم سالم بن أبي حذيفة ذلك الذي كان عبداً بالأمس ، فاصبح يؤمّ الأشراف من قريش ومن الأوس والخزرج حين يقومون بصلاتهم بين يدي الله .

١٦

بلغ النبي وصاحبه أبو بكر قُباء ، ونزلا فيها بين جماعة المسلمين من المهاجرين والأنصار . وقد فرح النبي بهجرته إلى المدينة ، وفرحت المدينة بهجرته إليها ؛ فهي في عيد متصل . والأنصار يستبقون إلى برّ النبي وأصحابه من المهاجرين : يؤوونهم ، ويقومون بحاجاتهم ، ويُطرفونهم بما يستطيعون أن يُطرفوهم به من الطيبات . وقد تقدّم النهار وصُليت الظهر ، وأقبل رجل من الأنصار فوضع بين يدي النبي رُطَباً ، وجعل النبي وصاحباه أبو بكر وعمر يُصيبون من هذا الرطب . وإنهم لفي ذلك وإذا شخصٌ يُرفَعُ لهم ،(١) ثم يدنو منهم ، ثم يسلم عليهم ، ثم يجلس إليهم ، وإذا هو صهيبٌ سابق الروم إلى الإسلام ، كما قال فيه رسول الله .

وقد أقبل صهيب مجهوداً مكدوداً قد بلغ منه الإعياء وكاد يأتي عليه الجوع ، وقد أصابه في طريقه رَمَدٌ ، فهو لا يكاد يرى إلا في مشقة أيّ مشقة ، وقد ألقى تحية إلى أصحابه ، ثم ألقى نفسه على الأرض ، ثم نظر فرأى الرطب فانكب عليه وجعل يأكل منه أكلا غير رفيق ، يقول عمر بن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم : ألا ترى يا رسول الله إلى صهيب يأكل الرطب وهو رَمِدٌ ؟ فيقول له النبي : أتأكل الرطب وأنت رَمِدٌ ؟ فيقول صهَيب وهو يمعن في الأكل : إنما آكله بشقّ عيني الذي لم يَرْمَدْ ؛ فيبتسم رسول الله ويضحك القوم . ويمضي صُهيب في أكل غير رفق ، حتى إذا أرضى حاجته إلى الطعام جعل يعاتب أبا بكر فيقول : وعدتني الصحبة ثم تركتني . ثم يُعاتب النبي فيقول : ووعدتني يا رسول الله الصحبة ثم تركتني ، والله ما خلصت إليك حتى اشتريت نفسي من قريش بمالي أجمع ، وما تركتُ مكة إلا بمدّ من دقيق عجنته بالأبواء وعشت عليه حتى انتهيت إليك . فيجيبه رسول الله : رَبح البيع أبا يحيى ! رَبح البيع ! وينزل الله هذه الآية الكريمة :

---

(١) يرفع لهم : يظهر من بعيد .

« ومِنَ الناس منْ يشري نفسه ابتْغاء مرْضَاة الله واللهُ رءُوفٌ بالعباد »

وقد أوجز صُهيب قصة هذا البيع الرابح .

وقد كان من أخلاق المسلمين الصادقين ألا يتكبروا ولا يَمنوا بإسلامهم ، وقد ثابت قريش بعض الشيء إلى نفسها بعد أن فاتها محمد وأبو بكر ، وجعلت تتتبعُ من بقيَ من أصحاب محمد ، تحبسهم عن الهجرة ، وتُمسكهم في العذاب وتفتنهم في دينهم ، وتصُدّهم عن سبيل الله ، وكان صُهَيب من الذين حبستهم قريش .

يقول له أبو جهل وقد وَرم أنفه وذهب به الغيظ كل مذهب : أتيتنا صُعْلوكاً حقيراً لا تملك من الدنيا شيئاً ، فأثريت عندنا وأصبحت ذا مال ، ثم أنت تريد أن تفوتنا بمالك ونفسك إلى محمد وأصحابه ؛ قال صُهيب : فإن خليتُ بينكم وبين مالي أتخلونَ بيني وبين ما أريد من الهجرة ؟ قالوا : نعم ، وقال أبو جهل : هيهات ! إن حاجتنا إلى مالك ليست أقل من حاجتنا إلى نفسك ، فلنمسكنّكَ في العذاب حتى نأخذ مالك ثم نأتي على نفسك أو تعود من ديننا إلى ما كنت عليه . قال صهيب وفي صوته حزن مُرٌّ : لو عاش عبد الله بن جدعان لما بلغتَ مني ما ترى . قال أبو جهل : سَنُلحقك بعبد الله بن جدعان فاشكنا إليه إن شئت . ألستم تزعمون أن الناس يحيونَ حياة ثانية بعد حياتهم هذه الأولى ! فالقَ عبد الله بن جدعان هناك إن شئت فاشكنا إليه .

قال صُهَيب : هيهات ! لن ألقاه ، قد وعدني رسول الله الجنة ، وهو في النار . قال أبو جهل وقد استأثر به الغيظ فسطا على صُهَيب وضرب في وجهه ضرباً عنيفاً : ألا تسمعون يا معشر تيم ! إن سيدكم عبد الله بن جدعان في النار ، وإن عبده هذا الرومي سيصير إلى الجنة ! ما رأيت كاليوم حمقاً ولا خُرْقاً !

ولبث صهيب في حبسه أياماً لا يُرْزَقُ من الطعام إلا ما يعصمه من الموت .



ولكن الإسلام كان في ذلك الوقت قد فشا في أحرار مكة ورقيقها ، فيحتال بعض أولئك وهؤلاء ، وإذا صهيب قد انسلّ من محبسه وركب راحلته وأخذ طريقه إلى المدينة .

وعلمت قريش بأن صهيباً قد انسلّ من محبسه ، وبأنه يوشك آن يفوتها ، فترسل في أثره الخيل ، ويُدرك القوم صهيباً ولم يمضِ في طريقه إلا قليلا . فلما رآهم قد أقبلوا ، وعلم أنهم يوشكون أن يأخذوه وأن يردّوه إلى الفتنة والعذاب وقف لهم ، ونثرما في كنانته من السهام ، وقال لهم في صوت الحازم المصمم : علمتم يا معشر قريش أني من أرماكم رجلا ، وإنكم والله لا تصلون إلي حتى أرميكم بكل ما بين يديّ من سهم ، ثم أضربكم بسيفي ما بقي منه شيءٌ في يدي . فاختاروا بين الموت وبين مالي أدلكم عليه فتأخذونه وتخلون بيني وبين الطريق .

ولم يَطلْ تفكير قريش ولا ائتمارها ، وإنما آثروا العافية والسلامة والمال ، فقالوا : قد رضينا ، فدلنا على مالك . فأنبأهم بمكانه وانصرفوا عنه . ومضى هو في طريقه حتى بلغ رسول الله وقد أدركه من الجهد والكد ومن الظمأ والجوع ما كاد يأتي عليه .

١٧

هاجر عبد الله بن مسعود إلى المدينة ، كما هاجر إليها غيره من المهاجرين ، فنزل على مُعاذ بن جَبَل أو على سعد بن خيثمة ، يختلف رُوَاة السيرة في ذلك . وأقام عبد الله عند مُضيفه حتى خطّ رسول الله للناس دورهم في المدينة ، فخطّ لبني زُهْرَة في مؤخر المسجد ، وقال حيّ منهم للنبي : نَكّبْ عنا ابن أمّ عبد ، كأنهم كرهوا نزوله بينهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلم يبعثني الله إذن ؟ إن الله لا يقدس قوماً لا يُعطي الضعيف منهم حقه . ثم أنزله منزلة بينهم كريماً .

ولم يكد عبد الله يستقر في المدينة حتّى كان ألزم الناس للنبي وأشدّهم اتصالا به في حياته العامة والخاصة، يحجبه(١) إذا دخل داره ، ويسعي بين يديه إذا خرج منها ، وكان أصحاب الحديث يقولون : إن ابن مسعود كان صاحب سواد رسول الله ووساده ونعليه وطّهوره .

كان أثناء الإقامة يقوم على حُجرته حاجباً ، لا يُخفي النبي عليه من سر إلا ما يؤمَّرَ بإخفائه . فإذا همّ النبي أن يخرج ألبسه نعليه ومشى بين يديه بالعصا حتّى إذا جلس نزع نعليه فأدخلهما في ذراعه وأعطاه العصا ، فإذا أراد أن يقوم ألبسه نعليه وأخذ منه العصا فمشى بها بين يديه حتّى يبلغ الحجرة فينحّي ستارها ، ويدخل قبل النبي ، حتّى إذا دخلها النبي نزع نعليه وخرج فقام أمام السّتر حاجباً . فإذا خرج النبي في السفر فابن مسعود صاحب وساده إذا نام ، وصاحب طّهوره كلما أراد الوضوء. وكان النبي إذا أراد أن يغتسل في بعض سفره قام ابن مسعود من دونه يستره ، حتّى لم يَشكّ كثير من أصحاب النبي أن ابن مسعود كان من أهل بيته .

فليس غريباً إذن أن يكون أحفظ الناس للقرآن وأكثرهم سماعاً عن النبي . ثم أصبح بعد النبي أكثر الناس تعليما للقرآن وأقلهم رواية لحديث النبي ،يتألم من ذلك ويخافه أشد الخوف . وكان النبي يُؤْثره ويُكبره ويُدافع عنه ويُشيد به ، حتّى قال ذات يوم : لو كنت مُؤْمراً أحداً دون شورى المسلمين لأمّرت ابن أمّ عبد !

وأمره ذات يوم أن يصعد في شجرة فيجني له من ثمرها ، فلما جعل يصعد في الشجرة نظر أصحاب النبي إلى دقة ساقه وحموشتها (٢)فضحكوا . قال رسول الله : ممّ تضحكون ؟ قالوا : من دّقة ساقه . قال رسول الله : لهي أثقل في الميزان من أحُد . وظل صاحبَ سرّ النبي ووساده وطهوره ، حتى إذا اختار الله النبي لجوره وخرجت جيوش المسلمين غازية الى الشام خرج

(١) يحجبه : يقوم حاجباً على بابه .
(٢) حمشت الساق : دقت .

فيها غازياً ، كأن مقامه بالمدينة قد شق عليه بعد أن تُوفيَ خليله ، وأقام بحمص ما شاء الله أن يقيم ، حتى حَدَرَه (١) عمر الى الكوفة .

١٨

أقبل النذير فملأ قلوب قريش ذُعْراً حين أنبأها بأن أباسفيان يستغيثها ويستنفرها (٢) ويُعلمها أن محمداً قد خرج بأصحابه من المدينة يستعرض العير ولم يتقدّم النهار حتى كانت قريش قد نَفَرَتْ وجعلت تجهز جَهازَها للحرب يتنافس أشرافها في ذلك أيّ تنافس ، ويستبقون(٣) إليه أي استباق. واستيقن أبو جهل أن قد جاء الوقت الذي كان ينتظره منذ أعوام طوال، وأن قريش لن تخرج لتحمي العيرَ فحسب ، وإنما تخرج لتسحق محمداً وأصحابه وتريح منهم مكة ويثرب جميعاً .

وقد جاء النبأ بعد أن خرجت قريش بأن أبا سفيان قد ساحل بالعير (٤)حتى أحرزها(٥)من محمد وأصحابه ، وأن قريشاً تستطيع أن تعود إلى مكة فتنعم فيها بالسلم والعافية . ولكن قريشاً أبت أن تعود كما خرجت وزَين لها الشيطان بلسان أبي جهل أن تمضي حتى تأتي بدراً فتنزل بها منتصرة ، مظهرة للعرب أنها ما زالت قريشاً صاحبة العز والمجد والسؤدد . ثم تنحر فتطعم وتشرب وتطرب وتشرك العرب في طعامها وشرابها وطربها ولهوها ، ويعلم محمد وأصحابه أن كلمة هُبَل(٦) ما زالت عالية ، وأن عزّ قريش لا يُرام .

وخرج سهيل بن عمرو فيمن خرج من أشراف قريش ، وقد جعل إلى ابنه عبد الله ماله وحُملانه(٧)يسعى بها بين يديه . وكان سهيل قد فُتن في دينه

---

(١) حدره : أنزله .   (٢) يستنفرها : يستنجدها ويستنصرها .
(٣) يستبقون : يسرعون .
(٤) ساحل بالعير : ذهب بها إلى ساحل البحر .
(٥) أحرزها : صانها وحفظها .   (٦) هبل : صنم كان في الكعبة .
(٧) الحملان : ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة .

حين عاد من هجرته إلى أرض الحبشة ، أخذه أبوه فأوثقه وحبسه وفتنه حتى استيقن أنه قد عاد إلى دين آبائه وآثر قريشاً على محمد . فلما خرج مع الملأ من قريش قدّم ابنه بين يديه فخوراً به معتمداً عليه . وتراءى الجمعان ببدر ، ونظرت قريش فإذا محمد في قلة من أصحابه ، فامتلأت عُجباً وتيهاً . ونظر النبي فإذا قريش قد أقبلت بقضّها وقضيضها(١)، فاستنجز الله وعده واستنزل نَصرَه ، وتضرع إليه في أن يُثبّت قلوب المؤمنين . وتدانى الجمعان .

ولكن قريشاً تنظر فترى عجباً ، ولكن المسلمين ينظرون فيرون عجباً : ترى قريش فتى من أقوى شبابها قوة وأنضرهم نضرة وأشدهم بأساً ، يخرج من صفها وينحاز إلى محمد . ويرى المسلمون والمهاجرون منهم خاصة صديقاً لهم قد عرفوه وأحبوه ، ثم حزنوا عليه حين ظنوا ، كما ظنت قريشاً ، أنه قد عاد إلى دين آبائه . وتتساءل قريش عن هذا الفتى ، وتتساءل كثرة المسلمين عن هذا الفتى ، ثم يعرف أولئك وهؤلاء أنه عبد الله بن سهيل بن عمرو ، خدع المشركين عن أنفسهم وعن نفسه ، وانتفع بما أنزل الله في أمر عمار بن ياسر :

« منْ كفر بالله منْ بعد إيمانه إلّا منْ أُكره وقلبهُ مُطمئنٌ بالإيمان ، ولكنْ منْ شرح بالكفر صدْرًا فَعليهمْ غَضَبٌ منَ الله ولهمْ عذَابٌ عظيمٌ » .

فهو لم يكفر بقلبه ، ولم يشرح بالكفر صدراً ، ولكنه وجد قلبه كما وجد عمار قلبه حين فتنته قريش مطمئناً بالإيمان . وقد قال النبي لعمار : إن عادوا فعد ، وفهم عبد الله بن سهيل آية القرآن وحديث النبي على وجههما . فلما أحس الفتنة من أبيه أظهر له ولقريش ما أرضاهم ،وأخفى عليه وعلى قريش ما أرضى الله . وها هو ذا يخرج من صفوف قومه وينحاز إلى صف المسلمين

(١) أقبلوا بقضهم وقضيضهم : جميعهم .

ثم يسعى حتى يبلغ النبي فيهدي إليه سلامه ويتلقى منه بركته . ثم يخرج الى أصحابه من المهاجرين فيزحف معهم لقتال قريش وفيهم أبوه . ويلقى أثناء الزحف أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة زوج أخته سهلة ، فإذا قص عليه قصته أثنى أبو حذيفة عليه وقال خيراً . ولم يزد على ذلك شيئاً . وقد تدانى الجمعان، حتى لم يبق إلى تدانيهما سبيل إلا بسيف أو رمح .

ولكن قريشاً تنظر فترى عجباً ، والمسلمون ينظرون فيرون عجباً : يرون فتى يصول في الميدان بين الصفين يدعو عتبة بن ربيعة للمبارزة. ويخرج عتبة للفتى ، ولكنه لا يكاد يراه حتى ينصرف عنه ، وقد ملأ الغيظ قلوب قريش وملأ الإعجاب قلوب المسلمين : رأى أولئك وهؤلاء أبا حذيفة يدعو أباه للمبارزة . ويبلغ هند بنت عتبة وزوج أبي سفيان أن أباها وأخاها الوليد وعمها شيبة قُتلوا ، وأن أخاها أبا حُذيفة قد دعا أباه للقتال ، فتقول في هذا كله فتكثر القول ، وتهجو أخاها أبا حذيفة بهذين البيتين :

الأحول الأثعلُ المشئوم طائرهُ(١) أبو حذيفة شرّ الناس في الدين
أما شكرتَ أباً ربّاك من صغرٍ حتى شببتَ شباباً غيرَ محجون(٢)

وشهد الوقعة فيمن شهدها من المهاجرين عبد الله بن مسعود ، وكان خفيفاً نحيفاً ضئيل الشخص قليل اللحم موفور النشاط سريع الحركة ، لا يكاد يرى في مكان حتى يُرى في مكان غيره ، شأنه في قريش المحاربة كشأنه في قريش بمكة حين كانت تفتن المسلمين ، وهو يعدو هنا ويعدو هناك ، ويطير في الميدان من مكان إلى مكان .

وإنه لفي بعض ذلك وإذا هو يرى ابني عفراء قد صرّعا أبا جهل وأثبتاه(٣)، فيسرع إليه ابن مسعود ويدركه وفيه رمقٌ يُتيح له أن يرى وأن يسمع وأن

(١) الأثعل : من تراكبت أسنانه إحداهما على الأخرى . المشئوم طائره : المنحوس الطلعة .
(٢) محجون : معوج .
(٣) أثبتاه : جرحاه جراحة لا يتحرك منها ولا يقوم بعدها .

يعقل ، ويُتيح له أن يتكلم في بعض الجهد . فيجلس ابن مسعود على صدره وهو يقول : ها قد أخزاك الله يا عدو الله ! قال أبو جهل في صوته المتهالك المتقطع : ها أنت ذا يا راعي الغنم ! لقد ارتقيت مرتقى صعباً . قال ابن مسعود : لقد أخزاك الله بما قدّمت إلى المسلمين من شر ، فذُقْ عذاب الدنيا ، ولعذابُ الآخرة أشد بأساً وأعظم تنكيلا . ثم يحتز رأسه ، ثم يمضي خفيفاً مسرعاً ، فينبئ النبي بمقتل أبي جهل .

قال النبي : الله الذي لا إله غيره ! قال ابن مسعود : الله الذي لا إله غيره ! فكبر النبي وَكبَّرَ منْ حَوله من المسلمين .

ووقف النبي بعد ساعة على صَرْعى قُرَيش وقد ألقوا في القليب فقال : « يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » .

قال بعض أصحاب النبي : إنهم موتى يا رسول الله ! قال : « إنهم ليسمعون كما تسمعون ، إلا أنهم لا ينطقون » .

١٩

كان بلال من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وكان أول من أذنَ في الإسلام ، وقد جعل النبي الأذان إليه حين نُظِّمت جماعة المسلمين . وليس من شك في أن قد كان بين العرب من المهاجرين والأنصار من كان أندى صوتاً من بلال ، وربما كان بينهم كذلك من كان أفصح منه لغة وأنصع منه منطقاً ! ولكن الله يؤتي فضله من يشاء ، وقد عرف رسول الله لبلال سَبْقه إلى الإسلام وسَبقهُ إلى الأذان ، فجعله صاحب أذانه ما أقام في المدينة ، فإذا غاب عنها أذّن مكانه أبو محذورة ، فإذا غاب أبو محذورة وبلال أذّن مكانهما عمرو بن أم مكتوم .

وكان بلال يتحرى الوقت بالأذان فلا يؤخره ، فإذا فرغ من أذانه أقبل

حتى وقف على باب رسول الله ليؤذنه ، وقال : حيَّ على الصلاة . حيّ على الفلاح . الصلاة يا رسول الله . ثم تنحى وقام ينظر . حتى إذا خرج رسول الله ورآه بلال أخذ في الإقامة . وكان بلال يسعى بالعنزة(١) بين يدي رسول الله في العيدين وفي الاستسقاء ، حتى إذا بلغ المصلّى ركزَ العنزة بين يدي رسول الله فصلّى إليها .

وكان النبي يحب بلالاً أشد الحب ويُكبر من شأنه ، ويريد أن يُكبر الناس من شأنه .

جاءته أسرة عربية تطلب إليه أن يزوّج ابنتها من رجل عربي سمته ، فقال لهم النبي : فأين أنتم عن بلال ؟ فانصرف القوم من يومهم ذاك ولم يقولوا شيئاً . ثم أقبلوا من غد على النبي فطلبوا إليه ما طلبوا أمس . فقال لهم مثل ما قال أمس : أين أنتم عن بلال ؟ فانصرف القوم ولم يقولوا شيئاً . ثم أقبلوا من الغد فطلبوا إليه ما طلبوا إليه أمس وأول من أمس ، فقال لهم مثل ما قال في المرة الأولى وفي الثانية : أين أنتم عن بلال ؟ ثم زاد : أين أنتم عن رجل من أهل الجنة ؟ فزوجوه . وعرف الناس أن الرسول لا يمايز بين المسلمين إلا بالتقوى والعمل الصالح وما يقدّمون بين أيديهم من الحسنات . وأكبَرَ الناس بلالا كما أكبره رسول الله ، حتى كان عمر بن الخطاب يقول : أبو بكر سيدنا وأعتقَ سيدنا . يريد بلالاً .

وكان هذا كله خليقاً أن يُرضي بلالا عن نفسه شيئاً ، ولكن بلالا لم يرض عن نفسه قط ، وإنما كان صادق التواضع مستصغراً لنفسه مهما يفعل . أقبل مرة يريد الأذان ، فأحس شيئاً من رضا عن نفسه ، فغاظه ذلك وأنطقه بكلام كان يريد أن يكون شعراً فلم يستطع ، أصاب الوزن وأخطأ القافية:

ما لبلال ثكلته أمُّهُ — وابتلّ من نَضْحِ دم جبينه

وكان الناس من المسلمين يأتون بلالا فيتحدثون إليه ويذكرون ما آتاه

---

(١) العنزة هنا : رمح صغير فيه زج (حديدة في أسفله يركز بها) .

الله من الفضل وما اختصه به من الكرامة ، فلا يزيد على أن يقول : إنما أنا حبشي وقد كنت بالأمس عبداً .

وأقبل المسلمون يوم الفتح فدخلوا مكة ظافرين . وثابت قريش إلى الإسلام طوعاً أو كرهاً ، وعفا رسول الله عن مسيئيها ، وقال لهم مقالة يوسف لإخوته : (لا تثريبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) وحطم الأصنام وَطَهَّرَ الكعبة وأخلصها لله عز وجل ، ثم قال لبلال : اصعد فأذّن على ظهر الكعبة . وصعد بلال فأذن على ظهر الكعبة والحارث بن هشام وَصَفْوَان بن أمية قاعدان ، يقول الحارث بن هشام لنفسه في أعماق نفسه : كيف لو رأى أخي عمرو بن هشام بلالا هذا قائماً على ظهر الكعبة؟ ويقول صَفْوَان بن أمية لضميره في أعماق ضميره : كيف لو رأى أبي أمية ابن خلف هذا العبد الذي طالما عذّبه وأدّبه قائماً على ظهر الكعبة ؟ ولو استطاع الرجلان لاكتفى كل منهما بالحديث إلى نفسه ، ولكنهما يريان الكعبة وقد زال عنها هُبل وزالت اللاّتُ والعزّى ومنّاة الثالثة الأخرى وقام على ظهرها حبشي يُعلن دين محمد إلى قوم طالما حاربوا محمداً وأصحابه ، وليس منهم الآن إلا من يستجيب لدعوة محمد راضياً أو كارهاً .

ينظر الرجلان إلى الكعبة وقد طُهّرت من الأوثان ، وإلى هذا الحبشي القائم على ظهرها ، فلا يملك أحدهما إلا أن يهمس في أذن صاحبه : ألا ترى إلى هذا الحبشي ؟ قال ذلك في صوت تملوه الحسرة . ويجيبه صاحبه في صوت خافت تشيع فيه السخرية المرة : إنْ يكرّهه الله يُغيره . وبلالٌ قائم على ظهر الكعبة يرفع صوته الندي قائلا : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

وأذن بلال في المدينة للمسلمين ، فاستجابت له قلوبهم محزونة ، وأغرقت جماعتهم في نحيب مرّ ارتج له المسجد حين قال بلال وصوته يكاد يحتبس في حلقه « وأشهد أن محمداً رسول الله » . وذلك أن النبي كان روحه قد انتقل

الى الرفيق الأعلى ، وكان جسمه لم يُقبرْ بعد . فلما دفن صلى الله عليه وسلم وتمتْ البيعة لأبي بكر ، قام إليه بلال فقال : أيْ خليفة رسول الله ! إن كنت قد اشتريتني لنفسك فأمسكني ، وإن كنت قد اشتريتني لله فذرني وعملي لله . قال أبو بكر : ما تشاء يا بلال ؟ قال بلال: إني سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يذكر أن أفضل عمل العبد جهاده في سبيل الله ، فخلّ بيني وبين الجهاد . وأراد أبو بكر أن يردّه عن نيته تلك فلم يستطع . وانصرف بلالٌ إلى الشام فرابط(١) فيها غازياً حتّى توفّيَ في دمشقَ عام عشرين .

٢٠

وأقبل عمار بن ياسر إلى المدينة مهاجراً فنزل على مُبشّر بن عبد المنذر . وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين حُذيفة بن اليمان . وأقام عمار عند مُضيفه مُبشر حتّى أقطعه رسول الله موضع داره ، وحتّى بناها ثم انتقل إليها . وكان عطف النبي على عمار شديداً وحبه له قوياً عميقاً . وكان عمار يحس هذا الحب وذلك العطف ، فيدفعه هذا الإحساس إلى تحمس في الإسلام كان يمتاز به من أكثر من المسلمين ، حتّى كانت الأنظار تتجه إليه ، وكانت النفوس كثيراً ما تفكر فيه ، وربما لهجت به بعض الألسنة أحياناً . وكان عمار يتحامل على نفسه ويأخذها من الجهد في سبيل الله بأكثر مما كانت عامة المسلمين تأخذ به أنفسها . أخذ رسول الله في بناء مسجده واشترك المسلمون في هذا البناء ، يرون اشتراكهم فيه خيراً لأنفسهم وبراً بها ، ولم يكن رسول الله أقلهم جهداً ولا أيسرهم عناء في هذا البناء ، فكان يحمل معهم اللبن(٢) حتّى يغبرّ وجهه الكريم وحتّى يكثر عليه التراب .

وكان المسلمون يحملون اللبن لَبنة لَبنة إلا عماراً فكان يحمل لبنتين لبنتين ، وكان ينفق في ذلك من النشاط والمرح والرضا ما كان يملأ قلوب المسلمين

---

(١) رابط الجيش : لازم ثغور العدو

(٢) اللبن : الطوب النيىء .

إعجاباً به ، وقلوب المنافقين حقداً عليه . وكان يحمل لَبناته وهو يتغنى :
« نحن المسلمين نبتني المساجدا » . وربما رق قلب رسول الله لعمار فيقبل عليه
ويرفق به ويتلطف له ويمسح عن وجهه وصدره التراب ، حتى قال له ذات
يوم وهو يمسح التراب عن وجهه: « وَيْحك ابن سُمَيّة ؟ تقتلك الفئة الباغية ! »
ووقعت هذه الكلمة من قلوب المسلمين موقعاً غريباً ؛ فَنقشت في ضمائرهم
وملأت نفوسهم هيبة لعمار وإكباراً له . ولم يقل النبي هذه الكلمة لعمار مرّة
واحدة ، وإنما قالها له فيما يظهر غيرَ مرة : قالها له أثناء بناء المسجد . وقالها
له بعد سنين حين احتفر الخندق . وكان بلاء عمار في حَفر الخندق مُضاعفاً
كبلائه في بناء المسجد . وكان النبي يعمل مع أصحابه في حفر الخندق كأحد
منهم يحمل التراب والحجارة ويتغنى وهم يردّون عليه :

« لا همّ إنّ العيش عيش الآخرة ؛ فاغفرْ للأنصار والمهاجرة » .

وأقبل مقبل فزعم أن حائطاً سقط على عمار فمات، فقال النبي :لم يمت
عمار . ثم لقي عماراً فقال له : « وَيْحك ابنَ سُمَيّة ؛ تقتلك الفئة الباغية ! »
وملأت هذه الكلمة قلب عمار يقيناً وثقة وحرصاً على أن يعمل صالحاً ما
وسعه العمل ، وعلى أن يجتنب الفتنة ما وسعه اجتنابها . وكان يطيل الصمت
ولا يتكلم إلا حين لا يكون من الكلام بُدّ ، وكان كثيراً ما يقطع صمته بهذا
الكلمات : عائذٌ بالله من فتنة ! عائذ بالله من فتنة ! ثم يعود إلى صمته العميق .

وأقبل خالد بن الوليد ذات يوم بعد أن أسلم، فكان بينه وبين عمار شيء
من خصومة ، فأغلظ خالد لعمار في القول — وكأنه ذكر سُمَيّة التي كانتْ
أمة لعمه أبي حُذَيفة ، وياسر الذي كان حليفاً لعمه أبي حذيفة . وكأنه
ذكر عماراً بأنه عتيق عمه أبي حذيفة ، وكانت في خالد بقية من كبرياء مخزوم،
وكان فيه فضلٌ من صلف(٢)قريش — فجاء عمار إلى النبي صلى الله عليه
وسلم يشكو خالداً . وأقبل خالد أثناء ذلك فجعل يقول لعمار وعمار ساكت

---

(١) لاهم : اللهم ، يا الله

(٢) صلف تكبر وتمدح وادعاء .

والنبي مطرق . ثم يرفع النبي رأسه وقال في صوته الوادع العذب الذي ينفذ إلى القلوب : «مَنْ عادى عماراً فقد عاداني» . فخرج عمار كأرضى ما يخرج الناس ، وخرج خالداً مهموماً مغتماً كئيب النفس . فلم يسترح حتى أرضى عماراً ووثق بأنه عفا له عما أسلف إليه من سوء .

٢١

عادت العرب إلى كفرها بعد وفاة النبي ، وجدّ أبو بكر وجدّ معه الأنصار والمهاجرون في ردهم إلى الإسلام طائعين أو كارهين . وخرج خالد بن الوليد بجيش أبي بكر إلى اليمامة يقاتل مُسيلمةَ ويَردّ بني حَنيفةَ إلى الإسلام . والتقى المسلمون وأهل الردّة ، فكانت بينهم موقعة من أشد ما عرف المسلمون من المواقع وكان في الجيش أربعة نفر كلهم شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله : عمار بن ياسر ، وأبو حُذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وابنه قديماً ومولاه حديثاً سالم بن سالم ، وأخو امرأته عبد الله بن سهيل بن عمرو . وقد انكشف المسلمون وكادت الدائرة تدور عليهم ، ولكن الناس يرون هؤلاء النفر قد ثبتوا في أماكنهم لا يَريمون. فأما سالم فجعل يصيح بالناس : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ! ثم احتفر حفرة فأثبت فيها قدميه ، وصنع أبو حذيفة وعبد الله بن سهيل صنيعه فاستشهدوا جميعاً في أماكنهم .

وأما عمار فقد رآه الناس قائماً على صخرة وقد قطعت أذنه فهي تتذبذب ، وهو يصيح بالمسلمين : إليّ أيها المسلمون أنا عمار بن ياسر ، أمن الجنة تفرّون ! وما زال بهم يدعوهم وقد ثبت على صخرته لا يزول حتى ثاب إليه المسلمون وأنزل الله عليهم نصره . ويبلغ أبا بكر موت سالم ، فيدفع تُراثه إلى صاحبة ولائه ثُبيتة ، فترده وتقول : سيبته لله عز وجل . فإذا وَليَ عمر الخلافة دفع تُراث سالم مرة أخرى إلى ثبيتة صاحبة ولائه ، فترده وتقول : سيبته لله عز وجل ويضعه عمر في بيت المال .

وأقبل أبو بكر في أثناء خلافته حاجاً . فلما دخل مكة جاءه سهيل بن عمرو

مسلّماً ، فعزّاه أبو بكر بابنه عبد الله الذي قتل في اليمامة شهيداً . قال سهيل : لقد بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يشفع الشهيد لسبعين من أهله ! فأنا أرجو ألا يبدأ ابني بأحد قبلي .

٢٢

لم يكد عمر ينهض بأمور المسلمين بعد صاحبه حتى مضى في سياسة الفتح التي ابتدأها من قبله . لم يهن ولم يضعف ، ولم يتح لأحد من الناس أن يَهن أو يضعُف ، وإنما رمى العالم القديم المتحضر بثقْل العرب ، فلم يثبت له العالم المتحضر إلا ريثما تداعىَ ثم انهار . وكان عمر لا ينام ولا يُنيم ، وإنما كان يقظاً دائماً ، موقظاً دائماً ، عاملا دائماً ، دافعاً غيره إلى العمل . وقد فتح عمر للذين أسلموا بأخَرَة من عامة العرب ومن خاصة قريش أبواب الجهاد على مصاريعها ، وألقي في رُوعهم جميعاً أن من فاته ثواب الغزو مع النبي صلى عليه الله وسلم فلم يشهد معه بدراً ولا أحُداً ولا الخندق ولا غيرها من المشاهد ، فإن أمامه ملك الروم وفارس يستطيع أن يستدرك فيهما ما فاته من حسن البلاء ، وأيّ بلاء أحسن من أن يكون الرجل قد تقدمت به السن ، والرجل لم يكد يخرج من شبابه،والفتى لم يكد ينضو عنه ثوب الصبا،وسيلة إلى تحقيق وعد الله عز وجل وتصديق قوله :

« وعد اللهُ الذينَ آمنُواْ مِنْكُمْ وعملوا الصّالحات لَيسْتَخْلِفنَّهمْ في الأَرْض كما اسْتَخْلَفَ الذينَ مِنْ قَبلهمْ وليمكّنَنَّ لهمْ دينهمُ الذي ارْتَضَى لهمْ ولَيبدِّلَنّهمْ منْ بعد خَوْفهم أَمْناً يعبدُونَّني لا يُشركونَ بي شيئاً » .

لقد اندفعت العرب حين دفعها عمر ، فلم تجد أمامها صعوبة إلا قهرتّها ، ولا عقبة إلا ذلّلتها ، ولا مقاومة إلا جعلتها هباء .

ولم يكن أصحاب رسول الله والذين شهدوا معه المشاهد منهم خاصة أقلَّ اندفاعاً إلى الجهاد واستباقاً إلى الغزو من الذين أسلمو بأخَرة . ولم يكن عمر يصدّهمْ عن ذلك أو يرُدهم عنه ، وإنما كان يُخلي بينهم وبين ثواب الله يطلبونه ما وجدوا إليه سبيلا ، إلا أولئك الأشراف من قريش ، فإنه أمسكهم في المدينة ولم يأذن لهم بالخروج ، خاف من عامتهم على الناس ، وخاف على خاصتهم من الفتنة ، وكان أشراف الصحابة من قريش إذا أراد أحدهم أن يخرج للجهاد ابى عليه عمر ، وقال : قد غزوت مع رسول الله صلى عليه الله وسلم ما يجزئك .

أما المستضعفون من أصحاب النبي من قريش ومن غير قريش فلم يَخَف عمر منهم ، ولم يخف عليهم فتنة ، فخلّى بينهم وبين ما أرادوا من الجهاد وما ابتغوا من فضل الله . وكذلك انطلق بلالٌ وأبو ذرّ وابن مسعود إلى الشام ، وانطلق غيرهم إلى العراق . وأقام في المدينة من أمسكه ضعف الجسم أو أمسكته سياسة عمر .

وأقبل خبّاب بن الأرَتّ ذات يوم مُسلّماً على عمر ومستأذناً في أكبر الظن في اللحاق بجيش من جيوش العراق ، فيهشّ له عمر ويستدنيه ويُجلسه على مُتكئه ويقول : ما على الأرض أحدٌ أحقّ منك بهذا المجلس إلا رجلا واحداً . فيقول خبّاب : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال عمرو : بلال . وروى بعضهم أنه قال : عمار بن ياسر .

قال خبّاب : ما هو بأحقّ مني ، لقد كان له من قريش من يمنعه ويقوم دونه ، فأمّا أنا فلم يكن لي أحد ، ولقد رأيتهم ذات يوم أخذوني ثم أوقدوا لي ناراً فسلقوني فيها ، ثم يُقبل رجل فيضع رجله على صدري ، فوالله ما اتقيت بردَ الأرض إلا بظهري . ثم يرفع رداءه ابرى عمر ما بقي في ظهره من آثار العذاب . وينظر عمر ، وينظر من حضر من المسلمين ، فيرون شراً مروّعاً : يرون أن ظهره قد برَص !

لم تمنعه الفتنة من أن يشهد مع رسول الله بدراً وأحُداً والخندق والمشاهد

كلها . ثم لم يكفه ذلك حتى أبى إلا أن يجاهد ، كأنه رأى أنه لم يلقَ في سبيل الله مع هذا كله ما ينبغي أن يلقى من الجهد والمشقة والعناء . وقد انحدر إلى العراق فغزا مع الغازين ،وجاهدمع المجاهدين ،ورابط في الكوفة حتى أدركته الشيخوخة واشتد عليه الداء ، وأقبل نفر من أصحاب رسول الله يعودونه ، وقد اكتوى في بطنه سبع كيات ، وبرح به الألم كل تبريح . فلما دخلوا عليه رأوا رجلا مُرَوّعاً قد ملك الخوف والحزن عليه أمره . يقول لعواده من أصحاب النبي : لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن نتمنّى الموت لتمنيته . ثم يسكت صوته ويسكن جسمه وتنهل دُموعه على وجهه غزاراً .

فيعزّيه عواده من أصحاب النبي يقولون له : أبْشرْ أبا عبد الله، إخوانك فلان وفلان وفلان ، تَقدم عليهم غداً . فيغرق في البكاء حتى ما يستطيع كلاماً ، ثم يثوب إليه شيٌ من هدوء فيقول في صوته الضعيف النحيف المتقطع : أمَا إنه ليس بي جزع ، ولكن ذكرتموني أقواماً وسميتموهم لي إخواناً ، وإن أولئك مَضَوْا بأجورهم كما هي ، وإني أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا بعدهم . ثم تأخذه غشية تكفّ لسانه عن النطق حتى يُظنّ أنه قد قضى أو كاد . ثم يُرَدّ إليه شيٌ من حياة ، فينظر فإذا كفنه قد أحضر ، وإذا هو من قَباطيّ ، فيبكي ويقول : لكن حمزة عم النبيّ صلى الله عليه وسلم كفنَ في بُرْدة ، فإذا مُدّت على قدميه قَلَصَتْ (١) عن رأسه ، وإذا مُدت على رأسه قلصت عن قدميه ، حتى جُعل عليه إذْخر (٢). ولقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أملك ديناراً ولا درهماً ، وإن في ناحية بيتي في تَابُوتي (٣) لأربعين ألف واف ، ولقد خَشيتُ أن تكون قد عُجّلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا .

يقول بعض أولئك الرهط لبعض حين انصرفوا عنه : ألا ترون إلى خباب

---

(١) قلصت : ارتفعت .

(٢) الإذخر : الحشيش الأخضر ، وحشيش طيب الريح

(٣) التابوت : الصندوق .

على كثرة ما احتمل وعلى كثرة ما عمل يخشى أن يلقى الله فقيراً ليس له كبير حظ من الصالحات ! فيقول قائلهم : وما يريبكم من ذلك ؟ ألم تعلموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للمرأة التي زعمتْ أن الله قد أكرم عثمان بن مظعون بعد موته : «وما يُدريك أن الله قد أكرمه ! إني لرسول الله وما أدري ما يُفعلُ بي ! » .

ولم يمنع المرض الموجع ولا الحزن اللاذع ولا الخوف من لقاء الله خبّابا من أن يكون مُعلماً ناصحاًللمسلمين حتى في آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة. كان الناس يدفنون موتاهم في جبابينهم قريباً من دورهم ، فيقول خبّاب لابنه حين أحسّ الموت : يَا بُنيّ إذا أنا مت فادفني بهذا الظهر ؛ فإن الناس إن رأوا ذلك قالوا صاحب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفن بظهر الكوفة ، ثم دفنوا موتاهم خارج المدينة .

ومات خبّاب وصلى عليه عليّ رحمه الله ، ودُفن بظاهر الكوفة ؛ فدفن الناس موتاهم حول قبره .

٢٣

مضى صهيب بعد الإسلام على ما كان يمضي عليه من سيرته في الجود والكرم قبل أن يُسلم . وكثر المال عنده بعد الفتوح ، فكثر عطاؤه وسخاؤه ، حتى تحدث بأمره الناس . وكان لا يستقبل ليله إلا جمع خلقاً من الناس كثيراً حول طعام كثير . فجعل الناس يذكرون كرم أبي يحيي وسخاء أبي يحيى وبرّ أبي يحيى . وسمع ذلك عمر فقال : من هو أبو يحيى هذا الذي يذكرون ؟ قالوا : صُهيب . قال : لصهيب ابنٌ يُكنّى به ؟ قال الناس : إنه يكنى أبا يحيى ، وإنه يُطعم الطعام الكثير ، كما كان أجواد العرب من قومه يفعلون . قال عمر : وإن صُهيّباً لمن العرب ؟ قالوا : بذلك يحدّثنا . فسكت عمر ولم يقل شيئاً .

حتى إذا كان ذات يوم في المسجد والناس من حوله كثير وفيهم صهيب ،

دعاه إليه وقال له : مالك تُكنى أبا يحيى وليس لك ولد، وتقول إنك من العرب وأنت رجل من الروم ، وتُطعم الطعام الكثير وذلك سَرَفٌ في المال ؟

فقال صهيب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كناني أبا يحيى . وأما قولك في النسب وادّعائي إلى العرب فإني رجل من النمر بن قاسط من أهل الموصل ، ولكن سُبيت ، سَبَتني الروم غلاماً صغيراً بعد أن عقلت أهلي وقومي وعرفت نسبي . وأما قولك في الطعام وإسرافي فيه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « إن خياركم من أطعم الطعام ورد السلام » ! فذلك الذي الذي حملني على أن أطعم الطعام . فسكت عنه عمر .

وعاش صهيب ما عاش خير مثل للمسلم كما صوره رسول الله حين قال : المسلُم مَنْ سَلمَ الناس من لسانه ويده » . ولم يكن يعطي الناس من نفسه إلا خيراً ، كان يجود عليهم بماله وعلمه جميعاً ، لا يتحفظ في الجود بالمال ، ولا يتحفظ في الجود بالعلم، إلا بواحدة، كان شأنه فيها شأن الخيار(١) من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : لم يكن يحب أن يتحدث عن النبي مخافةَ أن يخطئ الحديث . وكان يقول للناس : هَلموا أحدثّكم عن مغازينا ، فأما أن أقول : قال رسول الله صلى عليه الله وسلم فلا .

ولم يكن لصهيب أيام أبي بكر وعمر إلا شأن الرجل الخير الكريم من المهاجرين . ولكن عمر رحمه الله يُطعنُ ذات صباح ، وينظم أمر الشورى حين أحس الموت ، ويأمر فيما يأمر به أن تكون صلاة المسلمين إلى صهيب ثلاثاً حتى يختار أهل الشورى للمسلمين إماماً .

وينظر المهاجرين والأنصار ، فإذا صهيب يصلي بهم المكتوبات بأمر عمر . فإذا حضرتْ جنازةُ عمر قدّموا صهيباً فصلى بهم عليه .

فقد كان صهيب إذن إماماً للمسلمين حتى فرغ أهل الشورى من تشاورهم ، لم ينكر المهاجرون والأنصار من ذلك شيئاً . ولكن نفراً من شباب قريش جعلوا

---

(١) الخيار : الصالحين الكثيري الخير .

يتحدثون بذلك فيما بينهم ؛ ولم يكن شباب قريش يألفون عمر ولا يطمئنون إلى سيرته ، لشدته على قريش ولشدته في الحق عامة . ويقول بعض أولئك الشباب لبعض: ألم تروا إلى عمر يقدّم هذا الرومي ليصلي بالمهاجرين والأنصار وقد كان صهيب عبداً لرجل من قريش ؟ فيقول آخر : الحمد لله على أنه لم يزدْ على أن يجعل إليه الصلاة حتى يختار هؤلاء الرهط منهم إماماً ! فقد كان خليقاً أن يستخلفه وأن يجعل إليه إمْرةَ المؤمنين .

قال آخر ! وَيْحك إنك لتسرف في الظن ، وإن بعض الظن إثم . ما كان عمر ليستخلف على المسلمين مولى لعبد الله بن جدعان من سبي العرب أو من سبي الروم ، قال صاحبه وهو يضحك ضحكة ساخرة : ألم يبلغك أن عمر قال : لو كان أبو عُبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته ، ولو كان سالمٌ مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته . وهل كان سالم مولى أبي حذيفة إلا رقيقاً فارسياً من أهل إصْطَخرَ ؛ فإذا تمنى عمر أن يستخلف على المسلمين عبداً فارسياً فما يمنعه أن يستخلف عليهم عبداً رومياً ؟ قال أحدهم وقد ثار مغضباً : ما رأيت كاليوم رجوعاً إلى الجاهلية الأولى .ويلكم ! أمسلمون أنتم صادقون في إسلامكم أم منافقون ؛ رحم الله عمر ! والله ما عرفناه إلا براً صادق النصح لله ورسوله وللمؤمنين . ألم تقرأوا قول الله عز وجل :

« يـأَيُّها الناسُ إنَّا خَلَقْنَاكمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وجعلْنَاكم شُعُوباً وقبائِلَ لتعارفوا إنَّ أَكرمكُمْ عنْد الله أَتْقَاكمْ إنَّ اللهَ عليمٌ خَبيرٌ »

وتفرق أولئك الفتية وقد ثاب بعضهم إلى الحق والهدى ؛ وأسرّ بعضهم الآخر في نفسه أن السلطان عربي لا ينْبغي لأحد — ولو كان عمر — أن يَصرفه عن العرب وعن قريش خاصة إلى الفرس أو الروم . وكان تفكير هؤلاء الفتية وقومٌ كثير أمثالهم مصدر شرّ عظيم للمسلمين .

أقام عبد الله بن مسعود بحمص بعد أن فتحت على المسلمين ما شاء الله أن يقيم ، مرابطاً في سبيل الله . ولكن المهاجرين والأنصار ممن أقام في المدينة ينظرون ذات يوم فإذا هو بين أظهرهم في المسجد ، فيستبقون إليه مسلّمين عليه ، ويسألونه عن مَقدَمه فيقول : ما أدري ، وإنما دعاني أمير المؤمنين فقدمتُ . ثم يلتي عمر عبد الله بن مسعود فيخلو إليه ، ويخلو من بعده إلى عمار بن ياسر ، ويخلو من بعدهما إلى عثمان بن حُنيف ثم يُعلن إلى المسلمين في أعقاب صلاة من الصلوات أنه قد جعل صلاة الكوفة وحربها إلى عمار بن ياسر ، وأنه قد جعل بيت مال الكوفة وتعليم أهلها إلى عبد الله بن مسعود ، وأنه قد جعل سواد الكوفة إلى عثمان بن حنيف . فأمّا أصحاب السابقة من المهاجرين والأنصار فيسمعون ويعرفون في سرائر نفوسهم وفي ظاهر سيرتهم . وأما الذين أسلموا بأخرة من أشراف قريش فيسمعون ويُطيعون وينصرفون وفي نفوسهم شيء .

يقول أحدهم لصاحبه : غفر الله لعمر ! ماذا صنع بقريش ! ألا ترى إليه يجعل إمرةَ الكوفة لابن سُميّةَ ، ويجعل بيت مالها وتعليم أهلها لابن أمّ عبد ! وأين هو عن أشراف قريش وعن السابقين الأولين من المهاجرين ! فيقول له صاحبه : أمْسكْ عليك نفسك ، لا يبلغُ عمر من حديثك هذا شيءٌ فيظن بك النفاق ويؤدّبك أدباً لا تحبه . إنّك لحديث عهد بالإسلام ، وما أراك قرأت من القرآن إلا قليلا . ألم تسمع قول الله عز وجل :

« ونُريدُ أَنْ نَمُنَّ علَى الذينَ اسْتُضْعفوا في الأَرْض ونَجْعلهُمْ أَئِمة ونَجْعلهُمْ الوارثِينَ . ونُمكِّنَ لهُمْ في الأَرْض ونُري فِرْعوْنَ وهَامانَ وجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يحْذَرُون »

فإن عمر لم يزد على أن أنجز بعضَ وعد الله عز وجل لبعض هؤلاء المستضعفين في الأرض . قال صاحبه وقد أظهر الرضا : هو ذاك .

وانتهى عمار بن ياسر وابن مسعود وعثمان بن حنيف إلى الكوفة ، واجتمع

أهلها في المسجد ، فقرئ عليهم كتاب عمر ، فإذا فيه :

« أما بعد ، فإني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً ، وابن مسعود معلماً ووزيراً ، وقد جعلتُ ابن مسعود على بيت مالكم ، وإنهما لمن النجباء من أصحاب محمد من أهل بدر ، فاسمعوا لهما وأطيعوا واقتدوا بهما . وقد آثرتكم بابن أمّ عبد على نفسي ، وبعثت عثمان بنَ حنيف على السواد ، ورزقتهم كل يوم شاة ، فاجعلوا شطرَها وبطنها لعمار ، والشطر الباقي بين هذين الرجلين » . وقد سمع أهل الكوفة ورضُوا وأطاعوا فأحسنوا الطاعة ، وأحسن أمراؤهم السياسة .

ونظر عمار بن ياسر فإذا هو أمير لمصر عظيم من أمصار المسلمين وجيش عظيم من جيوشهم . وأكبر الظن أنه استحضر في نفسه ما لقي من الجهد والمحنة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وما لقي من الشدة والبأساء مع النبي بعد أن هاجر إلى المدينة ؛ فلم يقع هذا كله من نفسه موقعاً غريباً ، وإنما آمن بأن وعد الله حق . ولم يدفعه هذا كله إلى تكبُّر أو تجبر أو استعلاء ؛ لأنه استيقن كما استيقن نظراؤه من أصحاب النبي أن هذه الحياة الدنيا غرور ، وأنها فتنة يُمتحنُ بها أولو الحزم والعزم في أنفسهم ؛ فمن خلص منها كريماً نقياً سليم القلب فهو من الناجين ، ومن رتع فيها حتى أرضى غرائزه وشهواته فهو من الذين حبطت أعمالهم وضلّ سعيهم(١) وعُجلتْ لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا .

واستحضر ابن مسعود في أكبر الظن حياته تلك حين كان راعياً لغنيمات عُقبة بن أبي مُعيط ، قد أدبرت عنه الدنيا بسعيها ودعتها وثرائها ونعيمها ، وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رضي عن أمانته حين أبى أن يسقيه ويسقي صاحبه من لبن غنم بن أبي معيط ، وذكر أن النبي ائتمنه على سرّه وضمه إليه وجعله من خاصته ، وذكر أن النبي قال فيه ذات يوم : « إن ساقه لأثقل في الميزان يوم القيامة من أحُد » ؛ فلم يزده هذا إلا إيماناً وتثبيتاً وحباً للأمانة واستمساكاً بها ، ووفاء لخليله ونصحاً لأمته .

---

(١) ضل سعيهم : أي فسدت أعمالهم وذهبت سدى ، وخابت .



وقد أقام عمار ما شاء الله أن يقيم أميراً على الكوفة ، فكان يسيراً سَمْحا لم يتغير من أمره شيءٌ : صَمْتٌ كثير ، وكلامٌ قليل ، واختلاطٌ بالناس كأنه رجل من عامتهم ، وإقامةٌ للعدل ، وحكمٌ بالقسط ، ونُصْحٌ في الدين لا تكلف فيه ولا تَزَيّدَ . سئل ذات يوم في بعض مايُشكل من أمور الناس فقال : أكان هذا بعدُ ؟ قالوا لا . قال : دعُوه حتى يكون ؛ فإذا كان تجشمناها(١) لكم .

وكان يخرج في حاجات بيته وأهله كما يخرج غيره من عامة الناس . تحدّث من رآه وهو أمير الكوفة يشتري قتاً بدرهم ، ثم يستزيد البائع حبلا فيأبى عليه البائع ، فيجاذبه عمار حبله وينازعه حتى يأخذ نصفه ، ثم يحمل قتّه على ظهره ويمضي به إلى داره وهو الأمير ، لا يُنكر من ذلك شيئاً . ولا يرى أن شيئاً من ذلك يغضّ من قدره أو يحط من مكانته ، ولا ينكر الناس من ذلك شيئاً ولا يرون أنه يخسه(٢) عن المنزلة التي تنبغي للأمير . وكان عمار لا يغضب لنفسه مهما يُؤْذَ . فإذا تعرض أحد لحق الله أو لحق الناس غضب عمار حتى يأخذ بالحق وَيَرُدّ الأمر إلى نصابه . عرف أن رجلا وَشَى به إلى عمر ، فلم يَزِدْ على أن قال : اللهمّ إن كان قد كذب عليّ فابسط له في الدنيا واجعله مُوَطأ العقب(٣).

وأقبل بجيش من أهل الكوفة مَدَداً لأهل البصرة في بعض المواقع . فلما أظفر الله المسلمين قال له بعض أهل البصرة : يا أجدَع ، أتريد أن تشاركنا في غنائمنا ؟ فلم يزد عمار على أن قال وهو يضحك : خَيْرَ أذُنِيّ سَبَبْتَ . وكانت أذنه تلك قد أصيبت في سبيل الله يوم اليمامة . وقد أبى أهل البصرة أن يُشركوا عماراً وأصحابه في الغنيمة ، وأبى عمار إلا أن يأخذ لأصحابه حقهم منها . فكتبوا في ذلك إلى عمر ، فكتب إليهم عمر : إنما الغنيمة لمن شهد الوقعة . وأخذ عمار وأصحابه حقهم .

---

(١) تجشم الأمر : تكلفه على مشقة .

(٢) يخسه : يحطه وينزل قدره .

(٣) هو موطأ العقب : اي يتبع ، وكانه تداس عقبه من ازدحام القوم وراءه .

وكان عمر يخالف بين وُلاته على الأمصار ، لا يكاد يمدّ لأحدهم في الولاية . فلما عزل عماراً ولقيه بعد ذلك في المدينة قال له : أساءك عزلنا إياك ؟ فأجابه عمار : أمّا إذا قلت ذلك فقد ساءني حين استعملتني وساءني حين عزلتني .

ثم فرغ عمار للعبادة والطاعة والأمر بالمعروف وتأديب الناس في دينهم ما بقي من أيام عمر وصدراً من أيام عثمان . ولكن عماراً يعلم ذات يوم أن عثمانَ قد أمّر عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر . فيحضره خاطر مؤلم يُمرّه في نفسه ثم يُلقيه في أعماق ضميره لا يحدّث به نفسه بعد ذلك ولا يحدّث به الناس ، ويذكر أن آية في القرآن قد أنزلتْ أشير فيها إليه وإلى عبد الله بن أبي سَرْح هذا الذي أمّرَ على مصر ، وهي قول الله عز وجل :

« من كفر بالله مِنْ بعد إيمانه إلّا من أُكرهَ وَقَلبهُ مُطمئنٌ بالإيمان ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بالكفْر صَدْرًا فَعليهمْ غضبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظيمٌ » .

وكان المسلمون يرون أن عبد الله بن أبي سرح هو الذي أشير اليه في قول الله عز وجل .

« مَنْ شَرَحَ بالكفْر صَدْرًا » .

يقول عمار لنفسه إن عبد الله بن أبي سرح قد عاد بأخرة إلى الإسلام ، فعسى أن يكون قد تاب وأصلح ، وعسى الله أن يكون قد حطّ عنه ثقلَ الكفر بعد الإيمان . ولكن سيرة عبد الله بن أبي سرح في مصر تُصبح موضع الشكوى بين المصريين كسيرة غيره من وُلاة عثمان في الكوفة والبصرة . ثم تكثر الشكوى ويشيع التنكير ، حتّى يغضب المهاجرون والأنصار في المدينة ويتكلمون في ذلك ، ثم يجتمعون ويتشاورون ، ويذهب عمار إلى عثمان عن نفسه أو عمن وراءه من المسلمين ليحدّثه برأي الناس في وُلاته ، فلا يرضي قوله عثمان ،

ويعظم الأمر بينهما ، حتى يأمر عثمان بإخراجه ، فيخرجه غلمانه ويضربوه حتى يُغشى عليه ، وحتى يظن الناس أنه الموت . ولكن عماراً يفيق ويقول : طالما عُذّبنا في الله من قبل . ويُصبح منذ ذلك اليوم زعيما من زعماء المعارضة لعثمان .

٣٥

لبث عبد الله بن مسعود في الكوفة بعد أن عُزل عنها عمار بن ياسر . لم يَعدْ إلى المدينة ، ولم يُنحّ عن عمله ، وإنما ظل أميناً على بيت مال الكوفة معلماً لأهلها مشيراً على ولاتها . وقد علّم الناس فأحسن تعليمهم . فملأ قلوبهم حباً له وإعجاباً به ، وترك في نفوسهم أقوى الأثر وأبقاه .

ولم يكن ذلك غريباً ؛ فقد لزم ابن مسعود رسول الله فأطال لزومه . حتى ظن بعض أصحابه أنه من أهل البيت ، وأخذ من فم النبي سبعين سورة من القرآن لم ينازعه فيهن أحد ، وكان النبي يحب قراءته للقرآن ويحببها إلى الناس ويقول : « مَنْ سَرّه أن يقرأ القرآن غَضّاً كما أنزل فليقرأه على ابن أم عبد » .

وكان عبد الله شديد التأثر(١) للنبي في قوله وعمله وفي حركته وسكونه وفي تحدثه إلى الناس واستماعه لهم ، وفي تأتّيه للأمور(٢) حين تعرض . وثباته للخطوب حين تشتدّ ، وكان شديد الاقتداء به في هذا كله : حتى اتفق الذين عرفوه من أصحاب النبي أنه كان أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم في هَديه وسَمْته ودله(٣) . وكان حذيفة بن اليمان يقول : ابن مسعود أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم هدياً وسمتاً ودلاً حتى يُواريه جدار بيته.

---

(١) التأثر : الاقتداء والاتباع .

(٢) تأتى للأمر : ترفق له وتقصد .

(٣) الهدى والسمت والدل ، قريب معنى بعضها من بعض ، وهي عبارة عن الحالة التي يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار وحسن السيرة والطريقة .

وكان ابن مسعود يقرئ الناس القرآن أثناء إقامته في الكوفة ويعظهم عشية كل خميس ، يقوم فيهم خطيباً معتمداً على عصاً ، فيتكلم ما شاء الله أن يتكلم ثم يسكت ، وأحبّ شيء إلى سامعيه أن يمضي فيما كان فيه من حديث .

ولم يكن ابن مسعود يخاف شيئاً كما كان يخاف الرواية عن النبي ، شأنه في ذلك شأن المتحفّظين الذين سمعوا النبي يقول :

« من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

فأشفقوا أن يتحدثوا عنه فيخطئوا صدْقَ الحديث وهم لا يشعرون . وجرى مرة على لسان ابن مسعود وهو يعظ الناس قوله :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكد هذا القول يجري على لسانه حتى أخذته رعْدَةٌ عنيفة اضطرب لها جسمه كله وتزعزعت لها العصى التي كان يعتمد عليها وتصبب العرق على جبهته ، فقال : أو فوق هذا ، أو نحو هذا ، أو دون هذا ، ولم يرض أهل الكوفة على أحدمن ولاتهم كما رضوا عن عبد الله بن مسعود وعن ابى موسى الأشعري . وقد توفي عمر رضي الله عنه وابن مسعود أمير على بيت المال في الكوفة ، فأقره عثمان على عمله ، حتى إذا كانت ولاية الوليد بن عقبةَ للكوفة حدثت أحداث حولت ابن مسعود إلى المعارضة، وكان ابن مسعود قبل هذه الأحداث من أرضى الناس عن عثمان وأحسنهم ذكراً له ودعاء إليه .

٢٦

وقد حدث بعض هذه الأحداث في الكوفة ، وحدث بعضها الآخر في المدينة ، فأما ما حدث منها في الكوفة فسياسة جديدة في بيت المال لم يألفها عبد الله بن مسعود ولم يكن ليطمئن إليها أو يرضاها . فقد كان الوليد يتوسع في النفقة ، ويرى أن له أن يصنع بمال المسلمين ما يشاء . وكان ابن مسعود قد

ألف منذ أيام عمر أن أموال بيت المال ملك للمسلمين لا للأمراء ، وأن الأمراء لا ينبغي أن يُنفقوها إلا بحقها وفي الوجوه التي تنفع عامة المسلمين .

وإلى جانب هذه السياسة المالية الجديدة كان للوليد بن عُقبةَ سيرةٌ لم يرض عنها خيار أهل الكوفة . وقد أنكر ابن مسعود ما أنكر الناس ، وكره الوليد منه هذا الإنكار ، واشتد الخلاف بينهما . وكان الناس إلى ابن مسعود أميل ، وله أحبّ ، ولقوله أكثر استماعاً .

وأما ما حدث في المدينة فانتداب(١) عثمان لجمع القرآن في مصحف واحد وقراءة واحدة .

وقد ألف عثمان لهذا العمل الخطير لجنة من حفّاظ المسلمين . وجعل رياستها لزيد بن ثابت . وليس من شك في أن عثمان قد نصح للمسلمين في هذا العمل ، وكره لهم أن يختلفوا في قراءة كتاب الله . ولما تم له جمع المصحف أذاعه في الأمصار ، وحظر القراءة على غير ما كتب فيه ، وتقدّم في تحريق غيره من الصحف التي كتب فيها القرآن قبل أن يجمع المصحف الإمام . فكره ابن مسعود ذلك ، وكان من أقرأ الناس وأحفظهم ، وأبى أن يذعن لأمر عثمان . ثم لم يكتف بذلك ، وإنما جعل يلهج بنقد ما تقدم فيه عثمان وبنقد سيرة الوليد في الكوفة . وكان إذا خطب الناس يوم الخميس من كل أسبوع قال لهم فيما كان يقول : إن أصدق القول كتاب الله ، وأحسن الهدْى هَدْيُ محمد ، وشر الأمور مُحْدَثاتها ، وكل مُحْدثة بدْعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ورأى الوليد في هذا الكلام تعريضاً به وبعثمان ، فتقدم إلى ابن مسعود في ألا يعيده ! فلم يحفل به ابن مسعود ولم يلتفت إليه . فكتب فيه إلى عثمان ، وكتب إليه عثمان يأمره بإخراج ابن مسعود من الكوفة وإرساله إلى المدينة ففعل . وخرج الناس يشيعون ابن مسعود إلى ظاهر الكوفة محزونين يُلحون

---

(١) انتدب للأمر : دعا إليه وحث عليه .

عليه في أن يبقى بينهم ، ويخافون عليه من عثمان أن يبطش به أو يناله بمكروه ؛ ويعاهدونه على أن يحموه فلا تصل إليه يد بسوء، ولكنه أبى عليهم قائلا : إن هذا أمر سيكون ، وما أحبّ أن أكون أول مَن فتحه .

ودخل المدينة ذات ليلة ، فلما أصبح غدا إلى المسجد ، وكان ذلك اليوم يوم جمعة . فلما رآه عثمان قال له قولا غليظاً من أعلى المنبر ، فردّ عليه ابن مسعود قائلا : لستُ كما تقول ، ولكني صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ بَدْر وَيَومَ أحُد وَيوم الخندقَ وَيَوْمَ بيعة الرضوان . ونادت عائشة رحمها الله من وراء الستر : وَيْحك يا عثمان ! أتقول هذا لصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال لها عثمان : اسكتي ، ثم أمر بعض غلمانه بإخراجه من المسجد . فأقبل غلام أسود طوّالٌ فاحتمل ابن مسعود وأخرجه من المسجد إخراجاً عنيفاً ، وابن مسعود يحاول أن يفلتَ منه ورجلاه تختلفان على كتفيه وهو يصيح بعثمان : أنشدُكَ اللهَ لا تخرجني من مسجد خليلي صلى الله عليه وسلم . ولكن الغلام يمضي به ؛ حتى إذا بلغ باب المسجد ضرب به الأرض فكسرتْ إحدى أضلاعه . وحُمل إلى بيته مكروباً .

ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد . وإنما حرّمه عثمان عطاءه سنتين . فأقام ابن مسعود في المدينة مغضوباً عليه من الإمام ، يوادّه على رغم ذلك صديقه من أصحاب النبي . حتى إذا أدركه المرض الذي مات فيه عرف عثمان أنه مشرف على الموت . وهنا يختلف الرواة : فأما الناقمون من عثمان فيقولون إنه سعى إلى ابن مسعود واعتذر إليه وعرض عليه عطاءه وسأله أن يستغفر له ، فلم يقبل منه ابن مسعود شيئاً ؛ ووسط عثمان أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عند ابن مسعود فلم يقبل لها وساطة .

ومات ابن مسعود والأمر بينه وبين عثمان على شرّ ما يكون . وقد يغلو الناقمون على عثمان فيزعمون أن ابن مسعود أوصى ألا يصلّيَ عليه عثمان ، وأنّ عمار بن ياسر تلقى هذه الوصية وأنفذها ؛ فكان هذا مما زاد غضب عثمان على عمار .

وأما الذين يتولوّن عثمان ويحسنون الظن بهؤلاء النفر من المهاجرين فيقولون : إن عثمان عاد ابن مسعود في مرضه واعتذر إليه ، فقبل منه واستغفر كلا الرجلين لصاحبه ، ومات ابن مسعود فصلى عليه عثمان وقام على قبره وأحسن الثناء عليه . وهذا أشبه بسيرة الرجلين جميعاً .

ويدخل الزبير بن العوام على عثمان ، وكان ابن مسعود قد أوصى إليه فيقول له : ادفع إليّ عطاء ابن مسعود ؛ فإن عياله أحق به من بيت المال . قال عثمان : نعم ، ثم أدّى إلى الزبير عطاء ابن مسعود ومثله معه ، وأمر خازن بيت المال فدفع للزبير خمسة وعشرين ألفاً .

ويجتمع أهل الكوفة بعد ذلك بسنتين حول عليّ رضي الله عنه ، ويَذْكُرُ ابنُ مسعود ، فيقولون لعليّ : يا أمير المؤمنين ، ما رأينا رجلا كان أحسن خُلقاً ولا أرفق تعليماً ولا أحسنَ مجالسة ولا أشدّ ورعاً من عبد الله بن مسعود . فقال عليّ : نشدْتكم اللهَ ، إنه لصدْقٌ من قلوبكم ؟ قالوا : نعم . فقال : « اللهم إني أشهدك ، اللهم إني أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل » .

٢٧

لم يشتد أحد من أهل المدينة في معارضة عثمان حين ظهرت الفتنة كما اشتد عمار بن ياسر ، كان على الفطرة كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يكره التأول ويكره المتأولين ، وكان يحب من القول أصرّحه ، ومن العمل أوضحه ، ومن السيرة أشدّها استقامة وأبعدها عن العوج والالتواء . وكان الدين الخالص قطعة من طبعه وعنصراً مقوّماً لمزاجه ، وكان أزهد الناس في الدنيا وأقلهم احتفالا بمنافعها ، وأشدّهم خوفاً من الفتنة ، وأكثرهم انصرافاً عن تعقيد السياسة والتوائها . وكان يحب الحق ويسعى إليه ، ولا يحب إلا الحق ولا يسعى إلا إليه . وقد رأى من سيرة النبي وصاحبيه استقامة لا عوَجَ فيها ، وصراحة بريئة من الغموض ، فاستقر في نفسه أن أمر السلطان يجب أن يستقيم دائماً كما استقام للنبي وصاحبيه . فلما رأى اختلاط الأمر واشتباك المنافع

واختلاف الأهواء أيام عثمان ، شقّ عليه هذا كله ، فلم يستطع قلبه أن يسيغه ، ولم تستطع فطرته أن تطمئن إليه ، فأنكر فيما بينه وبين نفسه ولاذ بصمته الطويل ؛ واستعاذ بالله من الفتنة كأشد ما يستعيذ الإنسان بالله منها . ثم رأى الناس وسمعهم ينكرون ؛ فلم يكد يفكر ويقدر ويستقصي حتى أنكر كما أنكروا وعارض كما عارضوا ؛ ولكنه على ذلك استمسك بالصمت واستعاذ بالله من الفتنة ؛ حتى رأى وسمع أولئك الشيوخ من أصحاب رسول الله ومن المهاجرين بينهم خاصة ينكرون ، فجعل اليقين يستبين له .

وتحدّث الناس في المدينة ذات يوم أن عثمان أخذ شيئاً من جوهر كان في بيت المال فحلى به بعض أهله ، وجعل المهاجرون والأنصار يقولون في ذلك حتى أكثروا . وتكلم عثمان على المنبر ذات يوم فقال : لنأخذنّ حاجتنا من هذا المال وإن رغمتْ أنوف أقوام . قال عليّ : إذن تُمنع من ذلك . وقال عمار : أشهد الله أن أنفي أولُ راغم . وقد سكت عثمان لقول عليّ وغضب لمقالة عمار فشتمه ، وكان هذا في بعض ما يُرْوَى أول الشرّ الذي انتهى إلى ضرب عثمان لعمار حتى أصابه الفتق وَغُشِيَ عليه وفاتته صلوات الظهر والعصر والمغرب . ثم أفاق فتوضأ وصلاهن ، وذكر فتنة قريش له وتعذيبها إياه في الإسلام . ومنذ ذلك اليوم خرج من صمته ، وجعل يقوم ويقعد بنقد عثمان . حتى إذا أقبل الثائرون من الأمصار لم ينكر عليهم ولم يحاول ردهم . ثم قُتل عثمان فلم يأسَ (١) على قتله ، وربما جادل في أن عثمان قد قُتل مؤمنا أو كافراً . وقد خاصم الحسن بن عليّ في ذلك . كان الحسن يرى أن عثمان مات مؤمناً ، وكان عمار يزعم أنه مات كافراً . واشتد الجدال بينهما حتى ارتفعا فيه إلى عليّ رحمه الله ، فكفّ عليّ عماراً عن مثل هذا الجدل في رفق .

ولم يشتدّ عمار في شيء بعد قتل عثمان كما اشتد في مناصرة عليّ ولا سيما حين ثارت الحرب بينه وبين معاوية . في ذلك الوقت استبان الحق لنفس عمار وقلبه وضميره ، ولم يشكّ لحظة في ان علياً وأصحابه كانوا على حق ، وفي أن

---

(١) يأس : يحزن .

معاوية وأصحابه كانوا على الباطل . ولم يُقبل عمار على حرب خالص النية فيها لله ورسوله بعد وفاة النبي كما أقبل على حرب صفّين . كانت مقالة النبي له : « تقتلك الفئة الباغية » قد استقرت في أعماق نفسه ، وكأنها ظهرت له جلية نقية ناصعة ساطعة حين خرج مع عليّ وأصحابه يقصدون قَصدَ صفين. هنالك لم يَشك عمار في أن معاوية وأصحابه هم الفئة الباغية، وفي أن هذه الحرب التي كانوا ينصبونها لابن عم النبي إنما كانت تُشبه غيرها من الحروب التي كانت قريش تنصبها للنبي نفسه يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق .فخرج عمار إذن إلى حرب صفين على بصيرة من أمره ، قد أخلص قلبه لله ، ووهب نفسه لله ، وابتغى الشهادة في صفين كما كان يبتغيها في المشاهد التي شهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد سمعه من سمعه وهو يقول ذات يوم أثناء مسيره إلى صفين على شط الفرات : اللهم إنه لو أعلم أنه أرضى لك عني أن أرمي بنفسي من هذا الجبل فأتردي فأسقط فعلتُ . اللهم لو أعلم أنه أرضى لك عني أن ألقي نفسي في الماء فأغرق نفسي فعلت ؛ فإني لا أقاتل إلا أريد وجهك ، وأنا أرجو ألا تخيبني وأنا أريد وجهك .

وكان عمار في ذلك الوقت قد جاوز التسعين ، ولكن الناس ينظرون إليه فإذا هو قد استرد من القوة والشباب والنشاط ما لم يكن لهم عهد به من قبل . كان أسرعهم إلى الحرب وأكرههم للقعود ، وأحبهم للموت ، وأبغضهم للحياة ، وكان مستيقناً يقيناً لا يعرض له الشك أنه على حق ، وأنه يقاتل في سبيل الله . وقد اشتدت الحرب بين الفريقين بصفين يوماً ويوماً . فلما كان اليوم الثالث قال معاوية : هذا يوم تتفانى فيه العرب إلا أن تُدركهم خفةُ العبد يريد بالعبد عماراً ، ويريد بخفته شدّة نشاطه في الحرب واستخفافه بما تحتاج إليه من مكر وكيد وأناة .

وفي هذا اليوم قاتل عمار نهاره كله حتى ملأ قلوب الناس عجباً وإعجاباً . وكانوا يرونه شيخاً طويلا آدم ، تُرْعدُ الحربة في يده ، وهو خفيف الحركة

موفور النشاط ، يسعى هنا وهناك ، يحرض هذا وذاك ، وفريق من المسلمين يرقبونه ويتحدثون ببلائه ، بعضهم يصحب جيش عليّ ولكنه لا يقاتل كخزيمة ابن ثابت الأنصاري الذي سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعمار : تقتلك الفئة الباغية ، ورأى عماراً يقاتل مع عليّ فهو يرقب عماراً ليرى آخرته . وبعضهم مع معاوية يشهد الحرب ولا يُشارك فيها ، بلغته مقالة النبي في عمار فهو يرقُب عماراً وينتظر آخرته. ومن هؤلاء هنيّ مولى عمر بن الخطاب رحمه الله . في ذلك اليوم قاتل عمار وهو على رأس كتيبته حتى كانت العصر ، فلما جعل الأصيل ينشر أشعته الشاحبة الحزينة على المقتتلين اشتد نشاط عمار وأخذه شيءٌ يشبه أن يكون شغفاً بالموت ،فجعل يحث مَنْ حوله على القتال ويصيح : الجنة تحت أطراف العوالي . اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه ، وكان صائماً فلما وجبت الشمس قال اسقوني . فجيءُ بشربة من لبن ، فلما رآها ضحك وشرب ثم قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آخرُ زادك من الدنيا لبن حتى تموت » ، ثم جعل يحرض الناس ويُعيد مقالته : الجنة تحت أطراف العوالي ، الظمان يَرِد الماء ، الماء مورود ، اليوم ألقى الأحبة ، محمداً وحزبه

وقد انكشف أصحاب عليّ شيئاً ، فلم يُوهن ذلك من نفس عمار ولم يبلغ من يقينه شيئاً ، وإنما جعل يقول والله لو ضربونا حتى يُبلغونا سعفات هَجَرَ لعلمتُ أنّا على حق وأنهم على ضلالة .

وكانت راية معاوية مع عمرو بن العاص ، فجعل عمار ينظر إليها ويقول : لقد قاتلت صاحب هذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات وهذه الرابعة . وكانت راية عليّ مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص . وكان هاشم أعور ، فكان عمار يحثه ، يُغلظ عليه مرة فيقول : تَقدّمْ يا أعور ، ويرفق به مرة أخرى فيقول : تقدّمْ يا هاشم فداك أبي وأمي . وكان هاشم يقول له : رحمك الله يا عمار ! إني إنما أزحف باللواء وأرجو أن يفتح الله عليّ ويُبلغني ما أريد ، وإن في العجلة الهلكة . فيقول له تقدّمْ فداك أبي وأمي ، وما يزال به حتى يتقدّمْ . فإذا رأى عمار صاحب الراية يتقدم بها

صاح بمن حوله : منْ رائحٌ إلى الله ! من رائح إلى الجنة ؟! ثم اندفع فقاتل حتى قتل .

وقد رأى خزيمة بن ثابت مصرع عمار فقال : الآن استبانت لي الضلالة ، ثم دخل فسطاطه فاغتسل ، ثم لبس سلاحه ثم تقدّم فقاتل حتى قتل .

وأما هنى مولى عمر بن الخطاب فقد عرف عماراً حين أسفر الصبح ، فأقبل حتى دخل على عمرو بن العاص وهو جالس على سريره ومن حوله نفرٌ يتحدث إليهم ، فقال هنى : أبا عبد الله ، قال عمرو : ما تشاء ؟ قال هنى : انظر أكلمك. فقام عمرو حتى خلا إليه . قال هنى : عمار بن ياسر ، ماذا سمعت فيه ؟ قال عمرو : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تقتله الفئة الباغية . قال هنى : ها هو ذا مقتول . قال عمرو : هذا باطل . قال هنى : بصرتْ عيني به مقتولا . قال عمرو : هلمّ أرنيه . فذهب به حتى رآه بين القتلى . فلما رآه امتقع لونه ، ثم أعرض في شِق ، وقال : إنما قتله منْ أخرجه .

وكان عمار قد قال لأصحابه مساء ذلك اليوم : لا تغسّلوني ولا تحثوا عليّ تراباً فإني مخاصم . فلما قُتل أقبل علي فصلّى عليه ، ولم يُغسله وقال : إن امرأ من المسلمين لم يعظم عليه قتلُ ابن ياسر وتدخلْ به عليه المصيبة الموجعة لغير رشيد. رحم الله عماراً يوم أسلم ، ورحم الله عماراً يوم قُتل ، ورحم لله عماراً يوم يبعث حياً . لقد رأيت عماراً وما يُذكرُ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعةٌ إلا كان رابعاً ، ولا خمسة إلا كان خامساً . وما كان أحد من قدماء أصحاب رسول الله يشكّ أن عمار قد وجبت له الجنة في غير موطن ولا اثنين . فهنيئاً لعمار بالجنة » . ولقد قيل : إن عمار مع الحق والحق معه يدور . عمار مع الحق أينما دار ، وقاتل عمار في النار !

٢٨

أقبل رجلان من أصحاب معاوية حتى دخلا عليه فسطاطه ومعه عمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو ونفرٌ من أصحابه، فجعلا يختصمان في قتل عمار ، كلهم يزعمُ أنه قاتله . قال عبد الله بن عمرو : ليطب به أحدُكما نفساً لصاحبه ، فإنما تختصمان في النار ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تقتل عماراً الفئة الباغية ، وقاتله وسالبه في النار » . قال معاوية لعمرو : ألا تكفّ عنا مجنونك يا عمرو ! ثم التفت إلى عبد الله بن عمرو وقال: إن كان هذا رأيك فمالك معنا ؟ قال عبد الله : إن أبي شكاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرني أن أطيعه ما دام حياً ؛ فأنا معكم ولست أقاتل . قال معاوية : لم نقتله ، إنما قتله من جاء به .

جلس عمرو بن العاص إلى جماعة من أصحابه يسمر معهم بعد أن خلص الأمر كله لمعاوية ، فقال له بعض القوم : إنا نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحبك وكان يستعملك أبا عبد الله . قال عمرو : أما إنه كان يستعملني ، وما أدري أكان يحبني أم كان يتألفني(١)، ولكنا نرى أن رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم توفّي رسول الله وهو لهما محب وعنهما راض . قال القوم . من هما ؟ قال عمرو : عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر . قال القوم : عمار بن ياسر ! فذاك قتيلكم يوم صفين ؟ ! قال عمرو : صدقتم والله لقد قتلناه !

كان عمار على رأس كتيبته يوم قُتل ، وكان ذو الكلاع الحميري من أصحاب معاوية على رأس الكتيبة المواجهة لعمار . فقتلا كلاهما . وتحدث ابن سعد عن أصحابه أن عمرو بن شُرحبيل أبا مَيسرة رجلا من أصحاب عبد الله بن مسعود ومن خيرهم ، قال : رأيت في المنام روضة خضراء فيها قبابٌ مضروبة فيها عمار ، وقبابٌ مضروبة فيها ذو الكلاع . فقلت : كيف هذا وقد اقتتلوا ؟ فقيل : وجدوا رباً واسع المغفرة .

---

(١) يتألفه : يتكلف ألفته ويداريه .

٢٩

وأطرق القاصّ حين بلغ هذا الموضع من حديثه إطراقة طويلة ، حتى ظن سامعوه أنه لن يقول شيئاً ؛ فهمّوا أن يتفرقوا ، ولكنه رفع إليهم رأسه وتلا عليهم قول الله عز وجل :

« وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الذينَ اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ في الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ ما كَانُوا يَحْذَرُونَ » .

ثم قال بعد أن سكت سكتة قصيرة : صدَقَ اللهُ وَعْدَهُ ! لقد أورث هؤلاء المستضعفين أرضَهُ ، وأدال لهم من قيصر وكسرى(١) ، وجعلهم أئمة للناس ما عاشوا ، حتى إذا اختارهم لجواره وآثرهم بنعيمه جعل ذكرهم خالداً ، وسيرتهم رضا ، وحياتهم قدوة صالحة وأسوة حسنة ؛ فهم أئمة للمسلمين حتى يَرِثَ الله الأرض وَمَنْ عليها .

سبتمبر سنة ١٩٤٩ بيراكافا — مولان

---

(١) أدال لهم : جعل الكرة لهم على الروم والفرس .

طه حسين

الكتاب الثاني

مرآة الإسلام

الشركة العالمية للكتاب — مكتبة المدرسة

بسم الله الرحمن الرحيم

١

في اواسط القرن السادس للمسيح كانت الأمة العربية متخلفة اشد التخلف بالقياس إلى الأمم التي كانت تجاورها ، لها في الجنوب بقايا حضارة كانت قد درست ، ولم يكن أهل الجنوب انفسهم يعلمون من امرها إلا اخلاطاً هي إلى الأساطير اقرب منها إلى الحق .

كانوا يذكرون حمير وملوكها من التبابعة ، وكانوا يذكرون سبأ ، وكانوا يذكرون الأذواء، بل كان الأذواء ما يزالون يحتفظون بشيء من سلطانهم ، يعيشون في حصونهم ويتسلطون على اهلها وعلى من حولها في حواضر الجنوب وبواديه .

وكانت هناك مع ذلك قبائل متبدية لا تخضع لأحد منهم ، وإنما تعيش عيشة الأعراب في بواديهم . وكانت في الجنوب مدن كبار او صغار فيها بقية من حضارة ، ولكنها لا تغني عن اصحابها شيئاً . ولم يكن الجنوب العربي خالصاً للعرب وإنما كان الحبشة يتسلطون على جزء عظيم منه ، وعجز العرب عن إجلاء هؤلاء المحتلين فاستعانوا بالفرس على ذلك واعانهم الفرس ، ولكن لا ليردوا عليهم سلطانهم ولا ليخلصوا لهم وطنهم ، بل ليقوموا مقام الحبشة الذين اجلوهم .

وكان اهل الجنوب مع ذلك قد وصلت إليهم دعوة الدينين : اليهودي والمسيحي ، واكبر الظن ان يهوديتهم ومسيحيتهم كانتا تتاثران بجهلهم وغلبة البداوة عليهم . كالذى سنراه حين نتحدث عن شمال الجزيرة .

ومهما يكن من شئ فمن الإسراف فى الخطأ أن نظن أن أهل جنوب الجزيرة العربية فى ذلك الوقت قد كانوا على شئ ذى خطر من الحضارة بمعناها الصحيح

ولكنهم على كل حال كانوا يحيون حياة خيراً من الحياة التي كان يحياها سائر الأمة العربية في قلب الجزيرة وشمالها .

كانت لهم بقية من زراعة ، وكانت تصل إليهم تجارة الهند وأشياء من تجارة الحبشة والفرس ، وكان أهل الشمال كما سنرى يلمّون بهم كل عام فينقلون ما عندهم من التجارة لينشروها في العالم المتحضر . وكان هذا كله يُتيح لهم شيئاً من ثراء ، فلم يكن عيشهم قاسياً ولا غليظاً كعيش غيرهم من العرب .

وكان ما ورثوا من بقايا حضارتهم الدارسة وما وصل إليهم من الديانتين السماويتين، وما أتيح لهم من هذا الثراء المتواضع ... كان كل ذلك قد جعلهم أرقّ قلوباً وأصفى طباعاً من أهل الشمال . ولكنهم على هذا كله كانوا متخلّفين بالقياس إلى الأمم المتحضرة ؛ فكانت كثرتهم الكثيرة أمية وكان أقلهم يكتبون ويقرأون .

فإذا تركنا الجنوب إلى قلب الجزيرة العربية — أى إلى نجد — فالحياة القاسية والعيش الغليظ والجهالة المطبقة ، ونظام القبائل الذى يقوم على العصبية أكثر مما يقوم على أى شئ آخر .

ولم يكن حال الشمال فى تهامة والحجاز خيراً من حال نجد . وإن وجدت فى الحجاز مدن أو قرى ، كما كان يقال فى تلك الأيام ؛ وإن عاش أهل هذه المدن أو القرى عيشة الاستقرار والدعة لا يرحلون عن مدنهم أو قراهم تتبعاً للغيث والتماساً للكلأ ، وإنما يرحلون تجاراً إلى الجنوب فى الشتاء وإلى الشمال فى الصيف ، كما يحدثنا بذلك القرآن الكريم عن قريش .

كان لأهل الطائف وأهل يثرب شئ من زراعة ، ولكن حياتهم كانت تقوم على زراعتهم هذه اليسيرة وعلى تجارتهم أيضاً ؛ وكانت حياة مكة تقوم على التجارة من جهة وعلى الحج من جهة أخرى ، يَفِد إليها العرب من أقطار الجزيرة فى موسم الحج فيقضون نُسكَهم ويتّجرون أيضاً وتنتفع مكة بما يحملون من ألوان التجارة .

ومن حول هذه المدن أو القرى كانت البوادى بما فيها من شظف العيش وقسوة الحياة والتنقل فى التماس المراعى ، والخصومات المتصلة التى تثيرها العصبية بين القبائل ، والتى تنتج الغارات والحروب . ومع ذلك فلم يستطع أهل هذه المدن أو القرى أن يبرأوا من العصبية ، ولا أن يعيشوا عيشة المتحضرين بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ؛ وإنما كانت العصبية قوام حياتهم ، يعيشون عيشة القبائل فى البدية . وقد تثار بينهم الخصومات ، وقد تشب بينهم الحروب.

وكان هذا كله يستتبع كثيراً من جفاء الأخلاق وغلظ القلوب ، بحيث لم تكن حياة أهل القرى تمتاز من حياة أهل البادية إلا بشئ من ثراء كانت تستأثر به قلة من الأغنياء ، الذين يتسلطون على من يعيش معهم من الناس تسلطاً لا يخلو من عسف وظلم وأثرة واستعلاء . وكانت اليهودية قد استقرت فى شمال الحجاز لأسباب لا نحققها ولا يبينها التاريخ ، فإلى جانب الأوس والخزرج فى يثرب كانت تعيش قبائل يهودية ؛ وفى خيبر كذلك . وهذه القبائل اليهودية كانت تحيا نفس الحياة التى كان العرب يحيونها من حولها ، قليل من حضارة وكثير من بداوة .

وكانت كثرة اليهود فى الحجاز أمية كالعرب ، لا يقرأ ولا يكتب منهم إلا أحبارهم . وكان هؤلاء الأحبار أقرب إلى الجهل منهم إلى العلم، وقليل منهم من كان يحسن العلم بدينه فكيف بسائر اليهود !

وسنرى فيما يأتى من هذا الحديث كيف صور القرآن الكريم جهل اليهود من أهل الحجاز دينهم وكتابهم . ولسنا نعلم على سبيل التحقيق متى وصلت بعض القبائل العربية إلى أطراف الشام وأطراف العراق .

ولكن المحقق أن العرب فى ذلك العصر الذى نتحدث عنه كانوا قد جاوزوا الجزيرة العربية شمالا إلى الشام واستقروا فى أطرافه ، وأنهم كذلك كانوا قد جاوزوا جزيرة العرب شرقاً إلى العراق وإلى الجزيرة. وغلبت النصرانية على أولئك وهؤلاء، ولكنها كانت نصرانية خاصة يجهل أصحابها حقائقها ولا يكادون يعرفون منها إلا مظاهر وصوراً .

وكما أن الإمبراطورية البيزنطية قد حمت هؤلاء العرب فى الشام ، واتخذت منهم حرساً للحدود بينها وبين الجزيرة العربية ، وجعلت منهم ملوكاً وسادة ، وأجزلت لهم العطاء ، ويسرت لهم سبل العيش ؛ فكذلك صنعت الإمبراطورية الفارسية بالعرب الذين استقروا فى العراق ؛ اتخذتهم حرساً للحدود بينها وبين الجزيرة العربية ، وجعلت منهم ملوكاً وسادة ، وملّكت بعضهم الأرض ، وأغدقت عليهم العطاء .

٢

وإذن فقد عرف العرب النصرانية في الشام والعراق ، وربما عرفوها في مكة أيضاً وفي الطائف ؛ بفضل التجارة من جهة ، وبفضل من كان يصل إليهم من الرقيق من جهة ثانية ، وبفضل بعض التجار الذين غامروا بأنفسهم وبتجارتهم فوصلوا إلى مكة واستقروا فيها . وكذلك عرف العرب المسيحية في الجنوب في مدينة نجران التي اضطُهِد المسيحيون من أهلها وعذّبوا في دينهم كما يحدثنا المؤرخون ، وعرف العرب اليهودية في جنوب الجزيرة وشمالها .

فليس صحيحاً إذن أن الأمة العربية في ذلك العصر كانت تعيش في عزلة لا تعرف من أمر الأمم المجاورة لها شيئاً ؛ فاليهودية والمسيحية لم تتنزلا على أهل الجنوب ولا على أهل الشمال من السماء ، وإنما جاءتا أولئك وهؤلاء من الاتصال بالأمم المتحضرة المجاورة .

وليس من شك في أن بعض العرب الذين جاوروا الفُرس وخضعوا لسلطانهم خضوعاً ما ، قد عرفوا المجوسية الفارسية واتخذوها لهم ديناً . وقد يقال إن أهل البادية في نجد وتهامة والحجاز كانوا بمعزل من هذا كله ، قد انقطعوا لأنفسهم وفرغوا لحياتهم تلك الغليظة القاسية ؛ ولكن هذا أيضاً لا يستقيم ؛ فمن عرب البادية والقرى ظهر شعراء كانوا يُلِمّون بعرب الشام وعرب العراق ، ويأخذون جوائز ملوكهم وسادتهم ، ويعودون بعد ذلك إلى قومهم في البادية فيحدثونهم بما رأوا وما سمعوا .

وهذه التجارة المتصلة بين أهل القرى وبين الأمم المجاورة ؛ كانت جديرة أن تُعرف العرب كثيراً من شؤون الفرس والروم والحبشة أيضاً . ولأمرٍ ما تنصر أفراد من قريش كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو ؛ ولأمرٍ ما نجد فيما يُنسب إلى بعض الشعراء في ذلك العصر من الشعر ما يدل على أنهم قد عرفوا أطرافاً من المسيحية واليهودية ، كالذي نجده عند النابغة الذبياني وعند زُهير وعند الأعشى وعند أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه النبي صلى عليه وسلم فيما روى الشيخان : « كاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلِم » .

ونحن لا نجد عند الشعراء هذه الأطرافَ من الديانتين اليهودية والمسيحية فحسب ، وإنما نجد عندهم — إن صح ما يُنسب إليهم من الشعر — وصفاً لأطراف من حضارة تلك الأمم ؛ كوصفهم لمجالس اللهو والشراب والغناء وغير ذلك .

فعزلة الأمة العربية إذن سخف من السخف ؛ لا ينبغي أن يقبل أو يطمأن إليه . وكل ما في الأمر أن قلب الجزيرة العربية وشمالها لم يخضعا لسلطان أمة متحضرة وإنما خُلّيَ بينهما وبين الحياة الحرة يحياها أهلهما كما يريدون أو كما يستطيعون . فعاشوا عيشتهم تلك الغليظة الجافية ؛ لم تصل إليهم الحضارة وإنما وصلت إليهم أطراف منها . فهِموا بعضها وقَصَروا عن فهم بعضها الآخر . فسيطرت عليهم جاهليتهم بكل ما فيها من الآثام والشرور والمنكرات .

٣

وكان لهم دين غليظ كحياتهم ، هو هذه الوثنية الساذَجة الغليظة التي لم تفكر فيها عقولُهم ، ولم تمتزج بقلوبهم ، وإنما كانت أخلاطاً ورثوها عن آبائهم ؛ فلم يغيروا منها شيئاً ، بل أنكروا كل من حاول أن يغيرّ منها شيئاً ؛ كالذي صنعت قريش بزيد بن عمرو حين أظهر السُخْط على دينها . وإذا أردنا أن نحلّل هذا الدين الذي كانت العرب تدين به في غير فِقه ولا تعمق ،

فسنرى — أولا — أنهم لم يكونوا ينكرون أن للسماوات والأرض وما فيهن خالقاً هو الإله الأعظم . واقرأ — إن شئت — قول الله عز وجل :

« ولَئن سأَلْتَهمْ من خَلَق السّمٰوات والأَرْضَ لَيقولنَّ اللهُ ».

ثم اقرأ — إن شئت — هذا البيت الذي أحبه النبي صلى الله عليه وسلم من شعر لَبيد فيما روى الشيخان :

ألا كل شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ   وكل نعيم لا محالةَ زائلُ

ولكن علمهم بوجود الله كان ساذجاً لم يبلغ أعماق قلوبهم ، ولم يصل إلى داخل ضمائرهم ، ولم يمتزج بنفوسهم . فاتخذوا من دون الله آلهة قريبة منهم ؛ يرونها بأبصارهم ، ويلمسونها بأيديهم ، بل قد يصنعون كثيراً منها بأيديهم ؛ كهذه الأصنام التي كانوا يتخذونها من الحجارة ، أو من الخشب ؛ وكهذه الأشجار التي كانوا يعظّمونها ويُطيفون بها . ثم لم يكتفوا بذلك ، بل اعتقدوا أن الأرض التي يعيشون عليها ليست خالصة لهم ، وإنما يعيش عليها معهم كائنات أخرى حية هي أقوى منهم قوة وأشد منهم بأساً ؛ كائنات لا يرونها ، ولكنهم قد يسمعونها ، وقد يخيّل إليهم أنهم يرون آثارها ، وهي كانت — فيما زعموا — تخالط آلهتهم ، وتجري على أيديها بعض الأحداث ، وربما خالطت أفراداً منهم فأنطقتهم بأشياء فيها إنباء بما كان وإنباء بما سيكون ، وهذه الكائنات هي الجنّ ، أي الكائنات المستخفية المستورة ، التي لا يراها الناس ؛ ولكنهم يرون — فيما زعموا — بعض ما تفعل ، ويتلقون منها — فيما زعموا أيضاً — بعضَ ما تقول .

ربما اعتقدوا ؛ أن الآلهة التي كانوا يتخذونها ؛ ليست في أنفسها خالقة لشيءٍ ولا مدبّرة لشيءٍ ، ولكنها واسطة بينهم وبين الإله الأعظم الذي خلق السماوات والأرض والذي يدبر الأمر كله؛ فهم لا يعبدون هذه الآلهة لأنها، تستطيع وحدها أن تنفعهم أو تضرهم ؛ وإنما يعبدونها لتشفع لهم عند الله ولتقربهم إلى الله زلفى كما نقرأ في القرآن الكريم .



فهم مشركون : لا يجحدون الله ولا يعبدونه وحده ، وإنما يعبدون معه آلهة أخرى يتخذونها واسطة بينهم وبينه .

وتمضي القرون على هذا النحو من الوثنية ؛ فتضاف إليه على مرّ الزمان ، الخرافات والسخافات ؛ وإذا هم يقرّبون إلى آلهتهم كأنهم يرشونها لتشفع لهم عند الله ، وهم يستشيرونها في أكثر أمرهم ، ويستقسمون عندها بالأزلام ، وهم يرضون عنها حين تُرضيهم ويسخَطون عليها حين تسخطهم ؛ لا يخطر لهم أنها أعجز من أن ترضى أو تسخط ، وإنما يحاولون الأمر ويستعينون بآلهتهم ، فإن تم لهم ما حاولوا من الأمر رضوا وزعموا أن الآلهة قد سمعت لهم وأجابتهم إلى ما طلبوا ، وإن لم يتم ما حاولوا سَخِطوا وزعموا أن آلهتهم لم تستجب لهم ولم تُعنهم .

كذلك كانت هذه الوثنية ساذجة إلى أقصى حدود السذاجة ، سخيفة إلى أبعد غايات السخف . ولم يفكر هؤلاء العرب الوثنيون فيما يمكن أن يكون بعد الموت ، بل قدروا أن لهم حياتهم هذه التي يحيونها على الأرض ، وأن آلهتهم وسطاء بينهم وبين الله ؛ على أن يقضوا آرابهم وينفقوا حياتهم هذه كأحسن ما يحبون . فإذا أدرك الموت جيلاً منهم مضى لسبيله ، وجاء جيل بعده ؛ وقد ورث عنه دينه وآراءه في الله الذي خلق السماوات والأرض ، وفي هذه الآلهة التي تسعى لهم عند الله فيما يريدون من الخير ، وفي رد ما يخافون من الشر والمكروه .

وكثير من هؤلاء العرب الوثنيين كانوا يتصلون بالمسيحيين واليهود ؛ يسمعون منهم ، ويقولون لهم ، ويعاملونهم في شؤون الحياة على اختلافها ؛ ولكنهم على ذلك لا يتأثرون بما يرون من دينهم ومن مذاهبهم في الحياة .

٤

ولا أكاد أشك في أن وثنية أهل مكة لم تكن صادقة ولا خالصة ، وإنما كانوا يتجرون بالدين ، كما كانوا يتجرون بالعروض التي كانوا يجمعونها من الجنوب ومن أنحاء الجزيرة العربية ، لينقلوها إلى أقطار أخرى من الأرض كانت محتاجة إليها . فهم كانوا أذكى قلوباً ، وأنفذ بصيرة ، وأكثر ممارسة لشؤون الحياة في قريتهم تلك وفي غيرها من المواطن التي كانوا يختلفون إليها بتجاراتهم . وهم كانوا – بحكم ممارستهم للتجارة – يتصلون بأمم متحضرة في الشام ومصر وفي العراق وبلاد الفرس أيضاً . وكانوا يرون مذاهب هذه الأمم في الحياة ومذاهبهم في الدين أيضاً . فلم يكن من الممكن أن يؤمنوا لهذه السخافات التي كان يؤمن بها العرب الوثنيون .

فإذا أضفت إلى ذلك : أن الكعبة كانت بين ظهرانيهم ، وأن العرب كانوا يحجون إلى هذه الكعبة من جميع أنحاء الجزيرة ، وأنهم لم يكونوا يأتون مكة للحج وحده ، وإنما كانوا يأتون للحج والتجارة أيضاً في تلك الأسواق التي كانت تقام كل عام قريباً من قريتهم ؛ عرفت أنهم إنما كانوا يظهرون الإيمان بتلك الوثنية والتعظيم لتلك الآلهة ، ترغيباً للعرب في الحج ، وتحقيقاً لمنافعهم منه .

والذي نراه من حياة قريش قبيل الإسلام ، وحين بعث النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ؛ يدلنا أوضح الدلالة وأقواها ، على أنهم : لم يكونوا أهل إيمان ، ولا أصحاب دين ؛ وإنما كانوا قبل كل شيء : أصحاب تجارة يسعون فيها عامهم كله ، تسافر قوافلهم في جمع العروض ثم تعود فتستقر في مكة وقتاً لتسافر بعد ذلك بهذه العروض تحملها إلى الآفاق . ولم يكونوا يؤثرون على تجاراتهم شيئاً ، ولم يكن يشغلهم إلا التفكير في جمع المال من أغنيائهم وأوساطهم وفقرائهم أيضاً ؛ لجلب العروض ، ثم بيعها وجلب عروض أخرى لبيعها في الجزيرة العربية نفسها ، وفي توزيع الأرباح التي تحققها التجارة على أصحاب الأموال . فكانوا ينفقون عامهم في أخذ وعطاء ، وانتقال و استقرار ،

يتحدثون في المال والتجارة ؛ إذا لقي بعضهم بعضاً،ويفكرون في المال والتجاره إذا خلوا إلى أنفسهم ؛ وإذا شغفت النفوس بالمال وجدّت في جمعه واستثماره شغلت به عن كل شيءٌ وملك عليها أمرها كله ، وأوشك أن يكون لها الهاً تعبده وحده لا تشرك به شيئاً !

والمال فتنة لقلوب الرجال ، يفسد عليها كل شيءٌ ، ويوشك أن يصرفها عن كل خير . وكذلك كانت قريش في ذلك العصر : مؤمنة بالمال ،مذعنة لسلطانه ، لا يعنيها إلا أن تستثمره وتكثّره وتضيف بعضه إلى بعض ، وتستمتع أثناء ذلك بما يمكن أن يتيح لها من طيبات الحياة وخبائثها أيضاً . فقريش كانت تحب الترف بمقدار ما يتاح لمثلها منه ، وتحب التسلط بشرط ألا ينقص من مالها شيئاً .

واذا أردت أن تصوّر مكة كما كانت في ذلك العصر ، فاذكر مدينة من مدن الفينيقيين الذين لم يكن يعنيهم الا التجارة والمال ، واذكر بعد ذلك أن المدن الفينيقية لم يكن في واحدة منها بيت يجمع الناس اليه من الآفاق كما كانت الحال في مكة .

وكان سكان مكة في ذلك العصر يتألفون من طبقات ثلاث :

طبقة لها كل الحقوق وهي قريش ، تستند حقوقها الى ما كانت ترى من شرف أصولها أولا ، ومن أنها صاحبة البيت ثانيا . وكانت هذه الطبقة الشريفة المستأثرة بالحقوق كلها تنقسم في نفسها الى : فئة الأغنياء أولي الثراء العريض . وفئة الذين يملكون من المال ما يتيح لهم أن يتجروا سواء سافروا للتجارة أو اكتفوا باعطاء أموالهم للمتجرين .

وفئة أخرى فقيرة ، قد تملك القليل وتتجر فيه وقد لا تملك شيئا ، فهي مضطرة الى أن تعمل لتعيش .

وهذه الفئات الثلاث من قريش كلها متساوية في الشرف وفي الا ستمتاع بالحقوق ، وهي من أجل ذلك تكوّن فئة ممتازة لطبقة السادة .

وتأتي بعدها طبقة أخرى هي طبقة الحلفاء ، وهم ناس من العرب على اختلاف قبائلهم آووا الى مكة ليأمنوا فيها ، فهي مدينة حرام يأمن اللاجيء اليها مهما تكن جنايته وجرائره على قومه ، وناس من العرب آخرون تسامعوا بغنى قريش ودعة الحياة في مكة فأقبلوا يبتغون فضلا من رزق . وكل هؤلاء وأمثالهم لم يكن يُتاح لهم المقام المطمئن في مكة الا اذا حالفوا حيّا من أحياء قريش أو فردا من أفرادها . فهم أحرار اذا حفظوا حق الحلف والجوار تحميهم قريش فيأمنون ويسعون في الرزق . ولكنهم ليسوا من قريش ، وانما هم طبقة دونها تعيش في ظلها ولا تشارك في حقوقها .

وطبقة ثالثة : هي الرقيق الذي لا حق له حتّى في نفسه ؛ يملكه سيده كما يملك ما في بيته من أداة يسخره فيما يريد من أمره كما يشاء ، ليس له أن ينكر ولا أن يعترض ، وانما عليه أن يسمع ويطيع ، وسيده يملك أن يحرّره بالعتق كما يملك أن يبيعه أو يهبه ، كما يملك أن يعاقبه أشد العقوبة وأيسرها وله عليه حق الموت والحياة ، ولكن قريشا لم تكن تغلو في استعمال هذا الحق .

والى جانب هذه الطبقات الثلاث كان يعيش بمكة شُذّاذ من الآفاق ، ليسوا عربا ولكنهم عجم من أمم مختلفة ؛ أقبلوا متجرين بتجارة تحتاج اليها الطبقة الغنية والوسطى . بعض هؤلاء كان يتجر باللهو : يسقي الخمر ، ويُسمع الغناء ، ويلهي من احتاج الى اللهو من شباب قريش بألوان من المتاع ليس من السهل أن يوجد في البيئات العربية ، وبعضهم كان يتجر بالنقد ، يصرف الدنانير والدراهم ، ويقوّم الذهب والفضة بهذين النقدين .

وكان هؤلاء الأجانب يعيشون في أمن لا يعرّض لهم أحد بمكروه لمكان الحاجة اليهم ، وأكثرهم كانوا من المسيحيين أقبلوا من بلاد الروم ، وربما كانوا ينفعون قريشا بما يحدّثونهم من أحاديث بلادهم ، وبما يفتحون لهم في هذه الأحاديث من أبواب التجارة والربح .

كذلك كانت تعيش مكة في ذلك العصر ، يضطرب فيها هؤلاء السكان على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وأجناسهم . وواضح أن أكثر الرقيق لم يكونوا

عربا ، فلم تكن قريش صاحبة حرب ؛ لأن المال والتجارة لا يحبان الحرب .

فكانت تشتري هؤلاء الرقيق فيما كانت تشتري من العُروض ، وربما اتجرت فيهم أحيانا . ولكنها كانت تشتريهم في أكثر الأحيان لمنافعها ومآربها وحاجاتها المختلفة ، وواضح أن هؤلاء الرقيق لم يكونوا يدينون دين سادتهم ، وانما كان منهم المسيحي واليهودي والمجوسي حسب البلاد التي نشأوا فيها واجتُلبوا منها . ومن الطبيعي أن أغنياء قريش وأهل الطبقة المتوسطة منهم لم يكونوا يعملون الا في التجارة ، فكان الرقيق يكفونهم حاجاتهم اليومية : يرعُون عليهم ما كانوا يملكون من الابل والغنم ، ويعنون بما كانوا يملكون من الخيل ، ويعملون فيما كانوا يملكون من الأرض خارج مكة في الطائف أو في غيرها ، ويقومون بخدمتهم في دورهم ويخدمونهم في أسفارهم في الصيف والشتاء وربما كان بعضهم يحسن حرفة من الحرف ، فكان سادتهم يسخرونهم في اصطناع حرفهم هذه والاكتساب منها ، على أن يكون كسبهم لسادتهم ، لا يملكون لأنفسهم شيئا الا ما يقوتهم ويُقيم أوَدهم .

وكذلك اجتمعت في مكة أجناس مختلفة من الناس ، وألوان مختلفة من الديانات . وكان من الطبيعي أن يؤثر هذا كله في حياة قريش ؛ وليس شيء أشد تأثيرا في حياة الناس من اتصالهم بالأجناس المختلفة ذوي الحضارات والديانات المختلفة . وهذا هو الذي يفسر لنا ما امتازت به قريش من العرب كافة — في ذلك العصر — من ذكاء القلوب ، وسعة الحيلة ، ونفاذ البصيرة ، وبعد النظر ، وحسن السياسة لأمورها كلها ، والبراعة في القيام على المال واستثماره ، وفي فهم الناس والنفوذ الى أعماقهم .

ولكن قريشا على ذلك كانت تسكن قرية في واد غير ذي زرع ، قرية منقطعة انقطاعا تاما من البلاد المتحضرة . كل شيء كان يؤهل قريشا وقريتهم للحضارة ؛ وللحضارة الممتازة ، لولا هذا الانقطاع الذي فرض عليها .

ومن الحق أن قريشا كانت تتصل اتصالا منتظما بالبلاد المتحضرة بحكم أسفارها في التجارة ، ولكن الحضارة لا تنقل من مكان الى مكان كما تنقل

العروض ؛ وانما تنشأ في بيئة من البيئات ؛ تنبت من الأرض ، ثم تقوى وتشتد ، ويزيدها الاتصال بالأمم المتحضرة نموا وازدهارا .

٥

كذلك كانت تعيش قريش في القرن السادس للمسيح . ليس من اليسير أن نحدد لها نظاما من نظم الحكم التي يعرفها الناس . فلم يكن لها ملك ، ولم تكن جمهورية أرستقراطية بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ، ولم تكن جمهورية ديمقراطية بالمعنى المألوف لهذه الكلمة أيضا ، ولم يكن لها طاغية يدبر أمورها على رغمها ، وإنما كانت قبيلة عربية قد احتفظت بكثير من خصائص القبائل البادية . فهي منقسمة الى أحياء وبطون وفصائل ، والتنافس بين هذه الأحياء والبطون والفصائل قائم ؛ يشتد حينا ، ويلين حينا آخر ، ولكنه لا يصل الى الخصومات الدامية كما كانت الحال في البادية . وأمور الحكم — إن صح أن يذكر لفظ الحكم — تجري كما كانت تجري في القبيلة البادية . وكل ما وصلت اليه قريش من التطور في شؤون الحكم هو أنها لم يكن لها سيد أو شيخ يُرجع اليه فيما يشكل من الأمر ، وانما كان لها سادة أو شيوخ ، يلتئم منهم مجلس في المسجد الحرام ، أو في دار الندوة ؛ وأمام هذا المجلس تُعرض مشكلات التجارة ، وتُعرض المشكلات التي تكون بين أحيائها ؛ وقد تعرض المشكلات التي تُثار بين الأفراد إن بلغت من الخطر أن تثير خصومة بين حيين أو أكثر .

ومضى أمر قريش على هذا النحو الى آخر العصر الجاهلي . وكأنها أحست قُبيل البعثة أن هذا النظام لا يكفل العدل الشامل الذي يطمئن اليه الأقوياء والضعفاء جميعا ، وإنما يكفل العدل بين السادة وأنصاف السادة ، ويخلي بين هؤلاء وبين شيء من الظلم يقع على الضعفاء من الحلفاء ، وممن أوَوْا الى مكة ليقيموا فيها إقامة تقصر أو تطول .

ومن أجل هذا اجتمعت طائفة من خيار هؤلاء السادة وأقويائهم ، وتحالف أعضاؤها على أن يرفعوا الظلم ويقوموا دون المظلوم ، حتى ينتصف من الظالم

ودون الضعيف حتى يأخذ حقه من القوي . وهذا الحلف هو المعروف بحلف الفضول الذي شارك فيه النبي صلى الله عليه وسلم فيمن شارك فيه من بني هاشم قبل البعثة . وقد ذكر النبي بعد ذلك هذا الحلف وأثنى عليه .

٦

وكانت ثقيف تعيش نحو هذه العيشة في الطائف إلا أن أمرها لم يكن كأمر قريش على الحج والتجارة : فلم يكن الى الطائف حج لمكان الكعبة من مكة .

وكانت ثقيف قد رزقت شيئا من الخصب ، فاصطنعت الزراعة وزراعة الفاكهة خاصة ، واعتمدت أو كادت تعتمد في تجارتها على قريش ، فكانت قريش تشتري عروض الطائف وتنشرها فيما تنشر من تجاراتها ، وربما أسهم بعض الأغنياء من ثقيف بأموالهم في تجارة قريش . فكانوا كغيرهم من أهل مكة في ذلك .

على أن شيئا من حسن الصلة كان قائما بين قريش وثقيف ، فكان بينهم الصهر من جهة ، وربما اشترى بعض الأغنياء من قريش أرضا بالطائف واغترس فيها الحدائق والكروم ، وربما اتخذ بعض الأغنياء من قريش لأنفسهم دورا في الطائف يفزعون اليها من مكة بحيث نستطيع أن نقطع بأن قريشا وثقيفا كان بينهما شيء يشبه الحلف ويقوم على المصالح المشتركة في الزراعة والتجارة جميعا .

ولم دتكن ثقيف على قوتها في الجاهلية تمتاز بمثل ما كانت قريش تمتاز به من ذكاء القلوب ونفاذ البصيرة ؛ وإنما كانت ثقيف تمتاز بشيء من القوة والمنعة ، وتمتاز بالمكر والدهاء وحسن المداورة ، والبراعة في الكيد للخصم أو العدو .

٧

أما يثرب فقد كان شأنها يختلف عن شأن هاتين القريتين اختلافا شديدا ، فهي أولا بعيدة عنهما بعدا يحول بينها وبين مشاركتهما في كثير أو قليل من الأمر ؛ وهي ثانيا لم تكن خالصة لقبيلة واحدة كما كانت مكة خالصة لقريش وكما كانت الطائف خالصة لثقيف ، وإنما كان يسكنها قبيلتان من العرب ترجعان الى أصل يمني واحد ، ولكنهما تختصمان دائما ويشتد التنافس بينهما أحيانا حتى يورطهما في حرب تتصل وقتا طويلا .

وهاتان القبيلتان هما الأوس والخزرج ، وكانت كل قبيلة منهما تمضي أمورها على طريقة القبائل لا يفرق بينهما وبين أهل البادية الا أنهما مستقرتان في مدينتهما لا تنتجعان الغيث وانما تنتظرانه ، ولا تتنقلان في التماس الكلأ . وكلتا القبيلتين كانتا تعيشان على الزراعة وعلى استثمار النخل خاصة .

ثم هناك فرق آخر بين يثرب من جهة وبين مكة والطائف من جهة أخرى ، وهو أن يثرب لم تكن خالصة لأهلها من العرب وإنما كان اليهود يشاركونهم فيها . وكانت المعاملات في الزراعة والتجارة تجري بين اليهود وبين هاتين القبيلتين بحكم الجوار والاشتراك في الأرض وفي المصالح على اختلافها ، وكان لكل قبيلة من الأوس والخزرج حلفاؤها من اليهود يحاربون معها إن حاربت ويسالمون معها إن سالمت .

ومن أجل هذا كله ؛ كان الفرق عظيما بين أهل يثرب من العرب وأهل مكة والطائف ، فأهل يثرب أصحاب زراعة متصلة يزرعون ليعيشوا ولا يكادون يتجرون خارج الجزيرة العربية إلا قليلا ، وهم بعد ذلك مخالطون لأهل الكتاب من اليهود مخالطة متصلة .

فلا غرابة في أن يؤثر هذا كله في أخلاقهم وفي طبائعهم ، فيجعلهم ألين عريكة وأرق شمائل وأسمح أخلاقا . ولكنهم على ذلك ظلوا كغيرهم من العرب مشركين يعبدون الأوثان ، ويؤمنون بكثير مما كان أهل البادية يؤمنون به من

السخافات والخرافات ، وظلوا كغيرهم من العرب يعظمون البيت الحرام بمكة ويمجدونه في الموسم مع غيرهم من الحجيج .

وكانوا في هذا العصر الذي نتحدث عنه قد بلغ منهم الجهد لكثرة الاختلاف بين القبيلتين وما كان ينشأ عن ذلك من الخصومات والحروب ، ثم لأن اليهود على ما كان بينهم وبين القبيلتين من الجوار واشتراك المصالح كانوا يستظهرون على هؤلاء العرب الجهال الأميين ، يستظهرون عليهم بما عندهم من كتاب ، وبما لهم من دين مهما يكن أمره فقد كان أرقى من هذه الوثنية الغليظة التي كان العرب يدينون بها .

٨

وليس غريبا – بعد هذا الذي عُرض عليك في إيجاز من شؤون الأمة العربية في وَبَرها ومدَرها – أن تنشأ عن هذه الحياة التي كانوا يحيونها أخلاق غليظة كغلظ هذه الحياة ، وعادات منكرة كنكر هذه الحياة أيضا ؛ فهؤلاء الذين يعبدون الأصنام التي يصنعونها بأيديهم ، ويعبدون الأشجار التي لا يتحرجون من أن ينتفعوا بثمارها وغصونها إن احتاجوا الى ذلك ؛ لا يُنتظر منهم أن تصفو طباعهم وتمتاز أخلاقهم وتلين قلوبهم وتحسن شمائلهم . بل عكس هذا كله هو الذي يُنتظر منهم .

فاذا أضفت الى ذلك ما كانت البداوة تفرض على أهلها من الفقر والعوز وقسوة الحياة ، وأن أهل القرى إنما هم قوم عاشوا بُداة أولا ثم استقروا في قُراهم بعد ذلك ، دون أن يضيعوا من خصائص البداوة إلا أقلها . فليس غريبا بعد هذا كله أن نعرف من عادات هؤلاء العرب ما نعرف من الغلظة والقسوة والجفاء ، وليس غريبا أن نعرف أنهم كانوا يقتلون أولادهم خشية الفقر والإملاق ويئدون بناتهم خشية الفقر والإملاق والعار أيضا . وليس غريبا أن نعرف أن العلاقة بين رجالهم ونسائهم لم تكن مهذبة ولا نقية ولا مُبرأة لها يعاب ،



الى غير ذلك من العادات الكثيرة التي غيرها الإسلام وحفظ الشعرُ منها شيئا غير قليل .

ومن الطبيعي أن أهل القرى كانوا أرق طباعا من أهل البادية الى حدّ ما . فلسنا نعرف أن أهل مكة أو الطائف أو يثرب كانوا يقتلون أبناءهم أو يئدون بناتهم ، حال بينهم وبين هذا ما أتيح لهم من لين العيش وسعة ذات اليد ولكن أهل القرى كانوا قلة ضئيلة بالقياس الى أهل البادية فلا ينبغي أن يُتخذوا عنوانا لهم .

ومهما يكن من شيء فقد كان أهل الوَبر وأهل المدر سواء في وثنيتهم تلك الغليظة ، لم يكادوا يتأثرون تأثرا ذا بال بمن جاورهم من اليهود والنصارى . وعسى أن يكون اليهود والنصارى الذين استقروا بين العرب هم الذين تأثروا بالحياة العربية وغلظها ، وما كان يشوبها من العادات والأخلاق .

فقد يكون من النافع حقّا أن نقيس نصرانية نجران الى النصرانية التي كانت منتشرة في البلاد المتحضرة ، وأن نقيس يهودية يثرب وخيبر الى يهودية اليهود الذين كانوا متفرقين في البلاد المتحضرة أيضا . كلا الدينين انقطعت الصلة أو كادت تنقطع بينه وبين الذين كانوا يقومون عليه من الأحبار فتَبَدّى ، وإن استقر في هذه القرى؛ لأن هذه القرى نفسها كانت أقرب الى البداوة منها الى الحضارة .

وعلى كل حال فلم يكد العرب ينتفعون بما كان بينهم وبين اليهود والنصارى من اتصال ، وإنما ظلوا كما كانوا حتى جاءهم دينهم الجديد .

٩

وكان بين قريش رجل من أشرافهم يتجر كما يتجرون ويحضر مجالسهم في المسجد وفي دار الندوة . هو عبد المطلب بن هاشم ولكنه كان يمتاز من قومه بكثير من الوقار وميل الى الدين والنسك ، يعظم ما كان قومه يعظمون من هذه الآلهة ولكن عن إخلاص وصدق لا عن تكلف ورياء . وقد أتيحت له أشياء

زادته امتيازا من قومه ، فخاصموه أول الأمر ثم أكبروه بعد ذلك : فهو قد احتفر بئر زمزم .

وحدث أصحاب الأخبار بأنه لم يحتفرها من عند نفسه وإنما أتاه آتٍ في نومه فأمره باحتفارها وبيّن له مكانها ، فأقبل على ما أمر به حتى أنفذه .

ويقول أصحاب الأخبار : إنه وجد كنزا أثناء احتفار البئر قبل أن يصل الى الماء ، فخاصمته فيه قريش فجعله للكعبة ولم يأخذ هو ولا غيره منه شيئا ، ثم أنبط الماء فخاصمته فيه قريش ترى أن البئر لها ، ويرى هو أنها له ؛ لأنه احتفرها بيده وأنبط ماءها بجهده . ولجّت قريش في الخصومة — فيما يقول أصحاب الأخبار — حتى أجمعوا الى أن يحتكموا الى أحد الكهان ، فأوفدوا مع عبد المطلب وفدا يخاصمونه الى ذلك الكاهن ، ولكنهم لم يحتاجوا الى هذا الاحتكام ، لأن آية ظهرت لهم في الطريق أقنعتهم بأن عبد المطلب ليس متكذّبا ولا متكلّفا .

قال الرواة : وفي أثناء هذه الخصومة أحسّ عبد المطلب أنه وحيد ليس له من الولد من ينصرونه ، فنذر لئن أتيح له عشرة منهم ليقربنّ أحدهم الى الآلهة .

وقد أتيح له عشرة من الولد ، فأزمع أن يقرّب أحدهم وهمّ بذلك ، ولكن قريشا أبت عليه لأنها استبشعت عمله هذا . وما زالت به حتى أقنعته بأن يقرع بين ابنه وبين عشرة عشرة من الإبل . فجعل كلما أقرع خرج السهم على ابنه حتى بلغت الإبل مائة فقربها الى الآلهة ونجا ابنه ذاك الفتى .

فاذا صوّرت هذه القصة شيئا ؛ فإنما تصور نزوع عبد المطلب الى شيء من الدين وإخلاصه فيه ، وإسماحه في سبيله بالولد والمال جميعا . وتصوّر كذلك عزوف قريش عن المُفْظِع من الأمر وإنكارها في عنف وإلحاح هذا القُربان البشع الذي يُضحَى فيه بالإنسان للآلهة .

على أن ذلك الفتى الذي افتداه أبوه بالإبل فأغلى في الفداء لم يعمّر ، وإنما

زوجه أبوه ثم أرسله الى الشام مع قومه للتجارة . فذهب ولم يعد ، أدركه الموت بيثرب في عودته من الشام . وقد وُلد لـه بعد موته صبي هو الذي اختاره الله ليأتيَ العربَ بدينهم الجديد .

وفي تلك الأيام نفسها تعرضت مكة لخطر شديد : أقبل الحبشة اليها من اليمن غزاة يريدون أن يملكوا الحجاز كما ملكوا اليمن ، وأن ينشروا في الحجاز دين المسيح كما حاولوا نشره في اليمن ، بعد أن انتقموا لتلك المدينة المسيحية : نجران . وكانوا بالطبع مزمعين أن يهدموا الكعبة وأن يحطموا ما نُصب عليها من الأوثان ، ولكن الله بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدرا ؛ فهو يصد الحبشة عن مكة ويمنعهم أن يدخلوها ويردهم الى اليمن مدحورين قد بلغ منهم الجَهْد ، وأصابهم ما أصابهم من الشر الذي صوّره الله عز وجل أروع تصوير في السورة الكريمة :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فعلَ ربُّكَ بأَصْحابِ الفيل . أَلَمْ يجْعل كَيْدهمْ في تَضليل . وأَرْسلَ علَيْهِمْ طَيْرًا أبابِيلَ. تَرْميهمْ بحجارةٍ من سجِّيل . فَجعلَهمْ كَعصْفٍ مأْكول » .

وما أحب أن أعرض لتأويل هذه الطير الأبابيل التي رمت الحبشة بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول . لأنى أوثر دائماً أن أقبل النص وأفهمه ، كما قبله وفهمه المسلمون الأولون حين تلاه عليهم النبي صلى الله عليه وسلم .

وفي هذه الموقعة أظهر عبدُ المطلب من الصبر والجَلَد ومن الشجاعة والثقة ما لم يظهره غيره من أشراف قريش . فضلا عن أوساطها وعامتها ؛ ذلك أنه أشار على قريش أن تخلي مكة وتلوذ بشعاف الجبال وتخلّي بين هذا الجيش العظيم وبين ما يريد . فسمع له قومه وتجنبوا الحرب وأقام هو بمكة لم يعتزلها فيمن اعتزلها ، وإنما قام عند الكعبة يدعو الله ويستنصره .

ويقول الرواة : إن الجيش أغار فيما أغار على إبل قريش فاحتازها ، وجاء

عبد المطلب حتى استأذن على أبرهة عظيم الحبشة وقائد جيشها . فلما أدخل عليه لم يكلمه إلا في إبلٍ له أخذها الجيش فيما أخذ من إبل قريش .

قال الرواة : فصغُر عبد المطلب في نفس أبرهة ، وقال له : كنت أظن أنك جئت تكلمني في شأن مكة وفي شأن بيتكم هذا الذي تعظمونه ، فاذا أنت لا تسألني الا أن أرد عليك إبلك !

قال عبد المطلب : فإني أكلمك في مالي الذي أملكه فأما البيت فان له ربّا يحميه إن شاء .

فرُدت عليه إبله ، وعاد الى مكانه من الكعبة يدعو الله ويستنصره .

قال الرواة : وأصبح أبرهة من غد مزمعا دخول مكة وهدم البيت ، ولكن الله حال بينه وبين ذلك بما أرسل عليه وعلى جيشه من تلك الطير الأبابيل التي رمتهم بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول !

وعادت قريش الى مكة موفورة لم تُرزأ شيئاً ، فازداد إكبارهم لعبد المطلب وشجاعته وثقته وثباته حيث لم يثبتوا ، وإنما فروا فلاذوا بشعاب الجبال .

في نفس هذا العام — الذي سمته قريش وسماه الرواة بعد ذلك عامَ الفيل — وُلد هذا الصبي يتيما كما رأيت آنفا فسماه عبد المطلب محمدا ، وكفله واسترضعه في بني سعد من هذيل . حتى اذا أتم الرضاعة واحتفظت به المرضع بعد رضاعه وقتا ردته الى أمه . فجعل ينشأ بمكة في ظل جده الشيخ . ثم سافرت به أمه — حين كان في السادسة من عمره — الى يثرب ، تريد أن تزور وأن تُزير الصبي قبر أبيه عبد الله بن عبد المطلب ولكنها خرجت من مكة ولم تعد اليها كما خرج زوجها عبد الله من قبل فلم يعد الى وطنه !

أدركها الموت في بعض الطريق منصرفَها من يثرب عائدةً الى مكة . وعادت بالصبي حاضنتُه بَركة — التي عرفت في الإسلام بأم أيمن — فقامت على خدمته

في ظل جده ، وأصبح الصبي يتيما لأبيه وأمه جميعا . على أنه لم يبلغ السابعة حتى فقد جده أيضا ، فأخذه اليُتم من جميع أقطاره : فقَدَ أباه وأمه وجده ، ولكن الله آواه كما يقول في سورة الضحى :

« أَلَمْ يجِدكَ يتيماً فَآوى »

وكفل الصبي بعد موت الشيخ عمّه أبو طالب ، فكان له نِعم الكافل ونعم الوليّ . وكان أبو طالب صاحب سفر في التجارة كغيره من أشراف قريش وأوساطها .

فيقول الرواة : إنه همّ بالسفر في تجارته إلى الشام ذاتَ عام والصبي في الثانية عشرة من عمره ، فتعلق به الصبي وألحّ في أن يصحبه في سفره ذاك ، ورقّ له قلب عمه فحمله معه الى الشام .

ويقول الرواة : إنه لم يكد يبلغ به مشارف الشام حتى عاد به مسرعا الى مكة عن أمر راهب من رهبان النصارى ، علم من أمر الصبي ما لم يعلم عمّه ، فأوصاه أن يرده الى وطنه ، وأن يُحرزه في مكة من مكر النصارى واليهود .

وشب الصبي في كفالة عمه حتى إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره شهد حرب الفِجار التي كانت في حرم مكة بين قيس وقريش .

شهد الحرب ، ولكنه لم يشارك فيها ؛ كان أصغر سنّا من ذلك ، فكان ينبُل على أعمامه . وأكبر الظن أنه حين أينع جعل يسعى في رزقه ، فكان يرعى الغنم على قومه ، حتى اذا نيّف على العشرين سلكت الحياة به طريقا أخرى.

١٠

كان فقيرا لا يكاد يملك شيئا ، وكان يكتسب قُوته من رعي الغنم ولكنه فتىً من قريش ومن أشرافها . ورعي الغنم قد يليق بالصبية وبأمثالهم من الذين لم يتقدم بهم الشباب ، فأما اذا شبّوا واستتموا قوتهم فليس لهم بُد من أن يسلكوا

طرقا أخرى الى الرزق . وعمه صاحب تجارة ، وقد مات أبوه تاجرا ، وجدّه كان صاحب تجارة أيضا . فما يمنعه أن يسلك الطريق التي ألفت قريش سلوكها ؟

وقد أقبل عليه عمّه ذات يوم ، فأنبأه بأن خديجة بنت خويلد امرأة غنية ، من أكثر قريش أموالا ، وأوسطهم نسبا ، قد جهزت تجارة ضخمة الى الشام ، ونصح له بأن يكون رسولها بتجارتها تلك . وأنبأه بأنه يستطيع أن يسعى له في ذلك عند خديجة إن صح عزمه على السفر . فقبل الفتى ورضيت خديجة . ورأته مكة ذات يوم خارجا في قافلتها الى الشام يصحبه غلام لخديجة يقال له : ميسرة . وقد بلغ الشام ، فباع واشترى ، وعاد مع القافلة ، فأدى الى خديجة تجارتها ، وأدى اليها مع هذه التجارة ربحا لم يتح لها في تجارة قط . وكأن الله لم يجعل هذه التجارة إلا وسيلة لشيء آخر وراءها ، فقد وقع الفتى من قلب خديجة ، وإذا هي ترسل اليه مغوية له بخطبتها ، وإذا هو يخطبها ثم يصبح لها زوجا . وهي تكبره بخمس عشرة سنة فيما يقول الرواة .

ومنذ ذلك اليوم عاش في مكة عيشة الموفورين لا يشكو حاجة ولا يجد ضيقا ، كما قال له الله عز وجل في سورة الضحى :

« ووجدكَ عائلًا فَأَغنى » .

وقد أتيح له من خديجة الولد ، وأتيح له معها الأمن والدّعة . ولكنه في ذلك الطّور من أطوار حياته ظهرت فيه خصال لم تكن مألوفة في شباب قريش : فهو شديد النّفرة من اللهو وشديد النفرة من اللغو أيضا ؛ وهو أبعد الناس عن التكلف وأقربهم الى الإسماح واليسر ؛ وهو أبغض الناس لهذه الأوثان التي كان قومه يعبدونها مخلصين أو متكلفين ، وهو أصدق الناس إذا تكلم وأوفاهم إذا عامل وأبعدهم من كل ما يزري بالرجل الكريم . وهو بعد ذلك أوصل الناس للرحم وأرعاهم للحق وأشدهم إيثارا للبر . فهو يجد عمه الذي كفله صبيا ويافعا قد كثر ولده وقل ماله ، ويريد أن يعينه دون أن يؤذيه ، فيأخذ منه

صبيّه عليّا ، ويرد عليه من العناية واللطف والبر بعض ما أدى اليه أبوه حين كان صبيّا يتيما . وقد شاعت عنه هذه الأخلاق وعرف بهذه الخصال حتّى أحبته قريش وسمته الأمين وعاملته على أنه الأمين حقا .

وفي ذات عام همّت قريش أن تعيد بناء الكعبة فعزمت بعد تردد ، ونقضت البناء وأخذت في إعادته ، وشاركها الأمين فيما فعلت . حتّى إذا بلغت موضع الحجر الأسود اختلفت أحياء قريش فيمن يضع هذا الحجر في موضعه ، يرون أن من يتاح له ذلك سيظفر بشرف أي شرف . وما هي إلا أن يتحول الخلاف الى خصومة تشتد وتعنف حتّى يخشّى شرها ، ولكن ذوي أحلامهم وأولي رأيهم ، يشيرون عليهم بالتحكيم وبأن يحكّموا أول داخل عليهم فيحكمونه ، فيقضي بينهم قضاء يرضيهم ، ويكون له مع ذلك ما بعده . يبسط رداءه ويضع الحجر في وسطه ، ثم يأمرهم بأن يأخذوا بأطراف الرداء ، فيحملونه ويمشوا به ، حتّى اذا بلغوا البناء أخذ الحجر فأقره بيده في موضعه .

على أنه قد أخذ يميل الى العزلة شيئا فشيئا ، ثم اشتد عليه حب العزلة ، فجعل يترك مكة بين حين وحين ، ويمضي وقد تزود لعزلته ، حتّى إذا بلغ غار حراء خلا فيه الى نفسه الأيام والليالي ، فاذا انقضى زاده أو كاد ينقضي ، عاد الى أهله فتزود من جديد ، ورجع الى غاره فأوى اليه ومكث فيه ما شاء الله أن يمكث . أصبحت هذه الخلوة له عادة ، ولكنه يعود الى أهله ذات يوم ولهان مفجّعا ، شديد الاضطراب ، ويقص على خديجة شيئا عَجَباً .

١١

أنبأها بأنه كان خاليا الى نفسه في غار حراء . ولكنه ينظر فيرى شخصا أمامه ، ويسمع فاذا هذا الشخص يكلمه يقول له : إقرأ . قال : ما أنا بقارىء – يريد لا أعرف القراءة – فضمه ضمّا شديدا – أو غطّه غطّا شديدا – كما يقول حديث الشيخين فيما يرويان عن عائشة – حتّى بلغ منه الجَهْد .. ثم

أسلمه وقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء . فغطه غطا شديدا حتى بلغ منه الجهد . ثم أرسله فقال :

« اقرأْ باسْمِ ربِّك الَّذي خَلَق.خَلق الإنسانَ من علَق . ٱقرأْ وربُّك الاكرم . الَّذي علَّم بٱلْقَلَم . علَّم الإنسانَ ما لَمْ يعْلَمْ » .

ثم استخفى حتى لا يرى النبي صلى الله عليه وسلم شيئا ولا يسمع شيئا . فيخرج من الغار وقد أخذه رَوْع أي روع . وهو في طريقه مسرع الى أهله ، ولكنه يسمع صوتا يناديه ، فينظر أمامه فلا يرى شيئا ، وينظر عن يمينه فلا يرى شيئا ، وينظر عن شماله فلا يرى شيئا ، وينظر خلفه فلا يرى شيئا ، فيرفع رأسه فيرى ذلك الشخص الذي أتاه في الغار جالسا على كرسي بين السماء والأرض فيبلغ به الروع أقصاه . ويمضي أمامه لا يلوي على شيء حتى يأتي أهله مرتاعا مذعورا : يقول زملوني زملوني — أو دثروني دثروني — وصبوا علي ماء باردا . فتفعل خديجة ما طلب اليها حتى يذهب عنه الروع . فيقول لزوجه بعد أن أنبأها نبأه : لقد خشيت على نفسي . تقول له خديجة : كلا ! والله ما يُخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

قال المحدثون ورُواة السيرة : فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى — ابن عم خديجة — وكان أمرءاً قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمي — فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك .

فقال له ورقة : يابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى صلى الله

عليه وسلم ، يا ليتني فيها جذع ، ليتني أكون حيّاً إذ يُخرجك قومك .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوَ مخرجيّ هم ؟ » . قال : نعم ،
لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي ، وإن يدركني يومك أنصرك
نصراً مُؤزّراً .

وكأنه لزم داره واجتنب غار حراء منتظرا ما يكون من أمره بعد ما رأى وما سمع
فأوحيّ اليه :

« يَـأَيُّهَا الْمُدَّثِّرْ . قُمْ فَأَنذِرْ . وربَّك فَكَبِّرْ . وثيابك
فَطَهِّرْ . والرُّجْزَ فَاهجُرْ . ولاَ تَمْنن تَسْتَكثِرْ . ولربِّك
فَاصْبِرْ » .

ومنذ ذلك الوقت ظهر له ما يراد به ، فلم يكن ما جاءه في الغار إلا إيذاناً
له بأن مهمة ثقيلة خطيرة قد ألقيت على عاتقه ، وأن عليه أن يؤديها صبورا
جَلْداً ، محتملا في سبيل أدائها ما قد يعرض له من العَنَت والمشقة والأذى،
وهو على كل حال مكلف أمرين ليس أحدهما بأقل خطرا من الآخر

فأما أولهما : فهو أن يجاهد نفسه ويأخذها راضية أو كارهة بما سيدعو الناس
اليه من تكبير الله بالقلوب والألسنة ، ومن التطهير من كل دنس ظاهر أو
خفي ، ومن هجر الرجز واجتناب المن ، واستكثار ما يأتي من طاعة الله
والاجتهاد في ذاته ، ومن الصبر لربه على ما يبلوه به من ألوان البلاء ، وعلى
ما يكلفه حمله من ثقال الأعباء .

وأما ثانيهما : فهو أن ينذر الناس بأن حياتهم التي يحيونها ليست كما يظنون
لهواً ولعباً واستمتاعاً بما يتاح لهم من اللذات واحتمالا لما نعرض لهم من الآلام
والمحن والخطوب إنما هي شيء وراءه أشياء وله ما بعده . فليس لهم بد إذن
من أن يحتاطوا لما وراء حياتهم من الأمر ، ومن أن يأخذوا له أهبتهم ويتزودوا
بما ينبغي من الزاد .

١٢

وقد تجرّد النبي صلى الله عليه وسلم لأداء ما كلف من مهمة ، وما حمل من أمانة ، فأخذ نفسه بأشد ما يأخذ الرجل به من الجهد والمشقة في ذات الله ، وأنفذ أمر الله في نفسه فيما اختصه به من التكاليف ، كما أنفذ أمر الله في كل ما كُلف أن يأمر الناس به . وقد بدأ بأهله وذوي قرباه : فأنذرهم ، وبشّرهم ، واستجاب له منهم من استجاب ، وأبى عليه منهم من أبى . ثم أُمِر بتعميم دعوته : فأنذر قومه وبشّرهم ودعاهم الى الإيمان ، والبر ، والمعروف . فلم يستجب له منهم إلا أقلهم ، وامتنع عليه أكثرهم . ثم لم يكتفوا بالامتناع بل لم يلبثوا أن ضاقوا به وبدعوته ، وجعلوا يردّونه ردّاً رفيقا أحيانا ، ويردّونه ردا عنيفا في أكثر الأحيان . ثم تألبوا عليه وجعلوا يؤذونه في نفسه وفيمن تبعه من الناس بأيديهم وألسنتهم . ثم أصبحت الحياة بينه وبين قومه جهادا متصلا عنيفا أشد العنف وأقواه . ولكنه صبر لهذا الجهاد كما أمر أن يصبر ، واحتمل فيه من ألوان المشقة ما ينوء بالرجال أولي العزم كما أمر أن يحتمل ، وجعل يصبّر أصحابه ويهوّن عليهم ما كانوا يلقون ، وما أكثر ما كانوا يلقون من ضروب الفتنة والعذاب !

وفي أثناء ذلك كان الوحي يتنزل عليه من السماء ، فيُعلن كل ما يوحى اليه به ، يتلوه على من آمن معه وعلى من لم يؤمن ؛ فهو مكلف أن يبلّغ رسالات ربه . وهو يبلغها أمينا عليها مجتهدا في تبليغها ، يبشر وينذر ويرغب ويرهب ، ويجادل المخاصمين ويقرع حجتهم بحجة الله ، لا وانيا ولا مستأنيا ولا مقصرا.

وقد هابت قريش أن تؤذيه إيذاء ثقيلا ، أو أن تخرجه من وطنه ، أو أن تقتله ، مخافة أن يغضب له قومه من بني عبد مناف فيفسد عليها أمرها كله. فجعل حلماء قريش يصانعونه ويرفقون به. يعرضون عليه أن يملّكوه عليهم إن كان يفعل ما يفعل ابتغاء الملك، ويعرضون عليه أن يعطوه صَفْو أموالهم إن كان يفعل ما يفعل ابتغاء الغنى ، ويعرضون عليه التماس الطّب له إن كان له رئي من الجن يأتيه بهذا الكلام الذي يتلوه عليهم ، وبهذا الأمر الذي يدعوهم اليه

فلم يكن يجيبهم إلا بأن يتلو عليهم بعض ما كان ينزل عليه من القرآن .

وكان حلماء قريش والمنصفون منهم يسمعون القرآن حين يتلى عليهم فيبهرهم بألفاظه ومعانيه ونظمه ورقته حين يرق وشدته حين يشتد . ولكنهم على ذلك لا يؤمنون له ؛ بعضهم يمنعه الحسد وبعضهم تمنعه الكبرياء ، وكلهم يشتد عليهم ما كانوا يُدعون اليه من البر والمعروف والعدل والمساواة ، وإنصاف الفقراء من الأغنياء والضعفاء من الأقوياء ، ومن تَرك آلهتهم وعاداتهم وكثير من الأخلاق التي وجدوا عليها آباءهم وتوارثتها أجيالهم جيلا بعد جيل . وقد استيأسوا منه فلجأوا الى عمه ذاك الذي كفله صبيّا ويافعا ، والذي قام دونه يحميه منذ جعل يدعو دعوته هذه الجديدة ، وطلبوا اليه أن يراجع ابنَ اخيه لعله يكف عن ذم آلهتهم وتسفيه أحلامهم ، وإنكار ما تعارفوا عليه من عاداتهم وأخلاقهم ، ومن إفساد عبيدهم وإمائهم وحلفائهم عليهم .

وقد قبل منهم أبو طالب ، فراجع ابن أخيه ، وعرض عليه ما يقول قومه وما يعرضون عليه من الملك وكرائم الأموال ، وما ينذرونه بـه من البطش والعذاب . فلم يكن جوابه لعمه إلا أن قال مقالته تلك المشهورة : « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أرجع عن هذا الأمر ما رجعت» .

وعاد أبو طالب الى مشيخة قريش بقول ابن أخيه . فلم يزدهم ذلك إلا عناداً وإصرارا واستكبارا . فعمدوا الى إيذائه : في أصحابه ، وفي الرقيق والضعفاء منهم خاصة ؛ لعلهم أن يصدوهم عن الإقبال عليه ويردوهم بعد إيمانهم كفارا . ولعله حين يرى ذلك أن يحس ما يشقى بـه أصحابه فيؤثر لهم ولنفسه العافية . فجعلوا يعذبونهم بالضرب حينا ، وبالماء حينا ، وبالنار حينا ، وبالموت حينا آخر . ولكنهم لم يبلغوا بذلك منه ولا من أصحابه شيئا . قتلوا ياسرا وزوجه سمية ذات يوم وابنهما عمّار يرى ، فلم يصرفوا الأبوين ، ولم يصرفوا ابنهما عما أراد الله لهما من الكرامة بالإيمان ، وإنما كان ياسر وزوجته نموذجا رائعا للصبر والجلد واحتمال الأذى في غير شكاة ولا تضعضع . ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بآل ياسر وهم يعذبون فلم يزد ياسر على أن يقول : الدهر هكذا يا رسول الله .

ويُحدث رواة السير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : « صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة » . وكان ياسر وامرأته سمية أول شهيدين في الإسلام . فلم يجزع عمار ولم يجد الوهن الى نفسه سبيلا بل ازداد إيماناً مع إيمانه وصبرا الى صبره ، حتى استيأس منه معذبوه واضطروا الى أن يرفعوا عنه العذاب .

ويتحدث الرواة أن عمار بن ياسر كان أول من اتخذ مسجدا في بيته وفيه نزلت هذه الآية من سورة الزمر :

أَمَّن هو قَانتٌ آنَاءَ اللَّيْل ساجِدًا وقَائماً يحْذَر الاخرةَ ويرْجُو رحْمةَ ربِّه.قل هَل يسْتَوي الَّذينَ يعْلَمُونَ والَّذينَ لا يعْلَمُونَ . إنَّما يتذكَّرُ أُولو الأَلباب » .

وعذبوا « بلالا » أشد العذاب ، ونكلوا به أعظم التنكيل ، وجعلوه هزوْا للصبية والسفهاء ، فلم يرفع عنه العذاب حتى اشتراه أبو بكر وكان رقيقا فأعتقه .

وعذبوا كثيرا غير هؤلاء — تجد أسماءهم في كتب السيرة — ألوانا من العذاب ، وفتنوهم ضروبا من الفتنة ، مكثوا على ذلك أعواما لا يرقبون في هؤلاء المستضعفين عهدا ولا ذمة ، ولا تعطفهم عليهم رحمة .

وكان موقف قريش من المسلمين مختلفاً ؛ فأما ضعفاؤهم وفقراؤهم فكانوا يَصبُّون عليهم العذاب صبّاً ، لا يخافون في تعذيبهم لوماً ولا إنكاراً . وأما أولو الشرف منهم الذين يأوون من قومهم إلى ركن شديد فكانوا يؤذونهم بألسنتهم ، ويؤذونهم بالقطيعة ، ويغرون قومهم أن يشتدوا عليهم ، ويفتنوهم عن دينهم ما استطاعوا إلى فتنتهم سبيلا . ولكنهم على ذلك لم يبلغوا منهم شيئاً ولم يصدوهم عن دينهم ، وإنما وجدوا منهم صبراً وجلداً واحتمالا ، ووجدوا من بعضهم مقاومة وتحدياً ورداً عنيفاً ، كالذي كانوا يجدونه من عمر بن الخطاب ومن حمزة بن عبد المطلب .

وكذلك مضى الأمر بين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه القليلين ،

وبين قريش ذات العدد والقوة والثراء ؛ لا يهن النبي ولا يضعف ولا يستخفي بدعوته . وأصحابه منهم القوي الذي يجالد عن دينه ، ومنهم الضعيف الذي يلقى العذاب صابراً عليه ، ومنهم الغريب الذي يستحب الأذى يراه قُربة إلى الله فيتصدى لمجالس قريش ويعلن إليهم إسلامه ، ويحتمل منهم إيذاءهم له كالذي كان من « أبي ذَرّ » حين أسلم وهو غريب في مكة . فلم يرضه إلا أن يغيظ قريش ويتلقى منهم اللكز والوكز واللطم والصفع حتى يغشى عليه . يفعل ذلك مرة ومرة حتى يأمره النبي آن يعود إلى قومه ويظل بينهم حتى يأتيه أمره .

وقد علمت قريش أنها لن تبلغ من النبي شيئاً بهذه الفتنة ، فأزمعت أن تؤذي بني هاشم كلهم ، على أنهم لم يكونوا قد أسلموا جميعاً ولكنهم أولو عصبية النبي ، ورهطه الأدنون . فأجمعوا ألا يبايعوهم ، وألا يصهروا إليهم ، وألاّ يزوجوهم ، وألا تكون بينهم وبين بني هاشم معاملة ما . واضطر بنو هاشم إلى شعْبهم يعيشون فيه عيشة المحاصرين ، لا يكلمهم أحد ولا يعاملهم أحد ، ولا تصل أرزاقهم إليهم إلا بعد المشقة الشاقة والعسر العسير .

وكتبت قريش بهذه المقاطعة صحيفة جعلتها عهداً بين أحيائها ، حتى يخلع بنو هاشم محمداً ويسلموه إليها ، ولكن بني هاشم صبروا على الحصار ، وحتملوا الجهد والمشقة والعناء إيثاراً لأحسابهم . ومكثوا على ذلك عاماً وعاماً وعاماً ، حتى شق ذلك على الذين يحاصرونهم أنفسهم ، وسعى بعضهم إلى بعض في إلغاء هذا العهد الآثم ، وجعل أفراد منهم ترق قلوبهم لإخوانهم هؤلاء الذين يحاصرون ظلماً ، فيجتهدون في أن يوصلوا إليهم أرزاقهم يستخفون بذلك من قومهم .

وإنهم لفي ذلك ، وإذا أبو طالب يغدو على قريش ذات يوم ، فيحدثهم — فيما يقول أصحاب السيرة — بأن ابن أخيه قد زعم له أن صحيفتهم تلك التي كتبوها بينهم وأودعوها جوف الكعبة ، قد أدركها البلى وعدت عليها الأَرَضَة فلم تُبقِ فيها مما كتبوا إلا اسم الله الذي ذكروه في أولها . قال أبو

طالب : فانظروا يا معشر قريش إلى صحيفتكم تلك ، فإن وجدتموها كما ذكر ابن أخي كان هذا إيذاناً لكم بأنكم تعتدون على فريق من قومكم بغير الحق ، وتظلمونهم ظلماً منكراً ، وبأن قد آن لكم أن ترفعوا هذا الظلم وتكفوا عن ذلك العدوان ، وتثوبوا إلى المعدلة بينكم وبين إخوانكم . وإن وجدتم صحيفتكم تلك كهيئتها يوم كتبتموها ووضعتموها في جوف الكعبة أسلمنا إليكم محمداً تصنعون به ما تشاءون !

فتسارع الذين رقت قلوبهم لبني هاشم يقولون : يا معشر قريش لقد أنصفكم أبو طالب وأعطاكم الرضى ، فالتمسوا صحيفتكم تلك وانظروا ؛ فإن كانت كما قال محمد فأجيبوا أبا طالب إلى رفع الظلم عن إخوانكم ، وإلا فقد آذنكم بأنه سيُسلم إليكم ابن أخيه .

وتنظر قريش في الصحيفة فإذا كل ما كتب فيها قد محي ، ذهبت به الأرضة إلا اسم الله فإنه كما كتبوه . هنالك يُرفع الحصار ويعود القوم إلى العافية !

ولكن هذا كله ، إن خفّف عن بني هاشم ، فلم يخفف على المسلمين من أصحاب النبي شيئاً . فإيذاؤهم متصل وفتنتهم ماضية على عهدها .

ثم يُمتحن النبي امتحاناً شاقاً فيفقد زوجه خديجة تلك التي كانت أول من نصرته وآزرته وأجابته إلى دعوته . ثم يفقد عمه أبا طالب ذلك الذي كفله صبياً ويافعاً ، وقام دونه يحميه ويذب عنه ، وإن كان لم يؤمن له ولم يرجع عن دين آبائه ، وإنما فعل ما فعل حباً لابن أخيه ، وعطفاً عليه ، وأداء لحق العصبية والحسب .

ويشتد البلاء على المسلمين وتطمع قريش في النبي ، فيأذن النبي للمسلمين في أن يهاجر من استطاع الهجرة منهم إلى بلاد الحبشة ، حيث يستطيعون أن يعبدوا الله آمنين لا يلقون فتنة ولا عذاباً . فيهاجر منهم من استطاع ، ويأمنون على دينهم في تلك الأرض البعيدة ، ويبقى النبي ومن أبى فراقه من أصحابه بمكة يلقون ما يلقون من الشدة والبأس ، لا تزيدهم الفتنة إلا إيماناً وتثبيتاً

وفي ذات يوم يخرج النبي من مكة إلى الطائف يرجو أن يجد عند ثقيف

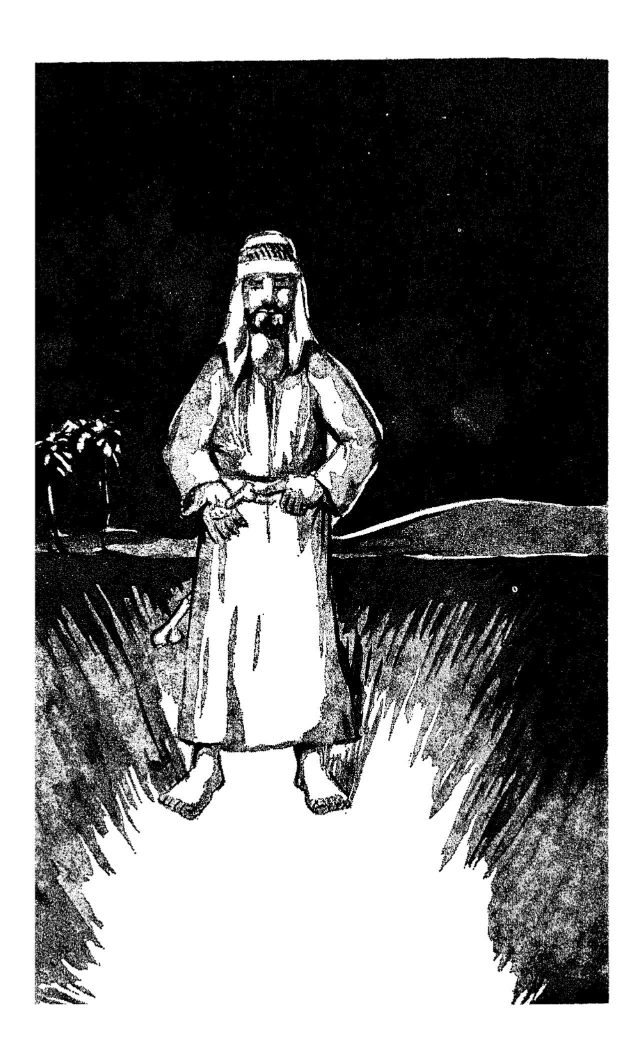
من العون والجوار ما يمكنه من أداء رسالته ، ولكنه لا يلقى من ثقيف إلا أعنف الرد وأثقله ، وإذا هم لا يكتفون برده والإعراض عنه . وإنما يُغرون به السفهاء والصبيان يؤذونه حتى يجهدوه وحتى يضطروه إلى ظل بستان ليستريح .

وكان في البستان صاحباه : رجلان من قريش — هما عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة — يريان النبي وقد بلغ منه الجهد وأوى إلى ظل بستانهما يستريح مما أدركه من العناء .

قال أصحاب السيرة : فيرق قلب هذين القرشيين له ، ولكنهما متحفظان على ذلك ، لا يُؤويانه فتغضب قريش ، فيدعوان « عداساً » غلاماً لهما ويرسلانه إليه بطبق فيه عنب . ولكن « عداساً » لا يكاد يتحدث إلى النبي ويسمع منه حتى يراه سيداه مغرقاً في البكاء مكباً على النبي يقبله ويتلطف له فإذا عاد إلى سيديه سألاه ، فإذا هو قد مال إلى ما يدعو إليه هذا الرجل الذي آذته ثقيف وأبى سيداه أن يضيفاه . وقد رجع النبي إلى مكة فلم يستطع أن يدخلها حتى استجار بشريف من أشرافها ، وهو مُطعم بن عدي ، فأجاره .

ثم جعل النبي يترقب موسم الحج يعرض نفسه فيه على قبائل العرب أيها يؤويه ويمنعه حتى يبلغ رسالات ربه ، فترده قبائل العرب جهلا منها أولا ، وكراهة أن تعادي قريش ثانياً ، حتى إذا كان موسم من المواسم عرض نفسه على قوم من أهل يثرب ، فوجد عندهم ميلا إليه وإيثاراً له ، فيضرب لهم موعداً من قابل ، ويصبر عامه ذاك على الأذى ثم يلقي وفد يثرب فيبايعونه على أن يؤووه ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ، وقد استوثق العهد بينه وبينهم ، وعاد إلى مكة راضياً مجبوراً .

ثم جعل يأذن لأصحابه في الهجرة الى يثرب ، فيهاجرون أرسالا ، يهاجر الضعفاء منهم خفية ، ويهاجر الأقوياء منهم جهرة ، وقد فشا الإسلام في يثرب ، وقُرئ القرآن في كثير من دورها ، والنبي مع ذلك مقيم في مكة لا يبرحها ينتظر أن يؤذن له في الهجرة . وقد استأذنه صاحبه أبو بكر في أن يكون



صاحبه في سفره فقبل منه . وقد عرفت قريش ما كان من العهد بينه وبين أهل يثرب ، وما كان من هجرة أصحابه إليها ، فكرهوا أن يهاجر النبي ، فيصبح هو وأهل يثرب لهم عدوّاً . فاجتمعوا وتشاوروا ، وانتهى رأيهم إلى أن يرصدوا له عند بيته ليلا نفراً من أحياء قريش على اختلافها ليقتلوه ؛ يضربونه ضربة رجل واحد فيضيع دمه في القبائل ، ولا يستطيع قومه من بني عبد مناف أن يثأروا لدمه .

قال الرواة : وقد أرصد هذا النفر من قبائل قريش عند بيت النبي ليلا ، وآذنه الله بمكر قريش فلم ينم في فراشه ليلته تلك ، وإنما أمر ربيبه وابن عمه « علياً » أن ينام في فراشه ويتسجى ببرده وخرج على النفر الذين أرصدوا له ، فإذا هم قد غشيهم النعاس .

قال الرواة : فوضع على رؤوسهم شيئاً من تراب ، ومضى لميعاده مع أبي بكر . فخرجا من مكة مستخفيين حتى انتهيا إلى غار ثور ، فأويا إليه ينتظران أن ينقطع طلب قريش لهما ، ومكثا في الغار ثلاثة أيام يأتيهما قوتهما كل يوم .

قال أصحاب السيرة : وأصبح الرصد ، فعلموا أن النبي قد خرج وأنه قد فاتهم ، فسقط في أيديهم . وجدّت قريش في طلب النبي وصاحبه .

ويتحدث أصحاب السيرة : بأن فريقاً من الذين جدوا في طلبهما قد بلغوا غار ثور ، ذاك الذي أويا إليه ، فلم يخطر لهم أنهما يستخفيان فيه ، ولو قد نظروا تحت أقدامهم لرأوهما .

والشيء الذي ليس فيه شك هو أن أبا بكر قد كان قلقاً في الغار يخشى أن يدركهما الطلب ، وأن النبي كان يهدئ من روعه ، بذلك جاءت الآية الكريمة في سورة التوبة :

« إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا

ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عليهِ وأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ ٱللهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا . وَٱللهُ عَزِيزٌ حَكِيم » .

وكان أبو بكر قد أعد للسفر كل شيء ، فلما قدرا أن طلب قريش لهما قد انقطع مضيا في طريقهما إلى يثرب فبلغاها . واستقبل النبي فيها أحسن استقبال ، فرح به أنصاره من الأوس والخزرج في يثرب ، وفرح به أصحابه الذين هاجروا قبله إليها . ومنذ ذلك اليوم الذي بلغ فيه النبي يثرب ، فتحت أمامه وأمام دعوته طريق جديدة .

١٣

وكان مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة منذ نُبِّئ إلى أن هاجر ثلاث عشرة سنة — فيما يقول جمهور الرواة — لقي فيهن من الجهد ما لقي ، وصبر فيهن على الجهد ما صبر ، وتأسّى به أصحابه ما أستطاعوا إلى التأسي به سبيلا ، وأنزل فيهن عليه من القرآن شيء كثير .

كان في مكة يدعو إلى التوحيد ، وينهى عن الشرك ، ويأمر بالعدل وينهى عن الجور ، ويجهر بأن الناس جميعاً سواء عند الله لا يمتاز بعضهم من بعض إلا بالبر والتقوى ، ويحذر الذين يشركون بالله ويجعلون له أنداداً عذاباً شديداً بعد الموت ، وينبيء بأن هذه الدنيا التي يعيش الناس فيها نهاية لا بد من أن تبلغها يوم تقوم الساعة ، ويهول من أمر الساعة هذه تهويلا شديداً تنخلع له القلوب ، وينبىء بقربها وبأنها تفجأ الناس على حين غفلة منهم ، فتذهل الآباء والأمهات عن أبنائهم وتنسي الإنسان كل شيء إلا نفسه ، ويضطرب لها الكون اضطراباً أي اضطراب ؛ فالسماء منفطرة ، والكواكب منتثرة ، والبحور مفجرة ،

والقبور مبعثرة، ويومئذ تعلم كل نفس ما قدمت من عمل وما أخرت .

وعلى هذا النحو كان يهوّل من أمر الساعة ، وما يكون بعدها من حساب الناس على ما قدموا وما أخروا من أعمالهم ، وقد سُجل كل عمل أتاه الإنسان في كتاب ينشر أمامه يحصي له حسناته وسيئاته ، والنار معروضة عليه والجنة مزلفة له ، فهو يرى الجحيم كأبشع ما يكون ويرى النعيم كأروع ما يكون ، يتمنى هذا ويشفق من ذاك ، ولكن كتابه قد نشر بين يديه يحكم له بالنعيم أو يحكم عليه بالجحيم ، لا يظلم مثقال ذرة مما عمل ، تضاعف له حسناته ولا تضاعف له سيئاته ، وإنما تحصى عليه كما هي لا يزاد فيها ،وقد ينقص منها أن ثقل ميزان الحسنات. فالإنسان على نفسه بصيرة وإن ألقى معاذيره. ويومئذ يروّع الكافرون حين يرون الكتاب منشوراً فيقولون :

« يا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا ٱلْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

فإذا قُضي بين الناس بمقدار أعمالهم ذهب أصحاب النعيم إلى نعيمهم خالدين فيه أبداً ، وذهب أصحاب الجحيم إلى جحيمهم خالدين فيه أبداً إن كانوا مشركين بالله ، لا يخلصون له قلوبهم ولا نفوسهم ولا ضمائرهم ، وماكثين فيه دهراً يقصر أو يطول لا يقاس ذلك إلا بعفو الله عن الذين أذنبوا واقترفوا السيئات بعد أن آمنوا .

وكانت قريش تسمع هذا كله ، فتنكره أشد الإنكار وتبغض من يتلوه عليهم أشد البغض . فهو ينبئهم بأن المشركين من آبائهم مخلدون في العذاب ، وبأنهم سيلحقونهم في النار ، ويشاركونهم في هذا العذاب المقيم إن لم يجحدوا آباءهم ويجحدوا دينهم هذا ويؤمنوا بالله وحده لا يشركون به شيئاً ولا يجعلون له نداً ، ويؤمنوا بأن محمداً هذا الذي يتلو عليهم ما يتلو من القرآن رسول الله قد جاءهم من عنده بالحق والبينات . وليس لهم بد بعد هذا الإيمان من أن يلائموا بين حياتهم وبينه، ومن أن يأتوا ما يأمرهم به النبي ، ويجتنبوا

ما ينهاهم عنه ؛ فإن خالفوا عن ذلك فالله لهم بالمرصاد، والنار لهم معدة يُسلكون فيها مع المشركين من آبائهم ، لا يقبل منهم عدل ولا صرف ، ولا يخفف عنهم العذاب ، ولا هم ينظرون .

وكان العُتاة منهم والجبارون ربما سخروا من النبي ومما يتلو عليهم، وربما سألوه أن يأتيهم بآية تثبت لهم صدقه . فكان يتلو عليهم من القرآن ما يرد على سخريتهم ، وكان ينبئهم بأنه لا يأتيهم بآية إلا هذا القرآن الذي يتلوا عليهم والذي جاءه من عند ربه ، ويتحداهم هو فيسألهم أن يأتوا بمثل هذه القرآن وكان عجزهم عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن هو الدليل على أنه ليس من كلام الناس ، وإنما هو من كلام الله الذي لا سبيل إلى تقليده ولا إلى محاكاته فضلا عن الإتيان بمثل ما يأتي به . وكان يتلو عليهم فيما يتلو هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء :

« قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنْسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

وكانوا لا يفهمون ، ولا تسيغ عقولهم أن تتصل الأسباب بين الله وبين واحد من الناس يوحى إليه هذا الكلام ، الذي كان يتلوه عليهم ويتحداهم به ويسألهم أن يأتوا بمثله . فيطلبون إليه آيات تكرههم على أن يؤمنوا له : يسألونه أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً ، أو أن ينشئ لنفسه جنة من نخيل وعنب فيفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو يسقط السماء عليهم كسفاً ، أو يأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يبتكر لنفسه بيتاً من زخرف ، أو يرقى في السماء فيأتيهم منها بكتاب يقرأونه . وكان الله يأمره أن يجيب على هذا التحدي بهذه الجملة اليسيرة الرائعة :

« سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولا » .

وكان بعضهم يأتيه أحياناً بالعظام البالية، فيفتها بيده وينثرها في الهواء. ثم يسأله

ساخراً : من يحيي العظام وهي رميم ؟ فكان جوابه حاضراً من القرآن في هذه الآيات الكريمة من سورة يس :

« قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيم . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُون . أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ ٱلْخَلاَّقُ ٱلْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون . فَسُبْحَانَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون » .

وكانوا يجادلونه في البعث أشد الجدال ، يقولون – كما يحكي عنهم القرآن الكريم في سورة الإسراء :

« أَ إِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيدًا »

فكان الجواب حاضراً كذلك من القرآن في السورة نفسها :

« قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا . قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً . يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً » .

كان إذن يخوفهم قيام الساعة ، ويخوفهم البعث والحساب ، ويخوفهم العذاب الذي أعد للمشركين والمذنبين ، وكان يخوفهم أشياء أخرى أيضاً : يخوفهم

أن يجري عليهم مثل ما جرى على آمم من قبلهم ، جاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوهم وقالوا فيهم مثل ما تقول قريش فيه ، قالوا : إن بهم جِنة، وقالوا : إنهم مسحورون ، وقتلوا بعضهم ، وأنذروا بعضهم بالقتل فصُب عليهم عذاب عاجل في هذه الحياة الدنيا توطئة لما أعد لهم من عذاب آجل خالد في الحياة الآخرة .

كان يقص عليهم أمر الطوفان الذي أغرق العصاة من قوم نوح ، ويقص عليهم أمر الريح التي أهلكت عاداً حين عصوا أخاهم هوداً ، وأمر الصيحة التي أهلكت ثمود حين عصوا أخاهم صالحاً . ويقص عليهم ما جرى على قوم لوط حين أمطرتهم السماء حجارة مسومة ، ويقص عليهم ما جرى على أهل مدين حين أهلكتهم الرجفة لما عصوا شعيباً ، ثم يقص عليهم في تفصيل ما أصاب فرعون وقومه حين عصوا موسى. وكان يأمرهم أن يسيروا في الأرض لينظروا كيف كانت عاقبة المفسدين ، وكان يخوفهم أن يُلم بهم مثل ما ألم بهذه الأمم من ألوان العذاب في الدنيا إلى ما ينتظرهم في الآخرة من العذاب المقيم .

يتلو عليهم هذا كله من القرآن فيسمعون أحياناً ويسخرون ويجادلون ويعرضون أحياناً ويأبون أن يسمعوا ويعقلوا . وكان يتلو عليهم من القرآن خلق آدم وإسكانه هو وامرأته الجنة ونهيه إياهما أن يقربا الشجرة المحرمة وإغراء الشيطان لهما بالمعصية وإخراجهما من الجنة . ويقص عليهم كذلك من أخبار السماء ما كان من مجاهرة إبليس بالمعصية وإبائه أن يسجد إعظاماً لخلق آدم كما سجدت الملائكة وما حل به من غضب الله عليه وما زعم من أنه سيفسد ولد آدم وسيحملهم على المعصية ؛ في أشياء أخرى كثيرة كان يقصها عليهم يعظهم بها لعلهم أن يهتدوا ، فلا يحفلون بشيء مما يسمعون إلا هذه القلة القليلة التي كانت روعة القرآن تبهر قلوبهم ، وكانت قوة الحجة تسحر عقولهم فيؤمنون جهراً أو سراً ؛ كالذي كان من أمر عمر — رحمه الله — حين أنبئ بأن أخته وزوجها قد أسلما. وقد أُلقيّ إليه هذا النبأ وهو في طريقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليبطش به فيما زعم . فلما سمع من أمر أخته وزوجها عدل إليهما ليبدأ بهما ، ولكنه ينتهي إلى أن يقرأ عندهما الآيات الأولى من سورة طه فيلين قلبه بعد قسوة وترق

نفسه بعد غلظة . وإذا هو يذهب إلى النبي لا ليقتله ، بل ليشهده على أنه مؤمن بالله وبأن محمداً رسوله .

وكذلك جرت الأمور بين النبي وأصحابه وبين قريش : جهاد لا ينقضي ، وجدال لا يكاد ينقطع ، واتصال للوحي أثناء ذلك ، وتلاوة لهذا القرآن الذي كان يوحى إلى النبي ، واجتماع إلى أصحابه قبل أن يهاجروا إلى الحبشة وبمن بقي منهم معه بعد أن هاجر أصحابه يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن ، وينصح لهم في أمر دنياهم كما ينصح لهم في أمر دينهم .

وفي ذات يوم قامت قريش وقعدت ، وانطلقت ألسنتها بالسخرية ووصل الشك إلى قلوب بعض الذين آمنوا . ذلك أن النبي أصبح فأنبأ بأنه أسريَ به من ليلته إلى المسجد الأقصى . وتلا هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء .

« سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى المسجد الأَقْصَى الذي بارَكْنا حَوْلَه لِنُرِيَهُ من آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ٱلْبَصِير » .

وواضح أن قريشاً لم تكن لتصدق أن يُسرى بالنبي من ليلته إلى المسجد الأقصى ويعود منه قبل أن يُسفر الصبح . وهم الذين يُنفقون في رحلتهم إلى الشام ما ينفقون من الأيام الطوال ، ويلقون في رحلتهم ما يلقون من المشقة والجهد فكيف بهم حين ينبئهم النبي بأنه ذهب إلى المسجد الأقصى في القدس ، وعاد إلى مكة في ساعة من ليل ؟ ! ولكنه يصف لهم الشام والقدس والمسجد فلا ينكرون من وصفه شيئاً ! هنالك اضطربت قلوبهم ، وفكروا في أن يعجزوه فأرسلوا إلى اليهود ينبئونهم نبأه ، ويلتمسون عندهم من المسائل ما يلقونها عليه يمتحنون بها صدقه .

قال رواة السيرة : فأمرهم اليهود أن يسألوه عن أمر الفتية الذين أووا إلى الكهف ما خطبهم ؟ وألقيت عليه المسألة . ولكن الوحي أبطأ عليه شيئاً حتى ظنت قريش أنها قد أعجزته . ثم أقبل عليهم ذات يوم فتلا عليهم قصة أهل الكهف كما عرفوها من اليهود .

فلا غرابة بعد هذا كله في أن يضيقوا به وفي أن تضيق مكة بالنبي نفسه ، وفي أن يثبته الله ويعزيه عن جحود قومه وعصيانهم بعد ما جاءهم الحق واضحاً جلياً . فالله يقول له في سورة الكهف :

« فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفاً . إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا » .

وعلى رغم هذا كله ، فقد أقام فيهم حتى عرض عليهم أصول الدين ، وبيّن لهم ما ليس منه بد ليأمنوا سوء العاقبة في الدنيا والآخرة : بيّن لهم أن إلههم واحد لا شريك له ، وأن الإشراك به ظلم وجحود يضطر صاحبه إلى الخلود في العذاب المقيم ، وبين لهم أن الله قد أرسله رسولا كما أرسل الرسل من قبله إلى قومهم ، وأن الإيمان لا يستقيم لصاحبه حتى يشهد من أعماق قلبه بوحدة الله وصدق رسوله ، وحتى يكون الإيمان بالله ورسوله ملء قلوبهم ، وعلى ذكر منهم في كل ما يأتون وما يدعون ؛ وبين لهم أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، والرفق باليتامى والمساكين ، والبر بالوالدين وطاعتهما إلا في الكفر بالله أو معصيته ؛ وبين لهم أن الله ينهاهم عن آثام فليس لهم بد من أن يجتنبوها : ينهاهم عن القتل ظلماً ، وينهاهم عن وأد البنات وقتل الولد خشية الإملاق ، وينهاهم عن الزنى ، وعن الخيلاء والمرح ، وعن الغرور والكبرياء ، وعن الكذب وقول الزور ، وعن شهود اللغو والمشاركة فيه .

بيّن لهم هذا كله ، وأكثر من هذا كله ، وبشرهم بالمثوبة الحسنى عند الله إن آمنوا وأصلحوا وأطاعوا ، وأنذرهم العقاب الشديد في الدنيا والآخرة إن كفروا وعصوا .

صدع بما أمره الله أن يصدع به ، وأدى مهمته كأحسن ما يكون أداء المهمات . لم يقصر ، ولم يفتر ، ولم ييأس ، حتى أذن الله له في الهجرة ، فهاجر بعد أن أعفى نفسه من كل تبعة . وأدى حق الله وحق قومه عليه ، وبرّ بهم فلم يلق منهم إلا جحوداً وعقوقاً ، ولم يؤمن له منهم إلا القليل كما رأيت .

١٤

وبلغ « يثرب » فاستأنف حياة جديدة . وفتحت له إلى نشر دعوته طرق جديدة أيضاً ... وجد في « يثرب » مسلمين قد آمنوا بالله ورسوله قبل الهجرة ، وفشا الإسلام بينهم حتى كثروا ، ووجد بينهم مشركين لم يدخل الإيمان في قلوبهم ، فمنهم من هدى الله إلى الحق فآمن وصدق إيمانه ، ومنهم من أشفق من عواقب العناد فأظهر الإسلام وأبطن الكفر وعاش منافقاً . ووجد فيها يهوداً قد استمسكوا بما توارثوا من دينهم . فلم يكن له بد من أن يلائم بين حياته الجديدة في « يثرب » وبين هذه الطوائف المختلفة من الناس .

ولم تكن حياته في « يثرب » أهون ولا أيسر من حياته في مكة ، ولعلها كانت أشق منها مشقة وأحفل منها بالخطوب ، ولكنه استقبلها راضياً بها ، شاكراً لها ، حامداً لربه على أن أتاح له الأمن والنصر والمأوى حتى يبلغ رسالته ويؤديَ حق الله عليه .

وقد بدأ بالمؤاخاة بين المهاجرين من أهل مكة والأنصار من أهل يثرب ، فأنشأ بينهم صلة قوية بعيدة الأثر في حياتهم هي صلة الإخاء بأوسع معانيه وأدقها . ثم عقد نوعاً من الحلف بينه وبين أصحابه من جهة وبين اليهود من جهة أخرى ، على أن يكون بينهم النصر على العدو والعون على الكوارث والأحداث .

ثم جعل هو ومن تبعه من المهاجرين والأنصار يعبدون الله جهرة لا يستخفون بدينهم ولا يخافون فتنة عنه . وقد اتخذ النبي مسجداً عاماً لأول مرة في الإسلام ، يدعو فيه إلى ربه ويقيم فيه الصلاة ، ويجلس فيه للناس فيعلمهم ويؤدبهم ويبصرهم بما يجب عليهم أن يأتوا ، وينهاهم عما يجب عليهم أن يجتنبوا ، ويبين لهم محاسن الأخلاق وخير الأعمال ، ويدلهم على ما يليق بالرجل المؤمن الكريم على نفسه وعلى غيره وما لا يليق به . كل ذلك في أمن ودعة وهدوء . ولم يكشف للمنافقين من أهل « يثرب » ستراً ، وإنما اكتفى منهم بما أظهروا للإسلام ، فلم

يَعْرِض لهم بشيءٍ مما يكرهون وإن كان الله قد أعلمه بمكانهم من النفاق . وكان كثيراً ما يقول لأصحابه : إني لم أومر بأن أفتش عما في القلوب . وكان جديراً أن يظل كذلك في أمنه وهدوئه وما أتيح له من هذه الحياة الوادعة على قسوتها . ولكنه لم يلبث ، ولم يلبث أصحابه معه أن وجدوا أنفسهم بين عدوين ، ليس أحدهما بأقل خطراً من صاحبه :

فأما أولهما فهم هؤلاء اليهود الذين لم يؤمنوا به ولم يستكرههم على أن يؤمنوا به ، وإنما اكتفى منهم بالمسالمة والموادعة وحسن الجوار والمناصرة عند الحاجة . ولكنهم لم يخلصوا لما كان بينه وبينهم من عهد ، وإنما أظهروا المسالمة وأضمروا الغدر ، ثم لم يكتفوا بذلك بل أظهروا التكذيب لدينه وجادلوا فيه فأكثروا الجدال .

وأما العدو الآخر فقريش تلك التي تركها محفظة عليه أشد الحفيظة . كانت تحب أن تقتله ، أو تُثبته ، أو تخرجه من مكة جهرة ، طريداً على رؤوس الأشهاد ، ولكنها تنظر فإذا هي لم تبلغ مما أرادت به شيئاً ، لم يغن عنها كيدها له وائتمارها به ، وإنما كانت كما وصفها القرآن الكريم في الآية الكريمة من سورة الأنفال :

« وإذ يمْكرُ بِكَ الَّذينَ كَفَرُوا ليُثْبِتوكَ أَوْ يقتلوكَ أَوْ يُخرِجُوكَ ، ويمْكرُونَ ويمْكرُ ٱللهُ وٱللهُ خَيْرُ الماكرين ».

مكروا به حين كان بين أظهرهم ، ولكنهم لم يقدروا عليه ، قد أنجاه الله منهم وأبدله بهم قوماً آووه ونصروه ؛ فلا يمكن أن تطيب نفوس قريش عما أتيح له من الأمن والدّعَة ، وهي بعد ذلك تعرف أنها قد ظلمته وظلمت أصحابه معه أبشع الظلم وأشنعه ، فهي لا تأمن أن ينتقم منها لما أصابه ، بل تحذر أن يتخذ من أمنه في يثرب ومن أنصاره هؤلاء الجدد وسيلة إلى نصب الحرب لها وهي من أجل ذلك حَذِرة أشد الحذر ، قلقة أشد القلق ، تريد أن تتقيه مهما تكن وسيلتها إلى ذلك ؛ فهي تؤلب عليه ، وتغري به ، وتكيد له بعيداً

عنها ، كما كادت له قريباً منها ، تؤلب عليه العرب وتغري به اليهود ، ثم هي بعد ذلك تؤذي من لم تتح له الهجرة من أصحابه أشد الأذى وأنكره . فلا غرابة في ألا يحول الحول على هجرته إلى المدينة حتى يظهر الشر بينه وبين قريش ، ويتبين أن الأمر بينهما صائر إلى الحرب لا محالة ؛ فقريش عدوه وهي تراه لها عدواً ، وترى مكانه من « يثرب » خطراً على تجارتها إلى الشام لا يكاد العام الثاني من هجرته يبلغ ثلثيه حتى تكون الحرب بينه وبينهم يوم « بدر » .

كانوا كثرة وكان هو وأصحابه قلة . كان هو وأصحابه يوم التقى الجمعان يرون عدوهم مثليهم رأيَ العين ، ولكن شتان بين قوم يقاتلون عن دينهم وعن إيمانهم بهذا الدين وهم مستيقنون أنهم إن ينصروا نَعِموا بانتصارهم في الحياة الدنيا وظفروا بأجرهم على الجهاد ، وإن يقتلوا فهم شهداء عند الله قد ضمن لهم نعيماً ليس مثله نعيم . نعيمٌ صفو خالد لا كدر فيه ولا انقطاع له وبين قوم يقاتلون عن أموالهم وعما يملؤهم من الغرور والكبرياء.

فلم تنشب الحرب بين الفريقين حتى أنزل الله نصره على نبيه وعلى المؤمنين وانهزمت قريش هزيمة منكرة قُتل صناديدها وأسرت جماعة من سادتها وكثرت الغنيمة ، وعاد المنهزمون إلى مكة قد أحرزوا تجارتهم تلك التي نجا بها أبو سفيان ولم يكد ، ولكنهم عادوا بخزي أي خزي ، يشقون بنار الهزيمة وفقد الصناديد والسادة والإخوان والآباء والأبناء والأخلاط . وقد قصّ الله هذه الموقعة أروع القصص في سورة الأنفال .

ومنذ ذلك اليوم — يوم بدر — تسامعت العرب بالنبي ، وأحست قوته وبأسه ، وامتلأت قلوبهم منه رعباً . على أن قريشاً لم تصبر على هزيمتها ، ولم تتعز عمن فقدت من سادتها وأحبائها . فجعلت تتهيأ للثأر ترصد لذلك المال وتجمع الجموع ، وأخذتها العزة بالإثم ، فحظرت إعلان الحزن على من قتل من رجالها.

وأقبلت حين دار العام إلى المدينة تريد أن تثأر ، وأن تنتصر على الذين انتصروا عليها ، وقد كادت تعود إلى مكة بالخزى والخسار وخيبة الأمل ، لولا أن

همّ بعض المسلمين بالفشل ، وطمع بعضهم في الغنيمة حين أراهم الله من النصر ما يحبون ؛ فكرت عليهم قريش كرة كانت ابتلاء من الله لهم وتمحيصاً لقلوبهم ودرساً قاسياً عرف المسلمون كيف ينتفعون به فيما استقبلوا من أيامهم ، وفيما أثير لهم من الخطوب والمشكلات .

ولكنهم على كل حال لم ينتصروا في تلك الوقعة يوم أحد ، فكانت عليهم الدائرة : قتل منهم من قتل ، وجرح منهم من جرح ، وفر منهم كثير ، ولم يثبت إلا النبي ونفر قليل من أصحابه ، وأصيب النبي نفسه إصابة عنيفة ، ورزئ بعمه « حمزة » وكثير من أصحابه ، واستطاع أبو سفيان قائد قريش أن يقول للنبي ومن بقي معه من أصحابه : اعلُ هُبَل ، الحرب سِجال ، يوم بيوم بدر . وقد أجاب عمر أبا سفيان عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله أعلى وأجل ، وبأن الله قد أبقى من المسلمين من سيكونون له ولقومه بلاء أي بلاء . وعلى رغم الهزيمة التي امتحن الله بها المسلمين في ذلك اليوم . وعلى رغم ما رزئ النبي وما أصابه من الأذى وما أصاب أصحابه من الثكل والجراحة ، فقد أبى النبي أن يقبل الهزيمة كما قبلتها قريش يوم بدر . فأمر أصحابه أو من قدر منهم على الرحيل أن يتبعوا قريشاً . ومضى على رأسهم في إثر المنتصرين ، لم يحفل بقلة أصحابه وكثرة عدوه ، وإنما مضى في إثرهم لا يلوي على شيء حتى أمن كرتهم على المدينة ، فعاد موفوراً . وقص الله وقعة « أحد » كما كانت مؤنباً لمن فشل من المسلمين ، وعاتباً على من انصرف عن الحرب إلى الغنيمة مخالفاً بذلك عن أمر النبي ، وعافياً مع ذلك عن أولئك وهؤلاء ، وآمراً للنبي أن يعفو عنهم ويستغفر لهم ويشاورهم في الأمر ، ومعزياً للمسلمين بعد ذلك عمن فقدوا من أصحابهم بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، ومهيئاً للمسلمين لما سيُمتَحنون به في أنفسهم وأموالهم ، ولما سيسمعون من الأذى الذي يؤذيهم به المشركون ، والذين أوتوا الكتاب من اليهود .

قص الله هذا كله كأحسن ما يكون القصص في سورة آل عمران . على أن قريشاً قد أطمعها انتصارها فلم تكد تستريح من غزوتها تلك ، وتفرغ لما كانت فيه من التجارة والحياة اللاهية اللاعبة ، بل فكرت في غزو المدينة مرة أخرى .

وجعلت تتأهب لذلك وتؤلب العرب ، وتحالف القبائل واليهود ، موقنة بأنها لن تأمن ما بقي للنبي وأصحابه شوكة ، فليس لها بد من أن تزيل هذه المدينه أو أن تتهيأ لزوال مكة .

وكذلك أقبلت قريش بعد عام وبعض عام — ومعها كثير من قبائل نجد ، وقد أحكمت أمرها مع اليهود — غازية للمدينة تلك الغزوة التي قصها الله في سورة الأحزاب والتي سميت بهذا الاسم .

وقد عرف النبي والمسلمون تأهب قريش وأحابيشها وحلفائها من أهل نجد لغزو المدينة ، فتشاوروا في هذا الأمر ، وأشير على النبي أن يحتفر خندقاً يمنع المشركين من بلوغ المدينة ، فتأذن في أصحابه بذلك وشاركهم في احتفار الخندق ، كما شاركهم من قبل في بناء المسجد يعمل بيده كواحد منهم ، ويحتمل في ذلك من المشقة ما يحتملون ، ويلقى فيه من العناء ما يلقون ، صابراً جاداً مثبتاً قلوب أصحابه ، مغرياً لهم بالصبر والجد حتى بلغوا من احتفار الخندق ما أرادوا .

وأقبلت قريش في جموع كثيرة جداً من أحابيشها وأحلافها ، جموع تأتي من أسفل المسلمين وهم قريش ومن جاء معهم ، وجموع أخرى تأتي من فوقهم وهم أهل نجد من حلفاء قريش وجلهم من غطفان .

ورأى المسلمون ذلك فأكبروه واستكثروه ، ولا سيما أنهم علموا أن بني قريظة من اليهود قد نقضوا عهدهم وغدروا بحلفائهم من المسلمين ، وخلطوا أمرهم بأمر قريش وحلفائها ، بغياً وغدراً ، ونقضاً للحلف والجوار .

وكان المسلمون يعلمون إلى هذا كله أن بين أظهرهم من المنافقين فريقا إن لم يظهروا تأييدهم لقريش فهم يضمرون خذلانهم للمسلمين ، ويأبون على كل حال أن ينصروهم . فلا غرابة في أن يصف الله عز وجل موقف المسلمين من هذا كله أبرع الوصف وأنفذه إلى القلوب في هذه الآيات الكريمة من سورة الأحزاب ، وأن يذكر المسلمين بذلك بعد الموقعة ليعرفوا حسن بلائه فيهم وعظيم نعمته عليهم :

« يا أَيُّهَا الَّذينَ آمنوا اذكرُوا نعْمةَ ٱللهِ علَيْكمْ إذ جاءَتكمْ جُنودٌ فَأَرْسلنَاعلَيْهِمْ رِيحاً وجنودًا لمْ تَروْهَا وكَانَ اللهُ بِما تَعْملونَ بصيرًا.إذ جاءُوكمْ من فَوْقكمْ ومن أَسْفَلَ منكمْ وإذ زَاغَت الْأَبْصارُ وبلَغَت الْقلوبُ الْحنَاجر وتَظنُّون بِالله الظُّنونَا.هنَالكَ ٱبْتُلِي المؤمنونَ وزلْزلوا زِلْزَالًا شَديدًا . وإذ يقولُ المُنَافقونَ والَّذينَ فيقلوبهمْ مَرَضٌ ما وعدنَا ٱللهُ ورسولهُ إلَّا غرُورًا . وإذ قَالَت طَائفَةٌ منهمْ يا أَهلَ يثرب لاَ مُقَام لَكمْ فَارْجِعُوا ،ويسْتَأْذن فَريقٌ منهمُ النَّبِيَّ يقولونَ إنَّ بُيُوتَنَا عوْرَةٌ ، وما هي بِعوْرةٍ إن يُريدُونَ إلَّا فرارًا ».

ولم يكن بين جماعة المسلمين وبين هذه الجموع الضخمة من المشركين تزاحف ولا لقاء ، وإنما كان بعض الأفراد من المسلمين والمشركين تكون بينهم المبارزة من حين إلى حين . ولكن المسلمين كانوا مع ذلك في بلاء عظيم. يمتحنون في إيمانهم وثقتهم بما وعد الله ورسوله ، ويمتحنون في صبرهم على اليأس والمكروه . ذلك أن قريشاً وحلفاءها كانوا جديرين أن يقيموا فيطيلوا المقام ، ويفرضوا على المسلمين حصاراً شديداً متصلا ، وكان بنو قريظة من اليهود جديرين أن يأخذوهم من ظهورهم فلا يعرفون من يقاتلون ولا من أي وجه يقاتلون . ولكن الله يتيح للنبي من عدوه من يأتيه ناصحاً له.

يريد أن ينصره ، فيأمره النبي أن يخذل بين قريش واليهود . ويفعل الرجل ذلك على أحسن وجه ، فيقنع اليهود بأن قريشاً خليقة أن تغدر بهم حين يجد الجد ويشتد البأس ، ويشير عليهم بألا يشاركوا قريشاً في أمرها حتى تعطيهم رهائن من أنفسها ، ويُقنع قريشاً بسوء نية اليهود ، وأن حلفهم لا يخلو من دَخَل ، ويستحكم الشك عند قريش فتطالب اليهود ، بالقتال ، ويطلب اليهود

الرهائن فلا تشك قريش في أنهم قد غدروا . وبينما هم في ذلك يرسل الله ذات ليلة ريحاً عاصفة أي العصف ، باردة أي البرد ، تطفئ نيران الحلفاء ، وتكفأ قدورهم ، وتنزع خيامهم فيأخذهم الذعر ، ويشتد فيهم الاختلاط والاضطراب حتى لا يعرف الرجل منهم صاحبه . فلا يكادون يستقبلون الصبح حتى يجلس أبو سفيان على راحلته وينادي في القوم بالرحيل . فيتفرق الأحزاب .

تعود قريش إلى مكتها ، ويعود حلفاؤهم من العرب إلى بواديهم ، ويصف الله ذلك في الآية الكريمة :

« وردَّ اللهُ الَّذينَ كَفَروا بغَيْظهم لَمْ ينَالوا خَيْرًا وكَفَى اللهُ المُؤْمنينَ الْقتَال وكَانَ اللهُ قَوِيًّا عزِيزًا » .

وبعد هذه الخيبة التي منيت بها قريش وحلفاؤها لم تحاول قريش غزو المدينة مرة أخرى ولكنها مضت تبث كيدها في جزيرة العرب ، تحرض على النبي وأصحابه المشركين من أهل نجد والحجاز . وكان النبي وأصحابه من أجل ذلك لا يستريحون ، وإنما تأتيهم الأنباء بين حين وحين بأن هذه القبيلة أو تلك — من قبائل العرب القريبة منهم والبعيدة عنهم — تتهيأ لبعض الشر ، فيغزوها النبي بنفسه أو يرسل إليها من يغزوها . كانت قريش تبث الكيد وكان النبي وأصحابه يبثون الهيبة لهم والخوف منهم ، حتى إذا كان العام السادس للهجرة خرج النبي وفريق من أصحابه قاصدين إلى مكة لا يريدون قتالا ولا يفكرون في حرب وإنما يريدون العمرة كما كان سائر العرب يقصدون إلى مكة حاجّين ومعتمرين .

ولكنهم لا يبلغون الحديبية حتى تعلم قريش بمقدمهم ، فتأبى أن يدخلوا عليها مكة ، ويسعى السفراء بين النبي وبينهم في ذلك ؛ يؤكد النبي وأصحابه أنهم لا يريدون إلا العمرة ، وتأبى قريش أن يدخلوها عليهم وتنذر بالقتال وتتهيأ له ؛ ثم يكون الصلح الذي يعرف بصلح « الحديبية » والذي امتحن الله به قلوب المسلمين وزلزل به قلوب بعض خيارهم ؛ ذلك أن النبي قَبِل

من قريش ألا يدخل عليهم مكة عامهم ذاك ، وقبلت قريش أن يدخلوها من قابل لا يحملون من السلاح إلا السيوف في أغمادها . وشق ذلك على المسلمين حتى أقبل « عمر » على النبي يسأله : ألسنا على حق ؟ قال النبي : بلى .قال عمر : أليسوا على باطل ؟ قال النبي : بلى . قال عمر : فلم نعطي الدنية في ديننا ؟ قال النبي : أنا عبد الله ورسوله ولن يضيعني .

وأعاد « عمر » سؤاله هذا على أبي بكر . فأجابه أبو بكر بمثل ما أجابه النبي به . ولما عقد الصلح أمر النبي أصحابه أن يحلوا من إحرامهم فأبطأوا ولم يستجيبوا . واغتمّ النبي لذلك ولكنه لم يلبث أن أحل من إحرامه حتّى صنع أصحابه صنيعه .

وأنزل الله :

« إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فتحاً مُبِيناً . ليغفر لَكَ الله ما تَقَدَّم من ذَنبِكَ وما تَأَخَّر ويُتِمَّ نعْمَتَهُ علَيْكَ ويَهديَك صراطاً مُسْتَقيماً . وينصُركَ اللهُ نَصْرًا عزيزًا . هو الذي أنزَل السَّكينَةَ في قلوبِ المُؤمنينَ ليزدادُوا إيماناً مع إيمانهِمْ ولله جُنودُ السَّموات والأَرْض وكَانَ اللهُ عليماً حكيماً ليُدْخلَ المُؤمنينَ والمُؤمنَات جنَّاتٍ تَجْرِي من تحْتِهَا الأَنْهَار خَالدينَ فيهَا ويُكَفِّر عنْهمْ سيِّئَاتِهِمْ وكَانَ ذٰلكَ عنْد الله فَوْزًا عظيماً. ويُعذِّب المُنَافقينَ والمُنَافقَات والمُشْركينَ والمُشْركَات الظَّانِّينَ بالله ظَنَّ السَّوْءِ علَيهِمْ دائرة السَّوْء وغَضَبَ اللهُ علَيْهِمْ ولَعنَهمْ وأعدَّ لَهمْ جهَنَّم وساءَتْ مصيرًا. ولله جُنودُ السَّموات والأَرْضِ وكَانَ الله عزيزًا حكيماً » .

ويقول الرواة : إن بعض المسلمين حين تليت عليهم هذه السورة سألوا النبي : أو فتح هذا ؟ قال النبي : نعم .

وكان النبي قد أرسل من « الحديبية » عثمان — رحمه الله — سفيراً إلى قريش . فأبطأت عودته وقيل : إن قريشاً قد فتنته ، فبسط النبي يده للبيعة على الموت وبايعه أصحابه لم يتخلف منهم أحد . وأنزل الله في سورة الفتح :

« لَقَدْ رضِيَ اللهُ عن المُؤْمنينَ إذْ يُبايِعُونَكَ تحْتَ الشَّجرة فَعلم ما فِي قلوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكينَةَ علَيْهِمْ وأَثَبهمْ فَتْحاً قَرِيباً ومغَانم كَثيرةً يأْخُذُونهَا وكَانَ اللهُ عزيزًا حكيماً » .

وفي يوم « الحديبية » ذاك تمت الهدنة بين النبي وبين قريش عشر سنين على أن يدخل في عقد قريش من العرب من شاء ويدخل في عقد النبي منهم من شاء ، وتكف الحرب بين الفريقين ، وعلى أن من جاء قريشاً من أصحاب النبي لاجئاً إليهم لم يردوه ، ومن جاء النبي من قريش مؤمناً به أو لاجئاً إليه رده عليهم .

وعلى أن يأتي النبي وأصحابه من قابل معتمرين فتترك لهم قريش مكة ، ويدخلونها لا يحملون من السلاح إلا السيوف في أغمادها ، ثم لا يقيمون فيها إلا ثلاثة أيام .

وهذه الشروط التي قامت عليها الهدنة هي التي أحفظت فريقاً من المسلمين ولكنهم لم يفطنوا لأن الهدنة بينهم وبين قريش ستكفيهم مكرها من جهة ، وستطلق أيديهم فيمن لم يحالف قريشاً من العرب يسالمونهم إن سالموا ويحاربونهم إن حاربوا ، وستريحهم إلى حين من خصومة الأعداء هؤلاء الألداء ؛ ذلك إلى ما وعدهم الله من الفتح القريب ومن مغانم كثيرة يأخذونها .

ومهما يكن من شيء فقد طابت قلوب المسلمين آخر الأمر ، وعرفوا أنهم

قد أسرعوا إلى الحفيظة والغضب ، وأنهم لو استأنوا بأنفسهم لكان خيراً لهم وأرضى لنبيهم . ولكن الله ونبيه قد عوّداهم العفو عن مثل هذه الهفوات .

١٥

ولم يكن أمر النبي مع اليهود أهونَ من أمره مع قريش فهم كانوا على قلتهم في المدينة جيراناً للنبي والمسلمين . ولم يكونوا جيران خير . كان كفرهم شديداً ومكرهم أشد ، وكانوا على اتصال بالمنافقين من أهل المدينة يشجعونهم ويغرونهم بالنفاق ، وكانت بينهم وبين كثيرين من هؤلاء المنافقين علاقات حلف في الجاهلية فكان هذا يزيدهم كفراً وطغياناً ، وكانوا بعد هذا كله أهل كتاب يقرأون التوراة أو يقرأها أحبارهم على أقل تقدير ، ويرون أنهم على شيءٌ من الدين ، وأنهم سبقوا المسلمين إلى هذا الدين ، فلهم سابقة علم بشؤون النبوات . وكانوا يعظمون موسى ، ويرون المسلمين يعظمونه ويسمعون تعظيمه في القرآن فتأخذهم الكبرياء ، ويظنون أنهم أهدى سبيلا من المسلمين ، كما ظنوا من قبل أنهم أهدى سبيلا من النصارى ، وكانوا يتيهون بدينهم وما عندهم من علم قليل على المسلمين ، كما كانوا يتيهون بذلك على العرب في الجاهلية . وكانوا أصحاب جدال لا ينقضي ، وأصحاب عناد لا قرار له ، وكانوا ذوي جرأة على الحق وافتنان في الباطل ، يعلمون أن المسلمين لا يقرأون التوراة في لغتها العبرانية فيحرفونها كما يشاؤون وكما تشاء أهواؤهم ، لا يحفلون بما في ذلك من نكر ، ولا يأبهون لما له من عواقب . وكانوا يسألون النبي عن أشياء . فإذا أجابهم بما كان الله يوحي إليه ما رَوا في ذلك وأسرفوا في المِراء .

ثم كانوا لا يفون بالعهد إذا عاهدوا ، ولا يصدقون في القول إذا قالوا ، ولا يستطيع أحد من المسلمين أن يأمن لهم في قول أو عمل .

ثم لم يلبثوا أن بينوا عن غدرهم تبييناً لا يترك سبيلا إلى الشك في أن جوارهم غير مأمون : همّ فريق منهم – وهم بنو النضير – بقتل النبي وقد أقبل عليهم ذات يوم يستعينهم على بعض الحق ، كما كان الحلف يقضي بذلك ، فأظهروا

حسن اللقاء وهموا بالغدر ، وأزمعوا أن يلقوا عليه من عَلٍ صخرة تُودي به ، لولا أن نبأه الله بما كادوا له . فانصرف عنهم ، ثم أجلاهم عن المدينة ولم يرزأهم شيئاً .

ونكص فريق آخر – وهم بنو قينقاع – عن الوفاء بالحلف . أهانوا امرأة واستنصرت المرأة المسلمين ، فكان خصام قتلوا فيه رجلا مسلماً ، واعتلوا في ذلك بعلل لا قيام لها . فأجلاهم النبي عن المدينة لم يرزأهم إلا السلاح.

وغدر الفريق الآخر يوم الأحزاب فلم يمتنعوا عن نصر المسلمين فحسب ولكنهم أعانوا عليهم وانضموا لحلف قريش . فحاصرهم النبي والمسلمون حتى أنزلهم على حكمه ، ثم حكم فيهم سعد بن معاذ – رحمه الله – بأن تقتل المقاتلة ، وتحتاز الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء .

فأنفذ النبي هذا الحكم .

ووصف الله عز وجل في القرآن ما أصاب بني قريظة هؤلاء في سورة الأحزاب حيث يقول :

« وَأَنْزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا » .

وكانت لليهود بقية قوية غنية في « خيبر » وفي « وادي القرى » فسلط الله رسوله عليهم بعد يوم « الحديبية » وهو الفتح القريب الذي وعد به المؤمنين ، فغزاهم في أصحابه ولم ينصرف عنهم حتى فتح حصونهم وغنم أرضهم ، وأعملهم فيها على أن لهم نصف ما تخرج من الثمرات وللمسلمين نصفها .

وكذلك قضى على اليهود في الحجاز ؛ خلت منهم المدينة وبقي منهم من

بقي في خيبر ووادي القرى خاضعين للمسلمين ، يعملون في أرضهم ، ويعيشون من عملهم ، لا يملكون قوة ولا مكراً ولا كيداً .

وقد أمر الله نبيه ومن آمن معه ألا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، وأن يقولوا لهم آمنا بالذي أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد . ونحن له مسلمون .

لم يستثن من هذا الأمر بالرفق والجدال الرقيق مع أهل الكتاب من اليهود النصارى ، إلا الذين ظلموا وبينوا بظلمهم أن الرفق والرقة لا يجديان معهم شيئا ، وذلك في الآية الكريمة من سورة العنكبوت :

« ولاَ تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلاَّ بِالَّتِي هِي أَحْسَنُ إلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وقُولُوا آمنَّا بِالَّذي أُنْزِل إِلَيْنَا وأُنْزل إِلَيْكُم وإِلٰهُنَا وإِلٰهُكُمْ واحِدٌ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .

فلما هاجر النبي الى المدينة واستقر فيها مع أصحابه من المهاجرين والأنصار ، لم يعاد اليهود ولم يبادهم بسوء ، وإنما رفق بهم كل الرفق ، وأراد أن تقوم الصلات بينه وبينهم على حسن الجوار ، وعلى التعاون والنصر عند البأس . وقبل اليهود منه ذلك ولكنهم لم يلبثوا أن أظهروا أنهم كانوا حقا من الذين ظلموا ، واستثناهم الله في الآية الكريمة السابقة . فاشتد الجدال بينهم وبين النبي في الدين أولا ، وأنزل الله فيهم قرآنا كثيرا .

يقص عليهم أحيانا سابقتهم في الكفر به والجحود له ، والتنكر لمن أرسل اليهم من الأنبياء ، ويقص عليهم كذلك عقاب الله لهم على هذا الكفر والجحود ، وأحيانا أخرى يرد عليهم ما كانوا يفترون من الكذب ويزعمون أنهم يقرأونه في التوراة ، ويصفهم بأنهم لا يقرأون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون ؛ ويصفهم مرة أخرى بأنهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرّفونه من

بعد ما عقلوه ؛ ويصفهم مرة ثالثة بالنفاق لأنهم يلقون الذين آمنوا فيقولون : إنا معكم ، فاذا خلا بعضهم الى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم . ومرة أخرى يوبخهم لأنهم يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب ، ويذكرهم غير مرة بأنه نجاهم من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب ، يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، وبأنه أغرق آل فرعون أمامهم وهم ينظرون . ثم لم يلبثوا أن جحدوا هذه النعمة وكفروا بالذي أنعم عليهم ، وعبدوا العجل من بعده ظالمين لأنفسهم . ويذكرهم غير مرة أيضا بجبنهم وكراهيتهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التّي اختصهم الله بها ، وقالوا لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون .

ويُحصي عليهم كثيرا من آثامهم ومن تكذيبهم للرسل وقتلهم للأنبياء ، وما أصابهم في سبيل هذا كله من المحن وألوان البلاء . وربما تحداهم حين كانوا يزعمون لأنفسهم من الخصائص ما ليس لهم ، فهم كانوا يزعمون أن النار لن تمسهم الا أياما معدودات ، فيأمر الله نبيه أن يسألهم : هل اتخذوا عند الله عهدا أم يقولون على الله ما لا يعلمون ؟

ويأمر نبيه أن يقول لهم : إن كانت الدار الآخرة خالصة لكم من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ثم يؤكد الله عز وجل أنهم لن يتمنوا الموت أبداً لأنهم يعلمون ما قدمت أيديهم من السيئات ؛ فهم يكذبون على الله حين يزعمون أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات ، أو أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس .

ويؤكد الله لنبيه أنهم أحرص الناس على حياة ، وأن أحدهم يود لو يعمّر ألف سنة . ولو أتيح له ما يتمنى من طول العمر لما زحزحه ذلك عن العذاب .
وكذلك يمضي القرآن الكريم ناعيا على اليهود تلك الخصال التّي أشرنا اليها في أول هذا الفصل ، ولائماً لهم على تاريخهم الملىء بالجحود والغدر والكفر ، وراداً عليهم ما كانوا يثيرون من المشكلات أو يلقون عليه من الأسئلة التّي كانوا يرون أنها ستحرجه وتقطع حجته . فيفحمهم ويلزمهم الحجة .

ولذلك كله ظهر أول انحراف عن الرفق بهم حين حُولت قبلة المسلمين في الصلاة عن بيت المقدس الى المسجد الحرام . وكان النبي يتمنى لو غُيِّرت قبلته عن بيت المقدس انحرافا عن اليهود ، أولئك الذين وصفهم الله بماوصفهم به في آيات كثيرة جدا من القرآن ، والذين مضوا في العناد والجحود الى غير غاية ، فأنزل الله هذه الآية من سورة البقرة :

« قَدْ نَرى تَقَلُّب وجْهِكَ في السَّماءِ فَلَنُولِّينكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا . فَولِّ وجْهَكَ شَطْر المسْجِد الْحرام . وحيْثُما كُنْتُمْ فَولُّوا وُجُوهكُمْ شَطْره . وإنَّ الَّذينَ أُوتُوا الْكتَابَ لَيعْلمُونَ أَنَّهُ الْحقُّ مِنْ ربِّهمْ . وما ٱللهُ بِغَافلٍ عمَّا يعْملُون»

ثم سَخِرَ الله منهم في هذه الآية من السورة نفسها :

« وَلَئِنْ أَتيتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكتَاب بِكُلِّ آية ما تَبِعُوا قِبْلَتكَ . وما أَنت بتَابِــع قِبْلَتَهُمْ . وما بعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بعْض . ولئِن اتَّبعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بعْد ما جاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ إنَّكَ إذًا لَمِنَ الظَّالِمينَ . الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الْكتَاب يَعْرفونَه كَمَا يَعْرفونَ أَبْنَاءَهمْ . وَإنَّ فَرِيقاً مِنْهمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقّ وَهمْ يَعْلَمُونَ » .

ثم بيّن بعد ذلك في نفس السورة ، أن البِرّ ليس في أن يولي الإنسان وجهه قبل المشرق والمغرب ، وإنما البر خصال أخرى فصّلها الله في هذه الآية :

« لَيْسَ البرَّ أَنْ توَلُّوا وُجُوهَكمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرب . وَلٰكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَاب

وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِين وَابنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَاب وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاة وَالْمُوفونَ بعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابرينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وأُولَئِكَ همُ الْمُتَّقونَ » .

وبعد خلوّ « المدينة » من اليهود وفتح « خيبر » و « وادي القرى » ، خفّ الجدال بين النبي وبين اليهود ، وقل ذكرهم في القرآن لانقطاع الحاجة اليه ؛ ولأن الله قد ذكرهم بما أخزاهم في الدنيا ، وبين أنه سيخزي الظالمين منهم في الآخرة .

١٦

ولم يكن أمر النصارى ظاهرا في جزيرة العرب ، وإنما كانت لهم جماعة في نجران وكان منهم أفراد متفرقون هنا وهناك في الجزيرة . فلم يكن الجدال بين النبي وبينهم متصلاً ، ولم يعنف إلا حين كان النصارى ينحرفون في مقالاتهم وما يظهرون من دينهم عن التوحيد الخالص الذي جاء به النبي ودعا اليه ، وأمر أن يقاتل الناس حتى يعلنوه فيقولوا : لا إله إلا الله ، فان قالوها عصموا منه دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان .

وقد أنزل الله من القرآن ما يصوّر النصارى أقرب الناس مودة الى المؤمنين فقال في سورة المائدة :

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنوا الْيَهودَ وَالَّذِينَ

أَشْرَكوا . وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهمْ مَودَّةً لِلَّذِينَ آمَنوا الَّذِينَ قَالوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وأَنَّهمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهمْ تَفِيض مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفوا مِنَ الْحَقِّ . يَقولونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتبْنَا مَعَ الشَاهِدِين . ومَا لَنَا لاَ نؤمِن بِاللهِ ومَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَالِحِينَ . فَأَثَابَهم اللهُ بِمَا قَالوا جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وذلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . والَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ » .

وقد قرر القرآن الكريم أن المسيح عيسى بن مريم رجل لا كالرجال ، لم يلده أبٌ ، وإنما هو كلمة الله وروح منه ألقاها الى مريم . ووصف الله تبشير الملائكة لمريم بالمسيح ومولده في سورة آل عمران وفي سورة مريم . واختصه الله بمعجزات لم يؤتها أحداً من رسله : فاختصه بإحياء الموتى ، واختصه بإبراء الأكمه والأبرص ، واختصه بأن يجعل من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً ؛ كل ذلك بإذن الله .

وأنزل عليه وعلى أصحابه مائدة من السماء كانت لهم عيداً لأولهم ولآخرهم ، واختصه قبل ذلك بتكليم الناس في المهد ، وأرسله الى بني إسرائيل يدعوهم الى الإيمان بالله وأداء حقه والخروج مما ورطوا أنفسهم فيه من السيئات والآثام ، ويخفف عنهم بعض ما امتحنوا به من الأعباء الثقال . ولكن اليهود كذبوه وآذوه وهموا بصلبه وقتله ، فلم يصلبوه ولم يقتلوه وإنما شبّه لهم ورفعه الله اليه وطهره من الذين كفروا .

وكان مما غضب الله به على اليهود قذفهم لمريم وقولهم عليها بهتانا عظيما،

وزعمهم أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ؛ وما كان لكلمة الله أن تقتل ، وما كان لروح من الله أن يصلب . وقد ذكر الله ذلك في الآيات الكريمة في سورة النساء :

« وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً . بَل رَفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيماً . وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا » .

وقد شدّد الله النكير على النصارى في شيئين خطيرين :

أحدهما ، تأليههم للمسيح وعبادته وذلك في قوله من سورة المائدة :

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

وقوله في السورة نفسها :

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ.

وقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي ورَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ ومَأْوَاهُ النَّارُ ومَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » .

وهو في هذه الآية يبرىء المسيح من عبادة النصارى إيّاه ، ويقرر أن المسيح لم يدع بني اسرائيل إلا الى عبادة الله ربه وربهم وأنه نهاهم عن الشرك .

وهو في آية أخرى من السورة نفسها يقرر هذا ولكن في صراحة لا تدع الى الشك سبيلا وذلك حيث يقول :

« وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ . قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ . مَاقُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُم ، وكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ » .

الأمر الثاني الذي أنكره الله على النصارى أشد الانكار تثليث المثلّثين منهم وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة . وذلك في الآيات من سورة المائدة :

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ إِلٰهٌ واحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلاَ يَتوبُونَ إِلَى ٱللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وٱللهُ غَفورٌ رَحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وأُمُّه صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ٱنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ ٱنْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » .

ولم يكن بين النبي والنصارى جدال – فيما نعلم – إلا ما كان بينه وبين نصارى نجران حين وفد عليه بعضهم . وعسى أن يكون الله عز وجل قد أشار الى هذا الجدال في سورة آل عمران حين قرر أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون . يريد عز وجل وهو أعلم بما يريد أن ليس في مولد عيسى دون أن يكون له أب شيء من غرابة ، فالله قد خلق آدم من تراب ثم قال له : كن فكان . لم يكن له أب ولم تكن له أم فمن خلق إنسانا لغير أب وأم قادر على أن يخلق إنسانا ليس له أب .

ثم قال – عز من قائل – يأمر نبيه بمباهلة الذين يجادلونه في ذلك ويصف طريق المباهلة :

« فَمَنْ حَاجَّكَ فيه مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وأَبْنَاءَكُم ونِسَاءَنَا ونساءَكُمْ وأَنْفُسَنَا وأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ ٱللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ ٱلحقُّ ومَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا ٱللهُ وإِنَّ ٱللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيم . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ » .

ثم أمره أن يدعو أهل الكتاب من النصارى واليهود الى كلمة سواء بين المسلمين وبينهم وهي : ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئا ، ولا يتخذ بعضهم بعضا أرباباً من دون الله . وأمره إن أبوا أن يجيبوا الى هذه الدعوة أن يُشهدهم على أنه هو وأصحابه مسلمون ، قد أخلصوا دينهم لله وحده . وذلك حيث يقول :

« قُلْ يـٰأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ولاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ولاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون »

وكأن النصارى حاجوا النبي في إبراهيم ، كما كان اليهود يحاجونه فيه فقال الله :

« يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ومَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ والْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ هَاأَنْتُمْ هؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فيما لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وٱللَّهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا ولا نصْرانيًّا ولكن كَانَ حنيفاً مُسْلماً وما كَانَ مِنْ الْمُشْرِكينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهيم لَلذين اتبعُوه وهَذَا النَّبِيُّ والَّذينَ آمنُوا واللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمنين ».

ويقول الرواة : إن النصارى من أهل نجران نكلوا عن المباهلة التي دعاهم اليها النبي عن أمر الله ، وعادوا الى بلادهم كما أقبلوا منها دون أن يعطوه الرضى من أنفسهم . ولم تكن بين النبي وبين النصارى في جزيرة العرب حرب ، وإنما تسامع المسلمون العرب ذات يوم بأن نصارى العرب في مشارف الشام يتهيأون لغزو المسلمين في المدينة . يدل على ذلك ما تحدث به عمر — رحمه الله —

حين اعتزل النبي نساءه — من أن صاحباً له من الأنصار جاءه بليل فطرق عليه الباب . فلما خرج اليه أنبأه الأنصاري بأن قد حدث شيء عظيم . قال عمر : أوَجاء الغساني ؟ وكانوا قد تسامعوا بأن غسان تتهيأ لغزوهم . قال الأنصاري : لا ، بل حدث أعظم من ذلك . ثم مضى عمر في حديثه .

فهذا يدل على أن أهل الشام من نصارى العرب قد أكبروا ما بلغهم عن النبي وانتشار أمره في الجزيرة بالسلم حيناً وبالحرب حينا آخر ، فهمّوا بغزوه كراهية أن ينشأ في جزيرة العرب ملك منظم يصبح خطراً على حدود الإمبراطورية البيزنطية . وهذا في أكبر الظن هو الذي حمل النبي على أن يرسل جيشا الى « موتة » على حدود الشام والجزيرة العربية ، وهي الموقعة التي امتُحن فيها المسلمون وقتل فيها ثلاثة من أصحاب اللواء . وكادت الكارثة أن تكون أخطر من ذلك لولا براعة خالد بن الوليد — رحمه الله — حين أخذ اللواء وانحاز بالمسلمين حتى أمنوا . وعسى أن يكون هذا أيضا وما انتهت اليه موقعة « موتة » هو الذي حمل النبي أن يغزو غزوة « تبوك » التي فصل الله ذكر ظروفها في سورة التوبة كما سترى .

١٧

وكان أمر النبي مع المنافقين معقّدا أشد التعقيد ، لأنه اتصل منذ هاجر النبي الى المدينة الى أن آثره الله بجواره . ولأن النبي والمسلمين لقوا منه شراً أي شر وبلاء أي بلاء .

كان أمر المنافقين من جهة أيسر من أمر المشركين واليهود . فلم تكن بينهم وبين المسلمين حرب ولم تسفك بينهم دماء . ولكنه كان من جهة أخرى أشد من أمر المسلمين مع المشركين واليهود عسراً ؛ ذلك لأن المنافقين لم يصنعوا صنيع أولئك ولا صنيع هؤلاء ؛ لم يبادوا النبي وأصحابه بالكفر ، وإنما أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر ؛ ولم يبادوا النبي وأصحابه بالعداوة الصريحة ، وإنما أظهروا المودة وأضمروا البغضة والعداء . ولم يخطيء الشاعر القديم حين قال :

فإما أن تكون أخي بحق ... فأعرف منك غثي من سميني
وإلا فاتركني واتخذني ... عدواً أتقيك وتتقيني

ويوشك النفاق أن يكون أبعد من الكفر الصريح والعداء البين أثراً في إفساد حياة الناس .

وقد كان النبي والمسلمون يعرفون من كفر المشركين واليهود وعدائهم ، ومن كيدهم لهم ومكرهم بهم ما يضطرهم الى أن يحتاطوا لدينهم ولأنفسهم من أولئك وهؤلاء . وكانوا جديرين ألا يعرفوا من بغض المنافقين لهم شيئا لولا أن خبر السماء كان يأتي النبي حين ينزل القرآن بما في قلوب المنافقين من حقد عليهم وبغض لهم . وكان النبي مع ذلك قد أمر أن يقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ؛ فاذا قالوها عصموا منه دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله كما روينا آنفاً . وكان المنافقون يقولون : لا إله إلا الله فيعصمون دماءهم وأموالهم من النبي والمسلمين ولا يجعلون لهم على أنفسهم سبيلا ؛ ثم يستخفون بكفرهم وجحودهم . ولو قد اكتفوا بإخفاء الكفر والجحود بعد أن أظهروا الإسلام ثم لم يزيدوا على ذلك لكان أمرهم هيناً يسيراً ؛ ولكنهم يضيفون الى الكفر والجحود استهزاءهم بالنبي والمسلمين حين يخلو بعضهم الى بعض ، وإصرارهم على الكيد للنبي والمسلمين ، وتوليهم للمشركين واليهود دون النبي والذين اتبعوه ، وإطلاقهم كلمة السوء في النبي والذين آمنوا معه كلما أتيح لهم إطلاقها ، وكان الحسد مصدر هذا كله فيما يظهر .

فلم تكن كلمة العرب في المدينة مؤتلفة قبل هجرة النبي ، وإنما كانوا فئتين مختصمتين أشد الاختصام : كانوا قبيلتين عربيتين تنتسبان الى أصل يمني قحطاني ، وتشتد المنافسة بينهما حتى تثير الخصومة دائماً وتثير الحرب أحيانا.
وقد احتربت القبيلتان — الأوس والخزرج — في آخر العصر الجاهلي حرباً متصلة مضنية . وكانتا جديرتين أن تستأنفا حربهما لولا أن هداهما الله الى الإسلام بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فألغى ما كان بينهما من خصومة وكف أيدي بعضهم عن بعض . وكان من إحدى القبيلتين — وهي الأوس — رجل

قد عظم شأنه وارتفعت مكانته في قومه حتى كادوا يتوجونه ملكا عليهم . فلما جاء الإسلام وهاجر النبي وأصحابه الى يثرب سقط أمر هذا الرجل وأصبح كغيره من أهل المدينة رجلا من الأوس وضاعت آماله وضاعت كذلك آمال أتباعه فيه . فليس غريبا أن يضيق هذا الرجل « عبد الله بن أبيّ بن سلول » والذين اتبعوه بمقدم النبي الى المدينة وانتشار الإسلام فيها ، وانصراف المسلمين من الأوس والخزرج عن التفكير في الملك وفيمن يصير الملك اليه ، الى التفكير في الإسلام والنبوة ، والى الإستجابة للنبي في كل ما يدعوهم اليه ويأمرهم به والإنتهاء عما كان ينهاهم عنه ويخوفهم منه .

وليس غريباً أن يمتلىء قلب هذا الرجل والذين لاذوا به حقداً وحسداً للنبي ومن جاء معه من المهاجرين ، ومن اتبعه من الأنصار من الأوس والخزرج جميعاً

وليس غريبا — حين ظهرالإسلام في المدينة وفشا في أهلها — أن يضطر هؤلاء الناس الى أن يسلموا فيمن آسلم ، لم يكونوا يستطيعون مقاومة لأن الإسلام كان قد دخل في كل دار من دور الأوس والخزرج ، ولم يكونوا يستطيعون أن يخرجوا من المدينة ويتركوها للدين الجديد ومن جاء به . تمنعهم من ذلك مصالحهم وأموالهم ، وتمنعهم من ذلك كبرياؤهم أيضاً . ولم يكونوا آخر الأمر يستطيعون أن يظلوا كفاراً وأن يجاهروا بذلك ، فيجعلوا للنبي وأصحابه سبيلا على أنفسهم وأموالهم . لم يشرح الله صدورهم للإسلام ولم يجرأوا على أن يظهروا الكفر ، فعاشوا مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، كما وصفهم الله في الآية الكريمة من سورة النساء .

شقوا بنفاقهم هذا وآذوا به المسلمين إيذاء متصلا مختلفاً . كانوا خطراً في أيام السلم يعرف النبي والمسلمون إسلامهم بأطراف ألسنتهم وكفرهم في أعماق قلوبهم . ثم يرون منهم ويسمعون ما يكرهون في أوقات كثيرة ولا يستطيعون أن يعرضوا لهم بسوء لأن الله لم يسلطهم عليهم ، بل عصمهم منهم بكلمة التوحيد التي تنطلق بها ألسنتهم وتغلق من دونها قلوبهم . وكان أحدهم ربما غلب عليه كفره وبغضه فأظهر من القول والعمل ما كان جديراً أن يحل دمه ،

ولكن النبي كان يسرع الى العفو عن هذه الهفوات على خطورتها . كالذي كان — حين أعلن عبد الله بن أبي بن سلول في غزوة بني المصطلق —من تلك الكلمة التي ذكرها الله في القرآن حين قال :

« لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ » ، يريد مباداة المسلمين بالحرب إذا عادوا الى المدينة وما يتبع ذلك من الاستعانة عليهم بأوليائه من الكفار .

وقد بلغت هذه الكلمة النبي صلى الله عليه وسلم واستأذنه عمر في قتل هذا الرجل ، لأنه أحل دمه حين أعلن في صراحة عداوته للمسلمين وإزماعه على أن ينصب لهم الحرب اذا عادوا الى المدينة ، ولكن النبي أبى على « عمر » ، وكره أن يتحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان .

وقد وصف الله المنافقين واشتد عليهم في غير سورة من القرآن ، ففضح أمرهم كله وأظهر دخيلة نفوسهم في الآيات الكريمة من سورة البقرة وذلك حيث يقول :

« ومنَ النَّاس من يقُولُ آمنَّا بِالله وبِالْيوْمِ الاخر وما هُم بِمُؤْمنينَ . يُخادعُون الله والَّذينَ آمنُوا وما يخدعُونَ إلَّا أَنفُسَهُمْ وما يشعُرُون . في قُلُوبِهمْ مرضٌ فَزادهُمُ ٱللهُ مرضاً ولَهُمْ عذَابٌ أَليمٌ بِما كَانُوا يكذبُون » .

ثم يصف عنادهم وما ملأ قلوبهم من الكبرياء والغرور فيقول :

« وإِذَا قيلَ لَهُمْ لا تُفسدُوا فِي الأَرْض قَالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلحُون. أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ المُفسدُونَ ولَكن لا يشعُرُون وإِذَا قيلَ لَهُمْ آمنُوا كَما آمن النَّاسُ . قَالُوا : أَنُؤْمنُ

كَما آمنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ ولَكن لا يعْلَمُون ».

ثم يصف ذلة نفوسهم واضطرارهم الى المخادعة وإباءهم بأن يعترفوا بهذه المخادعة ؛ فيقول :

« وإذَا لَقُوا الَّذينَ آمنُوا قَالُوا آمنَّا وإذَا خَلَوْا إلَى شَياطِينِهِمْ قَالُوا إنَّا معكُم إنَّما نَحْنُ مُسْتَهزئُونَ . اللهُ يسْتَهزِئُ بِهِمْ ويمُدُّهُم فِي طُغيانهمْ يعْمهُون » .

ثم يشبههم بأصحاب التجارة الذين يبذلون أغلى الأثمان وأنفسها ليشتروا بها أخس المتاع وأشده عليهم وبالا ثم يعودون بعد ذلك بالخسران ؛ فيقول :

« أُولَئكَ الَّذينَ اشتَرُوا الضَّلاَلَةَ بالهُدى فَما ربحتْ تجارتُهُمْ وما كَانُوا مُهتَدين » .

ثم يصورهم أروع تصوير وأبرعه حين يمثلهم مرة بالذي يبذل الجهد ويجد كل الجد ليستوقد النار ، فاذا اضطرمت وارتفع لهبها وأضاءت ما حوله وحول أصحابه ، ذهب الله بما أتيح لهم من نور وتركهم في ظلمات لا يبصرون فيقول :

« مثَلُهُم كَمثَل الَّذي اسْتَوْقَد نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَت ما حوْلَهُ ذَهَب اللهُ بِنورِهِمْ وتَركَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصرُون. صُمٌّ بُكمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يرْجِعُون » .

ثم يصور حيرتهم واضطرابهم بين الخوف والأمن ، وبين اليأس والأمل فيضرب لهم مثلا قوماً أدركهم صَيِّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، فهم وَجِلون ، قد ملأ الخوف قلوبهم ، وخيل اليهم أنهم يرون الموت ، فهم يضعون أصابعهم في آذانهم إشفاقا من الرعد والصواعق وحذرا من الموت .

وهم يرون البرق يضيء ما حولهم فيمشون في ضوئه . فاذا انقطع البرق وعادت الظلمة قاموا في أماكنهم لا يدرون أين يذهبون ؛ فيقول :

« أَوْ كصيِّبٍ منَ السَّماءِ فيه ظُلُماتٌ ورعْدٌ وبرْقٌ يجْعلُونَ أَصابِعهُمْ فِي آذَانِهِم منَ الصَّواعقِ حذَر الموْت واللهُ مُحيطٌ بالكافرين.يكَادُ البرْقُ يخطَفُ أَبْصارهُمْ ، كلَّما أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوا فيه وإِذا اظلَم علَيْهِمْ قَامُوا ولوْ شاءَ اللهُ لَذهب بِسمْعهِمْ و أَبْصَارهمْ إِنَّ اللهَ علَى كُلِّ شيءٍ قَدير » .

وذكرهم الله في سورة النساء فصور ترددهم بين الإيمان والكفر ، فهم يؤمنون ثم يكفرون ثم يرجعون الى الإيمان ، ثم يعودون الى الكفر ، ثم يزدادون كفرا ، قد ملكت عليهم الحيرة أمرهم ، فهم لا يعرفون أي طريق يسلكون .

وذكر توليهم للكافرين من دون المؤمنين كيداً لهؤلاء والتماسا للعزة عند الكافرين .

وذكر أنهم اذا قاموا للصلاة قاموا كسالى لأن صلاتهم ليست صلاة صدق وإنما صلاة خداع ورياء ،فهم يراؤون الناس ليكفوا أيدي المسلمين عنهم ، وهم يخادعون الله والله خادعهم ، وهم مذبذبون بين الإيمان والكفر . ليسوا مع المؤمنين تأبى عليهم ذلك قلوبهم المدخولة وليسوا مع الكافرين صراحة يخافون أن يجعلوا للمؤمنين عليهم سبيلا وهم يحاولون أن ينتفعوا بذبذبتهم هذه . فاذا أتيح النصر للمؤمنين قالوا : ألم نكن معكم ؟ لينتفعوا بثمرة الفتح ، وإن يكن شيء من النصر للكافرين قالوا : ألم نحطكم ونحمكم من المؤمنين ؟ يريدن أن ينتفعوا من انتصار الكفار . وهم يستهزئون بآيات الله اذا خلوا إلى أنفسهم ، والله يحذر المؤمنين إن سمعوا بعض هذا الاستهزاء أن يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره حتى لا يكونوا مثلهم ، ولا يلقوا مثل ما يلقى المنافقون من

العذاب ، لأن الله سيجمع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا .

والله يأمر نبيه أن يبشر المنافقين بالعذاب الأليم ، ويعلن أنهم في الدرك الأسفل من النار ، وأنهم لن يجدوا من ينصرهم أو يرد عنهم هذا العذاب.

والله يقول في هذا كله :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثم كَفَرُوا ثُمَّ ٱزدَادُوا كُفرًا لمْ يَكُنِ ٱللهُ ليغفِرَ لَهُمْ ولاَ لِيَهديَهُمْ سَبيلاً. بشِّرالمُنَافقين بِأَنَّ لَهُمْ عذَاباً أليماً . الَّذينَ يَتَّخِذُونَ الكَافرِين أَوْلياءَ من دُون المُؤْمنينَ أيبْتَغُونَ عِنْدَهُم العزة فَإِنَّ العزَة لله جَميعاً . وقَدْ نزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكتَاب أن إِذَا سَمعْتُمْ آيَات الله يُكْفَرُ بِهَا ويُسْتَهزأُ بهَا فَلاَ تَقعُدُوا معَهم حَتَّى يخوضُوا فِي حَديثٍ غَيْره إنَّكُم إذًا مِثلُهُمْ إنَّ اللهَ جامِعُ المُنَافقينَ والكَافرِين فِي جهَنَّم جميعاً. الَّذينَ يتَربَّصُونَ بكُمْ فَإِن كَانَ لَكمْ فَتحٌ منَ الله قَالوا أَلَمْ نكن معكمْ ، وإن كَانَ للكَافرِينَ نَصيبٌ قَالوا أَلَمْ نَسْتَحْوذْ علَيْكمْ ونمْنَعكم منَ المُؤْمنين ، فَاللهُ يحْكِم بيْنَكم يوْم القيامة ،ولن يجْعل اللهُ للكَافرِينَ علَى المُؤْمنينَ سبيلا . إِنَّ المُنَافقينَ يُخَادعُونَ اللهوهو خَادعُهم وإِذَا قَامُوا إِلَى الصلاة قامُوا كسالَى يُراءُونَ النَّاس ولاَ يذكرُونَ الله إلَّا قَليلا. مُذَبْذَبِينَ بيْنَ ذَلكلا إِلَى هَؤُلاءِ ولا إِلَى هَؤُلاءِ ،

ومن يُضلل اللهُ فلَن تَجِد لهُ سبيلا . يـأَيُّهَا الَّذينَ آمنوا لا تَتَّخذوا الكَافرِينَ أَوْلياءَ من دُون المُؤْمنين أَتريدُونَ أَن تجْعلوا لله علَيْكمْ سُلطَاناً مُبِيناً . إنَّ المُنَافقين فِي الدَّرْك الأَسْفل منَ النَّار ولن تجِد لهمْ نصيرا . إلا الذين تابوا واصْلحُوا واعْتَصمُوا بِالله وأَخلَصُوا دينَهمْ لله فَأُولَئك مع المُؤْمنين وسوْف يُؤْتِي اللهُ المُؤْمنينَ أَجْرًا عظيماً . ما يفعل اللهُ بِعذَابكم إن شَكَرْتمْ وآمنتمْ وكَانَ اللهُ شَاكراً عليماً » .

فانظر كيف ذكر أمرهم على هذه الصورة من النكر والبشاعة ومن الكفر والغدر ، وكيف أنذرهم هذا النذير الشديد بالعذاب الأليم وبأنهم في الدرك الأسفل من النار لا يجدون لهم نصيراً . ثم عاد بعد هذا الوصف القوي الموئس ، ففتح باب الأمل أمامهم وأعلن أن من تاب منهم وأصلح واعتصم بالله وأخلص له دينه فهوٌلاء مع المؤمنين ، والله يعد المؤمنين أجراً عظيما .

وكذلك القرآن يشدد النكير على المنافقين وعلى الذين يقترفون الآثام ويجترحون الكبائر حتى يشرف بهم على اليأس . ثم يفتح لهم بعد ذلك أبواب الأمل واسعة ، ويجعل التوبة الخالصة الصادقة النصوح سبيلهم الى الأمل في النجاة ، بل في أكثر من النجاة في الاستمتاع بما أعد الله للمؤمنين الصادقين الناصحين من النعيم .

كان المنافقون إذن خطراً أيام السلم ، وكانوا أشد خطورة أيام الحرب ؛ فهم كانوا أضعف إيمانا بالله والرسول والدين من أن يقاتلوا العدو على بصيرة اذا لقوه وأن يثبتوا له اذا أغار عليهم في المدينة ، وهم كانوا يظهرون هذا

الضعف ولا يخفونه ، وكانوا حين يجد الجد لا يجدون حرجاً ولا حياء في أن يظهروا الجبن ، وما يستتبع الجبن من انخلاع القلوب واضطراب النفوس ، وضمور العزائم وفتور الهمم ، وانهيار الصبر على المقاومة .

وهم كانوا بذلك ينشرون الخوف ، ويشيعون الذعر بين ذوي قرباهم وجوارهم من المسلمين ، وأي شر في أوقات الحرب أعظم خطراً من انقسام الجيش المحارب أمام العدو ، وفي أوقات الحصار خاصة الى فريقين : فريق يستقبل العدو في ثقة بالله وإيمان بوعده ، وفريق آخر يظهر الجبن ويحتال للفرار ما وجد الى الفرار سبيلا ، ثم يشكك في عواقب الحرب ويملأ قلوب المدنيين فرقاً وخوفاً ؟!

وكذلك صنع المنافقون في غزوة الأحزاب ، خرجوا مع النبي وأصحابه لمواجهة العدو ، فلما رأوا كثرته وما ظهر من قوته وبأسه ، ورأوا أن المشركين لا يأتون المدينة من قبل مكة فحسب ، وإنما يأتونها من مكة ومن نجد ، يأتونها من فوقها ومن أسفل منها ، انخلعت قلوبهم وأخذ الرعب منهم كل مأخذ ، وملك عليهم الهلع أمرهم كله حتى منعهم من الاحتياط في القول والعمل ، فقال بعضهم — كما نقرأ في سورة الأحزاب :

« ما وعدنَا اللهُ ورسُولهُ إلَّا غرُورًا »

يذيعون الشك ويثبطون الهمم . وقال بعضهم :

« يَـأَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَـارْجَعُوا » ،

يغرون المسلمين بالفرار . وترك النبي وحده مع المهاجرين تجاه العدو . ثم لم يكتفوا بما قالوا ، وإنما أقبل بعضهم على النبي يستأذنونه في الرجوع ، ويعتلون بأن بيوتهم عورة مكشوفة للعدو . ويظهر الله جلية أمرهم فيرد عليهم معاذيرهم بقوله :

« وما هي بِعوْرةٍ إن يُرِيدُونَ إلَّا فرارًا » .

ثم يفضح الله ما انطوت عليه قلوبهم من الكيد والغش والاستعداد لإجابة العدو ولما يريد ، فيقول :

« ولَوْ دُخلَت علَيْهم من أَقطَارِهَا ثمَّ سُئلوا الفتنَة لأَتَوْهَا وما تَلبَّثوا بِهَا إلَّا يسيرًا »

وينبئهم الله بأنهم لم يريدوا أن يفروا وحدهم ، وإنما أغروا غيرهم بالفرار ، ولم ينتظروا مقدم العدو لأظهار الجبن والفرق والكيد معاً ، وذلك حيث يقول من سورة الأحزاب أيضاً :

« قَدْ يعْلَمُ الله المُعوِّقينَ منكمْ والقَائلينَ لإخوانهِمْ هَلَّم إليْنا ولاَ يأْتونَ البأْس إلَّا قَليلا » .

وما أعرف أن الجبن والمكر معاً وصفا بمثل ما وصفهما الله في القرآن حيث يقول في المنافقين في سورة الأحزاب :

« أَشحةً علَيْكمُ فَإذَا جاءَ الخَوْفُ رأَيْتَهم ينظرُونَ إلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنهمْ كَالَّذي يُغشَى علَيْه منَ الموْت فَإذَا ذَهَب الخَوْفُ سلقوكم بِأَلْسنَة حداد . أَشحَّةً علَى الخَيْر أُولَئكَ لمْ يُؤْمنوا فَأَحْبطَ اللهُ أَعمالَهمْ وكَانَ ذَلكَ علَى اللهِ يسيرًا » .

فانظر اليهم ، بخلاء بالنصر والتأييد على المؤمنين ، جبناء يُذهب الخوف – اذا جاء – نفوسهم وعقولهم وأفئدتهم ، فهم ينظرون الى النبي تدور أعينهم كالذي تأخذه غشية الموت قبل أن يأتيه الموت . ثم أنظر اليهم ماكرين بالمؤمنين كائدين لهم ، قد ملأت البغضاء قلوبهم فأطلقوا في المسلمين ألسنتهم حداداً بمقالة السوء في النبي وفي المؤمنين ، حين يذهب الخوف ويعود الأمن .

وصوّر الله في سورة الأحزاب أيضا إفراط المنافقين في الجبن وإغراقهم في الفَرَق . فقد انصرف الأحزاب عن المدينة ، ولكن خوف المنافقين يخيل اليهم أنهم ما زالوا محاصرين للمدينة ، وهم من أجل ذلك وَجِلون . ثم ينبيء الله نبيه والمؤمنين بأن الخوف قد ملأ قلوب هؤلاء المنافقين أن جعلهم يشفقون من الأحزاب حتى بعد انصرافهم ، يخافون أن يعيدوا الكرة ولو قد فعلوا لود المنافقون لو أنهم تركوا المدينة وعاشوا مع الأعراب في باديتهم ، لا يرون ما يكون بين المؤمنين وبين الأحزاب من حرب ، ولا يرون عواقب هذه الحرب ، وإنما يسألون عن أنباء المؤمنين وهم بعيدون عنهم في باديتهم تلك ، قد أمنوا أن يمسهم من شر الحرب كثير أو قليل .

وقد ظهرت نيات المنافقين كأبشع ما كانت حين همّ النبي بغزوة تبوك ، ووصف الله نياتهم هذه وقلوبهم وأعمالهم في روعة أي روعة ، وتفصيل أي تفصيل ، واشتد عليهم كل الشدة من أجل نياتهم وقلوبهم وأعمالهم في أكثر سورة التوبة .

وكانت غزوة تبوك مصدر محنة عامة للمنافقين جميعا ، لفريق من المؤمنين أيضا . ذلك أن النبي أخذ يتجهز لها في وقت لم يكن أشد على الناس فيه من ترك المدينة والمضي الى الحرب ، والى الحرب في مكان بعيد .

كان ذلك في أشد الصيف حين يشتد القيظ على المقيمين ، فكيف بالمسافرين ؟ وحين تنضج الثمار ويود الناس لو فرغوا لاجتنائها . وكان ذلك في وقت عسرة قل فيه المال واشتدت فيه الحاجة اليه . فهذه الحرب البعيدة التي لا تعرف عواقبها ، والتي لا تحمل الى قبيلة من قبائل الأعراب قريبا من المدينة ، وإنما تحمل الى عرب الشام في حدود الجزيرة العربية .

كل هذا كان يحتاج الى النفقة الكثيرة ، وكان يكلف المسلمين أن يجاهدوا بأنفسهم وأموالهم وأن ينفقوا على هذه الحرب عن سعة ، ومن أجل هذا دعي المسلمون الى الإنفاق ودعوا الى الجهاد بأنفسهم ؛ فأما الذين صدقوا ما عاهدوا لله عليه فأجابوا الى ما دعوا اليه ، وأبلى عثمان في الإنفاق على هذه الحرب

أحسن البلاء . وتجهز المؤمنون الصادقون للحرب ، وأعانوا من احتاج منهم الى المعونة . وجاءت جماعة من المؤمنين الى النبي متطوعين للجهاد ، ولكنهم لا يجدون النفقة . فأقبلوا يسألونه أن يحملهم وأجابهم النبي بأنه لا يجد ما يحملهم عليه . فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون كما ذكر الله في سورة التوبة .

ومن أجل هذا كله شدد الله على المؤمنين في أن ينفروا مع النبي ، ولامهم فيما أظهر بعضهم من الفتور والتثاقل فقال :

« يٰأَيُّهَا الَّذينَ آمنوا ما لَكم إِذَا قيلَ لَكمُ ٱنفرُوا فِي سبيل الله اثَّاقَلتمْ إِلَى الأَرْضِ أَرضيتمْ بالحياة الدُّنيا منَ الآخرة فَما متَاع الحياة الدُّنيا فِي الآخرة إِلَّا قَليل . إِلَّا تَنفرُوا يُعذِّبكمْ عذَاباً أَليماً ويسْتَبْدلْ قَوْماً غَيْركمْ ولاَ تَضرُّوهُ شَيْئاً واللهُ علَى كلِّ شَيءٍ قَدير . إِلَّا تنصُرُوهَ فَقَدْ نَصرهُ اللهُ إذ أَخرجهُ ٱلَّذينَ كَفرُوا ثاني ٱثنيْنِ إذ هما فِي الْغارِ إذ يقولُ لصاحبه لا تحْزن إِنَّ الله معنا . فأَنزل الله سكينَتَهُ علَيْه وأَيَّدهُ بِجُنودٍ لمْ تَرُوهَا وجعَلَ كَلمةَ الَّذين كَفَرُوا السُّفلَى وكَلمةُ الله هي العُليا وٱللهُ عزيزٌ حكيم . انفرُوا خفافاً وثقَالاً وجاهَدُوا بأَمْوالكمْ وأَنفسكمْ فِي سبِيل ٱلله ذَلكم خَيْرٌ لَكمْ إِن كنتمْ تَعْلَمُون » .

فاذا كان الجهاد قد ثقل على المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا دينهم لله ، وآثروا رسول الله على أنفسهم فهو على المنافقين أشد ثقلا .

والمنافقون لا يجاهدون ابتغاء مرضاة الله ، لأن قلوبهم لم تؤمن به ؛ ولا يجاهدون إيثاراً للنبي على أنفسهم ، لأنهم لم يحبوا النبي ولم يخلصوا له ؛ وإنما يجاهدون إن جاهدوا ابتغاء للغنيمة واتقاء لعاقبة القعود . ولذلك قال الله فيهم :

« لَوْ كَانَ عرضاً قَرِيباً وسفَرًا قَاصدًا لاَتَّبعوكَ ولٰكن بعدت علَيْهِم الشُّقَة وسيحْلفونَ بِاللهِ لَوْ ٱسْتَطَعْنَا لخَرجْنَا معكمْ يُهلكونَ أَنفسهمْ وٱللهُ يعْلَمُ إِنَّهمْ لَكَاذبُونَ » .

فهم إذن كارهون للخروج يؤثرون الراحة والأمن وإحراز أموالهم وهم يحلفون للنبي والمؤمنين لو استطاعوا لخرجوا معهم ولكن الله ينبئ نبيه بأنه يعلم أنهم كاذبون ، وأنهم لو صح إيمانهم لم يستأذنوا . وقد أذن النبي لهم في القعود ، فعفا الله عنه ، وسأله في شيء من العتاب :

« لم أَذنتَ لَهمْ حتى يتَبينَ لكَ الَّذينَ صدقوا وتَعْلَم الكَاذبِينَ » .

ثم بين له أن المؤمنين لا يستأذنون وإنما ينفرون للجهاد إذا دعوا إليه ، وأن الذين لم يصحّ إيمانهم هم الذين يتكلفون الإذن يتخذونه تعلة لقعودهم عن الجهاد .

ويبين الله كذب المنافقين حين زعموا أنهم كانوا يودون لو يخرجون مع النبي وأصحابه ، ولكنهم لا يستطيعون الخروج . فهم لم يتهيأوا للخروج ولم يحاولوا أن يعدوا له عدة ، وإنما كانوا مزمعين على القعود حين دعوا ، ولم يكن استئذانهم واعتذارهم إلا تكلفاً . ومع ذلك فقد كان الله كارهاً لخروجهم فثبطهم وحبب إليهم التخلف ، لأنه كان يعلم من أمرهم ما يخفى على المؤمنين . كان يعلم أنهم لو خرجوا مع المؤمنين لأفسدوا عليهم أمرهم بالغش والكيد والخيانة ولسعوا بينهم بالفتنة ، يحرجون صدور بعضهم على بعض ، ومن المؤمنين من كان يسمع لهم لمكانهم من قومهم .

وقد عرف الله وعرف النبي والمؤمنون ما كان من أمرهم قبل هذه الغزوة ، وكيف كانوا يكيدون للنبي وأصحابه . وكيف كانوا يقلبون الأمور ابتغاء للإساءة إليهم والإيقاع بهم ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . وفي ذلك يقول الله عز وجل :

« ولَوْ أَرَادُوا الخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ولٰكِنْ كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ القَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ولأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ واللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . لَقَدِ ٱبْتَغَوُا الفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وهُمْ كَارِهُونَ » .

ويمضي القرآن في تعديد سيئاتهم وآثامهم ، حتى ينبئ النبي بأن منهم من يلمزه في الصدقات إذا لم ينله حظ منها ، فيقول :

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ ورسولُهُ وقالوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى ٱللَّهِ رَاغِبُونَ» .

ويبين الله بعد ذلك أن ما يجتمع للنبي من الزكاة لا ينبغي أن يعطى للأغنياء الذين لا يحتاجون إليه ، وإنما يوضع في المواضع التي بينت في القرآن ، فينفق منه على الفقراء والمساكين والذين يعملون على جمعها وإحصائها والذين يريد النبي أن يتألف قلوبهم ، وعلى تحرير الرقيق الذين يسلمون ولا يجدون ما يشترون به حريتهم من سادتهم . وعلى الذين تقع عليهم المغارم فلا يستطيعون النهوض بها ، وتنفق على الجهاد في سبيل الله ، وعلى الذين تتقطع بهم الطريق من أبناء السبيل ،

فأما القارون في المدينة العاملون في أموالهم والمنتفعون بثمراتها فليس لهم من الصدقات حظ .

وقد كان النبي يضع الصدقات في المواضع التي بينها الله ولا يعطي منها الأغنياء والقادرين على أن يكسبوا ما يغنيهم عن المسألة . فأما المؤمنون الصادقون فيرضون عن ذلك ويرون أنه الحق ، ويستعفون عما يعلمون أن غيرهم أشد حاجة إليه ، وأما المنافقون الذين في قلوبهم مرض فكانوا يرون أن ما يجتمع للنبي من الصدقات مال وأن لهم فيه نصيباً .

وكانوا من أجل ذلك يلمزون النبي في هذه الصدقات . وكانوا كذلك يلمزون المتطوعين فيها من الاغنياء ، يقولون : إن صدقتهم رياء ؛ ومن الفقراء ، يقولون أن الله غني عما تصدقوا به .

وفضح الله في القرآن هذا كله من أمرهم . وفضح من أمرهم شيئاً آخر وهو أن منهم من كانوا يؤذون النبي ، ويقولون هو أذن أي يسمع لما ينقل إليه . ورد الله عليهم ذلك بأن النبي أذُن خيرلهم ، ثم أنذرهم بأن الذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم .

فقال :

« وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ . وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

وبعد أن أحصى الله من سوء أعمالهم وفضح من ذات نفوسهم ما تستطيع أن تقرأه فيما بعد هذه الآية من سورة التوبة ؛ أظهر من غضبه عليهم شيئا عظيما فقال :

«ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ . إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرّةً فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللهُ لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ ورَسُولِهِ . واللهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ » .

ويقول المحدثون – وفيهم الشيخان – إن عبد الله بن أبي بن سلول لما مات جاء ابنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنبأه بموته وسأله الصلاة عليه . فأجابه النبي إلى ما سأل . وكان عمر حاضراً فراجع النبي في ذلك وذكر هذه الآية . فقال النبي : إن ربي خيرني واختار الصلاة عليه ، فأنزل الله بعد ذلك نهيه عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم فقال :

« ولاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ولا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إنَّهُمْ كَفَرُوا باللهِ ورَسُولِهِ ومَاتُوا وهُمْ فَاسِقُون » .

ثم نهى الله نبيه عن أن يقبل منهم عذراً بعد عودته إلى المدينة وبعد أن بين الله له من أمرهم ما بين :

« يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ . قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُم قَدْ نَبَّأَنَا ٱللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وسَيَرَى ٱللهُ عَمَلَكُمْ ورَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

ونهى الله نبيه كذلك عن إخراجهم معه وإشراكهم في قتال العدو . فقال :

«فَإنْ رَجَعَكَ ٱللهُ إلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ولَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إنَّكُمْ

رَضِيتُمْ بالْقُعُود أَوَّلَ مَرَّة فَاقْعُدُوا مَعَ الخَالِفِين » .

وعلى ما في سورة البقرة والنساء والتوبة من وصف المنافقين وتشديد النكير عليهم والوعيد بالتغليظ عليهم في العذاب ، وصفهم الله في سورة أخرى سميت باسمهم فعرفهم أصدق تعريف .

وصف هيئتهم حين يسكتون وحين يتكلمون ، وذكر من أقوالهم وأعمالهم ما يبين في وضوح أنهم عادوا إلى جاهليتهم الأولى ، ولم ينتفعوا بالإسلام الذي قبلوه ثم كفروا به . فقال :

« إذَا جَاءَكَ المُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إنَّكَ لَرَسُولُ ٱللهِ واللهُ يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسُولُه واللهُ يَشْهَدُ إنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » .

يريد عز وجل أنهم كذبوا على النبي فيما زعموا له من إيمانهم برسالته ، لأنهم لا يؤمنون بها فيما بينهم وبين أنفسهم ، وإنما يضمرون الكفر ويستخفون به ، ويتخذون أيمانهم دريئة يتقون بها غضب النبي والمؤمنين عليهم وبطشهم بهم ، ويسترون بها كيدهم للمسلمين وصدهم عن سبيل الله كما يقول الله عز وجل :

«اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ إنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ » .

ثم وصف هيئتهم حين يرون لأول وهلة وحين يتكلمون بعد ذلك أبرع وصف ؛ فمنظرهم معجب ومخبرهم مكذب لمنظرهم . ومن أجل ذلك قال الله :

« وإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ . وإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ » .

أي لأنهم حين يتكلمون لا يصدر كلامهم عن قلوبهم وإنما هو شيء تنطق به ألسنتهم نطقاً آلياً لا يصور ذات نفوسهم . وهم إلى ذلك جبناء يرهبون كل شيء ويحسبون كل صيحة عليهم ، وهم إلى هذا كله خطرون بما يكيدون ويمكرون حين يخلون إلى أنفسهم وإلى شياطينهم ومن أجل ذلك يأمر الله نبيه أن يحذرهم .

ثم هم بعد ذلك مستكبرون . إذا دعوا إلى التوبة وإلى رسول الله ليستغفر لهم لوّوا رؤوسهم واستجابوا لكبرياء نفوسهم كما يقول الله :

« وإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِر لَكُمْ رَسُولُ ٱللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » .

وهم ينهون من يسمع لهم عن أن يعينوا النبي على نفقة من يحتاج إلى النفقة من أصحابه ، لعلهم يستيئسون منه فينفضوا عنه ، ويأمر الله نبيه أن يقول ، إن لله خزائن السماوات والأرض وهو جدير أن يغني نبيه وأصحابه عن معونتهم . وذلك حيث يقول الله:

«هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ ٱللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا . ولِلهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ ولٰكِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ » .

وكذلك كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة جهاداً كلها ، فهو يجاهد المشركين من قريش والمشركين من العرب ، ويجاهد اليهود في المدينة وخارج المدينة ، ثم يجاهد المنافقين الذين يظهرون أنهم له أولياء وليسوا من ولايته في شيء وإنما هم أولياء أعدائه من المشركين واليهود . وهو يجاهد

المنافقين بالصبر على ما يقترفون في ذاته وفي ذات المؤمنين وفي ذات الله عزوجل من السيئات والآثام وبالاحتياط لكيدهم ومكرهم وإغرائهم به وتأليبهم عليه. وهذا الجهاد المتصل المختلف كان جديراً أن يستغرق حياة النبي كلها ، وأن يشغله عن كل شيء غيره . ولكنك سترى مما يأتي في هذا الحديث أنه لم يستغرق من حياة النبي إلا بعضها بل أقلها ، وأنه أنفق سائرها ناشراً للدين ، معلماً للمؤمنين والمسلمين ، مبيناً لهم حقائق دينهم ، ومرشداً لهم إلى ما يجب عليهم وما لا ينبغي لهم في سيرتهم من خطير الأمر ويسيره .

ولا بد بعد هذا الحديث الطويل الموجز على ذلك عن المنافقين ، من أن نعود مرة أخرى إلى جهاد النبي للمشركين .

١٨

ذلك أن الهدنة التي عقدت بين النبي وقريش يوم الحديبية لم ترح النبي والمؤمنين من الجهاد . ولم تتح لهم سلماً كاملة ، قد كف الله أيدي قريش عن المؤمنين . وكف أيدي المؤمنين عن قريش بهذه الهدنة إلى حين ولكن مكر قريش ما زال كما هو ، ينبث في قبائل العرب مغرياً ومحرضاً . ونحن لم نذكر لك من الجهاد بين النبي وبين مشركي العرب من غير قريش شيئاً ، وإنما أشرنا إليه إشارة لا تصوره ولا تحققه ، لأننا لا نكتب السيرة في هذا الحديث ، وإنما نصور في إيجاز شديد ما ليس بدّ من تصويره لنعرض عليك مرآة صادقة للعصر والبيئة اللذين عاش فيهما النبي وأصحابه ، ولنشأة الإسلام وانتشاره قليلا قليلا حتى شمل جزيرة العرب كلها ، قبل أن يختار الله نبيه الكريم لجواره .

والواقع أن الجهاد بين النبي وبين المشركين من العرب كان متصلا وكان شاقاً ، كان النبي يريد أن ينشر الإسلام من جهة وكان أعداؤه المشركون يحاولون أن يمنعوه من ذلك ما استطاعوا إلى منعه سبيلا ، يغيرون على المدينة حيناً ويتهيأون للإغارة عليها حيناً آخر .

ولم يكن بد للنبي وأصحابه من أن يردوهم إن أغاروا ، ومن أن يسبقوهم

ليكفوهم إن هموا بالإغارة . وكان في أهل البادية من العرب مكر ، وكان فيهم غدر أيضاً ، وكانوا يؤثرون المال على كل شيء . وكان كيد قريش وإغراؤها يصبان عليهم في كل وقت ، يغرونهم بالمال أحياناً وبغير المال أحياناً أخرى فكان منهم من يأتي النبي يزعم أنه قد اسلم، وأن قومه من ورائه قد أسلموا ، وأنهم في حاجة إلى من يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين . فكان النبي يرسل إليهم النفر من أصحابه ، فلا يكادون يبعدون بهم عن المدينة حتى يظهروا ما أضمروا من الغدر ويوقعوا بمن أرسل النبي معهم من المسلمين . فيقتلون بعضهم ويأسرون بعضهم يتقربون بأسره إلى قريش ، ويقدمونه إليها ويأخذون جائزتهم على هذا الغدر كالذي كان من « لحيان » يوم « الرجيع » ، حين أرسل النبي معهم مفقهين لهم في الدين ، فلما بعدوا بهم عن المدينة أظهروا الغدر . فقاتلهم المسلمون حتى قتل منهم من قتل ، وأسر منهم من حملوه إلى قريش فقتلته .

ولم يحدث هذا مرة واحدة وإنما حدث غير مرة . ذلك إلى ما كان يحدث من تجمع وتهيؤ لغزو النبي . فيعلم النبي علمهم ، ويضطر إلى أن يسبقهم إلى الغزو ليوقع بهم مرة ، وليشعرهم بقوته وتأهبه ويقذف في قلوبهم الرعب مرة أخرى .

فكانت حياة النبي والمسلمين جهاداً كلها ، واضطر النبي أحياناً إلى أن يرسل السرايا ، وأحياناً أخرى إلى أن يخرج بنفسه لهذه الأغراض التي بينّاها ؛ أضف إلى ذلك أن قريشاً لم تقم على هدنتها تلك إلا قليلا ، ثم نكثت عهدها ، وأغارت على بعض حلفاء النبي من خزاعة ، فلم يكن بد من أن تعود الحرب بينها وبين النبي والمؤمنين جذعة .

وأحست قريش أن النبي قد غضب لحلفائه واعتبر الهدنة بينه وبينها منقوضة ، فأرسلت أبا سفيان إلى المدينة ليعلم علم النبي وأصحابه من جهة ، وليشد أمر الهدنة ويقويه من جهة أخرى . ولكن أبا سفيان جاء إلى المدينة وعاد إلى مكة فارغ اليدين لم يبلغ مما أراد شيئاً . وجعل النبي يتهيأ لعقاب قريش حتى كان

العام الثامن للهجرة ، فحرج النبي إلى مكة في جيش لم يجتمع له مثله من قبل قوة وكثرة عدد ، حتى إذا كان غير بعيد من مكة خرج أبو سفيان في نفر من قريش يتحسسون الأخبار . فلما رأوا نيران الجيش راعهم ما رأوا وعرفوا أن قد حاق بهم مكرهم السيء . وأخذ أبو سفيان إلى النبي ، أخذه العباس بن عبد المطلب الذي جعل ينصح له في الطريق ويحثه على الإسلام ، حتى أدخله على النبي صلى الله عليه وسلم فشهد بين يديه : لا إله إلا الله ، وأظهر التردد في الشهادة بأن محمداً رسول الله . ولكنه اضطر آخر الأمر إلى أن يعلن الشهادة. فأمّنه النبي على نفسه ، وعلى كل من دخل داره من قريش ، وعلى كل من دخل المسجد الحرام منها ، وعلى كل من لزم داره وأغلق بابه منها أيضاً .

وعاد أبو سفيان إلى قريش بهذا الأمان فلم يسعها إلا الإذعان ؛ فقوم دخلوا دار أبي سفيان ، وقوم دخلوا المسجد الحرام ، وآخرون لزموا دورهم وغلقوا أبوابهم . وأصبح النبي فدخل مكة بعد أن أمر قواده ألا يقاتلوا أحداً إلا من عرض لهم بسوء. ولم يخالف عن هذا الأمر من القواد إلا خالد بن الوليد — رحمه الله — كان فيه شيء من عنف ، فأعمل السيف فيمن لقيه ، ورُفعَ ذلك إلى النبي فتبرأ مما صنع خالد ، وأرسل من أصحابه من كفه عن القتل والقتال ، ودخل النبي والمسلمون مكة . فأقبل النبي على المسجد الحرام فحطم ما كان حول الكعبة من الأوثان وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » .

ثم أمر « بلالا » فأذن فوق الكعبة إعلاناً للإسلام وإعلاء لكلمة الله . واجتمعت قريش — فيما يقول الرواة — للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم فيما قال : « يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟ » قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته :

«لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ »

اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وأسلمت قريش : منهم من أسلم طائعاً ، ومنهم من أسلم لأنه لم يجد من الإسلام بداً .

وكذلك استقر الإسلام في مكة بعد أن خرج منها ، هاجر به النبي والمسلمون اتقاء للفتنة وابتغاء للأمن والعافية ونشر الدين ، لا خائفين ولا وجلين .

عاد الإسلام إلى مكة واستقر فيها ظافراً منصوراً موفوراً ودخلت قريش فيه طوعاً أو كرهاً ، وصدق وعد الله في قوله الكريم :

« هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » .

ولكن النبي ومن هاجر معه من أصحابه لم يقيموا بمكة ولم يستقروا فيها ، وإنما آثروا مهاجرهم في المدينة ، وكرهوا أشد الكره أن يستبدلوا به مكاناً غيره مهما يكن ، وأن يخرجوا من المدينة إلا وفي نيتهم أن يعودوا إليها ، إن أذن الله لهم بالعودة إليها .

ويقول الرواة : إن سعد بن أبي وقاص — رحمه الله — مرض بمكة ، وثقل المرض عليه حتى همّ بالوصية ، واستشار النبي في ذلك ، فدعا له النبي وكان يشفق من أن يدركه الموت بعيداً عن الأرض التي هاجر إليها ، وصارت هذه سنة بين المهاجرين من أصحاب النبي حتى كانوا يكرهون إن ألموا بمكة أن يصنعوا فيها صنيع المقيمين : كانوا يرون أنفسهم على سفر — وإن نزلوا بين عشائرهم من أهل مكة — فيقصرون الصلاة ، ومن أجل ذلك راجعوا عثمان رحمه الله حين أتم الصلاة بمنى لأنهم كانوا يرونه مسافراً يجب عليه قصر الصلاة ؛ وإن كان أهله بمكة لأن دار إقامته في المدينة لا في غيرها .

ولم يعد النبي بعد الفتح إلى المدينة وإنما بلغه أن « هوازن » تجمع له جموعها ، فخرج للقائهم في الجيش الذي أقبل معه إلى مكة ، وفيمن أنضم إليه من طلقاء

قريش أو مسلمة الفتح كما كان يقال إذ ذاك . والتقى الجمعان يوم « حنين » ، فامتحن المسلمون امتحاناً شديداً ، وجالوا جولة حتى قام النبي وحده في الموقعة على ظهر بغلته . والعباس آخذ بزمامها والنبي يدعو أصحاب سورة البقرة ويقول « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » .

ثم ثاب إليه الأنصار ، وثاب إليه بعدهم سائر المسلمين ، وأنزل الله نصره على نبيه وعلى المؤمنين ، فانهزم المشركون هزيمة منكرة قتل منهم من قتل وأسر منهم من أسر ، وسبيت النساء والذراري ، وعاد النبي وأصحابه موفورين ولكن «هوازن» عادوا إليه بعد هزيمتهم يسألونه أن يمن على سبيهم ، ويذكرونه بأنهم أخواله ، لأنه أرضع فيهم إذ كانت حليمة منهم .

وقد أطلق النبي من السبي من كان في أيدي رهطه الأدنين من بني عبد المطلب ووعدهم إذا صلى بالناس من غد أن يسألوه في ذلك ويذكروا خؤولتهم له. فلما فعلوا شفع النبي لهم عند المسلمين فلم يبق أحد منهم إلا أطلق من كان عنده من السبي ورده على قومه .

وكان آخر حرب للنبي مع المشركين حين حاصر الطائف بجيشه ذاك . وقد أطال الحصار ولكن الله لم يسلطه على هذه المدينة. فرفع الحصار وعاد بجيشه إلى دار هجرته ثم لم تلبث ثقيف أن أرسلوا إليه وفدهم يطلبون الصلح فقبله منهم على أن يدخلوا في الإسلام ، ويرفضوا الشرك ويمحقوا آثاره .

ومنذ ذلك الوقت جعل العرب يتسامعون في قلب الجزيرة وأطرافها بالإسلام، وما أتيح للنبي وأصحابه من نصر ؛ فجعلت وفودهم تفد عليه يعرضون إسلامهم وإسلام قومهم ، فيقبل النبي منهم ويعلمهم دينهم . وربما أرسل معهم من يعلم قومهم شرائع الإسلام .

وكذلك عظم أمر الإسلام وانتشر في الجزيرة العربية كلها . ونظرة سريعة إلى ما بدأ الإسلام عليه في مكة وما انتهى إليه في المدينة في هذا الوقت القصير، تبين في جلاء أن قوة عليا أرادت لهذا الدين أن يقوى وينتشر أولا ، وأن يجمع كلمة العرب ويوحد أهواءهم ويجعلهم أمة واحدة مؤتلفة تتعاون على البر

والتقوى ولا تتعاون على الإثم والعدوان بعد الذي كان بينهم ، من اختلاف أي اختلاف واختصام أي اختصام ؛ ومن حرب بالألسنة دائمة وبالسيف والسنان في أكثر الأحيان .

وأرادت كذلك أن تغير من أخلاقهم وعاداتهم وسننهم الموروثة فتحل الوفاء في نفوسهم محل الغدر ، والأمانة محل الخيانة ، والبر مكان الجحود ، والرقة والرحمة مكان الغلظة والقسوة .

وأرادت أن تبين لهم الخير فيسلكوا إليه سبلهم ، وتدلهم على الشر فيتنكبوا طرقه ، وأن تبين كبائر الآثام فيجتنبوها ومحاسن الأعمال فيجدُّوا فيها .

كل ذلك وأكثر جداً من كل ذلك ، أتيح للإسلام في أقل من ربع قرن ، في ثلاثة وعشرين عاماً . أنفق النبي منها ثلاثة عشر عاماً بمكة لا يكاد ينشر الإسلام إلا قليلا ، وعشرة أعوام في المدينة أتم الله فيها على يده جُلّ هذه المعجزة الكبرى . فخلق العرب خلقاً جديداً ، وجعل منها أمة بأدق معاني هذه الكلمة وأوسعها . أنشأها إنشاء جديداً ، وهيأها للنهوض بالمهمة الكبرى التي تتجاوز حدود جزيرتها ، وتحوّلت وجهة التاريخ وتغيّر وجه الأرض في أقل من نصف قرن .

وكان النبي على هذا كله لا يدعي لنفسه معجزة إلا القرآن . وقد صدق النبي وبر في ذلك . فقد كان القرآن معجزة أي معجزة . كان معجزاً بألفاظه ومعانيه ونظمه . لم يستطع أحد من العرب أن يحاكيه أيسر المحاكاة ، وكان معجزاً بآثاره التي ظهرت في حياة النبي والتي أشرنا إليها آنفاً ، وبآثاره التي ظهرت بعد وفاة النبي ، والتي لا يزال كثير منها باقياً إلى الآن وإلى آخر الدهر. وصدق الله حين قال في سورة النور :

« وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ٱرْتَضَى لَهُمْ . وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً . يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ » .

وصدق الله كذلك حين قال في سورة الحشر :

« لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ . وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

فقد خشعت قلوب العرب للقرآن آخر الأمر ؛ نفذ إلى قلوبهم واستأثر بضمائرهم،وفتح لهم آفاقاً كانت مغلقة أمامهمقبل أن يتلى عليهم ، وحررهم بعد الرق ، رق النفوس للشهوات ؛ وطهرهم بعد الرجس ، رجس الخطايا والآثام ، ووحدهم بعد الفرقة ، وأعزهم بعد الذلة ، وملأ قلوبهم نوراً ، فانبثوا في الأرض ينشرون نور الله ما وجدوا إلى نشره سبيلا .

وزاد إقبال العرب على الإسلام ، وإذعانهم له بعد الحجة التي حجها أبو بكر — رحمه الله — بالناس عن أمر النبي سنة تسع . ففي هذه الحجة أرسل النبي علياً ليلحق بأبي بكر ويتلو على الناس قرآناً أنزل ، فكان فصلا بين عهدين : عهد كان الإسلام يقوى فيه شيئاً فشيئاً وكان للشرك مع ذلك بقاء في بعض قبائل العرب ، وعهد آخر خلصت فيه الجزيرة كلها للإسلام .

وهذا القرآن الذيفرق الله به بينهذين العهدين هو الآياتالكريمة الأولى من سورة التوبة ، فأعلن فيها براءة الله ورسوله من المشركين ، وحرم فيها أن يقرب المشركون البيت أو يلموا به أو يطوف به عريان .

وأمر فيها نبيه والمؤمنين معه أن يلغوا ما كان بينهم وبين المشركين من العرب من عهود الهدنة ؛ وألا يتموا من هذه العهود إلا ما كان بينهم وبين

قوم لم يظهر منهم غدر ولا نقض للعهد . فهؤلاء أمر الله أن يتم المؤمنون لهم عهدهم إلى مدته ثم لا يجددوا لهم عهداً آخر ، وأجل الناس أربعة أشهر يأمنون أثناءها . فإذا انقضت فعلى المسلمين أن يقتلوهم حيثما وجدوهم ، وأن يقعدوا لهم كل مرصد لأنهم أهل غدر لا يؤمن لهم . وأمر ألا يكف المؤمنون عن قتلهم وعداوتهم حتى يتوبوا من شركهم ، ويدخلوا في الإسلام كما دخلت كثرة العرب .

ومعنى ذلك أن الله حرم الشرك في جزيرة العرب وأمر النبي أن يقاتل المشركين من أهل الجزيرة حتى يثوبوا إلى الحق ويدخلوا فيما دخل فيه الناس . لم يأمر الله بذلك إلا لأنه علم أن هؤلاء المشركين إن أتيح لهم أن يظهروا على المسلمين بما في قلوبهم من الغدر والكيد ، وما يسلط عليهم من الإغراء لم يرعوا فيهم إلاً ولا ذمة ، ولم يحفظوا عهداً ولا وفاء .

وهذه الآيات الكريمة هي قول الله عز وجل في أول سورة التوبة :

« بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللهِ ورَسُولِه إلَى الَّذينَ عَاهَدْتُمْ . مِنَ المُشْرِكين . فَسيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُر وٱعْلَمُوا أَنَّكُم غَيْرُ مُعْجِزي ٱللهِ وأَنَّ ٱللهَ مُخْزي الكَافِرين . وأَذَانٌ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ إلَى النَّاس يَوْمَ الحجِّ الأَكْبَر أَنَّ اللهَ بَريءٌ مَنَ المُشْرِكينَ ورَسُولُه . فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . وإِنْ تَوَلَّيْتُم فَاعْلَمُوا أَنَّكُم غَيْرُ مُعْجزي ٱللهِ . وَبَشِّر الَّذين كَفَرُوا بِعَذَاب أَليم . إلَّا الَّذينَ عَاهَدْتُم مِنَ المُشْرِكينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُم شَيْئاً ولَمْ يُظَاهرُوا عَلَيْكُم أَحَدًا فَأَتمُّوا إِلَيْهم عَهْدَهُم إلَى مُدَّتهم إنَّ اللهَ يُحبُّ المُتَّقين . فَإِذَا

ٱنْسَلَخ الأَشْهُر الحُرُم فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حيثُ وَجَدْتُمُوهُم وخُذُوهُم واحْصُرُوهُم واقْعُدُوا لَهُم كُلَّ مَرْصَد . فَإِنْ تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلاةوآتُوا الزَّكَاة فَخَلُّوا سَبِيلَهُم إِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيم . وإِنْ أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ ٱللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُون . كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِين عَهْدٌ عِنْدَ ٱللهِ وعِنْدَ رَسُوله إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ المُتَّقِين . كَيْفَ وإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ ولاَ ذِمَّة يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وتَأْبَى قُلُوبُهُم وأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُون . اشْتَرَوْا بِآيَاتِ ٱللهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيله إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون . لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ ولاَ ذِمَّة وأُولَئِكَ هُمُ المُعْتَدُون . فَإِنْ تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلاة وآتَوُا الزَّكَاة فَإِخْوَانُكُم فِي الدِّين ونُفَصِّلُ الآيَات لِقَوْمٍ يَعْلَمُون . وإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُم مِنْ بَعْدِ عَهْدهِمْ وطَعَنُوا فِي دِينِكُم فَقَاتِلُوا أَئِمَّة الكُفْرِ إِنَّهُملاَ أَيْمَانلَهْم لعلهميَنْتَهون أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُم وهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُول وهُمْ بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّة أَتَخْشَوْنَهُم فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْه إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِين ، قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ويُذْهِبْ غَيظَ قُلُوبِهِمْ ويَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيم . أَمْ حَسِبْتُم أَنْ تُتْرَكُوا ولمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُم ولَم يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ ولاَ رَسُوله ولاَ المُؤْمِنِينَ وليجَةً والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون ، مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالكُفْر أُولَئِكَ حَبِطَت أَعْمَالُهُم وفِي النَّار هُم خَالِدُون . إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللهِ مَنْ آمَنْ بِاللهِ واليَوْم الآخِرِ وأَقَامَ الصَّلاَةَ وآتَى الزَّكَاةَ ولَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ المُهْتَدِين » .

ثم يشدد الله عز وجل في رد المشركين عن المسجد الحرام بعد ذلك العام الذي حج فيه أبو بكر بالناس ، فيقول في الآية الكريمة من السورة نفسها :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عامهم هٰذَا . وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ . إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ حَكِيم » .

وكذلك حج النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع فلم يلق في الموسم مشركاً ولم ير عند البيت عرياناً . وألقى في هذه الحجة خطبته المشهورة التي توشك أن تكون وصيته إلى المسلمين والتي حرص فيها بعد كل أمر أونهي على أن يردد جملته الخالدة : « ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد » .

وقد أتم النبي رسالته كأكمل ماتم الرسالات ، وأدى أمانته كأحسن ما تؤدى الأمانات .

وصدق الله حين أنزل على نبيه في الآية الكريمة من سورة المائدة أثناء حجة الوداع :

« ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ. الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً » .

وصدق الله كذلك حين أنزل عليه بمنى في حجة الوداع هذه السورة الكريمة يشعره فيها بأن رسالته قد تمت ، وأن مهمته في الدنيا قد بلغت غايتها ، ويهيئه لما أعد له عنده من النعيم المقيم في أرفع الدرجات :

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ والْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً » .

وقد تحدث النبي ذات يوم على المنبر إلى أصحابه ، فقال — فيما روى الشيخان — : « إن عبداً قد خيّره الله بين زهرة الدنيا وما عنده ، فاختار ما عند الله » فلم يفهم عنه من أصحابه إلا أبو بكر . فقال : بل نفديك بآبائنا وأمهاتنا . فعجب الناس لمقالة أبي بكر ، ولم يحققوا مغزاها إلا حين اختار الله رسوله للرفيق الأعلى .

ولم يلبث النبي بعد حديثه ذاك أن أحس الوجع ، فكان يمرض في بيت عائشة رحمها الله ، وكان يخرج للصلاة كلما وجد خفة . فلما ثقل عليه المرض أمر أبا بكر أن يصلي بالناس .

وتوفي صلى الله عليه وسلم في نفس الشهر الذي وصل فيه إلى المدينة مهاجراً في ربيع الأول لعشر سنين مضين منذ هجرته .

وقد ارتاب المسلمون حين نبئوا بوفاة النبي ، لم يصدقوا ذلك ، بل شكوا فيه وماج بعضهم في بعض . وكان عمر أشدهم شكاً حتى أنذر – فيما يقول الرواة – من قال إن النبي قد مات . ولكن أبا بكر تلا عليهم الآية الكريمة من سورة آل عمران :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ الشَّاكِرِينَ » .

هنالك ثاب إلى المسلمين صوابهم فرجعوا إلى الحق وآمنوا لما لم يكن بد من أن يؤمنوا له وذكروا قول الله لنبيه :

« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُون » .

١٩

ولم يكد النبي صلى الله عليه وسلم يفارق أصحابه حتى ظهر بينهم خلاف أوشك أن يكون عظيم الخطر على وحدتهم ، ذلك أنهم أحسوا الحاجة إلى من يخلف النبي في سياستهم وتدبير أمورهم .

فأما الأنصار فظنوا أن الأمر ينبغي أن يكون فيهم ، وأن شؤون الحكم يجب أن تصير إليهم ، لأنهم أصحاب المدينة ، وليس المهاجرون إلا ضيفاً عليهم طرأوا على المدينة منذ عشر سنين . وهم قد آووا النبي والذين هاجروا معه من قريش والذين هاجروا إليه بعد ذلك من قريش ومن سائر العرب . وهم قد خاضوا في سبيل النبي وفي سبيل الدين ما خاضوا من الحروب واحتملوا ما احتملوا من مشقة الجهاد . فهم أولى الناس بأن يكون منهم خليفة النبي وقد اجتمعوا بالفعل وأزمعوا أن يبايعوا بالخلافة رجلا ، ورشحوا « سعد بن عبادة » زعيم الخزرج لهذا المنصب .

ولكن الأمر انتهى إلى زعماء المهاجرين فأسرع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ابن الجراح إلى الأنصار ليعلموا علمهم وليصرفوهم عما أزمعوا . فكانت محاورة وشيء من جدال ثم عرضوا أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير ، فأبى ذلك أبو بكر وقال لهم : نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، واحتج عليهم بأن النبي من قريش فيجب أن يلي أمره بعده أولو قرابته . وروى لهم عن النبي أنه قال : « الأئمة من قريش » . فثاب الأنصار إلى سماحة نفوسهم ، وكرهوا أن يأخذوا الخلافة أجراً على ما أبلوا في ذات الله ورسوله من البلاء .

وأذعنوا آخر الأمر لما حدثهم به أبو بكر عن النبي من أن الأئمة من قريش . ثم اقترح عليهم عمر أن يبايعوا أبا بكر ، وأسرع هو إلى بيعته ، فتبعه الأنصار ، ولم يخالف عنهم إلا سعد بن عبادة ؛ لم يقتنع بقول أبي بكر ، ولا بإسراع القوم إلى بيعته ، بل اعتزل الأنصار والمهاجرين جميعاً ، وعاش في عزلته حتى قتل في الشام ، أصابه سهم لم يعرف من رماه به .

وتحدث الناس بعد ذلك بأن الجن هم الذين قتلوه ، وأضافوا إلى واحد من الجن بيتين من الشعر زعموا أنهم سمعوهما ولم يروا قائلهما :

قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عباده

ورميناه بسهمين فلم نخطئ فؤاده

وبايع سائر المسلمين في المدينة أبا بكر واستقام له الأمر .

ولكن خلافاً آخر شجر . وكان أشد على أبي بكر من خلاف الأنصار ذاك ، وكان هذا الخلاف بينه وبين فاطمة — رحمها الله — بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . جاءته تطلب إليه ميراثها من أبيها . فأبى عليها ذلك وقال لها : إنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » . ثم قال : إنه لن يخالف أبداً عن قول رسول الله

فغضبت فاطمة وشاركها زوجها في غضبه ، وتأخرت من أجل ذلك بيعة « علي » رحمه الله لأبي بكر . على أن فاطمة — رحمها الله — لم تعمر بل توفيت بعد أبيها بستة أشهر . فأقبل « عليّ » فبايع كما بايع الناس .

ويقال أن بني هاشم كانوا يرون لأنفسهم الحق في خلافة النبي صلى الله عليه وسلم . فهم رهطه الأدنون ، وهم أقرب إليه من تيّم قوم أبي بكر ، ومن عدي قوم عمر ، ومن أمية قوم عثمان . ولكنهم رأوا إجماع الناس على أبي بكر ، كما رأوا إجماع الناس على عمر من بعده ، وعلى عثمان من بعد عمر ، فكرهوا أن يثيروا الفتنة ، أو أن يحدثوا في الإسلام حدثاً ، وأذعنوا لإجماع المسلمين .

ويقال كذلك إن النبي قال لبعض أصحابه في مرضه الذي توفي فيه : «إيتوني بصحيفة أكتب لكم ما لا تضلون بعده أبداً» . فاختلفوا وتنازعوا . يقول بعضهم : إن النبي قد اشتد عليه الوجع وعندنا كتاب الله . ويقول بعضهم الآخر : بل دعوا رسول الله يكتب . فلما أكثروا قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : قوموا عني . قالوا : فكان ابن عباس يرى أن الرزية كل الرزية أنهم لم يخلوا بين رسول الله وبين ما أراد .

وأكاد أقطع بأن هذا الحديث — مهما يكن سنده — غير صحيح . فما كان للمسلمين أن يخالفوا عن أمر رسول الله . وما كان لرسول الله نفسه أن يخلي بينهم وبين هذا الخلاف ، وهو الذي لبث فيهم ثلاثة وعشرين عاماً يتلو عليهم القرآن ، ويعلمهم شرائع الدين ، ويأمرهم وينهاهم وينبئهم بخبر السماء . وأكبر الظن أن هذا الحديث وضع بأخرة حين تفرق المسلمون شيعاً وأحزاباً .

٢٠

ومهما يكن من شيْ فقد تمت بيعة أبي بكر وصحت ، وإن كان المسلمون لم يتشاوروا فيها ، حتى كان عمر رحمه الله يقول : إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها .

ولكن أبا بكر واجه خلافاً كاد شره أن يستطير ويصبح خطراً على الإسلام

نفسه ، لولا أن الله عز وجل تأذّن أنه هو الذي نزل الذكر وأنه حافظ له . فقال في سورة الحجر :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

ولولا أن أبا بكر قد ثبت لهذا الخلاف أروع الثبات ، وصمم على حسمه تصميماً أذعن له المهاجرون والأنصار ومسلمة الفتح من قريش . فقد انتقض العرب على أبي بكر انتقاضاً مختلفاً . قال كثير منهم : نقيم الصلاة ولا نؤتي الزكاة . رأوا أن الزكاة نوع من الإتاوة ولم يتعودوه بل كانوا يأنفون منه أشد الأنفة ، ويرون أنه ضرب من الذلة والخضوع . ولم يقبل منهم أبو بكر ذلك بل صمم على أن يؤدي الناس إليه ما كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن هؤلاء يفرقون بين الصلاة والزكاة ، مع أن الله لم يفرق بينهما بل ذكرهما معاً في القرآن مرات كثيرة . فهم يؤمنون ببعض القرآن ويكفرون ببعضه .

وكان عمر قد قال له : كيف تقاتل العرب وهم يقولون لا إله إلا الله ؟ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

كأن أبا بكر أراد أن قول لا إله إلا الله بطرف اللسان ليس إيماناً ولا إسلاماً ، وإنما يجب أن تقال باللسان ترجمة عما في القلب من الإيمان بالله والتصديق للنبي ، والائتمار بما أمر الله ورسوله به ، والانتهاء عما نهى الله ورسوله عنه ، وقد أمر الله ورسوله بإيتاء الزكاة فالنكول عن أدائها كفر ، والالتواء بها جحود . وليس للكفار الجاحدين إلا القتال .

وقوم آخرون من العرب ظهر فيهم كذابون ؛ زعموا لأنفسهم النبوة ، وتلوْا على قومهم كلاماً زعموا أنه وحي من الله .

ظهر الأسود العنسي في اليمن ، وظهر مسيلمة في بني حنيفة باليمامة ، وظهر طلحة في بني أسد ، وظهرت سجاح في أحياء من بني تميم ، وتبعهم خلق كثير

من العرب الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم . وصدق الله حين قال في الآية الكريمة من سورة الحجرات :

« قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ولَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

ولم يشك أحد من المهاجرين والأنصار والذين استقاموا على الإسلام في أن قتال هؤلاء واجب لا منصرف عنه . والمهم أن أبا بكر نظر فإذا جزيرة العرب قد انتقضت عليه إلا أقلها ، فلم ير بدّاً من أن يجاهد المرتدين كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقاتل المشركين من قبل .

وقد جدّ أبو بكر في الحرب ، واستجاب له المسلمون استجابة صادقة ، فقاتلوا المرتدين عن إيمانهم وعلى بصائرهم صادقين مستبسلين ، لا يبخلون بأموالهم ولا بأنفسهم ، حتى قتل كثير من خيارهم ، ولا سيما في حرب مسيلمة . وأنزل الله نصره عليهم ،وعادتالجزيرةخالصة للإسلام، واستطاع أبو بكر أن يجنّد من أصحابه ، ومن الذين عادوا إلى الإسلام بعد الردة تلك الجيوش التي رمى ببعضها العراق ، ورمى ببعضها الشام .

١

يقول الله عز وجل في أول سورة الكهف :

« الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ ولَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً . قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ ويُبَشِّرَ

المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَناً . مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا .ويُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ ولَدًا . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ولاَ لآبَائِهِم كَبُرَت كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً » .

ويقول في سورة المدثر :

« يأَيُّهَا المُدَّثِّرْ قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّر . وَثِيَابَكَ فَطَهِّر . والرُّجْزَ فَاهْجُرْ . ولاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرْ . ولِرَبِّكَ فَاصْبِر » .

ثم يقول في سورة الأحزاب :

« يأَيُّهَا النَّبِيّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ومُبَشِّرًا ونَذِيرًا . ودَاعِياً إِلَى الله بِإِذْنِهِ وسِرَاجاً مُنِيرًا . وبَشِّر المُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا . ولاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ والمُنَافِقِين ودَعْ أَذَاهُم وتَوَكَّل عَلَى اللهِ وَكَفَى باللهِ وَكِيلًا » .

ويقول في سورة الجمعة :

« هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُم يَتْلُو عَلَيْهِم آيَاته ويُزَكِّيهم ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وإِنْ كَانُوا من قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِين . وآخَرِينَ مِنْهُم لَمَّا يَلْحقُوا بهم

وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيم . ذَلِكَ فَضْلُ ٱللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم » .

فمن هذه الآيات ، وآيات أخرى كثيرة في القرآن الكريم ؛ نفهم أن الله أرسل رسوله لينذر الذين لا يؤمنون به بما أعد لهم من بأس شديد عنده ، ويبشر الذين يؤمنون به بما لهم عنده من أجر كريم خالدين فيه أبداً .

والله يفصل هذا البأس الشديد في القرآن الكريم حين يصف البعث وما يكون بعده من حساب عسير للكافرين به . وما يكون بعد هذا الحساب العسير من عذاب شديد متصل لا انقطاع له .

والله يفصل كذلك في القرآن هذا الأجر الكريم الذي أعده للمؤمنين به حين يصف الجنة ونعيمها وخلود المؤمنين في هذا النعيم المقيم .

والنبي حين ينذر ويبشر ، يعلم أوسع العلم وأعمقه وأدقه ما ينذر به وما يبشر ، يعلمه من ربه من طريق الوحي حين ينزل عليه القرآن ليتلوه على الناس ، وحين يلهمه من العلم والحكمة ما يتحدث به إلى الناس حديث الواعظ المخوّف وحديث المؤدب المعلم . فهو بشير ونذير ومعلم أيضاً .

وتعليمه نوعان : أحدهما : كلام أوحاه الله إليه وأمره أن يبلغ نصه للناس ، وأن يتلوه عليهم ليسمعوه أولا ويفقهوه بعد ذلك ، وعليه أن يفسر لهم بالقول أو بالعمل ، أو بهما جميعاً ، ما قد يقصرون عن فهمه من هذا النص .

والثاني : علم ألهمه الله إياه ، ألقاه في قلبه لينتفع به هو أولا وليعلم الناس منه ما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم جميعاً .

وقد أنفق النبي ثلاثة وعشرين عاماً منذ بعثه الله إلى أن اختاره لجواره ، أنفق هاته السنين : مبشراً ، ومنذراً ، ومعلماً ؛ لم يقصر في ذلك ولم يكف عنه يوماً ، فكان معلماً لا كالمعلمين ، كان تعليمه متصلا نهاره كله وجزءاً غير قليل من ليله . كان يعلم الناس حين يلقاهم ، ويعلمهم بالأمر ، والنهي ،

والتبشير ، والانذار ، وبكل ماكان يقوله لهم ، وكان يعلمهم بسيرته فيهم وسيرته في غيرهم ، وبكل ما يأتي من الأمر أو يدع . فهو لهم قدوة ، وهو لهم أسوة ، وعليهم أن ينظروا إليه ، وأن يعملوا مثل ما يعمل ، ويجتنبوا مثل ما يجتنب ، وأن يسمعوا منه ويطيعوا . وقد أمرهم الله في سورة الحشر أن يأخذوا كل ما يؤتيهم وأن يدعوا كل ما ينهاهم عنه :

« ومَا آتَاكُم الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا » .

كذلك هو حين يبرز للناس ، وهو حين يروح إلى أهله معلم أيضاً . يقول فيحفظ عنه أزواجه ، ويعمل فيحفظن عنه أيضاً ، ويصنعن من صنيعه كل ما ينبغي لهن .

ولأمر ما أخذ المسلمون كثيراً من العلم عن أزواجه بعد وفاته ولا سيما عائشة وحفصة وأم سلمة . ثم هو معلم في السفر والحضر جميعاً لا يأتي شيئا إلا وفي نفسه أن الناس سيصنعون صنيعه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ومن أجل ذلك كان يرعى فيهم الرفق بهم والنصح لهم ، كان يطيق من العبادة في الصلاة والصوم أكثر مما يطيقون ، فكان يستخفي ببعض عبادته حتى لا يراها الناس ، فيكلفوا أنفسهم فوق ما يطيقون .

ولم يكن له من حياة المعلم هذه بُدٌّ ، فالله يقول له :

« فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَر » .

فلا يسعه إلا أن يذعن لأمر الله . والله ينزل عليه من القرآن ما هو مجمل ، ويترك له تفصيله بما يلهمه من العلم . فهو يأمر بالصلاة والزكاة مثلا ، ولكنه لا يبين كيف تكون الصلاة ولا كيف تكون الزكاة لا يفعل ذلك في القرآن ، وإنما يلهم نبيه من العلم ما يبين به للناس كيف يصلون ، وكيف يؤدون الزكاة في أموالهم .

والقرآن يذكر الركوع والسجود ، ولكنه لا يحدد الركوع والسجود في القرآن تحديداً دقيقاً ، فليس بُدٌّ للنبي من بيان ذلك كله بالعمل والقول جميعاً . فهو يقيم الصلاة للمسلمين ويأمرهم أن يصنعوا صنيعه ، وأن يقوموا حين يقوم ويركعوا ويسجدوا ويجلسوا حين يركع ويسجد ويجلس . وهو علمهم ما يقرأون في صلاتهم ، وما يقولون في السجود والركوع والجلوس . وقل مثل ذلك في مجملات القرآن كلها ، وهي كثيرة . فكان النبي إذن مفسراً للقرآن بقوله وعمله ، وكان منبئاً للناس بما يلقي الله في قلبه من العلم بما ينبغي لهم ، وما يجب عليهم وما يجب أن ينتهوا عنه .

ومن هنا نتبين أن السنة التي تثبت عن النبي ثبوتاً قاطعاً أو راجحاً هي الأصل الثاني من أصول الدين بعد القرآن الكريم .

فليس بد إذن من أن نقف وقفة عند كل واحد من هذين الأصلين .

٢

أما القرآن الكريم : فهو المعجزة الكبرى التي آتاها الله رسوله الكريم ، آية على صدقه فيما يبلغ عن ربه .

والقول في إعجاز القرآن يكثر ويطول ، وتختلف وجوهه وتختلف فنونه أيضاً . فالقرآن : كلام لم تسمع العرب مثله قبل ان يتلوه النبي . فهو في صورته الظاهرة ليس شعراً لأنه لم يجر في الأوزان والقوافي والخيال على ما جرى عليه الشعر . ثم هو لم يشارك الشعر الذي ألفه العرب في قليل أو كثير من موضوعاته ومعانيه . فهو لا يصف الأطلال والربوع ، ولا يصف الحنين إلى الأحبة ، ولا يصف الإبل في أسفارها الطوال والقصار ، ولا يغرق فيما كان الشعراء يغرقون فيه من تشبيهات للإبل والصحراء والرياض والأشجار والحيوان والصيد وأدواته ؛ لا يعرض لشيء من هذا كله . وليس فيه غزل ولا فخر ولا مدح ولا هجاء ولا رثاء ، وهو لا يصف الحرب وما يكون فيها من الكر والفر ، وهو

لا يبالغ ولا يغلو ولا يعدو الحق . لا يعرض من هذا كله لشيء، وإنما يتحدث إلى الناس عن أشياء لم يتحدث إليهم بها أحد من قبله ، يتحدث عن التوحيد فيحمده ويدعو إليه ، ويتحدث عن الشرك فيذمه وينهى عنه ، ويتحدث عن الله فيعظمه ويصف قدرته التي لا حد لها ، وعلمه الذي لا غاية له ، وإرادته التي لا ترد، وخلقه للسماوات والأرض وما فيهن من يسير الأشياء وخطيرها ومن صغير الأشياء وكبيرها . ويدعو الناس إلى عبادة الله والائتمار بما يأمر به والانتهاء عما ينهى عنه والتنزه عما لا يليق بكرام الناس . ثم يصف ما أعد الله من النعيم المقيم للذين يؤمنون به وحده ويخلصون له دينهم ، ويصف ما ادخر من العذاب الأليم الخالد للذين يشركون معه إلهاً آخر ، ويجعلون له أنداداً ، ويكفرون بآياته ويجحدون نعمه عليهم ، وهو يبشر المؤمنين بما أعد لهم من نعيم ، وينذر الكافرين ما ادخر لهم من جحيم . وهو يصف قيام الساعة وما يكون فيه من هول يذهل المرضعة عما ترضع ،ويضطر ذات الحمل إلى أن تضع حملها ، ويجعل الناس كأنهم سكارى وما هم بسكارى . وهو يعظ الناس ليطهر أنفسهم ويزكيها . ويتلو عليهم من أنباء الغيب ما يثبت به قلوب المؤمنين ويخلع به قلوب الكافرين . فيقص عليهم أنباء الرسل الذين أرسلوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم وجاءوا قومهم بالآيات البينات ، فأعرض عنهم أكثر قومهم ولم يؤمن منهم إلا قليل ، فعذب الذين أعرضوا وأخزاهم في الدنيا والآخرة ، ونجّى الذين آمنوا وأرضاهم في الدنيا والآخرة أيضاً .

كل هذا وأكثر جداً من هذا يتحدث به القرآن إلى الناس على لسان رجل من قريش ، لم يتعلم قط كتابة ولا قراءة ولا حساباً ؛ ولم يجلس قط إلى أحبار اليهود ولا رهبان النصارى ولا أصحاب الفلسفة ، وإنما هو رجل عربي أمي كأكثر العرب ، لا يعلم من أمر الدنيا إلا مثل ما كان أوساط العرب يعلمون . وهو مع ذلك يجادل اليهود في التوراة ويجادل النصارى في الإنجيل ، ويصفهم بأنهم يكذبون على موسى ، ويقولون على المسيح غير الحق ، ويحرفون ما عندهم من التوراة والإنجيل . كل ذلك وهو لا يقرأ التوراة ولا الإنجيل ، وإنما ينبئه الله نبأ الحق بما في كليهما ، وهو لم يأت لنسخ التوراة ولا لنسخ

الإنجيل ، وإنما جاء مصدقاً لما بين يديه منهما ، ومضيفاً إليهما ما أمره الله أن يضيف من العلم والدين . وهو يحاجّ المشركين في آلهتهم تلك التي كانوا يعبدونها ويجعلونها لله أنداداً ويتخذونها عنده شفعاء،والتي لاتجيبهم إن دعوها، ولا تسمع لهم إن تحدثوا إليها ، ولا تنفعهم ولا تضرهم ولا تغني عنهم من الله شيئا إن أراد بهم سوءاً ولا تمسك عنهم رحمة الله إن أراد بهم رحمة، وإنما هي أشياء صنعوها بأيديهم أو صنعت لهم من قبل بأيدي الرجال ، ثم خلعوا عليها ما ليس لها من القوة والبأس والسلطان .

ثم هو يشرع لهم من الدين والشرائع ما ينفعهم في الدنيا ويعصمهم من عذاب الآخرة إن استمسكوا به وأنفذوه على وجهه . فيشرع لهم في أمر الزواج والطلاق والميراث والوصية والبيع والشراء وغير ذلك مما تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وحياتهم الفردية أيضاً . ثم هو يفرض عليهم من أنواع العبادة ما يطهر نفوسهم ويزكي قلوبهم، ويحضر في ضمائرهم حب الله والإخلاص له وخوف الله والإشفاق منه . ويبين لهم ألا سبيل إلى أن يستخفوا من الله بكبيرة أو صغيرة ، فهو يسمع كل شيء ويرى كل شيء ويعلم كل شيء. وهو معهم حين يجتمعون وحين يخلو كل واحد منهم إلى نفسه ، وهو يعلم مايثور في قلب الإنسان من عاطفة وما يضطرب فيه من هوى، وما يخطر في ضميره من خير أو شر . بل هو يعلم أكثر من ذلك : يعلم كل ما كان وكل ما هو كائن وكل ما سيكون . وهو يحصي عليهم أعمالهم وكل ما تحدثهم به أنفسهم من الخير والشر ، ومن الفجور والبر ، ومن الطاعة والمعصية . وهو يسجل كل هذا في كتاب مدخر عنده . فيعرض على كل إنسان كتابه يوم الحساب ويجزيه عما سجل في هذا الكتاب من أعماله الظاهرة والباطنة ، إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً .

ثم ينبىء الناس في الدنيا بما تقول ألسنتهم وما تعمل جوارحهم وما تضمر نفوسهم . نجد هذا كله في القرآن الذي يتلوه هذا الرجل الأمي، والذي أخذ

في تلاوته فجاءة ذات يوم بعد أن بلغ الأربعين وأنفق ثلثي عمره في الدنيا يحيا كما يحيا غيره من قريش . فلا غرابة في أن يبهر قريشا وسائر العرب هذا العلم الذي جاء فجاءة . ولا غرابة في أن يعجزهم فَهْم هذا كله ، فهم في حيرة من أمر هذا الرجل وما يتلو عليهم من الآيات .

يقولون إنه شاعر ثم يستبين لهم أنه لا ينشدهم شعراً . ويقولون إنه كاهن ثم يتبين لهم أنه لا يسجع لهم سجع الكهان . ويقولون إنه ساحر ثم يستبين لهم أنه ليس من السحر في شيء . وإنما هو رجل مثلهم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ، يسعى في الأرض كما يسعون ، ويكسب قوته كما يكسبون أقواتهم ، ويصارحهم بأنه لا يعلم من أمر الغيب إلا ما يعلمه الله حين يوحي اليه القرآن . فيريحون أنفسهم كما يريح الباحث المجد نفسه بعد الكد والعناء اللذين لا يغنيان عنه شيئاً فيقولون : إنه مجنون . ولكن هذا لا يريحهم ، فهم يقولون له ، ويسمعون منه ، ويرقبونه مصبحين وممسين ، فلا ينكرون منه شيئاً إلا هذا والكلام الذي يتلوه عليهم . فتخشع له قلوب فريق منهم ويعرض عنه أكثرهم . فلا يجدون لهم مخرجاً إلا أن يجاهروه بالعداء وينصبوا له حربا منكرة . ولكن القرآن ينزل عليه وهو مضطر إلى أن يتلوه عليهم .

قد أعياهم أمره كل الإعياء ، أرادوا أن يأخذوه باللين فلم يفلحوا ، وأرادوا أن يأخذوه بالشدة فلم يفلحوا . وأكثر من هذا أنه يتلو عليهم من القرآن ما يتحداهم ويسألهم أن يأتوا بمثله . وهم يحاولون فلا يستطيعون ولكنهم مصرون على العناد ، فيطالبونه بالآيات العظام ... يسألونه أن يغني نفسه من فقر ، فينشىء لنفسه جنة من نخيل وعنب ويفجر فيها الأنهار والينابيع ، ويسألونه أن يأتيهم بالله والملائكة ، ويسألونه أن يسقط السماء عليهم كسفاً ، ويسألونه أن يرقى في السماء ويأتيهم منها بكتاب يقرأونه ، ويسألونه أن يبتكر لنفسه بيتاً من زخرف ، أو أن ينزل عليهم من السماء كنزاً ، فلا يسمعون منه إلا ردّاً واحداً وهو أنه لا يملك أن يأتيهم من هذه الآيات بشيء ، لأنه بشر مثلهم لا يمتاز منهم إلا بأن الله اختصه برسالته ، وأرسله الى الناس بشيرا ونذيراً .

فهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن لا سبيل الى الجدال فيه . فقد جادل فيه العرب من قبل فلم يفلحوا ولم يبلغوا شيئاً . وإذا عجز العرب الذين عاصروه عن أن يأتوا بقليل مثل ما جاء به ، فالذين جاءوا بعدهم أعجز ، وغيرهم من الأمم أشد عجزاً .

ولكن للقرآن وجهاً آخر من وجوه الإعجاز لم يستطع العرب أن يحاكوه أيام النبي ولا بعده ، ذلك هو نظم القرآن أي أسلوبه في أداء المعاني التي أراد الله أن تؤدى الى الناس . لم يؤدِّ اليهم هذه المعاني شعراً كما قدمنا ، ولم يؤدها اليهم نثراً أيضا ، وانما أداها على مذهب مقصور عليه ، وفي أسلوب خاص به لم يسبق اليه ولم يلحق فيه . ليس شعراً لأنه لا يتقيد بأوزان الشعر وقوافيه ، وليس نثراً لأنه لا يطلق إطلاق النثر ولا يقيد بهذه القيود التي عرفها الكتاب في الإسلام ، وإنما هو آيات مفصلة لها مزاجها الخاص في الاتصال والانفصال ، وفي الطول والقصر ، وفيما يظهر من الائتلاف والاختلاف ، تتلو بعض سوره فاذا أنت مضطر في تلاوتها الى الأناة والتمهل لأنها فصّلت في رَيْث ومهل لأداء معاني تحتاج الى البسط والريث . كالتشريع مثلا ، ووصف ما كان يثار بين المسلمين والمشركين من الحروب والمواقع . وتتلو بعض سوره الأخرى فاذا أنت مضطر الى شيء من السرع لأنها تؤدي معاني يحتاج أداؤها الى القوة والعنف ، قد فصلت آياتها قصاراً ملتئمة الفواصل ، تقرؤها فكأنك تنحدر من علٍ . وذلك حين يخوّف الله عباده ويشتد في تخويفهم ، فيأخذهم من جميع أقطارهم ويقطع عليهم طريق الجدال والحجاج .

وربما يقص من أنباء الرسل فيمضي القصص في هدوء ومهل لأنه يتجه الى إثارة التفكير والاعتبار والتروية فيما جرى على الأمم من قبل ، والحذر من أن يجري عليهم مثله .

ثم يقص في سورة أخرى نفس الأنباء ، فتقصر الآيات وتسرع ، وتتسق الفواصل وتنسجم ، وتتكرر عبارات بعينها في آخر كل قصة لأنه يتجه الى الإرهاب والإثارة والإحاطة بالسامعين والقارئين ، وإعجالهم عن التفكر والتدبر ،

كأنما أخذتهم من كل مكان ريح عاصفة لا يجدون منها مهربا ولا يرون لأنفسهم عنها مصرفاً . فهي تصب عليهم العبر والعظات والمثلات صبّاً، أو كأنهم يمطرون من السماء صخوراً متتابعة ، فهم لا يملكون إلا أن يذعنوا لما يصب عليهم ؛ لا يجدون من الوقت ولا من القوة ما يتيح لهم رجع الجواب أو الجدال في بعض ما يصب عليهم . وإنما هي الآيات تتابع قصاراً أشد القصر ، متسقة أروع الإتساق؛ والعبر القاصمة تستنبط منها في سرع سريع أيضاً . وهم لا يكادون يفرغون من قصة حتّى تتبعها قصة أخرى ، تأتي في إثرها في سرعة خاطفة وقوة مذهلة .

واقرأ إن شئت سورتين كسورة الشعراء وسورة القصص فستجد السرعة كل السرعة والقوة كل القوة في السورة الأولى ، وستجد الأناة والمهل في السورة الثانية ، ولكنك ستجد الروعة في السورتين جميعاً ، تروع أولاهما بما اختصت به من هذه السرعة ، وتروع الأخرى بما امتازت به من الأناة ، وذلك في القرآن كثير .

وسواء قرأت السور السريعة أو السور المستأنية ، فسترى من جمال اللفظ وروعة الأسلوب ، واتساق النظام ما يسحرك ويبهرك ، ويملك عليك أمرك كله . فاذا أنت خاشع لما تسمع أو تقرأ ، معجب به مستزيد منه حتّى حين يستأثر بك العناد، وتتكلف ما تتكلف من إظهار الإصرار والاستكبار والإعراض والإباء .

وأخص مزايا القرآن أن الذين يقرأونه أو يسمعونه دون أن يؤمنوا به يكذبون على أنفسهم ، فقلوبهم خاشعة وأذواقهم راضية ، وعقولهم هي المعارضة المكذبة ، فهم حين يقرأونه أو يسمعونه يناقضون أنفسهم : يظهرون الإباء ويضمرون الاستجابة ، قد اختلفت قلوبهم وألسنتهم ووجوههم .. فقلوبهم تذعن ، وألسنتهم تنكر ، ووجوههم تعرض ، إلا أن يطبع الله على قلوبهم ، ويطمس على عقولهم ، ويجعل في آذانهم وقرا .

ووجه آخر من وجوه إعجاز القرآن ، وهو هذا الأثر الباقي الذي يتركه في قلوب الناس وعقولهم وأذواقهم على تتابع القرون واختلاف الأجيال .

فالعربي القديم من أهل الفصاحة واللسن والبراعة في تصريف القول قد سمع القرآن فراعه منه ما راعه واستجاب له هذه الاستجابة التي يعرفها التاريخ ، ولكن أجيالا أخرى لا تحكم ولا تصرف القول ولا تذوق روعة البيان قد جاءت بعد أولئك القدماء من العرب فسمعت القرآن وقرأته ، فاذا هو يستأثر بعقولها وقلوبها وإذا هي لا تقرأه أو تسمعه ، إلا خشعت له واستيقنت أنه كلام لا كالكلام ، بل له شأن آخر يختلف أشد الإختلاف عما يكتبه الناثرون وينظمه الشعراء ويقوله الخطباء . وأغرب من ذلك أن أمماً أخرى ليس بينها وبين العرب سبب قد قرأت القرآن وسمعته في القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة ، فدانت له وآمنت به ، واستحبت قراءته والاستماع له على كل شيء غيره يقرأ ويسمع أو يمتع الأسماع والقلوب والعقول معاً .

ونحن نعلم أن أروع البيان وأبرعه وأعلاه درجة في الحسن إنما يروع من يقرأه أو يسمعه من أصحاب اللغة التي أنشىء فيها . فاذا تجاوزهم الى غيرهم من الأمم ؛ فقد كثيرا من روعته؛ ولا كذلك القرآن حين يقرأه أو يسمعه من لم ينشأ تنشيئاً عربياً ، بل هو يحتفظ بروعته على اختلاف الأزمنة والأمكنة وأجيال الناس .

ولست أذكر هنا تأثير القرآن في تغيير التاريخ وتحويله أمة جاهلة غافلة أمية شديدة التنافر والتدابر يضرب بعضها رقاب بعض ، وينهب بعضها أموال بعض . فاذا هي تصبح أمة قد خلقت خلقاً جديداً ، فألفت النظام والأمن والعدل وطمحت الى الرقي وظفرت منه بحظ موفور ، ونشرت هذه الخصال كلها في أمم كثيرة في الأرض ، ثم مزجتها وجعلت منها أمة واحدة تتعاون على الخير والبر وترقية الحضارة — لا أذكر هذا كله ولا أطيل فيه لأنه أظهر من ان يحتاج الى ذلك . والقرآن وحده مصدر هذا كله ، فلولاه لظلت الأمة العربية على جهلها وغلظتها وانقسامها ، ولطمع فيها غيرها من الأمم المتحضرة فاستذلها واستغلها وبسط عليها سلطانه .

وقد ألفت كتب قديمة وحديثة في إعجاز القرآن ، ولكنها على كثرتها لم تقل

في إعجازه كل ما يمكن أن يقال ، لأنه أروع روعة وأبهر جمالا من أن يستنفد فيه القول .

وقد نزل القرآن منجما ولم يوح الى النبي جملة ، وإنما كان ينزل بين وقت ووقت ، يتتابع أحياناً ويبطىء أحياناً أخرى . وقد تساءل المشركون من قريش لماذا لم ينزل القرآن جملة ؟ ولو قد أنزل عليه مرة واحدة لما أطاقوه . وإنما أراد الله أن ينزله منجماً ليتابع به حياة النبي والعرب ، وما اختلفا عليهم من الأطوار في هذا الأمد الذي قضاه النبي بينهم مبشراً ومنذراً .

وكان ما ينزل منه يكتب في إثر تنزيله . ثم جمع القرآن أيام أبي بكر ، ثم نسخ في المصاحف وأرسل الى الأمصار أيام عثمان . وجعل المسلمون يروونه سماعاً ويقرأونه في المصاحف حتى وصل الينا كاملا كما هو الآن . فهو متواتر لا يجد الشك الى شيء منه سبيلا لم يختلف فيه المسلمون وإنما تناقلوه مجمعين عليه . وتناقلوه مسموعاً ومكتوباً فجملته وتفصيله فوق الشك وفوق الجدال .

وقد تختلف قراءة المسلمين لبعض ألفاظه ، مداً وقصراً وإمالة وإطلاقاً ، ولكن سبعا من هذه القراءات وصلت الينا متواترة وأجمعت عليها الأمة ، ولا بأس منها على النص لا في لفظه ولا في معناه .

وقد رتب القرآن — كما هو بين أيدينا — سوراً منذ أيام النبي ، وقدمت في المصحف طوال السور على أوساطها ، وأوساطها على قصارها . ولم يراع في هذا الترتيب نزول السور والآيات في مكة أو في المدينة ، ولا تاريخ نزول الآيات ؛ وإنما وضعت الآيات حيث كان النبي يأمر أن توضع من السور .

ونحن نجد البقرة وآل عمران والنساء والمائدة في أول المصحف بعد الفاتحة مع أنها مدنية . ونجد الأنفال والتوبة — وهما مدنيتان — بين سور مكية ، وربما وجدنا في السورة المدنية آيات أنزلت بمكة ، وفي السّور المكية آيات أنزلت بالمدينة . ذلك أن هذا الترتيب حسب مكان النزول وزمانه لم يراع . وإنما القرآن واحد جاء كله من عند الله ، وتلاه النبي على المسلمين كله كما أنزل.

وقد بيّن الرواة الأولون والعلماء من بعدهم أماكن نزول الآيات والسور

وتاريخها ، وحاول بعض المستشرقين أن يرتب القرآن حسب تاريخ نزول السور ، فلم يصنعوا شيئاً . وترجم القرآن الى بعض اللغات الأجنبية أحيانا على هذا الترتيب التاريخي فكان هذا النحو من الترجمة والترتيب عبثاً لا يدل على شيء وإنما ينأى عما ألف المسلمون من الترتيب المعروف في المصحف .

وما أكثر العلم الذي استنبطه المسلمون من القرآن . فهم استنبطوا منه شرائع الدين، وجزءاً غير قليل من تاريخ المسلمين بمكة والمدينة ، وهم جعلوا من تفسير ألفاظه وتوضيح معانيه علماً مستقلا هو علم التفسير ، وهم درسوا لهجات القراء كما تظهر في القراءات المختلفة ، وجدوا في توجيه هذه القراءات توجيهاً نحوياً . وهم استخرجوا علم تلاوة القرآن كما سمع من القراء الأولين ونظموا قواعد المد والقصر واللغة وإخراج الحروف حسب القراءات المختلفة . وهم اعتمدوا عليه اعتماداً شديداً في تسجيل اللغة العربية في المعجمات ووضع الأصول التي يقوم عليها النحو والصرف . وهم اعتبروه مثلا أعلى لروعة البيان ، وعسى أن يكونوا قد اعتمدوا عليه أشد الاعتماد فيما وضعوا من علوم البلاغة ولا سيما البيان والمعاني ، الى آخر العلوم الكثيرة التي استنبطت منه ، وألفت فيها وما زالت تؤلف فيها كتب لا تحصى .

ومع أن علم الكلام قد اعتمد على الفلسفة ، والفلسفة اليونانية خاصة ، فانه يعتمد اعتماداً شديداً على القرآن في قسم السمعيات من أقسامه وفي أبوابه النظرية .

والمتجنبون من المتكلمين للتأويل والإغراق فيه قد اعتمدوا على القرآن والسنة وحدهما في تفصيل العقائد الإسلامية ، واتخذوا الفلسفة خادماً له يدافعون بها عن نصوصه ويخاصمون بها المؤولين والمتكلفين ، ويردون بها على الذين قصروا جهدهم على الفلسفة الخالصة ولم يعرضوا للنصوص ، وإنما اعتمدوا في إثبات الله ووجوده على النظر وحده يذهبون في ذلك مذهب القدماء من فلاسفة اليونان .

وربما أثارت العناية بالقرآن بعض الخصومات بين المسلمين . كالذي كان حين ذهب المعتزلة الى أن القرآن مخلوق . وتابعهم على ذلك بعض الخلفاء من

بني العباس ، فأثاروا بين الناس شراً عظيماً ، وامتحنوا خيار العلماء بألوان من البلاء شداد .

على أن هذه الخصومات الخطيرة لم تلبث أن صارت الى ما ينبغي أن تصير اليه الخصومات من الجدل الخالص بين العلماء ، وذلك حين انصرفت السياسة لما يُسِّرَتْ له ، ولم تدخل في شؤون ما يكون بين العلماء من اتفاق واختلاف .

وما أكثر ما توارثت الانسانية من آيات الأدب وروائع البيان في اللغات المختلفة منذ العصور القديمة . لكنا لا نعرف شيئاً من هذا التراث عني به الناس على نحو ما عني الناس بالقرآن . فهم يقرأون روائع البيان هذه ويشرحونها ، ويكثرون البحث والدوران حولها ، ولكن هذا كله لا يتجاوز الخاصة الذين يقفون أنفسهم على هذا النحو من الدرس .

فأما القرآن فالعناية به لا تشبهها عناية . فليس من المسلمين على كثرتهم واختلاف أجناسهم وتعاقب أجيالهم من لا يحفظ من القرآن قليلا أو كثيراً ، لأن أداء الصلاة لا يتم ولا يستقيم إلا بقراءة شيء من القرآن فيها .

فليس بد للمسلم من أن يحفظ منه ما يؤدي به صلاته . وما نعرف أحداً يحفظ أثراً من الآثار البيانية عن ظهر قلب كما يحفظ كثير من المسلمين القرآن ، يحفظه كثير منهم حفظاً يصاحبه فهم النصوص ، ويحفظه أكثرهم حفظاً دون أن يفهموه فهماً واضحاً ، أولئك وهؤلاء يرون حفظه تعبداً وقربى الى الله .. وما أكثر المسلمين الذين يحفظون القرآن ليتخذوا تلاوته مهنة يكسبون بها قوتهم . ولولا أن المسلمين جميعاً يحرصون على أن يسمعوا القرآن تتلى عليهم آياته في كل يوم وفي بعض الظروف الخاصة لما وُجدت هذه الصناعة ولما نفقت سوقها، ولما كثر أولئك الذين يدخلون بالقرآن كثيراً من البيوت يصبحون الناس بآيات منه ويمسونهم . ولما كثر المصوتون به أولئك الذين يجتمع لهم الناس ليسمعوهم ويعجبوا بأصواتهم وتلاواتهم في ظروف الحزن والفرح .

وجاء اختراع الإذاعة فكثرت إذاعة القرآن يصوت به .. أصحاب الأصوات

الحسان في البلاد الإسلامية ، وفي البلاد الأجنبية التي توجه الإذاعة الى المسلمين لأسباب سياسية وغير سياسية .

فالقرآن يتلى في الإذاعات الأوربية والأمريكية وهو يتلى على أنه إمتاع للمستمعين بحسن الأصوات . ولكن كثيرا من المسلمين يسمعونه لنفسه أولا وللأصوات التي تتلوه ثانياً وما يكون فيها من التطريب . وقد تذاع بعض روائع البيان في اللغات الحية ولكنها لا تذاع في نظام واضطراد كما يذاع القرآن .

وجملة القول : إن القرآن قوام لحياة المسلمين يرضون به ربهم حين يأتون ما أمر به ، ويجتنبون ما نهى عنه ، وحين يقيمون صلاتهم مجتمعين أو متفرقين ، يقرأونه أو يسمعونه متعبدين بقراءته أو سماعه ، وحين يستنبطون منه العلم ويلتمسون فيه الروعة والجمال ، ويستمتعون بقراءته أو سماعه بالأصوات العذاب .

وليس في التراث الانساني كله شيء يشبه القرآن في تقويم الألسنة العربية حين تلتوي باللهجات العامية المختلفة ، والأجنبية حين تلتوي بلغاتها المتباينة ، فالذين يحفظون القرآن في الصبا ، ويكثرون قراءته ويجودونها أصح الناس نطقاً بالعربية وأقلهم تخليطاً فيها . ومن أجل ذلك كانت الأجيال السابقة الى عهد قريب تأخذ الصبية حين يتعلمون الكتابة والقراءة بحفظ القرآن كله أو بعضه وتجويد قراءته ، يرون في ذلك محافظة على الدين وتقويماً لألسنة الصبية والشباب وكان الذين يحفظون القرآن أو شيئاً منه أجود نطقا بالعربية حين يتكلمون ، وأجدر أن يفقهوا دقائق اللغة حين يتعلمونها . وقد أهمل حفظ القرآن وتمرين الصبية على قراءته وتجويده في المدارس الحديثة حيناً ، فالتوت ألسنة الشباب وفسد نطقهم ، وضاقوا بدروس اللغة في مدارسهم ، ثم أعرضوا عنها بعد الخروج من المدارس ، ثم مال كثير منهم الى العامية فآثروها على الفصحى ، وحاولوا أن يجعلوها لغة الكتابة فلم تستقم لهم . ولأمر ما عاد القائمون على شؤون التعليم فراجعوا مناهج المدارس وبرامجها وجعلوا لقراءة القرآن وحفظه فيها مكاناً مرموقاً .

والقرآن بعد هذا كله هو الذي حفظ اللغة العربية أن تذوب في اللغات الأجنبية

التي تغلبت على اللغة العربية بحكم السياسة في عصور كثيرة وظروف مختلفة . فقد تفرقت كلمة المسلمين في السياسة ، وانحلت الخلافة العربية القديمة ، وخضع العرب لاستعمار الأعاجم . حكمهم الفرس في دار الخلافة نفسها أولا ، وحكمهم الترك بعد ذلك قروناً متصلة ، وجاء العصر الحديث فخضع العرب لسلطان الأجنبي الأوربي يقهرهم مرة بالاستعمار والحكم المباشر لهم ، ويقهرهم مرة أخرى بالتفوّق في الحضارة المادية والمعنوية جميعاً ، ويضطرهم الى أن يتعلموا اللغات الأوربية إرضاء لحكامهم من الأوربيين والتماساً لما في هذه اللغات من علم وأدب وفلسفة وفن . وكان هذا كله جديراً أن يمحق اللغة العربية محقاً ، ويذهب شخصية الشعوب العربية ، ولكن القرآن عصم هذه اللغة من الضياع وحال بين الخطوب الجسام وبين التأثير فيها . حرص العرب على القرآن لأنه يحفظ عليهم دينهم ولأنه قوام حياتهم ، فقرأه عامنهم وخاصتهم ، وحفظوا منه القليل والكثير ، ودرسه علماؤهم في المساجد والمدارس ، واختلف اليهم ألوف كثيرة من الطلاب على تباعد الأمكنة والأزمنة ، واضطروا من أجل فهم القرآن ودرسه في تعمق أن يدرسوا اللغة التي أنزل بها .

وأكثر من ذلك أن بعض الأمم الإسلامية التي خضعت لسلطان العرب في وقت مضى طوت قلوبها على بغض العرب والعروبة وآذتهم حين استطاعت إيذاء شديداً ، ولكنها على رغمها احتفظت بالقرآن لمكان الإسلام منها أو لمكانها من الإسلام ، فدرست القرآن ودرست لغته العربية .

واذا كانت هناك الآن وحدة إسلامية عامة أو شيء يشبه هذه الوحدة فبفضل القرآن وجدت ، وبفضل القرآن ستبقى مهما تختلف الظروف وتدلهم الخطوب . وإذا كانت هناك وحدة يحاول العرب أن يعودوا اليها ويقيموا عليها أمرهم في الحياة الحديثة كما قامت عليها حياتهم القديمة . فالقرآن هو أساس هذه الوحدة الجديدة كما كان أساساً للوحدة القديمة .

وليقرأ العرب إن شاءوا قول الله عز وجل في الآية الكريمة من سورة آل عمران :

« و اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولاَ تَفَرَّقُوا واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْواناً وكُنْتُم عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّار فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاته لعَلَّكُمْ تَهْتَدُون » .

فهذه الآية الكريمة التي أنزلت وتلاها النبي صلى الله عليه وسلم على قوم من العرب كانوا يخرجون من جاهليتهم ويدخلون في الإسلام ، فهم حديثو عهد بالكفر وحديثو عهد بالعصبية القديمة وحديثو عهد بتفرق القبائل واختصامها واحترابها لأيسر الأمور وأهونها شأناً ــ هذه الآية الكريمة ما زالت قائمة بعد قريب من أربعة عشر قرناً وستظل قائمة . وهذا الأمر للمسلمين بأن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا لم ينقض بانقضاء عهد الخروج من الجاهلية والدخول في الإسلام وإنما هو قائم دائماً ما دام في الأرض مسلمون . فمثل هذا الأمر في القرآن لا يخص قوماً بأعينهم ولا عهداً بعينه ولا مكاناً بعينه ، وإنما هو أمر شامل عام واجب الاحترام في كل زمان وفي كل مكان . والعرب أجدر الناس أن يفهموه وينفذوه فهو أنزل فيهم وأنزل في لغتهم واتجه اليهم أول ما أنزل .

ولو مضينا نعدد آثار القرآن الباقية في المسلمين عامة وفي العرب خاصة لما قضينا الحديث ولا فرغنا . فحسبنا ما أشرنا اليه منها على قلته .

ولنعد الى نص القرآن فنقف عند بعض سوره ، ونحاول ــ إن أتيحت لنا المحاولة ــ أن نبين بعض المظاهر المختلفة لما امتاز به القرآن من روعة البيان ، وما اختص به من هذه الملاءمة بين المعاني والألفاظ والأساليب . وقد أشرنا في هذا الفصل الى ما يكون من اختلاف بين بعض السور في أداء المعاني

الواحدة أو المتقاربة أشد التقارب بالآيات الطوال المبسوطة حيناً وبالآيات الخاطفة حيناً آخر .

فلنقرأ معاً قصة نوح وقومه وما جرى عليهم في الآيات الكريمة من سورة هود ، فسنرى هذه القصة قد فصلت تفصيلا كاملا في غير تزيد ولا إسراف ، وأديت معانيها في آيات ليست بالطوال ولا بالقصار ولكنها تؤدي المعاني في دعة وهدوء ؛ يكون فيها الإطناب حين يحتاج المقام الى الإطناب ، ويكون فيها الإيجاز حين يكون الإيجاز آخذ للقلب وأدل على ما أريدت الدلالة عليه من الهول الذي يصوره الإيجاز أكثر مما يصوره الإطناب ، ومن الأمر الذي يصدر فينفذ إثر صدوره في غير تردد أو إبطاء . وانظر الى أول القصة كيف أدي فيه الحوار أداء يسيراً يصوّر ما يكون بين رجل ينذر قومه وقومه ينكرون عليه ويجادلونه ، ثم يشتدون في الإنكار وينتهون الى إنذاره كما كان ينذرهم . واقرأ هذه الآيات في أول القصة :

« ولقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُم نَذِيرٌ مُبِين .أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيم » .

فانظر الى نوح كيف أدى رسالته في إيجاز ، فأنبأ قومه بأنه نذير لهم في الآية الأولى وأظهر الرفق بهم والإشفاق عليهم ، فدعاهم الى أن يعبدوا الله لأنه يخاف عليهم عذاب يوم أليم في الآية الثانية :

« فَقَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ومَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُم أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ومَا نَرَى لَكُم عَلَيْنَا مِنْ فَضْل بَلْ نَظُنُّكُم كَاذِبِين » .

ورد عليه الملأ من قومه فأنكروا دعوته لهم وأنبأوه بأنهم لا يرونه إلابشراً مثلهم . لا يمتاز منهم بشيء ، فكثر عليه أن يزعم لنفسه التحدث عن الله

والدعوة اليه والإنذار لهم بأسمه . ثم أضافوا الى ذلك بأنهم لا يستطيعون أن يتبعوه لأن الذين اتبعوه هم أراذلهم وأهونهم شأناً ، وهم أكبر في أنفسهم من أن يؤمنوا بما آمن به الأرذلون . أعلنوا اليه أنهم يكذبونه ويكذبون من اتبعه .

وانظر كيف رد عليهم نوح في الآيات الثلاث التالية ، فسألهم في الأولى : ماذا يصنع اذا كان الله قد آتاه بينة من عنده وآتاه رحمة منه ، فلم يعقلوها ، وبين لهم أنه لا يستطيع أن يلزمهم رحمة الله وهم كارهون لها . فالإيمان لا يكون بالإكراه وإنما يكون باستجابة القلب ورضى الضمير . وأنبأهم في الآية التي تليها بأنه لا يسألهم مالا جزاء على دعوته لهم الى الحق وإنما أجره على الله ، فليس لهم أن يعتلوا عليه ولا أن يشفقوا من دعوته على أموالهم .

وجادلهم في الذين اتبعوه فقال : إنه لا يستطيع أن يطردهم ، لأن ذلك ليس اليه وإنما هو الى الله الذي يعلم دخائل نفوسهم وسرائر ضمائرهم . وأفهمهم بأنهم إنما يستجيبون لحميتهم وكبريائهم حين يعتلون عليه بازدراء الذين آمنوا معه . ثم أنبأهم في الآية التالية بأنهم لا يستطيعون نصره ولا يستطيع غيرهم نصره من الله إن طرد الذين آمنوا معه لأنهم ليسوا من الطبقة الممتازة .

ثم تبرأ من كل الغرور ، فأنبأهم بأنه لا يزعم لنفسه السيطرة على خزائن الله ولا علم الغيب ، ولا أنه ملك وإنما هو رجل مثلهم ولا يستطيع أن يزعم أن الذين اتبعوه لن يؤتيهم الله خيراً لأن الممتازين من قومه يزدرونهم :

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُم إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِه فَعُمِّيتْ عَلَيْكُم أَنُلْزِمُكُمُوهَا وأَنْتُم لَهَا كَارِهُون . ويَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ ومَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا . إِنَّهُم مُلاَقُو رَبِّهِم

ولَكِنِّي أَرَاكُم قَوْماً تَجْهَلُون . ويَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرنِي مِنَ اللهِ إنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُون . ولاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ ولاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ ولاَ أَقُولُ إنِّي مَلَكٌ . ولاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكم لَنْ يُؤْتِيَهم اللهُ خَيْرًا . اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفسِهِمْ إنِّي إذًا لَمِنَ الظَّالِمِين » .

وقد ضاق به قومه بعد هذا الحوار فأنبأوه بأنه قد جادلهم فأكثر وأطال ، وسألوه ان كان صادقاً أن يأتيهم بما خوّفهم منه . فرد عليهم بأن الله وحده قادر على أن يأتيهم به إن شاء ، وأنهم أهون من أن يكونوا معجزين لله . واستيأس منهم أو كاد ، فقال لهم : إن نصحه لن ينفعهم إن كان الله قد كتب عليهم الغواية وهو ربهم وهم صائرون اليه آخر الأمر :

« قَالوا يَا نوح قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جدَالَنَا فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إنْ كنْتَ مِنَ الصَّادِقِين . قَالَ إنَّمَا يَأْتِيكم بِهِ اللهُ إنْ شَاءَ ومَا أَنْتم بِمُعْجِزِين . ولا يَنْفَعُكم نصْحِي إنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنْصَحَ لَكم إنْ كَانَ اللهُ يُرِيد أَنْ يُغْوِيَكم هوَ رَبُّكم وإلَيْه ترْجعون » .

وهنا تعترض آية ليست من القصة ولكنها تمت اليها بسبب ، كأن المشركين من قريش قد ارتابوا حين تليت عليهم هذه الآيات في صدق النبي ، وفي أن ما يتلوه عليهم قد أتاه من عند الله فأمره الله أن يقول لهم : لا عليكم إن كنت مفترياً فعلي وحدي تبعة ما أفتري . وأنا على كل حال بريء من جرائمكم :

« أَمْ يَقولون افْتَرَاه قلْ إنِ ٱفْتَرَيْتهُ فَعَلَيَّ إجْرَامِي وأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تجْرِمون » .

وينبيء الله نوحا بما يُشعره في وضوح بأنه لم يعجل حين استيأس من قومه ، فهم لن يثوبوا اليه وان يقبلوا منه دعوته ، ويعزيه الله عن هذا الإعراض ، فيقول :

« وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ . فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُون » .

ثم يأمره الله أن يتهيأ لما كتب له من النجاة هو وأهله والذين آمنوا معه ، فيأمره أن يصنع الفلك برعايته وعن أمره ، وينهاه أن يتوسل اليه في الذين ظلموا أنفسهم من قومه وأعرضوا عن دعوته فيقول :

« واصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ووَحْينَا ولاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُون » .

ثم ينبيء الله نبيه بما كان بين قوم نوح وبينه أثناء صنعه للفلك ، فهم كلما مروا به سخروا منه ، قد أوغلوا في الشك بل وثقوا بأنهم آمنون من عذاب الله وبطشه ، وبأن نوحاً يصنع فلكه عبثاً أو إمعاناً في تخويفهم من هول موهوم . ويرد نوح عليهم ساخراً أيضاً متوعداً لأنه واثق بما أنبأه به ربه :

ويَصْنَعُ الفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْه مَلأٌ مِنْ قَوْمه سَخِرُوا مِنْهُ . قَالَ إنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُم كَمَا تَسْخَرُون . فَسَوْفَ تَعْلَمُون مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيه ويَحِلُّ عَلَيْه عَذَابٌ مُقِيم » .

ثم أتى أمر الله وآن للظالمين من قوم نوح أن يعلموا حين لا ينفعهم العلم ، بأن نوحاً لم يكذب عليهم ولم ينذرهم عبثاً . فقد فار التنور وأخذ الماء يغمر الارض ، وأمر الله نوحاً أن يحمل في سفينته من كل زوجين اثنين ، وأن يحمل أهله إلا من كتبت عليه الشقوة منهم ، وأن يحمل تلك العصبة القليلة التي آمنت معه :

« حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وفَار التَّنُّور قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ومَنْ آمَنَ ومَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيل » .

وهذا نوح يأمر الناجين من أهله وأصحابه أن يركبوا في السفينة . وهو يسمي الله على مجرى السفينة ومرساها :

« وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ ربِّي لَغَفُورٌ رَحِيم » .

وهنا ينبغي أن نقف عند هذا الإيجاز الرائع المألوف كثيرا في القرآن ، والذي يقتضي أن يحذف من القصة كل ما يمكن أن يستحضره السامع والقارىء من أحداثها لأنه طبيعي لازم لما تلي من القصة . فهذا الماء قد غمر الأرض ، ولقي الظالمون من قوم نوح ما لقوا من الجهد ، وحاولوا كل محاولة ممكنة لينقذوا أنفسهم من الغرق ، فلم ينفع جهدهم ولم تغن عنهم محاولاتهم من الله شيئاً . ذلك لأن الله اذا أراد بقوم سوءاً فلا مرد له ولا سبيل الى اتقائه . ولكن القرآن هنا يهمل هذا كله فلا يتحدث عن المغرقين ولا عن جهودهم ومحاولاتهم ، ولا عما لقوا من الألم في أنفسهم ، ولا عما أحسوا من الندم لإعراضهم عن نوح ودعوته . لا يتحدث الله عن هذا وإنما يستأنف الحديث عن السفينة، فاذا هي تجري بأصحابها في موج كالجبال ، وإذا نوح يفتقد ابنه فيراه مع الكافرين ، واذا ابنه قد حقّ عليه العذاب فهو لا يستجيب

لأبيه ، وإنما يزعم أنه سيأوي الى جبل يعتصم به من الماء . ونوح يحاول أن يقنعه بألا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . ولكن الموج يحول بين الابن وأبيه ؛ فيصير ابنه الى الغرق مع المغرقين :

« وهِيَ تَجْرِي بِهِم فِي مَوْجٍ كَالجِبَال ونَادَى نُوحٌ ٱبْنَه وكَانَ فِي مَعْزِل يَا بُنَيَّ ٱركَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الكَافِرِين . قَالَ سَآوِي إلَى جَبَل يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْر ٱللهِ إلَّا مَنْ رَحِمَ وحَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِين » .

كم من يوم ظل الماء غامراً للأرض ؟! وكم من يوم جرت السفينة في هذه الأمواج المتلاطمة قبل أن تستقر على الجودي ؟! هذه أشياء لا يتحدث الله بها في هذا الموضع من القصة وإنما يتركها لفهم السامع والقارىء وتقديرهما . وفي هذا الإيجاز المعجز ما يصور هول القصة . وربما صور الهول بالإعراض عن وصفه تصويراً أروع وأشد من وصفه .

وانظر الى فعلي الأمر هذين اللذين يوجه أحدهما الى الأرض بأن تبتلع ماءها ووُجه ثانيهما الى السماء بأن تكف عن صب الماء . وإذا الماء يغيض ، وإذا الأمر كله قد قضي ، واذا السفينة قد استقرت على الجودي ، وإذا نداء ببعد القوم الظالمين . فعلا أمر في أول الآية . ثم أنباء قصار أشد القصر ، موجزة أروع الإيجاز ، قاطعة لا معقب لها ، تلقى في أفعال بُني أكثرها لما لم يسم فاعله .

وتنتهي بهذه الأنباء قصة ما أصاب قوم نوح من العذاب :

« وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ

الْمَاءُ وقُضِيَ الأَمْرُ وَاَسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

على أن قصة نوح نفسه لم تنته بعد . فهو محزون على ابنه الذي أغرق وكأنه يعاتب ربه فيه ولكن في إيمان به وإذعان لحكمه فيقول :

« إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي » .

كأنه يذكر أن الله قد أمره أن يحمل أهله في السفينة ولكن ربه يرد عليه رداً فيه الشدة والرفق جميعاً . فينبئه بأن ابنه ليس من أهله لأنه عمل غير صالح ، ويعظه ناهياً له عن أن يسأله ما ليس له به علم . وإذا نوح يثوب الى نفسه ويتوب الى ربه ، ويعوذ به من أن يسأله ما ليس له به علم ، ويلتمس منه الرحمة والمغفرة :

« وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّه لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِين . قَال رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بهِ عِلْم وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِين » .

ثم يؤمر نوح أن يهبط إلى الأرض بسلام من الله عليه وعلى فريق ممن معه وينبأ بأن فريقاً آخر ممن معه يستمتعون في الحياة الدنيا ثم يضطرون إلى عذاب أليم . آمنوا بدعوة نوح فنجوا من الغرق ولكنهم محتاجون إلى أن يمتحنوا في



الدنيا فإن أحسنوا نجوا وإن أساءوا فعذاب الله مدخر للذين يخالفون عن أمره ويظلمون أنفسهم :

« قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

وهنا تنتهي قصة نوح في هذه السورة الكريمة وينبئ الله نبيه بأن أحداث هذه القصة ، إنما هي بالقياس إليه وإلى قومه من الغيب لم يعلمها النبي ولم تعلمها قريش ، إلا بعد أن أوحيت إليه في هذه الآيات ؛ ثم يأمر الله نبيه أن يصبر على ما يلقى عن إعراض قومه عنه وإيذائهم له ، كما صبر نوح على ما لقي من قومه فكانت له العاقبة ، لأن العاقبة دائماً للمتقين :

« تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ » .

وما أشك في أنك حين قرأت هذه الآيات لم تعجل في قراءتها لأنها مبسوطة قد اطمأنت وتتابعت في رفق وفي مهل أيضاً . فأنت تقرأها مفكراً فيها ، معتبراً في أحداثها ، لا يعجلك عن ذلك شيء . وأنت معجب بانبساط الحديث ومضي القصة في أناة تؤدي المعاني مستوية ، ويأتي الإيجاز حين يجب أن يأتي ، فلا يضيع عليك شيئاً من تمهلك ؛ ولا يعجلك عن التأمل والتدبر .

ولكن لنقرأ معاً هذه القصة نفسها في سورة أخرى هي سورة الشعراء . ولنوازن بين الأناة هنا والسرع هناك ؛ وسنرى أن من العسير أن نقف عند كل آية من آيات القصة في سورة الشعراء كما وقفنا بإزاء الآية والآيات في القصة نفسها من سورة هود . وسنرى سبب ما يكون بين القصتين من فرق في السورتين .

وسورة الشعراء كلها تروع وتبهر بقصر آياتها وانسجامها في هذا القصر وفي اتساق الفواصل في الآيات كلها حتى الآيات الأخيرة التي يقال إنها أنزلت في المدينة . وإن كانت الآية الأخيرة من السورة أطول شيئاً من سائر الآيات . وهي منسجمة كذلك بآيتين تأتيان بنصهما في آخر كل قصة ، بل في آخر كل حديث ما عدا آخر السورة وهما قول الله عز وجل :

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ومَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِين . وإن رَبَّكَ لَهُو العَزِيز الرَّحِيم » .

فهما تأتيان ختاماً لكل حديث . وتوطئة للانتقال إلى حديث آخر أو قصة أخرى . وقد فصلت آيات السورة على قدر واحد حتى كأن إحداها لا تزيد على الأخرى أو تنقص عنها .

وهذا الأسلوب مألوف في القرآن تراه في سورة الصافات مثلا ، وترى شيئاً منه في قصار السور التي أنزلت بمكة والتي تقرأها في آخر المصحف .

وفي سورة الشعراء هذه يتجه الحديث أولا إلى المشركين من العرب وإلى قريش منهم خاصة . فيذكرون بآيات الله ويعاب جحودهم وإصرارهم على العناد والكفر . ويختم هذا القسم من الحديث بالآيتين اللتين تلوناهما آنفاً . ثم تأتي قصة موسى وإرساله إلى فرعون ، وما كان من حديث موسى مع السحرة ، وما كان من إخراج موسى لنبي إسرائيل من مصر عن أمر الله ، واتباع فرعون لهم وإنجاء الله لموسى وقومه ، وإغراقه فرعون ومن معه . وتختم القصة بالآيتين نفسهما . ثم تأتي قصة إبراهيم ومن بعدها قصة نوح ، ثم قصة ثمود ، فقصة قوم لوط ، فقصة شعيب وقومه . ثم يعود الحديث فيتجه إلى قريش ، حتى توشك السورة أن تنتهي فتختم بالآيات المدنية التي يذكر فيها الشعراء .

وقصة نوح هنا موجزة أشد الإيجاز ، لا يذكر فيها تفصيل العذاب الذي أخذ الله به الظالمين من قوم نوح ، وإنما يكتفى بذكر إغراق الله لهم ولا يذكر

فيها صنع الفلك وحمل من حمل نوح فيه ، ولا وصف الموج الذي جرت فيه السفينة ، ولا قصة ما أصاب ابن نوح من العذاب ، ولا الحديث بين نوح وبين ربه ؛ لا يذكر من هذا كله شيْ وإنما يقص الحوار بين نوح وقومه وإعراض قومه عن دعوته وإنذارهم نوحاً بالرجم إن لم ينته عن دعوته ، ودعاء الله نوحاً أن ينجيه ، وما كان من نجاته في الفلك المشحون ، ونجاة من آمن معه وإغراق الظالمين . فقد اختصرت القصة هنا ، لأن ما قصد إليه من القصص كلها في هذه السورة إنما أريد به إلى تذكير المشركين بآيات الله فيمن سبقهم من الأمم ، وتخويفهم أن يصيبهم مثل ما أصاب تلك الأمم ، وإظهارهم على بطش الله بالظالمين ، وعلى الآيات الكبرى التي آتاها الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن أجل هذا اكتفي بما يؤدي هذه الأغراض في قوة وعنف يملكان على السامعين والقارئين أمرهم كله ، ومن أجل هذا أيضاً أديت هذه الأغراض في هذه الآيات القصار المتابعة في نسق واحد كأنها السيل المندفع الذي يغمر كل ما يلقاه أو كأنها الريح العاصفة التي لا تدع شيئاً تأتي عليه إلا دمرته تدميراً .

واقرأ إن شئت هذه الآيات التي صورت فيها قصة نوح وقومه ، وقسها إلى الآيات التي أثبتناها من سورة هود ، فسترى أنك حين تأخذ في قراءة الآيات هنا ستجد نفسك منساقاً بل مدفوعاً إلى المضي في القراءة حتى تبلغ آخر القصة : لا تقف بين آية وأخرى وإنما تقف حين تبلغ ختام القصة لتتدبر وتتفكر . وأكاد أقطع بأنك إذا بدأت السورة من أولها فستمضي فيها إلى آخرها ثم تراجع نفسك بعد ذلك في جملتها وتفصيلها وفي روعتها وإعجازها :

« كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُون . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِين . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى

رَبِّ الْعَالَمِين . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُون ، قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُون . قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون . إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُون وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِين . إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِين . قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِين . قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُون . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِين . فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُون. ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِين . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِين . وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم » .

وهذا الأسلوب الرائع مألوف في القرآن كما قدمنا ، يلتزم فيه تكرار آية بعينها أو غير آية للانتقال من حديث إلى حديث ، كمَا في سورة الصافات وسورة القمر ، وأحياناً لا يلتزم هذا التكرار وإنما يرسل نظام الآيات إرسالا مع اتحاد الفواصل ، كما في سور كثيرة من المفصل .

وفي القرآن أسلوب آخر من التكرار للتخويف حيناً وللتعجيز حيناً آخر كما ترى في سورة المرسلات من ختام الآيات دائماً، يقول الله عز وجل :

« وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِين » .

والسورة كلها تخويف . وكما في سورة الرحمن حيث تنتهي الآيات كلها بهذا الإستفهام الرائع .

« فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان » .

والسورة كلها تصف قدرة الله وتعدد آلاءهُ على الناس .

وأسلوب آخر في القرآن تتسق فيه فواصل الآيات ويلزم فيها أو في أكثرها نسق بعينه كالذي تراه في سورة مريم من ختام الآيات أو أكثرها بكلمات تنتهي بالياء المشددة المفتوحة .

« كٓهيعٓصٓ . ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا . قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا . وإني خِفْتُ المَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي ويَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجْعَلهُ رَبِّ رَضِيًّا ».

وعلى هذا النسق تمضي آيات السورة حتى تذكر قصة يحيي ومريم والمسيح وطائفة أخرى من الأنبياء لا تخالف عنه إلا في آيات قليلة .

والتزمت في قصة يحيي والمسيح آية بعينها مع شيء من الخلاف بين آخر القصتين . كان الحديث عن يحيي حديثاً عن الغائب فقيل في آخر قصته :

« وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » .

وكان المسيح يكلم في المهد بني إسرائيل فقيل في آخر كلامه :

« وَسَلَامٌ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا » .

وأسلوب آخر من الفواصل لا يلتزم فيه حرف بعينه كما التزمت الياء في مريم ، أو حرفان كما التزمت الياء والنون في الشعراء مثلا ، وإنما تلتزم حركة بعينها هي الفتحة ، وإن اختلفت الحروف في أواخر الكلمات ،

كالذي تراه في سورة الكهف من التزام الكلمات المنصوبة أو المفتوحة الآخر :

« الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً . قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيدًا مِنْ لَدُنْه ويُبَشِّر المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُم أَجْرًا حَسَناً مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا . ويُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللهُ وَلَدًا . مَا لَهُمْ بهِ مِنْ عِلْمٍ ولاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِن أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً . فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِم إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفاً . إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْض زِينَةً لهَا لِنَبْلُوَهُم أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا . أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ والرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً . إِذْ أَوى الفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، وهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهم فِي الكَهْف سِنِينَ عَدَدًا . ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْن أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهم وزِدْنَاهُم هُدًى » .

وتمضي السورة على هذا النحو إلى آخرها .

وكذلك التزمت الفتحة في سورة الإسراء ، وكادت الراء أن تلتزم معها في أكثر فواصل السورة .

والتزمت الفواصل المقصورة في أكثر سورة طه ، والنجم ، والأعلى ، والضحى . وحديث الفواصل في القرآن أطول وأكثر تنوعاً من أن نحصيه في هذا الفصل . وربما كان من الممكن أن يخص لها كتاب كامل .

وما نجده فيها من التنوع – إن دل على شيء – فإنما يدل على أن القرآن قد أنزل ليتلى ، ويتلى في صوت يسمع . ذلك يظهر تنوع الآيات في خواتيمها وفواصلها . ويظهر ألواناً مختلفة تروع باختلافها من الموسيقى . فإذا أضيف ذلك إلى عذوبة الألفاظ واتساق النظم واختلاف الأسلوب باختلاف المقامات شدة وليناً وترغيباً وترهيباً وتبشيراً وإنذاراً ، لم يشك سامع أو قارئ في أن فنون الإعجاز في القرآن أكثر وأروع من أن تحصى أو يحاط بها .

وأكبر الظن أن التزام هذه الفواصل المتسقة إنما يكون حين يتحد موضوع السورة أو يأتلف ائتلافاً شديداً . فسورة الشعراء مثلا قد اختلفت فيها قصص الأمم التي كذبت رسلها ، ولكن موضوعها واحد هو التخويف ، والإرهاب ، وإنذار قريش وغيرها من مشركي العرب ، بأن ما أصاب تلك الأمم التي أصرت على تكذيب الرسل قد يصيبهم إن أصروا على تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم .

وسورة طه توشك قصة موسى أن تستغرقها . وفي سورة مريم تمجيد للأنبياء وتخويف للجاحدين .

وأكبر الظن أيضاً أن الفواصل حين تلتزم على هذا النحو يدل التزامها على أن السورة أنزلت مرة واحدة ولم تنجّم آياتها ، كما تكون الحال في سور أخرى لم تلتزم فيها الفواصل على هذا النحو ولم يتحد موضوعها ، أو يشتد الائتلاف بين موضوعاتها إن تعددت . واتحاد الموضوع نفسه وشدة ائتلاف الموضوعات حين تتعدد ؛ قد يشعر بأن السورة أنزلت جملة واحدة وإن لم يلتزم في فواصلها ما نراه ، قد التزم في السور التي أشرنا إليها .

فسورة يوسف مثلا قد اتحد موضوعها اتحاداً لا شك فيه ، قد قصرت على قصة يوسف . وما أرى إلا أنها أنزلت جملة .

وقل مثل ذلك في سورة هود . أو فيما اشتمل عليه أكثرها من قصص الأمم التي كذبت رسلها . فبعد أن بدئت بآيات فيها الإنذار والتخويف وضرب الأمثال للموعظة ، قصت فيها قصة نوح في الآيات التي أثبتناها منذ حين . وعند الفراغ من قصة نوح عطفت عليها قصة عاد وبدئت هذه القصة بالآية الكريمة :

« وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُون » .

ثم عطفت عليها قصة ثمود بنفس الأسلوب :

« وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُم مِنَ ٱلأَرْضِ وٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيب » .

ثم عرض طرف من حديث إبراهيم وقصة لوط وقومه ، ثم قصة شعيب وقومه أهل مدين في قوله عز وجل :

« وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُم شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ولاَ تَنْقصُوا المِكْيَالَ والمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيط » .

ويلاحظ أن قصة قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب ختمت كلها بخواتم متشابهة . فنرى في آخر قصة المغرقين من قوم نوح :

« وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

وفي آخر قصة عادٍ وقوم هود نقرأ :

« وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهِمْ أَلاَ بُعْدًا لِعَادٍ قَوْم هُود » .

وفي آخر قصة ثمود وقوم صالح نقرأ .

« كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَروا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِثَمُودَ » .

ونقرأ في آخر قصة أهل مدين :

« كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ » .

وبعد هذه القصص ، الذي يحدث أخبار الأمم التي كذبت نوحاً وهوداً وصالحاً ولوطاً وشعيباً وموسى ، تختم السورة بالتذكير بآيات الله ، وإثبات أن النبي صادق فيما يحدث به لأنه يتلو أنباء لمْ يكن يعلمها ولم يكن قومه يعلمونها :

« ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ القُرَى نَقُصُّه عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيد ».

وتنتهي السورة بتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم بكل ما قص عليه في السورة وتخويف الذين لا يصدقونه من المشركين وإعلان أن الله مستأثر بغيب السماوات والأرض ، وأن مصير كل شيْ وكل إنسان إليه .

« وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذه الحقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِين . وَقُلْ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُون اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُم إِنَّا عَامِلُونَ . وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرون . وَلِلهِ غَيْب السمٰوَاتِ وَالأَرْضِ

وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّه فَاعْبُدْهُ وتَوَكَّلْ عَلَيْه وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون » .

وسورة أخرى في القرآن تشبه سورة هود في خصائصها هذه ، وفي أنها أنزلت جملة واحدة ، كسورة الأنفال التي أنزلت في غزوة بدر ولم تتجاوزها إلا إلى ما يتصل بقريش وكفرها ومكرها بالنبي بما كانت وقعة بدر نتيجة له .

وكذلك سور أخرى في القرآن تكثر موضوعاتها وتتباعد الصلة بين هذه الموضوعات ، ولا يلتزم في فواصلها ولا في أسلوبها نسق بعينه منذ تبدأ إلى أن تنتهي . فسورة البقرة مثلا كثرت فيها الموضوعات وتباينت ، فدلّ هذا على أن السورة لم تنزل مرة واحدة وإنما نجمت تنجيما . فهي : تبدأ بذكر المؤمنين الذين يتقون الله ، ويؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، وينفقون مما رزقهم الله ، ويؤمنون بما أنزل على النبي وما أنزل على الأنبياء من قبله ، ويوقنون بالآخرة وما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب .

« أُولٰئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون » .

ثم تتحدث عن الذين كفروا ، والذين لا يجدي إنذارهم أو إمهالهم ، والذين لا يؤمنون على كل حال ، وقد ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وغشيت أبصارهم وكتب عليهم عذاب عظيم . ثم تتحدث عن المنافقين الذين يقولون : آمنا وليسوا بمؤمنين والذين يريدون أن يخادعوا الله والذين آمنوا فلا يخدعون إلا أنفسهم ، والذين في قلوبهم مرض فيزيدهم الله مرضاً ويدخر لهم عذاباً أليماً عقاباً على كذبهم بإظهارهم الإيمان وإضمارهم الكفر . ثم تصف بدء الخلق وخلق آدم وتذكر قصة إبليس حين أبى أن يسجد مع الملائكة إعظاماً لخلق آدم ، وطرده من الجنة ، وإغواءه آدم وزوجه حتى أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن أن يقرباها ، وإخراجهما من الجنة وتوبة الله على آدم آخر الأمر .

ثم تذكر اليهود فتطيل في ذكرهم وتفصل من أنبائهم وسيرتهم مع المسلمين ومحاجتهم للنبي شيئاً كثيراً .

ثم تذكر طرفاً من قصة إبراهيم حين أنزل من ذريته بواد غير ذي زرع وحين بنى البيت بمكة ، وتذكر طرفاً من حديث الأنبياء ، ثم تذكر تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، ثم تذكر الصفا والمروة وأنهما من شعائر الله ، وتذكر طرفاً من حساب الكافرين يوم القيامة ، ثم تذكر البر وتبين حقائقه ، ثم يشرع فيها القصاص وبعض أحكام الوصية ، ويشرع الصيام وصيام رمضان خاصة ، ثم يجاب فيها عن الذين يسألون عن الأهلة . ويذكر فيها شيء من أمر القتال ، ومن أمر الحج ، ومن أمر المعاندين من مشركة قريش . ثم يذكر فيها إثم الخمر والميسر ، ويبين فيها للناس ما ينبغي لهم أن ينفقوا في صدقاتهم . ثم تشرع فيها طائفة من أحكام الزواج والطلاق والعلاقة بين الأزواج وعدة المرأة إذا طلقت وإرضاع الوالدات أولادهن وما لهن على أزواجهن من حق في ذلك ، واسترضاع الأولاد عند غير أمهاتن وحق المرضعات على آباء من يرضعن من الطفل .

ثم يرجع الحديث إلى اليهود ويقص ما كان بين طالوت وجالوت من القتال وقتل داود لجالوت وإيتائه الملك والحكم والنبوة . ثم تعظ المؤمنين وتذم الكافرين وتعلن ألا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ، وتذكر طرفاً من حديث إبراهيم حين حاج الملك الذي كفر فحجه ، وحين سأل الله أن يريه كيف يحيي الموتى ، فأراه الله من ذلك ما أراد . ثم تأمر المؤمنين بالصدقة ملحة عليهم فيها مبينة لهم أحكامها ومرشدة لهم إلى خيرها وأكملها ومواضعها .

ثم تحرم الربا وتشدد في تحريمه . ثم تأمر المؤمنين إذا تداينوا وتبايعوا أن يكتبوا ما تداينوا عليه أو ما تبايعوه وأن يستشهدوا على ذلك رجلين أو رجلا وامرأتين ممن يرضون من الشهداء ، وتحظر كتمان الشهادة وتبين أن من يكتمها فإنه آثم قلبه . ثم تختم السورة بإعلان ما اجتمع عليه النبي والمؤمنون من الإيمان

بالله وملائكته وكتبه ورسله ، غير مفرقين بين أحد من رسله ، ومن إذعانهم لربهم وإنابتهم إليه وسمعهم وطاعتهم لأمره حين يأمرهم ونهيه حين ينهاهم وتضرعهم إليه في ألا يؤاخذهم إن نسوا أو أخطأوا ، وألا يحمل عليهم إصراً كما حمله على الذين من قبلهم ، وألا يحملهم ما لا طاقة لهم به ، وأن يعفو عنهم ويغفر لهم ويرحمهم وينصرهم على الكافرين .

وواضح أن كل هذه الموضوعات إنما فصلت آياتها للناس في إبانها ، وحين اقتضت حياتهم وظروفهم أن تتلى عليهم وتبصرهم بما يحتاجون إليه إلى أن يبصروا به حين تنوب النوائب وتعرض الأحداث .

ومثل هذا يقال في سورة آل عمران التي لم تكثر فيها الموضوعات كما كثرت في سورة البقرة ، ولكنها اختلفت وتباعدت .

فالسورة تبدأ بإثبات التوحيد وأن الله الذي لا إله إلا هو نزل على رسوله الكتاب بالحق وجعل فيه آيات محكمات وأخر متشابهات ؛ فالذين زاغت قلوبهم يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله مع أن الله وحده هو العالم بتأويله ، وأما الراسخون في العلم من المؤمنين فيؤمنون بالكتاب كله محكمه ومتشابهه ؛ وبأنه جاء من عند الله يفهمون منه ما يستطيعون ويكلون ما تشابه منه إلى الله .

ثم أخذت السورة في ذم الكافرين وتخويفهم ، وبينت ما يفتن الناس في الحياة الدنيا ويوبق بعضهم في الكفر وبعضهم في المعصية .

وذكرت اليهود وذمت بعض أعمالهم ، ونهت المؤمنين أن يتولوا الكافرين ورغبتهم في اتباع النبي لأنه دليل على حبهم لله ، وحذرهم الله نفسه فيها ، وعلم نبيه والمؤمنين ما يدعون الله به من أنه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ومن أن بيده الخير ، ومن أنه على كل شيء قدير ، ومن أنه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويرزق من يشاء بغير حساب .

ثم قص الله فيها ما كان من استجابته لزكريا حين وهب له يحيى ، وما جعل له من آية على ذلك ، ثم قص أنباء مريم والمسيح في شيء من التفصيل واسع ، ثم جادل أهل الكتاب من النصارى وأمر النبي أن يباهلهم إن حاجوه فيما جاءه من عند الله في أمر المسيح ، وأن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء ألا يعبدوا إلا الله وألا يشركوا به شيئاً وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، وأن يشهدهم إن أبوا أنه وأصحابه مسلمون لله .

ثم مضى في حديث أهل الكتاب من النصارى واليهود ، فذكر شيئاً من أخلاقهم وسيرتهم ، وفرق بين الأمناء منهم والخائنين ، ثم ذكر إسرائيل وأنه أحل له الطعام كله إلا ما حرم هو على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . ثم فرض الحج على المسلمين من استطاع إليه سبيلا ، وذكر أن فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأن من دخله كان آمناً ، وأنه أول بيت وضع للناس .

ثم أمر المؤمنين أن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا . وأن يذكروا ما كانوا عليه من القلة والضعف قبل أن يكثرهم ويؤمّنّهم ، وكلفهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، وذكر المؤمنين والكافرين بيوم القيامة وما يكون فيه من نجح للمؤمنين وخزي للكافرين .

كل هذا يأتي أثناء محاجة اليهود ، ثم يفرق بين أهل الكتاب ، فمنهم المؤمنون الصالحون الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات . ومنهم الكافرون الذين يجحدون الحق وينسون نعمة الله عليهم ويشاقون الله ورسوله . ثم يحذر المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين الذين يبغضونهم ، ويعضون عليهم الأنامل من الغيظ ، ولا يألونهم خبالا ، يفرحون إن أصابت المؤمنين سيئة ، ويستاءون إن أصابتهم حسنة ، ويودون لو استطاعوا أن يردوا المؤمنين بعد إيمانهم كفاراً ، وهم مع ذلك يعلنون الإيمان ويجهرون به . ثم ينهى الله المؤمنين أن يأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، ويحذرهم النار ، ويأمرهم بطاعة الله ورسوله والمسارعة إلى مغفرة من ربهم وإلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، ثم يذكر وقعة أحد ويلوم المنهزمين فيها

من المسلمين ويعفو عنهم . ويمضي في أنباء هذه الوقعة وما كان بعدها وتثبيت قلوب المؤمنين وتهيئتهم لما سيبلون به في أنفسهم وأموالهم ولما سيسمعون من أذى المشركين واليهود، ويبشرهم بما أعد للشهداء عنده من حياة راضية . ويذكرهم باياته ثم يرغبهم في الصبر ويأمرهم أن يصبروا ويصابروا ويرابطوا ويتقوا الله لعلهم يفلحون .

فهذه السورة اشتملت فيما عدا الوعظ والتخويف على ما قص الله من أمر المسيح وأمه وعلى محاجة النصارى واليهود وعلى قصة أحد ، فمن البيّن أن هذه الموضوعات لم تنزل آياتها جملة وإنما نزلت منجّمة حسب الظروف والأحداث .

وقل مثل هذا في سائر سور القرآن الكريم .

فكل سورة يتحد موضوعها أو تتداعى موضوعاتها تداعياً شديداً ويلتزم فيها نسق بعينه فيرجح أنها نزلت جملة .

وكل سورة تختلف موضوعاتها وتتباعد ولا تتداعى ولا يلتزم في آياتها نسق بعينه فيرجح أنها نزلت منجمة .

والقرآن كله من عند الله ، وهو وحدة في روحه وفي إعجازه مهما يختلف تنزيل سوره ، ومهما تختلف موضوعات السور ومذاهب القول فيها .

واختلاف مذاهب القول في القرآن دليل قوي من دلائل الإعجاز . فللقرآن وحدته من حيث إنه يدعو دائماً إلى أصول معينة : إلى توحيد الله ، ونبذ الشرك على اختلاف صوره ، والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من القرآن ، والإيمان بالرسل الذين جاءوا قبل محمد ، وما أنزل عليهم من الكتب ، والإيمان بالبعث وبالحياة الآخرة بعد هذه الحياة الأولى وما يكون فيها من ثواب ونعيم لمن أجابوا دعوة الله ، ومن عذاب وجحيم لمن أعرضوا عن هذه الدعوة ونفروا منها واستكبروا على الله ورسوله ، ثم هو يأمر الناس بأن يقيموا

حياتهم على هذه الأسس ، حياتهم فيما بينهم وبين نفوسهم بحيث يبرأون من الرذائل كلها كبارها وصغارها فلا يضمرون في أنفسهم منها شيئاً ، وحياتهم الظاهرة فيما يكون بينهم وبين غيرهم من الناس فلا يظلمون ولا يستعلون ولا يؤثرون الشر وإنما ينبذونه ما استطاعوا إلى نبذه سبيلا ، ويؤثرون عليه الخير وحده ؛ فيحسنون إلى الوالدين ويتجنبون الإساءة إليهما حتى ولو كانا مشركين ففي هذه الحال يخالفونهما إلى الإيمان ويعاشرونهما في الدنيا معروفاً . ويبرون أولي القربى ، ويرحمون اليتامى والمساكين ، ويعطفون على الفقراء وأولي الحاجة ، ويعدلون فيما بينهم وبين نظرائهم من صلة ، والناس جميعاً نظراؤهم مهما تكن منزلتهم الاجتماعية . فالفقير نظير الغني والضعيف نظير القوي والرقيق نظير الحر لكل حقوق يجب أن تؤدى إليه وعلى كل واجبات يجب أن يؤديها . والمهم أن يلائم الإنسان بين إيمانه بالله الواحد القوي العالم بكل شيء القادر على كل شيء ، وما أعد من خير للمحسنين وما أعد من شر للمسيئين ، أن يلائم بين إيمانه الصادق بهذا كله وبين ما يخفي وما يظهر من ذات نفسه وما يأتي من الأعمال وما يدع منها . ومن أجل هذا يشرع الله للناس في القرآن من الأحكام والأصول ما يبين لهم السبيل إلى هذه الملاءمة ، ويمهد لهم الطريق إلى أن يقيموا حياتهم على السلم الكاملة بينهم وبين الله ما عاشوا في هذه الدنيا .

والنفس المطمئنة التي ذكرها الله في سورة الفجر ودعاها إلى أن ترجع إلى ربها راضية مرضية وإلى أن تدخل في عباده وتدخل جنته ، إنما هي هذه النفس التي صدقت في إيمانها بالله ورسله وكتبه وثوابه وعقابه وأخلصت هذا الإيمان واطمأنت إليه فعاشت في سلم مع الله لا تحاربه بالمعصية حرباً ظاهرة أو باطنة .

وأما النفوس الأخرى التي لم تطمئن إلى إيمان ولم تستقم على ما أمرت به وإنما جارت عن القصد والتوت بها السبل ، فهي تظهر السلم وتضمر الحرب ؛ فتعلن الأسلام وتضمر الكفر ، أو تضمر الإيمان ولكنها لا تثبت له ولا تقوى عليه ، وإنما تقترف الآثام وتجترح السيئات ، وتستجيب لشهواتها فتجور وقد أمرت بالعدل ، وتفجر وقد أمرت بالبر ، وتعصي وقد أمرت بالطاعة .

كل هذه النفوس محاربة لله حرباً خفية أو ظاهرة بالقياس إلى الناس ، ولكنها جلية بينة بالقياس إلى الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وفي بيان ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم — فيما روى الشيخان — : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . يريد أن ارتكاب الكبائر لا يكون من الإنسان وهو مستحضر إيمانه بالله ورسوله وما أعد من ثواب وعقاب ، فلو قد استحضر الإنسان هذا الإيمان لصده عن الفواحش . ولكن غرائزه تطغى على نفسه كلها فتجور بها عن الطريق ، ثم يثوب الإنسان إلى نفسه أحياناً فيندم ويأسي ويتوب إلى الله ويسأله العفو والمغفرة .

إلى هذا كله وإلى أكثر من هذا كله ، دعا الله في القرآن في تفصيل أي تفصيل ، وفي ترغيب للراغبين وترهيب للراهبين ، وتخويف للذين تغرهم أنفسهم وتزدان في أعينهم زهرة الحياة الدنيا فيفتنون بها . فلا غرابة في أن تختلف مذاهب القوم في القرآن باختلاف الموضوعات وباختلاف المقامات أيضاً . وإنما الغرابة في التزام مذهب واحد من مذاهب القول في التشريع والقصص والتبشير والإنذار والموعظة اللينة واللوم العنيف . وهذا التنوع في مذاهب القول بتنوع الموضوعات والمقامات هو الذي يسميه أصحاب البيان في اللغة العربية ، وفي غيرها أيضاً مطابقة الكلام لمقتضى الحال . فالإنذار بقيام الساعة وما يكون فيه من الهول ، وبيوم الحساب وما يكون فيه من الشدة يقتضي أن يكون القول من القوة والأيد ، بحيث يملأ القلوب رعباً ولا سيما حين يكون النذير متجهاً إلى الملحين في الإنكار والعناد والمكابرة . وأنت تقرأ من هذا الإنذار الشديد المروع في القرآن شيئاً كثيراً . واقرأ إن شئت طائفة من السور القصار في آخر المصحف ، فسترى تصوير الهول قد بلغ من القوة ما يملأ النفوس رهباً ورعباً .

واقرأ إن شئت ما جاء في سورة التكوير والانفطار والانشقاق ، وانظر إلى ما فيها من هذه الآيات القصار المتلاحقة التي تنصب على السامعين كأنها الصواعق

المتابعة . واقرأ إن شئت في السور الطوال والقصار جميعا بعض الآيات التي يستحضر فيها يوم الحساب وما يكون فيه من الهول المروع للمجرمين ومن الأمن الآمن للمؤمنين، فسترى الشدة كل الشدة واللين كل اللين ، وستراهما متجاورين ، وستحس كأنك تشهد ما أعد للمجرمين من هول وما أعد للمؤمنين من أمن ، فتضطرب نفسك أشد الاضطراب بين الرهب والرغب وبين الخوف والأمن . وقلما يفترق الترهيب والترغيب في القرآن ، وإنما يوشكان أن يجتمعا دائماً . ولأمر ما كان هذا الاجتماع ، فالله لا يوئس الكافرين من رحمته حتى يفتح لهم باب الأمل فيها ويمد لهم أسبابه إليها. فليس بين الكافر الجاحد المعاند الذي يرى عذابه كأنه حاضر بين يديه ، وبين الجنة ونعيمها إلا أن يؤمن .

فالكافر بين شيئين يكاد يراهما رأي العين حين يتلى عليه القرآن : عن يمينه جنة فيها الأمن والرضى والنعيم ، وعن شماله النار فيها الهول والروع والعذاب وما عليه إلا أن يختار . والله لا يوئس المؤمن العاصي وإنما يجعل بين يديه خطيئته التي تكبه على وجهه في النار وتوبته التي تسعى به إلى الجنة . والله يبين للكافرين وللعصاة من المؤمنين أنه غفور رحيم ، وأن رحمته وسعت كل شيء ، وأن السبيل إلى رحمته هو أن يؤمن الكافر وأن يتوب المؤمن ويصلح وكلاهما مختار بين ما يدخله الجنة وما يوقعه في النار .

وقف إن شئت عند كل موضوع عرض له القرآن فسترى من ملاءمة القول للموضوع وللمقام مثل ما بينت لك آنفاً .

ولو ذهبت أصف فنون الإعجاز في القرآن وملاءمة كل مذهب من مذاهب القول فيه لما فرغت من هذا الحديث . والقرآن بعد ذلك بين يدي كل ذي بصيرة يستطيع أن يقرأه وأن يقف عند سوره وآياته متدبراً متأملا مستبصراً ، فسيرى من غير شك أني لم أبلغ من وصف القرآن وإعجازه بعض ما أريد ، وإعجاز القرآن شيء يشعر به القلب وتمتلئ به النفس ويذعن له الضمير ويعجز عن وصفه القلم واللسان .

واضح أني لم أرد في هذا الحديث إلا ن أصور تصويراً مقارباً موقع القرآن من قلوب الذين سمعوه حين كان النبي يتلو على الذين استجابوا له والذين امتنعوا عليه ، ولم يكن امتناعهم عليه إلا إمعاناً في العناد ولجاجاً في المراء .

ولننتقل الآن إلى الأصل الثاني من أصول الإسلام وهي السنة .

٣

أشرت في أول الكتاب الثاني أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسل بشيراً ونذيراً وشاهداً على أمته وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، كما نص الله عز وجل ذلك في سورة الأحزاب .

وأريد أن أبين في هذا الفصل أن ما ثبت من سنة النبي قولا وعملا إنما هو خلاصة تبشيره وإنذاره ودعوته إلى الله ، أن أبين أيضاً أن النبي كان — كما أشرت إلى ذلك في أول الكتاب — معلماً حياته كلها منذ بعث إلى أن آثره الله بجواره . كان يتلو القرآن على المسلمين ويفسر لهم منه ما يحتاج إلى تفسير ، ويفصل لهم منه ما كان مجملا يحتاج إلى التفصيل ، وكان يعلم أحياناً عن أمر الله له في القرآن نصّاً . فالله يأمره أن ينبئ عباده بأنه هو الغفور الرحيم ، وبأن عذابه هو العذاب الأليم ، وذلك في قوله من سورة الحجر :

« نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ . وأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيم » .

ويأمره أن يقول لعباده إن سألوه عن الله إنه قريب يجب دعوة الداعي إذا دعاه ويأمرهم أن يستجيبوا له ويؤمنوا به لعلهم أن يرشدوا، وذلك في قوله من سورة البقرة :

«وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ولْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُون » .

ويأمره أن يقول لعباده الذين يسرفون على أنفسهم باقتراف الذنوب : لا تقنطوا من رحمة الله لأنه يغفر الذنوب جميعاً ، ولأنه هو الغفور الرحيم . وذلك في قوله من سورة الزمر :

«قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيم » .

وفي غير آية من القرآن الكريم يأمر الله النبي أن يعلم عباده أشياء كثيرة مما يريد أن يعلموها . سواء في ذلك ما كان أمراً لهم بالخير ، أو نهياً لهم عن الشر ، أو تثبيتاً لقلوبهم ، أو عصمة لهم من اليأس والقنوط .

وأحياناً يأمره أن يقول لهم أشياء ليس فيها أمر ولا نهي ولا تثبيت للقلوب ، وإنما فيها مجرد العلم ، مثل قوله في سورة الكهف :

« قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا » .

فهو في هذه الآية لا يأمرهم ولا ينهاهم ، ولا يثبت قلوبهم ولا يذود عنهم اليأس ، وإنما يعلمهم أن كلامه أزلي خالدٌ لا سبيل إلى إحصائه ولا إلى انقضائه ، حتى ولو حاول الناس كتابته بمداد يشبه في كثرته ما في البحر من الماء ، حتى ولو مد هذا البحر ببحر آخر مثله .

وفي موضع آخر من القرآن يذكر الله هذا المعنى في تفصيل أكثر وأشمل ، ويتحدث هو إلى الناس في الآية الكريمة من سورة لقمان :

« وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيم » .

وأحياناً أخرى يوجه الله عز وجل الحديث الى الناس ولا ينص أمره بتكليف النبي أن يعلمهم كذا أو كذا ، ولكنه على ذلك قد اختاره لرسالته وأمره أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه وأن يبلغه كاملا كما أنزل إليه لا يزيد فيه ولا ينقص منه .

وهذا الأمر نفسه يقتضي أن يبلغ النبي نص ما أنزل إليه كما ألقي في قلبه ، وأن يبينه للناس حين يحتاجون إلى بيانه ، وهو بينه للناس بما يلقي الله في قلبه من العلم .

فالله يأمر المؤمنين أن يقيموا الصلاة ، ويأمرهم أن يؤتوا الزكاة ، ولكنه لا يبين لهم في القرآن كيف تؤدى الصلاة ، ولا يبين لهم مواقيتها في تفصيل ، ولا يبين لهم عدد الركعات في كل صلاة ، وإنما يعلم نبيه هذا كله بما يلقي في قلبه من المعرفة . وعلى النبي أن يعلم الناس مما علمه الله ، ولا يخفي عليهم منه شيئاً يمكن أن ينفعهم في الدنيا والآخرة إن فعلوه ، أو يمكن أن يضرهم في الدنيا أو الآخرة إن اقترفوه . فالنبي حين يصلي الصبح ركعتين بعد طلوع الفجر وقبل طلوع الشمس ، إنما يفعل ذلك عن أمر ربه ، ويفعله لأداء واجب عليه ، ثم ليعلم الناس كيف يؤدون ما يجب عليهم من الصلاة لله تعالى .

وقل مثل ذلك في سائر الصلوات المكتوبة . وهو حين يصلي بعض النوافل قبل أداء المكتوبة أو بعدها إنما يفعل ذلك عن تعليم الله له ، وليعلمه للناس على

انه ليس حتماً عليهم بل هو مستحب منهم ، وهو حين يبين النصاب الذي تجب فيه الزكاة من المال ، ومقدار ما يطلب في هذه الزكاة ، إنما يبين ذلك للناس عن أمر ربه أيضاً .

وقل مثل ذلك في كل ما أجمله القرآن وفصله النبي بتعليمه للناس بالقول أحياناً وبالعمل أحياناً وبهما جميعاً أحياناً أخرى .

وقد بين الله للناس كيف يؤدون إليه حقه عليهم من صيام رمضان ، فأمرهم أن يحيوا حياتهم المألوفة ليلاً حتى إذا تبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر صاموا عن الطعام وعن أشياء أخرى مما ألفوا إلى الليل .

ولكن هذا الصيام الذي بينه الله وبين ما رخص فيه لمن كان مريضاً أو على سفر لم يفصل في القرآن كل التفصيل ؛ فالناس يألفون أشياء كثيرة في حياتهم كلها مباح لهم ، ولم يحظر الله على الناس من هذه الأشياء في القرآن إلا الطعام والشراب والرفث . وفصل النبي للمؤمنين سائر ما يجب عليهم أو يحسن بهم أن يجتنبوه وما لا حرج في أن يأتوه ، وقل مثل ذلك في الحج وفي كل ما أمر الله به أو نهى عنه إجمالا أو تفصيلا .

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذن أول مفسر للقرآن ، وهو فسر القرآن بالقول وبالعمل ، ولامر ما جعلت كتب الحديث بين أبوابها باباً نقلت فيه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو عمل بمناسبة سورة أو آية من القرآن . والله قد طلب إلى الناس في القرآن أن يؤمنوا به وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالأنبياء والرسل الذين جاءوا قبل محمد ، وبما أنزل من كتب قبل القرآن ، وأن يؤمنوا باليوم الآخر وما يكون فيه من الحساب والثواب والعقاب ، وأن يؤمنوا بالملائكة . فقال في الآية الكريمة من سورة البقرة :

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ والمُؤمِنُون كُلٌّ

آمَنَ بِاللهِ ومَلاَئِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُله وقَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وإِلَيْكَ المَصِير » .

وقال في أول السورة نفسها في بيان المتقين :

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ويُقِيمُونَ الصَّلاَة ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون . والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ومَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِك وبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُون . أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهم وأُولَئِكَ هُمْ المُفْلِحُون » .

والله ذكر الإسلام فقال في سورة آل عمران :

« إِنَّ الدِّينَ عِنْد اللهِ الإِسْلاَم » .

وقال في سورة الأنعام :

« فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمْ ومَنْ يُرِد أَن يُضِلَّه يَجْعَل صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّد فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُون » .

وذكر الله في غير موضع من القرآن أن إبراهيم قد أسلم وجهه لله ، وأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وإنما كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ، وقال في سورة آل عمران :

« مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً ولاَ نَصْرانِيًّا ولَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً ومَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِين . إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَبعُوه وهَذَا النَّبِيُّ والَّذِينَ آمَنُوا واللهُ ولِيُ المُؤْمِنِين » .

وقال في سورة البقرة على لسان إبراهيم :

« رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلمَيْن لك ومِنْ ذُرِّيَتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيم . رَبَّنَا وابْعَث فِيهم رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُو عَلَيْهم آيَاتِكَ ويُعَلِّمُهُم الكِتَابَ والحِكْمَة ويُزَكِّيهِمْ إنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيم . ومَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيم إلاَّ مَن سَفِه نَفْسَهُ ولَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِين . إذْ قَالَ لَهُ رَبُّه أَسْلِم قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَّبِّ العَالَمِينَ . ووَصَّي بِهَا إبْرَاهِيمُ بَنِيِّهِ ويَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إنَّ اللهَ اصْطَفَي لَكُم الدِّين فَلاَ تَمُوتُنَّ إلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوتُ إذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي . قَالُوا نَعْبُدُ إلٰهَك وإلٰه آبَائِكَ إبْرَاهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ إِلٰهاً وَاحِدًا ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون .تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ

ولَكُمْ مَا كَسَبْتُم ولاَ تُسْأَلُون عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وقَالُوا كُونُو هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ . قُولُوا آمَنَّا باللهِ ومَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ، ومَا أُوتِيَ النَّبِيُّون مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُم وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون . فَانْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُم اللهُ وهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

فالله يثبت في هذه الآيات دعاء إبراهيم وإسماعيل أثناء رفعهما القواعد من البيت أن يجعلهما الله مسلمين له ، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له ، وأن يبعث في هذه الأمة رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة، وينبئنا بعد ذلك بأن أبناءه وأحفاده ظلوا مسلمين من بعده ، وأن يعقوب قد وصى بنيه بالإسلام وامتحنهم فيه حين حضره الموت .

ثم ينبئنا بأن أهل الكتاب يزعمون أن من أراد الهدى فعليه أن يكون يهودياً أو نصرانياً . ثم يأمر الله نبيه أن يرد عليهم بقوله ـ :

« بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

ويأمر المؤمنين بأن يعلنوا إيمانهم بالرسل والنبيين من قبلهم ، وبما آتاهم ربهم من كتاب وعلم ودين وأنهم مسلمون لله .

ويقول الله في سورة الحج :

« يـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَٱسْجُدُوا وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي ٱللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ ومَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّين مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُم إِبْرَاهِيم هُوَ سَمَّاكُم المسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُم وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَٱعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُم فَنِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِير »

فإبراهيم إذن هو الذي سمى المؤمنين مسلمين ، وهو أبوهم ، وقد كان مسلماً . وقد قرأت آنفاً ما قص الله من دعائه في سورة البقرة ، ودعاء إسماعيل معه ، حين سألا ربهما أن يجعلهما مسلمين له ويجعل من ذريتهما أمة مسلمة له .

فالله إذن قد ذكر الإيمان والإسلام في هذه الآيات التي تلوناها ولم يفرق بينهما . كلاهما فيه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والجهاد في سبيل الله وفعل الخير ، وأداء كل ما يأمر الله به ، واجتناب كل ما نهى الله عنه . والله قد ذكر الإيمان والإسلام في آيات أخرى كثيرة من القرآن ولم يفرق بينهما . فقال في سورة « المؤمنون » يصف الذين آمنوا حق الإيمان وهو بذلك يعرف الإيمان تعريفاً عملياً بأنه أداء ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه :

« قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُون . الَّذِين هُم فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُون وَالَّذِينَ هُمْ عَن اللَّغْوِ مُعْرِضُون ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُون ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُون . إِلَّا عَلَى

أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُم غَيْرُ مَلُومِين . فَمَنْ ٱبْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُون . وَالَّذِينَ هُم لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُون . وَالَّذِينَ هُم عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُون . أُولَئِكَ هُم الوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُون الفِرْدَوْس هُم فِيهَا خَالِدُون » .

ويقول الله في سورة الأحزاب :

« إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَات وَالمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ وَالقَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَتِ وَالخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ وَالمُتَصَدِّقِينَ وَالمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ ٱللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وأَجْرًا عَظِيماً » .

فهو في هذه الآية يعطف المؤمنين على المسلمين ، وفي هذا العطف إشارة إلى أن بين الإسلام والإيمان شيئاً من الاختلاف . وليس من الضروري أن يكون هذا الاختلاف تناقضاً أو تغايراً بين اللفظين ، وإنما يمكنُ أن يأتي الاختلاف من أن بين معنى هاتين الكلمتين شيئاً من الافتراق في الزيادة والنقص فمعنى إحدى هاتين الكلمتين أكمل من معنى الكلمة الأخرى . ثم يعدد الله في هذه الآية الكريمة صفات كلها يدخل في معنى الإيمان وفي معنى الإسلام . فهي تدل على أوامر من الله يجب أن تؤدى ونواهي من الله يجب أن يُجتنب ما تنهى عنه .

على أن الله يوضح الفرق بين الإسلام والإيمان توضيحاً لا يحتمل نزاعاً في قوله من سورة الحجرات :

« قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَم تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِن أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيم » .

فأولئك الأعراب الذين أعلنوا أنهم آمنوا ، يأمر الله نبيه أن يرد عليهم بأنهم لم يؤمنوا ، ويأذن لهم في أن يقولوا أسلمنا ، وإن كان الإيمان لم يدخل في قلوبهم بعد . ثم يعلن إليهم أنهم إن يطيعوا الله ورسوله لا ينقصهم الله من أعمالهم شيئاً وإنما يوفيهم أجر ما عملوا كاملاً يوم القيامة ذلك أن الله غفور رحيم .

وإذن فقد كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنون ومسلمون . فما عسى أن يكون الفرق بين الإيمان والإسلام ؟ فأما الإيمان فالظاهر من هذه الآية الكريمة نفسها ، أنه شيء في القلوب قوامه إخلاص الدين لله من دخيلة النفس واستقرار التصديق بوجوده وبإرساله النبي وبكل ما أوحى إليه في أعماق الضمير . ونتيجة هذا الإيمان الاستجابة لله ولرسوله في كل ما يدعوان إليه ، من غير جمجمة ولا لجلجة ولا تردد مهما تكن الظروف والخطوب والكوارث والأحداث على نحو ما ذكر الله من أمر المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القَرْح يوم أحد ، فخرجوا مع النبي في أعقاب المشركين من قريش ، على ما أصابهم من حزن ، وما بذلوا في الموقعة من جهد وما كانوا عليه من قلة وضعف ، والذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم هذا القول إيماناً ، وصمموا على اتباع النبي وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . وذلك في قول الله عز وجل في سورة آل عمران ، بعد أن ذكر حياة الشهداء عنده :

« فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون : يَسْتَبْشِرُون بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المُؤْمِنِين . الَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ القَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُم وَٱتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيم . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُم فَزَادَهُم إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللهِ وَفَضْل لَمْ يَمْسَسْهُم سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ ، وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيم».

ولازمة أخرى من لوازم هذا الإيمان ذكرها الله في سورة الأنفال ، هي الخوف العميق من الله إذا ذُكر اسمه ، والثقة العميقة بالله إذا جد الجد، وازدياد التصديق إذا تُليت آيات الله ، وذلك في قوله :

« إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون » .

فهذا هو الإيمان صورناه تصويراً مقارباً ، فأما الإسلام فهو الطاعة الظاهرة لما يأمر الله ورسوله به وما ينهيان عنه ، بأداء الواجبات واجتناب المحظورات، وإن لم يبلغ الإيمان الصادق من القلب المبلغ الذي وصفه الله في الآيات الكريمة التي أثبتناها آنفاً . فمن الناس من يسلمون خوفاً من البأس ، كما أسلم الطلقاء من قريش يوم فتح مكة ، ومنهم من يسلم خوفاً وطمعاً كالأعراب الذين

ذكرهم الله في سورة الحجرات ، وجائز أن يصير هذا الإسلام إلى الإيمان على مر الزمن ومن أجل ذلك اصطنع الله لفظ « لما » في قوله في الآية التي أثبتناها آنفاً بشأن هؤلاء الأعراب :

« وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُم » .

فكل مؤمن مسلم ، لأنه يصدق تصديقاً عميقاً ويطيع الطاعة الظاهرة والباطنة . وليس كل مسلم مؤمناً . والإسلام كما شرحناه آنفاً هو الذي يعصم نفوس أصحابه وأموالهم من النبي ومن أولي الأمر بعده إلا بحقها وحسابهم على الله .

ذلك أن النبي كان كثيراً ما يُستأذن في قتل المنافقين أو من يظهر منهم الشك ، فيأبى ويقول ، إني لم أومر بالتنقيب عما في قلوب الناس .

والإيمان يزيد وينقص ولا داعي لتكلف الدليل على ذلك . فقد نَص ذلك في القرآن في الآية التي أثبتناها آنفاً من سورة الأنفال حيث يقول :

« وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً » .

وفي الآية التي أثبتناها أيضاً من سورة آل عمران ، حيث يقول الله :

الَّذِين قَالَ لَهُم النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهم فَزَادَهم إِيماناً وَقَالُوا حَسْبُنَا الله ونِعْمَ الوَكيل » .

وما تجوز عليه الزيادة يجوز عليه النقص . ومن أجل هذا يُذكر في حديث الشفاعة أن الله يقول لنبيه حين يشفع عنده في أمته : اذهب فأخرج من النار من كان في قلبه مقدار حبة من إيمان . ثم يقول له آخر الأمر : اذهب فأخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان .

والإسلام كذلك يضيق ويتسع . فإسلام إبراهيم عليه السلام لم يكن طاعة

ظاهر تؤديها الجوارح ، وإنما كان طاعة واسعة عميقة تملأ القلب وتمتزج بالنفس وتسخر لها الجوارح ويقدم لها على ما لا يُقدم الناس عليه إلا بالجهد كل الجهد واستكراه النفس عليه أشد الاستكراه . ومن أجل ذلك قدم إبراهيم ابنه ضحية ، وكاد يبلغ من ذلك غايته لولا أن كفه الله عن ذلك فناداه : أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ؛ ثم فداه بذبح عظيم .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم مسلماً وكان سائر الأنبياء مسلمين كما رأيت منذ حين . فلم يكن إسلام الأنبياء جميعاً طاعة ظاهرة . وإنما كان إسلامهم أوسع وأعمق وأصدق ما يمكن أن يكون الإسلام . وإسلام الصالحين من أصحاب النبي ، كذلك لم يكن كإسلام الأعراب ضيقاً يقف عند الطاعة الظاهرة وإنما كان أوسع وأعمق من هذا .

ومن أجل ذلك تحدث الله عنهم في القرآن حين قال في سورة الفتح :

« لَقَدْ رَضِيَ ٱللهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » .

فهم قد كانوا بايعوا رسول الله على الموت ، طابت أنفسهم عن ذلك استجابة لله ورسوله . وتحدث الله عنهم أيضاً بأنه رضي عنهم ورضوا عنه .

وللإسلام بعد ذلك معنى آخر أخص جداً من هذا ، فهو علم على الدين الذي يرضاه الله لعباده .

وقد نص الله ذلك في قوله من سورة المائدة :

« الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ . الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً » .

وفي قوله من سورة آل عمران :

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ ٱللهِ ٱلْإِسْلَام » .

وقد ذكر الله شيئاً ثالثاً في القرآن وهو الإحسان وذلك في قوله.من سورة النحل :

« إِنَّ ٱللهَ يَأْمُر بِالعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وإِيتَاءِ ذِي القُرْبى وينْهى عَن ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكم لَعَلَّكُمْ تَذكَّرُون » .

وفي الآية التي أثبتناها من سورة آل عمران حيث يقول :

« الَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا للهِ والرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ القرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهم واتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيم » .

و في كل آية ذكر الله فيها

« لاَ يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِين » ،

أو أنه .

« يَجْزِي ٱلْمُحْسِنِين » ،

أو أنه

« يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ »

كل هذا يدل على الإحسان لأن لفظه مشتق منه ، ولأن معناه يلائم ما أمر الله به .

والإحسان هو أن يبلغ الإنسان في الطاعة حتى يصل منها إلى أقصى ما يطيق لا يفتر ولا يكسل ولا يقصر ، بل يجتهد بقلبه ونفسه وجوارحه ما وجد إلى الاجتهاد سبيلا .

فهذه كلمات ثلاث في القرآن ، الإيمان والإسلام والإحسان ، يكثر استعمالها وتتقارب معانيها . وقد عرّفها النبي صلى الله عليه وسلم فلم يجعل في واحدة منها شكاً . وذلك في الحديث الذي رواه الشيخان عن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجد ثائر الرأس ، يُسمع دوي صوته ولا يُفقه ما يقول ، حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خمس صلوات في اليوم والليلة ، فقال : هل عليّ غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تتطوع . قال رسول الله صلى الله وصيام رمضان . قال : هل عليّ غيره ؟ قال : لا ، إلا أن تتطوع . قال : وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة . قال : هل علي غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تتطوّع . قال : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفلح إن صدق » .

فهذا الحديث يفسر الإسلام الذي كان عليه الأعراب ، وهو هذه الطاعة الظاهرة في أداء الفرائض واجتناب المحظورات .

ولكن لأبي هريرة حديثاً أجمع من حديث طلحة وإن كنت أخشى أن يكون في آخره شيءٌ من تزيد ، وقد رواه الشيخان أيضاً . قال أبو هريرة : كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه وبرسله وتؤمن بالبعث . قال : وما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان . قال : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : متى الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها ، إذا ولدت الأمة ربها ، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان ، في خمس لا يعلمهن إلا الله . ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم .

« إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ »

الآية . ثم أدبر . فقال : رُدّوه فلم يروا شيئاً . فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم .

والقسم الأول من الحديث هو الذي يعنينا لأنه مطابق للقرآن ، فالإيمان — كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم — هو الذي ذكره الله في الآية المتقدمة من سورة البقرة . وكذلك الإسلام والإحسان . والله عنده علم الساعة — ما في ذلك شك — لأنه منصوص في القرآن . فأما أشراطها التي جاءت في الحديث وأن الرجل الذي جاء يسأل النبي كان جبريل قد أقبل يعلم الناس دينهم ، فإنا نتركه لأبي هريرة ولمن روى عنه يحملون تبعته .

وفي حديث آخر — يرويه الشيخان عن عبد الله بن عمر — يذكر النبي الأركان الخمسة للإسلام فيقول : بُني الإسلام على خمسة : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان .

وهذه الأركان كغيرها من الأعمال التي أمر الله بها أو ندب إليها . والتي علّمها النبي لأصحابه لا تُقبل من أصحابها إلا إذا حسنت نيتهم وصدق إيمانهم حين يؤدونها . ومن أجل ذلك قال النبي في الحديث الذي يروى عن عمر ، والذي يوشك ثقات المحدثين أن يجمعوا على صحته حتى قال بعضهم إنه متواتر : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو أمرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . ومعنى ذلك أن إخلاص النية لله فيما يؤدي الإنسان من الفرائض وما يأتي من أعمال الخير والبر شرط لصحة ما يأتي وما يدع ، وقبول ذلك من الله عز وجل . والنية لا تكون بالألسنة وحدها وإنما يجب أن تكون في أعماق القلوب سواء أنطق بها الإنسان أم لم ينطق .

ومن أجل هذا كله تأذّن الله أن أعمال المنافقين لا تقبل ، وأنبأ بأنهم في الدرك الأسفل من النار وقال لنبيه :


الله

« ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللهُ لَهُمْ » .

ونهاه آخر الأمر عن أن يصلي على أحد منهم مات أبداً أو يقوم على قبره . ذلك لأنهم كانوا يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ؛ يعلنون الإيمان ويبطنون الكفر . وكانوا إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى لا ينشطون لها ولا يقبلون عليها من قلوبهم . كأنما كانوا يستكرهون عليها استكراهاً .

ولم يكتف النبي بتعليم الناس حقائق الإيمان والإسلام والإحسان وإنما كان يعلمهم خصائص هذه الخصال الثلاث وما ينبغي لأصحابها من العمل وما يجب عليه أن يجتنب في خاصة حياته وفي صلاته بالناس . فكان يعلمهم أن الإنسان لا يؤمن حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه ، وكان يعلمهم أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا ينبغي له أن يؤذي جاره ، ولا أن يقصر في إكرام ضيفه . وكان يعلمهم أن جائزة الضيف يوم وليلة ، وأن الضيافة ثلاثة أيام ، وأن ما زاد على هذه الأيام الثلاثة من القرى فهو صدقة على الضيف .

وكان يعلمهم حتى الأشياء التي بينها الله في القرآن بياناً لا لبس فيه . فالله قد بين الوضوء في الآية الكريمة من سورة المائدة :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكم وأَيْدِيَكُمْ إِلى ٱلْمَرَافِقِ وٱمْسَحُوا برُؤُوسِكُمْ وأَرْجُلَكُمْ إِلى الكَعْبَيْنِ وإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فاطَّهَّرُوا ، وإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ على سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ منكمْ مِنَ ٱلْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكمْ وأَيْدِيكُمْ مِنْه ، مَا يُرِيدُ ٱللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ولكنْ يُريد لِيُطَهِّرَكُمْ

وَلْيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون » .

فالله قد بيّن للناس في هذه الآية كيف يتوضأوون للصلاة ، وأن عليهم أن يغتسلوا إن كانوا جنباً ، فإن لم يجدوا الماء للوضوء أو للاغتسال أو كان الماء يؤذيهم إن اصطنعوه لمرض يمنعهم من اصطناعه ، أو كانوا مسافرين — فلهم أن يمسوا صعيداً طيباً ، وأن يمسحوا منه وجوههم وأيديهم إلى المرافق ، فذلك يجزئهم عن الوضوء والغسل جميعاً . ثم بين الله تعالى في آخر الآية أنه لا يريد أن يشق على عباده وإنما يريد منهم أن يطهروا .

وعلى رغم ما في هذا كله من الوضوح ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ للناس ليريهم كيف يتوضأوون. وكان يتيمم لهم أيضاً ليريهم كيف يتيممون . وكان يذكر لهم كيف يغتسلون . كل هذا ليكون المسلمون على ثقة مما يأتون ويدعون ، وليكون النبي مؤدياً لرسالته على أتم وجه وأحسنه ، وكان يلح عليهم في النظافة ؛ نظافة أجسامهم وثيابهم ومجالسهم ، بل نظافتهم في حياتهم مع الناس ، فكان ينهى الذين يأكلون البصل أو الثوم أو أي شيء تؤذي رائحته أن يدخلوا المسجد ويشهدوا صلاة الجماعة ، حتى لا يؤذي بعضهم بعضاً . وكان يرخص لهم في الصلاة فرادى في بيوتهم حتى يذهب عنهم ما يمكن أن يؤذي جلساءهم . وكان يلح عليهم في أن تكون طرقهم التي يمشون فيها نظيفة ، وينبئهم بأن إماطة الأذى عن الطريق فضيلة يكمل بها الإيمان .

وكان يكره لمن عنده فضل من الماء أن يمنعه ابنَ السبيل ومن تشتد حاجته إليه .

ثم كان يحثهم على الأمانة في معاملاتهم كلها في حفظ الودائع وأدائها الى أصحابها وفي البيع والشراء وفي جميع أقوالهم وأعمالهم ، وكان يشدد عليهم في العدل في صلاتهم كلها ، ويحرّج على المختصمين بين يديه أن يجور بعضهم على بعض ولو بفصاحة الألسنة والبراعة في الجدل . وكان ينبئهم بأن

من غلب خصمه باللسن أو قوة العارضة ثم قضى له بغير ما يستحق فانما قضى له بقطعة من النار .

وكان بهذا كله ينفذ فيهم قول الله تعالى في سورة النساء :

« إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَنْ تحكمُوا بالْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكم به إِنَّ ٱللَّه كانَ سَمِيعاً بَصِيرًا » .

وكان يشدد في تخويف الحكام من الأئمة والولاة والقضاة بالعذاب الشديد ؛ إن جاروا في الرعية ولم يرفقوا بها ، ولم يرعوا العدل في أحكامهم تنفيذاً لقول الله فى الآية الكريمة من سورة النحل :

« إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُربَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءُ وَالمُنْكرِ والبغْيِ يَعِظُكم لَعَلَّكُم تَذكَّرون » .

ولم يكن شيء أبغض اليه من نقض العهود والحنث في الإيمان ، يبين للناس قول الله في سورة النحل :

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللهِ إِذَا عَاهَدْتمْ ولا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَد جَعَلْتمُ ٱلله عَلَيْكمْ كَفيلاً إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . ولاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْد قُوَّة أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانكم دَخَلاً بينكم أَنْ تَكونَ أُمَّةٌ هِي أَرْبَى من أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لكم يَوْمَ ٱلْقِيَامَة ما كنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلفُون » .



وكان شديد الحياء جداً ، وكان شديداً فيه على أصحابه ، وكان يقول لهم إن الحياء شعبة من الإيمان . ثم كان لا يدع صغيرة أو كبيرة من أعمال الناس في حياتهم العامة والخاصة الا بين لهم ما يحسن أن يأتوا منها وما يحسن أن يتركوا ، وكان يعظهم فيبلغ في الموعظة حتى يوشك أن يشرف بهم على اليأس . ثم يبشرهم فيبلغ في تبشيرهم حتى يفتح لهم أبواب الرجاء على مصاريعها . وكان كثيراً ما يقول لأصحابه : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً .

ثم كان يحب اليسر في الأمر كله لا يخير بين أمرين الا اختار أيسرهما ، وكان يقول لأصحابه إنما بعثتم ميسرين لا معسرين . وكان يكره الغلو في الدين وتجاوز القصد في العبادة . بلغه أن رجلا من أصحابه ومن خيارهم هو عبد الله بن عمرو بن العاص أزمع أن يصوم الدهر ويقوم الليل فراجعه في ذلك أشد المراجعة ، وذكره بأن لجسمه عايه حقاً ولأهله عليه حقاً وما زال به حتى ألزمه بعد ما رأى من تشدده أن يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وأنبأه أن ذلك كان صيام نبي الله داود .

وأبى على رجل من كرام أصحابه — هو عثمان بن مظعون — أن يترهب ويعتزل أهله .

وكان هو يشتد على نفسه في العبادة ، فيقوم كثيراً في الليل وربما واصل بين الليل والنهار في صيامه ، وكان أصحابه يريدون أن يصنعوا صنيعه فينهاهم عن ذلك أشد النهي كراهة أن يشددوا على أنفسهم فيشدد الله عليهم . ويقول لهم في مواصلة الصوم : إني لست كهيئتكم إني أظل يطعمني ربي ويسقيني ، يريد الله يمنحه من الصبر والجلد وحسن الاحتمال ما لا يمنح غيره من أصحابه.

ونحن نروي لك شيئاً من موعظته لأصحابه لترى كيف كان يبلغ بوعظه أعماق النفوس ودخائل الضمائر .

قال لأصحابه ذات غداة : « إنه أتاني الليلة آتيان وانهما ابتعثاني وإنهما قالا لي : انطلق ، وإني انطلقت معهما ، وإنا أتينا على رجل مضطجع ، وإذا آخر قائم عليه بصخرة واذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه ،

فيتهدهد الحجر ها هنا ، فيتبع الحجر ، فيأخذه ، فلا يرجع اليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى .

قال : قلت لهما : سبحان الله ! ما هذان ؟

قال : قالا لي : انطلق .

قال : فانطلقنا ، فأتينا على رجل مستلق لقفاه ، وإذا آخر قائم عليه بكوب من حديد ، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر شدقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه .

قال : ثم يتحوّل الى الجانب الآخر ، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأولى ، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى .

قال : قلت : سبحان الله ! ما هذان ؟

قال : قالا لي : انطلق . فانطلقنا ، فأتينا على مثل التنور ، فاذا فيه لغط وأصوات .

قال : فاطلعنا فيه . فاذا فيه رجال ونساء عراة ، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم ، فاذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوْا (١) .

قال : قلت لهما : ما هؤلاء ؟

قال : قالا لي : انطلق ، انطلق .

قال : فانطلقنا . فأتينا على نهر أحمر مثل الدم ، وإذا في النهر رجل سابح يسبح ، واذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، واذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيغفر له فاه فيلقمه حجراً . فينطلق يسبح ثم يرجع اليه ، وكلما رجع اليه فغر له فاه فألقمه حجراً .

---

(١) أي : ضجوا وصاحوا .

قال : قلت لهما : ما هذان ؟

قال : قالا لي : انطلق ، انطلق .

قال : فانطلقنا ، فأتينا على رجل كريه المرآة ، كأكره ما أنت راء رجلا ، مرآة ، واذا عنده نار يحشها ويسعى حولها .

قال : قلت لهما : ما هذا ؟

قال : قالا لي : انطلق ، انطلق .

قال : فانطلقنا ، فأتينا على روضة معتمة ، فيها من كل نور الربيع ، واذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولا في السماء ، واذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط .

قال : قلت لهما : ما هذا ؛ ما هؤلاء ؟

قال : قالا لي : انطلق ، انطلق .

قال : فانطلقنا فانتهينا الى روضة عظيمة ، لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن .

قال : قالا لي : ارقَ فيها .

قال : فارتقينا فيها فانتهينا الى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة ، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ، ففتح لنا ، فدخلناها فتلقانا فيها رجل ، شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء ، وشطر كأقبح ما أنت راء .

قال : قالا لهم : اذهبوا فقعوا في ذلك النهر .

قال : واذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض في البياض . فذهبوا فوقعوا فيه . ثم رجعوا الينا وقد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا في أحسن صورة .

قال : قالا لي : هذه جنة عدن وهذا منزلك .

قال : فسما بصري صعداً ، فاذا قصر مثل الربابة البيضاء .

قال : قالا لي : هذاك منزلك .

قال : قلت لهما : بارك الله فيكما ، ذراني فأدخله . قالا : أما الآن فلا ، وأنت داخله .

قال : قلت لهما : فإني قد رأيت الليلة عجباً . فما هذا الذي رأيت ؟

قال : قالا لي : أما إنا سنخبرك . أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر ، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة . وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه فانه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق . وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور فانهم الزناة والزواني . وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر ، فانه آكل الربا . وأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النار ، يحشها ويسعى حولها فانه مالك خازن جهنم . وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فانه إبراهيم صلى الله عليه وسلم . وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة .

قال : فقال بعض المسلمين : يا رسول الله أوَ أولاد المشركين !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأولاد المشركين .

وأما القوم الذين كانوا : شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم قوم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئا تجاوز الله عنهم .

وهذا الحديث يرويه البخاري بالنص الذي رويناه ويوافقه عليه مسلم ، وتظهر فيه الصحة لأنه لا يعدو ما أنذر الله به المذنبين من ألوان العذاب إلا أن يتوبوا ويصلحوا . ولأن قوة لفظه وحسن تمثيله وإشراق عبارته كل ذلك يلائم ما نعرف من فصاحة النبي وروعة بيانه .

ففكر في موقع هذا الكلام من قلوب أصحاب النبي حين سمعوه ، وكيف خوّف حتى ملأ القلوب رعباً ، وكيف رغّب حتى ملأ النفوس أملا .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم ربما عاقب بعض أصحابه فأبلغ في عقابهم عن أمر الله له بذلك ، إمعاناً في تأديبهم وضنّاً بهم أن يشبهوا المنافقين في قليل أو كثير .

فهؤلاء الثلاثة الذين كانوا من خيار أصحابه ، والذين تخلفوا عن النبي ولم يخرجوا معه في غزوة تبوك ، وإنما أقاموا في المدينة وانتظروا فيها عودة النبي اليها ، فصنعوا صنيعاً يشبه صنيع المنافقين من أهل المدينة وممن حولها من الأعراب ؛ أولئك الذين رغبوا بأنفسهم عن رسول الله واستحبوا الراحة على العناء والجهد ، وأشفقوا على أنفسهم من عواقب الحرب ، وأولئك الذين ذكرهم الله في آيات كثيرة من سورة التوبة يلومهم ويعنفهم ويأمر نبيه ألا يصلي عليهم إن ماتوا ، ولا يقوم على قبورهم ، ويأمره كذلك ألا يقبل منهم الخروج معه بعد هذا الذنب .

وقد كره الله ورسوله لهؤلاء الثلاثة من المؤمنين الصادقين أن يظهر من صنيعهم شيء يشبه قليلا أو كثيراً صنيع المنافقين .

وقد ذكر الله توبته على هؤلاء الثلاثة ، ولكن بعد أن أدبهم النبي وأبلغ في تأديبهم نصحاً لهم أولا وموعظة للمؤمنين الصادقين بعد ذلك .

والآيتان اللتان ذكرت فيهما توبة الله على هؤلاء الثلاثة هما قول الله عز وجل:

« لَقَدْ تَابَ ٱللهُ على النَّبيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ في سَاعَةِ العُسْرَةِ مِن بَعْدما كادَ يَزِيغُ قُلُوب فَرِيق مِنهُمْ ثُمَّ تابَ عليهمْ إنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيم . وَعَلى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حتى إذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بما رَحُبَتْ وضَاقَتْ عَلَيهمْ أَنْفُسُهُم وظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ ٱللهِ إلاَّ إلَيْهِ ثَم تابَ عليهمْ لِيَتُوبُوا إنَّ ٱللهَ هوَ التَّوَّابُ الرَّحِيم » .

وكان كعب بن مالك الأنصاري ، وأحد المنافحين عن النبي بشعره ، أحد هؤلاء الثلاثة . وقد حفظ لنا الشيخان قصة تخلفه ، كما تحدث هو بها وليس أبلغ منها في بيان تأديب النبي لأصحابه ، فنرويها لك هنا لترى كيف

كان النبي يشتد على الصادقين من أصحابه حين تجب الشدة عليهم ، تمحيصاً لقلوبهم وتنقية لضمائرهم .

قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في غزوة غزاها ، إلا في غزوة تبوك . غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها . إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش . حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام .. وما أحب أن لي بها مشهد بدر وان كانت بدر أذكر في الناس منها . كان من خبري إني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزة . والله ! ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط ، حتى جمعتهما في تلك الغزوة . ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد غزوة إلا وري بغيرها . حتى كانت تلك الغزوة ، غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرّ شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفازاً وعدواً كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم . فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير . ولا يجمعهم كتاب حافظ — يريد الديوان — .

قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن يستخفي لـه ، ما لم ينزل فيه وحي الله . وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة ، حين طابت الثمار والظلال . وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه . فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم . فأرجع ولم أقض شيئاً . فأقول في نفسي : أنا قادر عليه ، فلم يزل يتمادى بي ، حتى اشتد بالناس الجد ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه . ولم أقض من جهاري شيئاً . فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم . فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً . ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل بي حتى أسرعوا ، وتفارط الغزوا ، وهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتني فعلت ! فلم يقدر لي ذلك ، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصاً عليه

النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء . ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك . فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب » ؟ فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله ! حبسه برداه ونظره عطفه . فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت . والله يا رسول الله ! ما علمنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همي . وطفقت أتذكر الكذب ، وأقول : بماذا أخرج من سخطه غداً ؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي . فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً زاح عني الباطل ، وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب ، فأجمعت صدقه . وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادماً . وكان اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس . فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا . فقبل منهل رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم الى الله ، فجئته . فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضِب ، ثم قال : « تعال » فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا . ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ، ليوشكن الله أن يسخطك علي . ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه ، إني لأرجو فيه عفو الله . لا والله ، ما كان لي من عذر ، والله ، ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق . فقم حتى يقضي الله فيك ، فقمت . وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني . فقالوا لي : والله ! ما علمنا كنت أذنبت ذنباً قبل هذا . ولقد عجزت ألا تكون قد اعتذرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر اليه المتخلفون . قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ، فوالله ! ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن

أرجع فأكذّب نفسي . ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحداً ؟ قالوا : نعم . رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك . فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمري ، وهلال بن أمية الواقفي . فذكروا لي رجلين صالحين ، قد شهدا بدراً فيهما أسوة . فمضيت حين ذكروهما لي .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس ، وتغيّروا لنا ، حتّى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التّي أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة .

فأما صاحباي فاستكانا ، وقعدا في بيوتهما يبكيان . وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدَهم . فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد . وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه ، وهو في مجلسه بعد الصلاة . فأقول في نفسي : هل حرّك شفتيه برد السلام عليّ أم لا ! ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر . فاذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ وإذا التفتّ نحوه أعرض عني . حتّى اذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس ، مشيت حتّى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس اليّ فسلمت عليه ، فوالله ما ردّ عليّ السلام . فقلت : يا أبا قتادة ! أنشدك بالله ! هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت . فعدت له فنشدته . فقال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناي ، وتوليت حتّى تسوّرت الجدار .

قال : فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطيّ من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له . حتّى اذا جاءني ، دفع إليّ كتاباً من ملك غسان . فاذا فيه : « أما بعد . فانه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك . ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة . فالحق بنا نواسك » . فقلت لما قرأتها : وهذا أيضاً من البلاء . فتيممت بها التنور فسجرته بها . حتّى اذا مضت أربعون ليلة من الخمسين . اذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يأتيني . فقال : إن رسول الله صلى الله

عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها ؟ أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها ولا تقربها . وأرسل الى صاحبيّ مثل ذلك . فقلت لإمرأتي : إلحقي بأهلك ، فكوني عندهم حتّى يقضي الله في هذا الأمر .

قال كعب : فجاءت امرة هلال بن أمية رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ! قال : لا . ولكن لا يقربك . قالت : إنه والله ما به حركة الى شيء . والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان ، الى يومه هذا . فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك كما أذن لإمرأة هلال بن أمية أن تخدمه ! فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه سلم اذا استأذنته فيها . وأنا رجل شاب ؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتّى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر ، صبح خمسون ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا . فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت عليّ نفسي ، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع ، بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، قال : فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج . وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر . فذهب الناس يبشروننا وذهب قِبَل صاحبيّ مبشرون وركض الى رجل فرساً وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل . وكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ ، فكسوته إياهما ببشراه . والله ! ما أملك غيرهما يومئذ . واستعرت ثوبين فلبستهما . وانطلقت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فيتلقاني الناس فوجاً فوجا يهنئونني بالتوبة يقولون : لتهنك توبة الله عليك .

قال كعب : حتى دخلت المسجد . فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم

خالس حوله الناس . فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول وهنأني ، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره . ولا أنساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك . قال : قلت أمن عندك يا رسول الله ، أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر . وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله والى رسول الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك . قلت : فاني أمسك سهمي الذي بخيبر .

فقلت : يا رسول الله ! إن الله إنما نجاني بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدّث إلا صدقاً ما بقيت . فوالله ! ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث ، منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلاني ، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومي هذا كذباً . وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت .

وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم :

« لَقَدْ تابَ اللهُ على النَّبيِّ والمهَاجِرينَ »

— الى قوله — .

« وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقينَ »

فوالله ! ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام ، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا . فان الله قال للذين كذبوا حين أنزل

الوحي ، شر ما قال لأحد . فقال تبارك وتعالى :

« سَيَحْلِفُون بِاللهِ لَكم إِذَا ٱنقلبتم »

الى قوله :

« فَإِنَّ ٱللهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَومِ الفَاسِقِين » .

قال كعب : وكنا قد تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا لـه ، فبايعهم واستغفر لهم . وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتّى قضى الله فيه .

فبذلك قال الله :

« وَعَلى الثَّلاثَةِ الَّذِين خُلِّفُوا »

وليس الذي ذكر الله ما خلفنا عن الغزو ، إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف لـه واعتذر اليه ، فقبل منه .

فانظر الى هذه القصة الرائعة والى ما فيها من العبر والموعظة ، والى تأديب النبي لمن يحب من أصحابه الصادقين حين يحتاجون الى التأديب ! فهؤلاء الثلاثة قد تخلفوا ولم يكن لهم عذر من ضعف أو فقر أو عجز عن السفر ، وإنما امتحنهم الله ببعض أعمالهم ليبلوهم ويطهر قلوبهم . وكان كثير من الناس قد تخلفوا عن هذه الغزوة ، يعدهم كعب نيفاً وثمانين رجلا . فلما عاد النبي الى المدينة أقبل المتخلفون فجعلوا يتكلفون المعاذير ويقولون للنبي غير الحق ، وجعل النبي يقبل معاذيرهم ويستغفر لهم لأنـه – كما كان يقول دائماً – لم يؤمر بالتنقيب عما في قلوب الناس . ولكن هؤلاء الثلاثة كانوا أشد إيمانا بالله ورسوله ، وأصدق حباً لهما من أن يضيفا الى تخلفهم خطيئة الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم يعلمون حق العلم أن ضمائر المتخلفين المنافقين لم تكن لتخفى على الله ، وأن الله جدير أن ينبيء رسوله بسرائرهم . فآثروا الصدق وفاء لدينهم ، وإشفاقاً أن يفضح الله كذبهم وتخلفهم فاعترفوا

بذنوبهم وسمع النبي منهم وأعلن أنهم قد صدقوه ولم يعف عنهم مع ذلك . ترك أمرهم الى الله يقضي فيه بما يشاء ، ثم لم يلبث أن أمعن في عقابهم فأمر المؤمنين ألا يكلموهم . وينظر هؤلاء الثلاثة فاذا هم قد اقتطعوا من الناس اقتطاعاً ، واذا هم في عزلة بغيضة الى نفوسهم كان السجن أهون منها . ومن أجل ذلك لزم اثنان منهم بيوتهما فلم يخرجا منها ولم يتعرضا لجفوة الناس ، وإنما أقاما يؤديان الصلاة في بيوتهما ولا يشهدان جماعة المسلمين . ثم يبكيان أكثر وقتهما . وأما كعب فقد كان جلداً يحسن الاحتمال ، فجعل يخرج ويغدو على الأسواق ويحتمل جفوة الناس متأذياً بها ، كأنه يبالغ في تأديب نفسه بالعقاب الذي فرض عليه . وهو يذهب الى ابن عم له من أصحاب النبي فينشده الله ثلاثاً : أيعلم من أمره أنه يحب لله ورسوله ؟ فيسكت عنه ابن عمه حتى اذا ألح عليه كعب في المسألة أجابه بهذا الجواب اللاذع الممض : الله ورسوله أعلم . وما كان له أن يجيب بغير هذا فالنبي غاضب على هؤلاء الثلاثة وغضبه من غضب الله . ثم كان كعب يذهب الى المسجد ويشهد صلاة المسلمين ويصلي بعض النوافل قريباً من مجلس النبي ، ليرى أينظر النبي اليه أم يعرض عنه . واذا هو يستكشف أن النبي ينظر اليه حين يقبل على صلاته . فاذا نظر الى النبي أعرض النبي عنه ، ولكن النبي يرسل اليه ذات يوم والى صاحبيه من يبلغهم أن النبي يأمرهم أن يعتزلوا نساءهم .

وليس في هذا شيء من الغرابة ، فنساؤهم مؤمنات ، وقد صدر الأمر الى المؤمنين باعتزالهم ، فليعتزلهم نساؤهم أيضاً . فأما كعب فقد أرسل زوجه الى أهلها حتى يقضي الله في أمرهم . وبعد أن مضت عليهم خمسون ليلة في هذه العزلة ، وقد أخذ الندم من قلوبهم أقوى مأخذ ، أنزل الله توبته عليهم في الآيتين الكريمتين اللتين أثبتناهما منذ حين . وابتهج المؤمنون كلهم لذلك ، فكانوا يهنئون هؤلاء الثلاثة بتوبة الله عليهم . وقد فرح كعب بهذه التوبة فرحاً لم يفرح مثله لشيء قبلها ، وهم أن يتصدق بماله كله ، فانظر الى النبي يرفق به ويقبل منه الصدقة في وقت واحد . فيأمره أن يمسك بعض ماله

ليعيش منه وينفق على أهله ، وأن يتصدق بسائره . فأمسك سهمه من خيبر وتصدق بما عداه .

وعاهد النبي على ألا يتكلف ولا يكذب متعمداً في حديث حتى يموت .

وتبلغ روعة هذه القصة أقصاها حين تقرأ في سورة التوبة تعذير الله للمتخلفين من المنافقين ، بين أهل المدينة ومن حولها من الأعراب . فترى شدة هذا التعذير وعنفه ، وتقرأ قصة هؤلاء الثلاثة فترى كيف نزلت عليهم رحمة الله كما ينزل الغيث على الأرض الميتة فيحييها بعد موتها .

وقد صورنا لك في كثير جداً من الإيجاز مكان النبي بين أصحابه بشيراً ونذيراً ، وشاهداً وداعياً الى الله باذنه ، ومفقهاً للمؤمنين في دينهم ، ومعلماً لهم في عظائم أمورهم ودقائقها .

فلا غرابة في أن تكون السنة هي الأصل الثاني بعد القرآن الكريم ، من الأصول التي تبنى عليها حياة المسلمين . فكل ما يعرض للمسلمين من الأمر في حياتهم من المشكلات يجب عليهم أن يروده الى الله ورسوله . يلتمسون له الحل في القرآن ، فان وجدوا هذا الحل فهو حسبهم ، وان لم يجدوه فعليهم أن يتلمسوه في سنة النبي ، فيما صحت به الرواية عنه من قول أو عمل . ذلك أن النبي لم يكن ينطق عن الهوى وإنما كان يعلم الناس مما علمه الله ، ويعلمهم في أكثر الأحيان عن أمر الله له بتعليمهم ويستشيرهم فيما لم يعلمه الله من الأمر ويقبل مشورتهم . فاذا التمس حل المشكلات في القرآن فلم يوجد ، والتمس في السنة فلم يوجد ، فالمسلمون يرجعون الى أصل ثالث من أصول الأحكام في الدين ، وهو اجماع أصحاب النبي . ذلك أن أصحاب النبي إن أجمعوا على شيء فأكبر الظن أنهم لم يجمعوا عليه إلا لأحد أمرين : فإما أن يكونوا قد عرفوا من قول النبي أو عمله ما لم يصل الينا ، وإما أن يكونوا قد اجتهدوا رأيهم واختاروا لأنفسهم ، وهم خيار المسلمين ، وهم قدوة لهم ولا سيما قبل أن ينجم بينهم الخلاف وتفسد الفتنة عليهم كثيراً من أمرهم . فإن لم يجد المسلمون في القرآن ولا في السنة ، ولا فيما أجمع عليه أصحاب

النبي ، حلا لبعض مشكلاتهم فعليهم أن يجتهدوا رأيهم ، ناصحين لله ورسوله وللمسلمين .

٤

وأمر السنة بعد ذلك مختلف عن أمر القرآن أشد الاختلاف ، ذلك أن القرآن قد وصل الينا متواتراً مجمعاً عليه ، من أجيال المسلمين منذ حياة النبي الى الآن ، والى آخر الدهر ما بقي في الأرض مسلمون . توارثته الأجيال كما تلاه النبي ، وكما كتبه عنه كتاب الوحي ، وكما جمع أيام أبي بكر ، وكما نسخ في المصاحف أيام عثمان ، وعلى ما كان بين المسلمين من اختلاف وانقسام وافتراق الى فرق متباينة في الرأي ، من خوارج وشيعة وجماعة ، ثم على ما كان من الاختلاف بعد ذلك بين المسلمين في أصول الدين وفروعه ، وانقسام المتكلمين في الأصول الى الكثرة المعروفة ، وانقسام الفقهاء وأصحاب الفروع كذلك الى شيع تتباعد حيناً وتتقارب حيناً ، وعلى ما نزل بالمسلمين من الأحداث وما تتابع عليهم من الخطوب ، وما كان من تنقل الحكم فيهم بين الأحزاب أولا وبين الأمم والأوطان ثانياً .

على هذا كله ظل القرآن كما هو ، لم يختلف المسلمون في نصه ، فهو باق على الدهر لا يضره أن يختلف المسلمون في فهم نصوصه وفي تأويلها ، ولا كذلك السنة لأن النبي لم يأمر بكتابتها ، بل يروى أنه كان يكره ذلك . فالاعتماد في روايتها على الذاكرة ، وعلى ذاكرة الصالحين من المؤمنين . وكان أصحاب النبي يتشدد أكثرهم في رواية الحديث عن النبي ، بل كانوا لا يقبلون حديثاً عن النبي إلا أن يشهد اثنان من عدول المسلمين أنهما سمعاه من النبي أو رأياه يعمله . وكان عمر — رحمه الله — أشد الخلفاء في ذلك ، فكان ينذر من يتحدث عن النبي بالعقاب إلا أن يأتي بعدل من المسلمين ، يشهد معه بأنه سمع من النبي أو رأى منه مثل ما يروي المتحدث ، هنالك كان عمر يقبل الحديث ويعمل به .

ولكن الأمور لم تمض على ذلك دهراً طويلا ، فلم تكن الفتنة تظل المسلمين حتّى اشتد الخلاف بينهم ، وجعل بعضهم يكفر بعضاً ، وجعلت الأحزاب على مرّ الزمن تكثر الحديث عن النبي ، يريد كل حزب أن يثبت أنه أشد استمساكاً بسنّة النبي من غيره ، ونشأ القُصّاص الذين كانوا يجلسون لوعظ الناس مرغبين ومرهبين ، فأكثروا من الحديث ، وأضاف كثيراً منهم الى النبي ما لم يقل ، يرغبون في فضائل الأعمال ، وينفرون من سيئاتها ، ولا يجدون حرجاً في أن يضيفوا الى النبي ما لم يقل ، ما داموا لا يريدون إلا النصح للمسلمين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والنبي أول ناصح للمسلمين وأول آمر بالمعروف وناه عن المنكر ، فكل أمر بالخير أو نهي عن الشر يمكن عند كثير من القُصّاص أن يحمل على النبي . ثم نشأ الأشرار من المتكلفين وذوي النيات السيئة فأسرعوا في رواية الحديث وأكثروا من الكذب وعرف ذلك خيار المسلمين فأخلصوا أنفسهم لتصحيح الحديث ، وتنقيته من كل مكذوب أو مشكوك في كذبه . وذهبوا في ذلك مذاهبهم المعروفة ، فجعلوا يتتبعون رواة الحديث وينقدون حياتهم ويتحرون أمرهم ، فمن وجدوا فيه مطعناً بالكذب ، أو الإنحراف عن العدالة في السيرة ، أو ضعف الذاكرة ، أو قلة التثبت مما يروى ، أو الأخذ عمن لا يصح الأخذ عنه ، أعرضوا عنه ونبذوا حديثه ، ونبهوا على ما فيه من علة ، حتّى نشأ عند المحدثين علم خاص بتصحيح الحديث .

وعلى رغم هذا كله ظل من الواجب على كل مسلم ، حين يُروى له الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أن يحتاط قبل الأخذِ به ، وأن يعرضه على القرآن ، فان كان لا يناقض القرآن في قليل ولا كثير ، ولا يناقض المألوف من سيرة النبي وعمله ، أخذ به وإلا وقف فيه .

وكذلك كان يفعل الصالحون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد قيل لعائشة – رحمها الله – إن بعض أصحاب النبي يروي عنه أنه قال :

إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه . فأنكرت هذا الحديث وقالت : اقرأوا قول الله عز وجل :

« وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

وقيل لها : إن بعض أصحاب النبي يزعمون أن النبي رأى ربه . فأنكرت هذا أشد الإنكار وقالت لمحدثها : اقرأ قول الله عز وجل :

«لا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ وَهُوَ اللطِيفُ الخَبِير

وقد رأيت كيف كان عمر يتشدد في رواية الحديث . فليس بد إذن كما قدمنا من الاحتياط في قبول الحديث ، حتى حين يرويه المصححون من المحدثين .

ولا بد من أن نلاحظ أن بعض أعمال النبي قد وصلت إلينا متواترة لا معنى للشك فيها . فقد علمنا بالتواتر أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي الصبح ركعتين . والظهر والعصر والعشاء كل منها أربع ركعات ، والمغرب ثلاث ركعات .

وعلمنا أنه كان يركع مرة في كل ركعة ، ويسجد مرتين في كل ركعة ، ويجلس بعد كل ركعتين . كل هذا في الفرائض المكتوبة ، فلا معنى للجدال في ذلك . وعلمنا كذلك ما بيّن من نصاب الزكاة وما فرض فيها . وعلمنا من القرآن ومن السنة العملية كيف كان يصوم ، وكيف اعتمر وكيف حج ، فجملة أركان الإسلام ثابتة بالقرآن أولا ، وببيان النبي العملي لها ثانياً . وكثير من أعمال النبي وصل إلينا على نحو يقطع الشك ، فقد عرفنا كيف كان يصلي صلاة العيدين ، وكيف كان يصلي للاستسقاء ، ولما يعرض من كسوف الشمس وخسوف القمر .

فجملة الأصول وتفصيلها بمعزل عن الشك ، وإنما يكثر الشك ويختلف قوة وضعفاً في بعض الفروع ، وفيما يتصل بالترغيب في الفضائل وفي التنفير

من الشر ، ولا سيما أن بعض أئمة الحديث – كأحمد بن حنبل رحمه الله – كانوا لا يرون بأساً برواية الحديث الضعيف ، إذا كان متصلا بالفضائل .

ومهما يكن من شيء فالقرآن جامع لما يحتاج إليه المسلمون من أصول الدين وأكثر فروعه ، والسنة الثابتة تفصل مجملة وتبين ما يحتاج منه إلى البيان . فليس على خلاصة الإسلام وأصوله بأس من ضعف الضعفاء ، وكذب الكذابين ، وزيغ الزائغين .

٥

وكذلك استقامت للمسلمين حياتهم صافية نقية مبرأة من الاختلاف والتنازع ، كأصفى وأنقى وأصدق ما تكون الحياة ، كان النبي بين أظهرهم يردون إليه أمرهم كله ، فيعلمهم مما علمه الله ، فإذا جاءه من أمرهم ما ليس عنده علم فيه رده هو إلى الله عز وجل، فلا يلبث أن يأتيه الخبر اليقين من السماء . فلم تتصل الأرض بالسماء قط كما كانت متصلة أثناء حياة النبي . ومن أجل ذلك كان كعب بن مالك وصاحباه مشفقين من أن يعتذروا إلى النبي بغير الحق ، فيكذبهم الله بقرآن يتلى على الناس ، أو بوحي يلقى إلى النبي فيتحدث به إلى أصحابه . ومن أجل ذلك أيضاً أنبأ الله نبيه أثناء غيبته عن المدينة بكل ما كان المنافقون يعملون ويقولون . وأنبأه كذلك بأنهم سيعتذرون إليه وإلى أصحابه من تخلفهم حين يرجعون إليهم ، وأمره أن يقول لهم لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم . وذلك في قوله عز وجل في سورة التوبة :

« يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُم إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ . قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قدْ نَبَّأَنا ٱللهُ مِنْ أَخْبَارِ كم ، وَسَيَرَي ٱللهُ عَمَلَكُم وَرسُولُه ثُمَّ تُرَدُّون إلى عالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون » .

وكثيراً ما كان المسلمون يعرضون على النبي بعض أمرهم ، فيقول لهم أحياناً : ما عندي في هذا شيء ، ثم لا يلبث أن يدعو من عرضوا عليه الأمر فينبئهم بحكم الله فيه . وأحياناً يظهر الإعراض عن سائليه بأنه لم يأته علم من الله بما سألوه عنه ، ثم ينزل القرآن فيقضي فيهم بحكم الله ، كما كان من أمر ذلك الرجل الذي زعم لرجل من أصحاب النبي أنه وجد عند أهله غيره ولم يدر ماذا يصنع ، وأشفق أن يقتله فيقتل به . فكلف صاحبه ذاك أن يسأل النبي في أمره . وذهب صاحبه فسأل النبي ، فأعرض عنه وأظهر الكراهة للسؤال . وقص الرجل على صاحبه ما رأى من كراهية النبي للمسألة ، فأبى الرجل إلا أن يسأل النبي ففعل، وأجابه النبي بأن الله قد أنزل فيه وفي صاحبته قرآناً ، وأمره أن يدعو صاحبته . فأنفذ فيهما ما قضى الله بالآية الكريمة من سورة النور :

«وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدهمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّه لَمِنَ الصَّادِقِينَ . والخَامِسَة أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عليهِ إِنْ كانَ مِنَ الكاذِبِين . وَيَدْرأُ عنها العذَاب أَنْ تَشْهَد أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الكاذِبين . والخامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عليها إن كانَ مِنَ الصَّادِقين » .

ولست أعرف أبلغ من قول أم أيمن ، حين كلمت في بكائها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : إنها إنما تبكي لانقطاع خبر السماء . ذلك أن وفاة النبي قطعت على المسلمين هذا الخبر حقاً . فلم يكن وحي بعده . ولم يكن للذين قاموا بأمر المسلمين من الخلفاء إلا أن يصرفوا الأمور بما نزل من القرآن ، وبما ثبت لهم من حديث النبي ، بسماعهم هم أو بسماع العدول من أصحابهم .

وقد ظلت حياة المسلمين نقية صافية أيام أبي بكر — رحمه الله — كدّرتها

ردة العرب . فلما قمعت ثورتهم ، وعادوا إلى ما كانوا عليه أيام النبي من الطاعة في كل ما أمر الله ، برئت حياة المسلمين من الشوائب ، ورمى بهم أبو بكر الشام والعراق ، ثم جاء عمر — رحمه الله — بعد أبي بكر فاشتد إلى أقصى حدود الشدة في المحافظة على صفاء الحياة الإسلامية ونقائها ، على نحو ما كانت عليه أيام النبي وأبي بكر ، وبذل في ذلك من الجهد في دقيق الأمور وجسامها ما لم ينسه التاريخ بعد ، وما أرى أنه سينساه آخر الدهر . ذلك أن المشكلات الجسام التي عرضت للمسلمين في حياة عمر كانت جديدة كل الجدة ، لم يعرض مثلها ولا شيء قريب منها أيام النبي وأيام أبي بكر . فقد كانت غزوات النبي على خطرها يسيرة بالقياس إلى فتح بلاد الفُرس ، واقتطاع الشام ومصر من بلاد الروم . وكانت الغنائم التي تتاح للمسلمين أيام النبي شيئاً لا يكاد يقاس إلى ما أتيح لهم من الغنائم أيام عمر . فكان من أيسر الأشياء أن ينفّذ النبي فيها حكم الله الذي بيّنه في سورة الانفال :

« وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شيءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ ولِلرَّسُولِ ولِذِي القُرْبى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِين وابْنِ السَّبِيلِ إنْ كُنْتُم آمَنْتُمْ بِاللهِ وما أَنْزَلْنَا على عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقى الجَمْعَانِ وَاللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَدِير » .

فكانت الغنائم تجمع للنبي فيحتجز منها الخمس ، ينفق منه على ما بيّن الله في الآية الكريمة ، ويقسم سائرها على المسلمين للراجل سهم وللفارس سهمان .

ومع أن الأمانة أيام النبي كانت كأقوى ما يمكن أن تكون في قلوب المسلمين . فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ما ينهى عن الغلول ، ويخوف منه أشد التخويف واهوله . وأنزل الله في الغلول قرآناً ، فقال ، في سورة آل عمران .

« وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهمْ لا يُظْلَمُون . أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَ ٱللهِ كَمَنْ باءَ بِسَخطٍ مِنَ ٱللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِير » .

ومع هذا كله فقد غل بعض الناس من الغنائم أيام النبي ، فذكر الرواة أمر ذلك الذي قُتل بخيبر ، فجعل الناس يتباشرون له بالشهادة أمام النبي ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الشملة التي غلها لتشتعل حوله ناراً . أو شيئاً بمعنى ذلك .

قال الرواة فقام رجل فجاء بشراكين فألقاهما وكان قد احتجزهما . فلما سمع ما سمع من النبي خاف فردهما .

كذلك كانت أمور الجهاد والغنائم أيام النبي ، وأين هذا مما عرف المسلمون في حروبهم مع الفرس والروم ، وفيما ملأوا به أيديهم من الغنائم التي لا يكاد المؤرخون يحسنون تصويرها ولا إحصاءها .

وجيوش المسلمين بعيدة عن مركز الخلافة بعداً شديداً ، والخليفة قارّ بالمدينة لا يرى ما يصنع المسلمون بعد أن ينزل الله نصره عليهم ، وإنما تأتيه أنباء النصر وترسل إليه أخماس الغنائم . فيقسمها على من حضره من المسلمين . وينفق منها على نوائب الأمة .

والمسلمون في تلك الأيام لا يغنمون الأموال التي تنقل فحسب ، وإنما يغنمون الأرض التي تفتح وما عليها من العقار ، وكل ذلك بعيد عن الخليفة ، وأموره معقدة أشد التعقيد . فالغنائم التي تنقل يمكن أن تخمّس ويرسل خمسها إلى الخليفة ، ويقسم سائر أخماسها على الجند . ولكن الغنائم الثابتة ماذا يصنع بها قائد الجيش ؟ لا يستطيع أن ينقلها ولا أن يقسمها ؛ ولا يستطيع الجند إن قسمت فيهم أن يقوموا عليها ، فهم لم يرسلوا ليكونوا زراعاً ، وإنما

أرسلوا للحركة المتصلة ، لا تُفتح عليهم مدينة إلا تجاوزوها إلى غيرها . فكل هذا كان جديداً بالقياس إلى الخلفاء .

لم ويكن بُد لعمر من أن يضع نظاماً يحصر هذه الغنائم ويكفل القيام عليها ، ويكفل حقوق الجند فيها . وهذه الجيوش التي ترسل تباعاً إلى الأرض البعيدة في الشرق والغرب ، لم يكن بد من تهيئتها للحرب قبل أن ترسل ، ولم يكن بد من إمدادها بكل ما تحتاج إليه بعد إرسالها . ولم يكن بد من حكم المدن والأقاليم التي تفتح ، ومن نشر الإسلام فيها ، وأن يجري الحكم فيها على ما أمر الله أن تجرى عليه الأحكام إلى غير ذلك من المشكلات التي لا تحصى ، والتي جعلت تظهر ويتبع بعضها بعضاً كلما أمعن المسلمون في الغزو وأبعدوا في الأرض ، وقد جد عمر — رحمه الله — في حل هذه المشكلات وتدبر أمور هذه الدولة الناشئة ، التي كانت تكبر وتتسع رقعتها ، وتزداد مشكلاتها يوماً بعد يوم .

وقد وفق عمر إلى كل ما حاول من حل المشكلات وتدبير الأمر ، وحكم الأقطار البعيدة عنه والقريبة منه ، توفيقاً لم يكن ينتظر من رجل من أهل مكة لم يعرف من أمور الدنيا إلا أيسرها ، ولم يبل شؤون الحكم قبل خلافته . وهو بعد ذلك يحكم أمماً ليست على حال العرب من البداوة ، وإنما هي متحضرة ممعنة في الحضارة ، قد عرفت من أنظمة الحكم ضروباً وألواناً .

وما رأيك في خليفة ينبئه أحد عماله بأنه قد حمل إليه خمسمائة ألف من الدراهم ، فلا يصدقه وإنما يظن به الجهد والإعياء ، ويأمره أن يذهب فيستريح ، ثم يأتيه من غد . فإذا جاءه من الغد وأنبأه بما حمل إليه من المال صعد المنبر وأعلن إلى الناس : أن قد جاءه مال كثير ، فإن شاءوا كاله لهم كيلا ، وإن شاءوا هاله لهم هيلا ، كل ذلك لنصف مليون من الدراهم ، فكيف به حين جاءته الملايين الكثيرة والعروض المختلفة التي لا تكاد تحصى . وإذا كان النجح قد أتيح لعمر ، لما آتاه الله من عبقرية ، فهو كذلك قد أتيح لقواده الذين فتحوا الأرض ، وعماله الذين حكموا الأقاليم ، وكلهم كان كهيئة عمر لم يبل

من الحرب إلا أيسرها وأهونها شأناً ، ولم يعرف من شؤون الحكم إلا أدناها إلى السذاجة البدوية ، فكيف بهم حين حكموا الشام ومصر والعراق وفارس . وأتيح هذا النجح أيضاً للجند الذين قهروا أعظم دولتين في الأرض حين ذاك : دولة الفرس ودولة الروم . وهم لم يعرفوا قط من شؤون الحرب إلا ما كانوا يألفون من هذه الحرب الأولية ، التي كانت تثار بين القبائل . لم يعرفوا الجيوش الضخمة ، ولا أداة الحرب التي ابتكرتها الحضارة ، ولا حصار المدن ولا اقتحامها ، وهم مع ذلك قد انتصروا أي انتصار . ونشروا لواء الإسلام في أقطار الأرض شرقاً وغرباً ، وأزالوا من الأرض دولة عظيمة لم تستطع جيوش روما ولا جيوش قسطنطينية أن تزعزعها ، وهي دولة الفرس الساسانيين .

وقد عرفت أن أكثر هؤلاء الجند كانوا قد ارتدوا بعد وفاة النبي صلى الله عليهم وسلم عن الإسلام مع قبائلهم . وأبوا أن يؤدوا الزكاة حتى قاتلهم عليها أبو بكر ، فانظر إليهم بعد أن عادوا إلى الإسلام كيف أحسنوا في سبيله البلاء . وكيف جاهدوا فأمعنوا في الجهاد وكيف صبروا فأبلغوا في الصبر ، وكيف جنوا نتيجة هذا كله نصراً مؤزراً .

وما أشك في أن القرآن هو المؤثر الأول في هذا كله . كانوا يقرأونه أو يقرأ عليهم فيملأ نفوسهم روعة ، وقلوبهم إيماناً ، ويدفعهم هذا كله إلى أن يفعلوا الأعاجيب ، وإلى أن يتيحوا لقائد من قوادهم — هو خالد ابن الوليد — أن يكتب إلى بعض محاربيه حين دعاهم إلى الإسلام أو إلى الخضوع وأداء الجزية ، ثم قال لهم بعد ذلك : فإن أبيتم فإني قد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة . واقرأ إن شئت حديث الفتح في كتب التاريخ ، وفي تاريخ الطبري خاصة ، فسترى فيما تقرأ من العبر والعظات والأعاجيب ما يقنعك بأن بلاء المسلمين في تلك الحروب ، وما أتيح لهم من الظفر ، إنما كان نتيجة لأثر الإسلام والقرآن خاصة في نفوس أولئك المجاهدين .

وانظر إليهم حين يتلو عليهم القاص الذي كان يطوف على الجنود ، فيعظهم ويحمسهم للحرب حين يتهيئون للقاء العدو .

انظر إليهم حين يتلو عليهم هذه الآية الكريمة ، من سورة التوبة مثلا :

« مَا كَانَ لِأَهْلِ المدِينةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِنَ ٱلْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ ٱللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذٰلكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سبِيلِ ٱللهِ ولا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكفَّارَ ولا يَنَالونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالحٌ إنَّ ٱللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِين » .

فأي غرابة في أن تملأهم هذه الآية ، وأمثالها من آيات القرآن الكريم . ثقة وأمناً وأملا واطمئناناً إلى أنهم من غير شك ظافرون بإحدى الحسنيين . فإما الانتصار على العدو ، والفوز بما في أيديهم من الملك وزهرة الحياة الدنيا ، مع الأجر العظيم عند الله ، وهو خير من كل ما ظفروا به ؛ وإما الفوز بنعمة الشهادة والحياة عند الله ، فرحين بما أتاهم الله من فضله ، ومستبشرين بالذين لم يلحقوا بهم من بعدهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . كما يقول الله عز وجل في الآية الكريمة من سورة آل عمران .

وانظر إليهم حين يقرأون أو يتلى عليهم قولُ الله من سورة الأنفال :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ ٱللهِ ومَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ » .

كيف تمتلئُ قلوبهم ثقة بأنهم حين أزمعوا الخروج للجهاد ، قد باعوا الله أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً

على الله حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن . كما يقول الله عز وجل في الآية الكريمة من سورة التوبة :

«إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَى مِنَ المؤمنينَ أنفسهُمْ وأَمْوَالهمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتلونَ في سَبيل الله فَيَقْتُلونَ ويُقْتَلُونَ وعْدًا عليهِ حَقاً في التَّوراةِ وَالإِنجيل والقرآن . وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ . فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وذٰلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيم ».

فهم يُقبلون على الجهاد وهم مطمئنون إلى أنهم قد باعوا نفوسهم وأموالهم لله بالجنة . فالموت أحب إلى الصادقين منهم من الحياة ، لأن نعيم الحياة زائل ونعيم الله باق خالد . وكلهم يرهب الفرار من العدو ، أكثر مما يرهب الموت ، فهم واثقون بأن أمام الفارين منهم جهنم يُضطرون إليها وبئس المصير . وهم بذلك يصدقون ما كتب خالد — رحمه الله — من أن جنوده يحبون الموت كما يحب عدوهم الحياة .

ومن أجل ذلك أقبل بعض قواد المسلمين ، وهو أبو عبيد بن مسعود ، أيام عمر بجنده متعرضاً لعدوه من الفرس فعبر إلى العدو بجيشه نهراً ، وغامر فإذا العدو أكثر منه قوة وأعظم منه بأساً ، وكان يستطيع حين رأى ذلك أن يعبر النهر ويرجع بجنده إلى مواقعهم ، ويلتزم خطة الدفاع أو ينتظر المدد . ولكنه ذكر الآية الكريمة من سورة الأنفال فكره الفرار ، وأقدم فقاتل حتى قتل رحمه الله ، وامتحن المسلمون في تلك الوقعة محنة عظيمة ولم ينج من نجا منهم إلا بعد الجهد كل الجهد . وبلغت قصة هذا الجيش عمر — رحمه الله — بالمدينة فبكى واسترحم لقائده وقال : لو انحاز لكنت فئته ، يريد أنه لو رجع واستمد الخليفة لما كان ذلك فراراً ، وإنما هو التحرف للقتال والتحيز إلى من وراءه من المسلمين ، ينصرونه ويمدونه بالقوة والعتاد .

والله قد أذن للمسلمين في الآية الكريمة ، التي أثبتناها آنفاً من سورة الأنفال ،

أن يرجعوا عن العدو متحرفين للقتال أو متحيزين إلى فئة تنصرهم . كذلك كان بلاء المسلمين في الفتوح ، لا يقبلون بلاء أقل منه حتى عاب بعضهم سعد بن أبي وقاص لما عجز عن القتال مع جيشه يوم القادسية ، فأدار الموقعة من حصن كان فيه ، لما أعجزه المرض عن الحركة والخروج ، فقال قائلهم :

ألم تر أن الله أنزل نصره   وسعد بباب القادسية معصم

فأبنا وقد آمت نساء كثيرة   ونسوة سعد ليس فيهن أيم

وكذلك استقامت أيام المسلمين أيام الشيخين : أبي بكر وعمر ، كلاهما ساس الناس كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يسوسهم أثناء حياته ، والتزم عمر القرآن وسيرة النبي وأبي بكر ورأي الصالحين من الصحابة ، في حل ما عرض له من المشكلات التي نشأت عن الفتوح واتساع الدولة وانتشار الجيوش وكثرة الغنائم والفيء ، وتنظيم أمور الأرض التي ظهر عليها المسلمون في البلاد المفتوحة ، فكان كلما عرضت له مشكلة التمس حلها في كتاب الله ، فإن لم يجد ففي سنة رسول الله وسيرة الخليفة من قبله ، فإن لم يجد دعا إلي الرأي من المهاجرين والأنصار فشاورهم حتى يجد الحل للمشكلة أو المشكلات التي عرضت له .

وكان تفوق عمر في جهاده نفسه حتى قهرها وذللها ، وألزمها سيرة النبي وأبي بكر ، من الزهد والقناعة ، ومن الصبر والاحتمال ، ومن إيثار المسلمين على نفسه والاكتفاء بما يقيم الأود ، على رغم ما كان يجبى إليه من كرائم الأموال ونفائسها ، وعلى رغم ما كان يغري الناس من زهرة الدنيا ونعيمها ، كان تفوق عمر في جهاد نفسه وقهرها على هذا النحو أروع من تفوقه فيما حاول من إقامة الدولة الناشئة ، ثم كان يشتد على الناس ولا سيما الذين رأوا النبي وصاحبوه ، وعرفوا كيف رفض الدنيا ، وكيف آثر عليها الآخرة . فكان يمسك كبار الصحابة في المدينة ولا يأذن لهم بالخروج منها . فإذا هم أحدهم بالجهاد أبى عليه . وقال : قد كان في جهادك مع رسول الله ما يجزئك .

كان يخاف عليهم أن يفتتنوا إذا رأوا الأقاليم التي فتحت على المسلمين . وكان يخاف منهم أن يفتن الناس بهم في الأمصار والأقاليم . فكان يمسكهم في المدينة حماية لهم ولعامة الناس من الفتنة . وكان في هذا موفقاً أشد التوفيق . وسنرى الدليل على ذلك واضحاً حين أذن عثمان لكبار الصحابة بالتفرق في الأرض ، فكان ذلك من مصادر الفتنة التي حادت بالمسلمين عن الجادة ، وضربت بعضهم ببعض ، وجعلت بأسهم بينهم شديداً ، ثم كان شديداً على قريش خاصة ، وعلى مسلمة الفتح منهم بنوع أخص . كان يعرف ذكاءهم ومهارتهم في اكتساب المال وإيثارهم للثراء ورغد العيش ، فكان يحميهم من أنفسهم ومن أن يتهافتوا في النار كما كان يقول .

وكان شديداً على أسرته من آل الخطاب ، يكره أن يغتروا أو أن يغتر الناس بأنهم رهط أمير المؤمنين . ثم كان شديد المراقبة لأهل المدينة ومن حولها ، يريد أن يعرف من قرب حاجاتهم ، وأن يبلغ من رضاهم ما يستطيع ، ولم يعرف المسلمون خليفة كان أشد منه على ولاته في الأقاليم يدعوهم إلى لقائه في الموسم من كل عام ، ويدعو مع كل واحد منهم ذوي الرأي في أقليمه . فإذا التقوا في موسم الحج سأل الولاة عن رعيتهم وسأل الرعية عن ولاتها . وكان كثيراً ما يبرأ إلى الله مما يمكن أن يتورط الولاة فيه من جور أو خطأ أو تقصير ، ولذلك كانت نكبة المسلمين بقتله حين قتل أعظم وأكبر من أن توصف . وما أشك في أن عمر — رحمه الله — لو مدت له أسباب الحياة لأقام الدولة الإسلامية على أسس تعصمها من التفرق والانقسام ، ولكن الله بالغ أمره قد جعل لكل شيءٍ قدراً .

وولي أمور المسلمين بعده عثمان ، فاستقامت له الأمور أعواماً فيها رضي عن الناس ورضي الناس عنه ، ومضت جيوش المسلمين في الفتح شرقاً وغرباً ، ولكنه وسع على الناس فأسرف الناس على أنفسهم ، ولان لقريش فطمعت فيه قريش . ووصل بني أمية رهطه فأغراهم بالغنى ، وفتح أمامهم أبواب الطمع واسعة حتى طمعوا فيه هو فاستأثروا به ، وتسلطوا عليه حتى غلبوا على أمره كله فجعلوا يولون ويعزلون والخليفة يقر ما يفعلون !

وكان عثمان حين ولي الأمر قد تقدمت به السن فبلغ السبعين أو جاوزها . فلم يلبث أن ضعفت مقاومته للطامعين من قريش عامة، ومن بني أمية خاصة .

وما هي إلا أن تنتشر في الأقاليم كلمة السوء، فيفتن الناس بمن رأوا من كبار الصحابة، كطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام . وبعسف الولاة فتظهر الفتنة ولا تلبث الأقاليم والأمصار أن تنكر من أمور الحكم أشياء ، وتنتهي أمور الأقاليم إلى الثورة، وإذا الجنود تأتي من البصرة والكوفة ومصر، فيشكون ويحتال بعض الصحابة — وعليّ خاصة — في أن يأخذ لهم الرضى من عثمان وتوشك الأزمة أن تنحل ، ولكن البطانة من بني أمية ينقضون ما أبرم الخليفة ويغرون بعض الولاة برعيتهم سرّاً ، ويستكشف الثائرون هذا الاغراء الذي ختم بخاتم الخليفة عن غير علم منه ، فيرجعون إلى المدينة ويحتلونها ثم يحاصرون الخليفة في داره ، وما يزالون على حصارهم حتى يتسوروا الدار ويقتلوا الخليفة في النهار المبصر .

وبمقتل عثمان — رحمه الله — تفتح أبواب الفتنة على مصاريعها . وليس من شك في أن السخط على حكم عثمان لم يكن مقصوراً على الأمصار والأقاليم ، بل كان في المدينة نفسها منكرون لنظام الحكم ، ضائقون بغلبة بني أمية للخليفة على أمره . وكان من أهل المدينة مشنعون على عثمان ومشهرون به . فلما قتل عثمان حكم الثوار المدينة حكماً عسكرياً أياماً حتى دفن الخليفة سراً بليل .

ثم أقبل الناس على عليّ رحمه الله فبايعوه ، بايعه أكثرهم عن رضى ، وبايعه بعضهم عن كره ، وأبى معاوية في الشام أن يؤمن لهذه البيعة وذهب فريق من أصحاب النبي إلى البصرة مغاضبين ، على رأسهم أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وكلاهما من كبار الصحابة ومن رجال الشورى الذين اختاروا عثمان للخلافة ومن العشرة الذين توفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض وبشرهم بالجنة . واعتزل فريق من المهاجرين والأنصار أمر الناس فلم يشاركوا في الفتنة وكان منهم

سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر من أكابر قريش ، وكان سعد من العشرة الذين بشروا بالجنة ؛ وهو القائد المظفر الذي أبلى أحسن البلاء في فتح بلاد الفرس. وقد جيء به ليبايع علياً فأبى البيعة وقال لعلي: ما عليك مني من بأس . فأمر عليّ بتخليته وكفله هو . وجيُ كذلك بعبد الله بن عمر فأبى أن يبايع فأمر عليّ بتخليته وقال له بين الجاد والمازح : ما علمتك إلا سيُّ الخلق .

ولم تتم البيعة لعليّ حتى نظر فإذا هو بين عدوين : أحدهما بالبصرة يرأسهم طلحة والزبير وعائشة والآخر بالشام يرأسهم معاوية بن أبي سفيان . فلم ير بداً من أن يقاتل هذين الفريقين ليردهما إلى الطاعة ولتجتمع كلمة المسلمين بعد أن تفرقت . فيعودوا أمة واحدة كما كانوا أيام النبي وأيام الشيخين أبي بكر وعمر . ولا بد من الاعتراف هنا بأن علياً – رحمه الله – لم يبدأ بحرب قط إلا بعد أن دعا إلى الصلح ورغّب فيه وألح في الدعوة وحاج مخاصميه ، حتى أظهر عليهم حجته وأثبت في وضوح لا لبس فيه أنه لم يشارك في قتل عثمان ولم يظاهر عليه ، وإنما نصح له ما استطاع النصح ، ورد الثائرين عن المدينة وكاد يحسم الفتنة لولا غدر بني أمية من بطانة الخليفة . وأنه كذلك حاول أن يعين عثمان وأن يحميه من الثائرين به والذين ظاهروهم عليه ، ولكن خصوم عليَ كانوا حراصاً على الحرب ، يظهرون المطالبة بدم عثمان ويطلبون أن يسلّم إليهم عليّ من قتل عثمان أو شارك في قتله ، وكان عليّ يأبى إلا أن ينفذ حكم الله على وجهه ، فيخضع الناس قبل كل شيُ لإمام واحد ثم يحتكمون إليه في قتل الخليفة المقتول . فيقيم حد الله كما ينبغي أن تقام الحدود ، في ظل النظام والأمن لا في ظلمة الفتنة والانقسام .

وكذلك لم يجد عليّ بدّاً من الحرب بعد أن بذل الجهد كل الجهد في الإصلاح بينه وبين طلحة والزبير وعائشة ومن تابعهم من أهل البصرة . فكان يوم الجمل الذي عظمت فيه المحنة على المسلمين ، وقد اقتنع الزبير بن العوام – رحمه الله – بخطئه فرجع عن الحرب ، ولكنه قتل غيلة في طريقه إلى الحجاز .

ومضى طلحة في القتال حتى قتل غيلة هو الآخر أثناء الموقعة ، رماه رجل

من بني أمية – هو مروان بن الحكم – الذي أفسد على عثمان أمره كله فقتله .

ويقول الرواة إن طلحة نقل من مصرعه ودمه ينزف ، وهو يقول ، اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى . فقد اعترف هو أيضاً بخطئه قبل أن يموت . وثبتت عائشة في هودجها على جملها ذاك الذي قتل حوله من المسلمين عدد غير قليل ، وكان من خيارهم محمد بن طلحة بن عبيد الله ، قتل وهو آخذ بزمام الجمل ، وقال قاتله :

وأشعث قوام بايات ربه قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
شققت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعاً لليدين وللفم
يذكرني حاميم والرمح شاجر فهلا تلا حاميم قبل التقدم
على غير شيء غير أن ليس تابعاً علياً ومن لا يتبع الحق يندم

وصرع عبيد الله بن الزبير فلم ينج إلا بعد مشقة وجهد . وكان المسلمون يقتتلون حول الجمل وعائشة تحمس أهل البصرة للقتال ، حتى أشار علي بعقر الجمل ، فلما عقر تفرق الناس وانهزم أهل البصرة ونقلت عائشة في هودجها لم يمسسها أذى . وبعد أيام ردها علي مكرمة إلى المدينة ، فقرت في بيتها الذي ما كان لها أن تفارقه ، بعد أن قال الله لنساء النبي في الآيتين الكريمتين من سورة الأحزاب :

« وَقَرْنَ فِي بِيُوتِكُنَّ ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولى وأَقِمْنَ الصَّلاةَ وآتِينَ الزَّكاةَ وأَطِعْنَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ إِنّما يُرِيدُ ٱللهُ لِيُذهِبَ عَنكمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويطهِّرَكُمْ تَطهِيرًا ، واذْكرْنَ ما يُتلَى في بَيُوتِكنَّ مِنْ آياتِ ٱللهِ والحِكمةِ إِنَّ ٱللهَ كانَ لَطيفاً خَبِيرًا » .

وأقام علي بالبصرة حتى ضبط أمرها ، ثم عاد إلى الكوفة فأقام فيها وجعلها عاصمة للخلافة . وأكبر الظن أنه نقل عاصمة الخلافة إلى الكوفة ليعصم المدينة من أن تكون دار حرب ، فهو قد كان يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حرم المدينة كما حرم إبراهيم مكة ، وأعلن أن من أحدث في المدينة حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً .

وجعل عليّ يسفر إلى معاوية من الكوفة ، يعرض عليه الطاعة ويدعوه إلى الصلح ، وإلى جمع كلمة المسلمين وحقن دمائهم والدخول فيما دخل فيه الناس . وكان المسلمون قد قبلوا بيعة عليّ في جميع أقطار الأرض الإسلامية شرقاً وغرباً ، إلا الشام فقد أقام معاوية في دمشق يطالب بدم عثمان ويرفض كل صلح يعرض عليه .

فلم يجد عليّ بدّاً من حربه ، فسار بجيشه حتى بلغ صفين ، فوجد معاوية قد سبقه في أهل الشام إلى الماء . يريد أن يظمئ علياً وجيشه . فاقتتل القوم على الماء حتى غلب أصحاب عليّ عليه. ولكن علياً رحمه الله أبى أن يظمئ معاوية وأهل الشام ، فتركهم يشربون ويسقون أنعامهم ، ويأخذون من الماء حاجتهم ، وسعى السفراء بين الفريقين وعليّ يعرض الصلح دائماً ويظهر حجته وحجة من معه على أهل الشام ، ولكن معاوية وعمرو بن العاص أبيا إلا القتال فكان القتال ؛ وجعل المسلمون من الفريقين يتفانون وكانت الحرب سجالا تدور الدائرة على أهل الشام يوماً وعلى أصحاب عليّ يوماً آخر . ون لكعاقبة الحرب كادت تكون لعلي ؛ وكاد جيش الشام يهزم ، وزعم الرواة أن معاوية همّ أن يركب فرسه للهرب ، لولا أنه ذكر شعراً فثبت هذا الشعر قلبه ، وهو هذه الأبيات :

أبت لي عفتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإجشامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمي بعد عن عرض صحيح

وقد وجد له عمرو بن العاص مخرجاً من هذا الحرج ، فاقترح أن ترفع المصاحف على الأسنة ، وأن يدعى عليّ وأصحابه إلى كتاب الله يحتكمون إليه ، فيحقون ما أحق ويبطلون ما أبطل . وجازت الحيلة على كثير من أصحاب عليّ ، وعلى أهل اليمن منهم خاصة ، فاستكرهوا علياً على الهدنة . وحاول عليّ أن يمتنع عليهم وعرف أنها خدعة ، ولكن أهل اليمن أبوا إلا قبول الهدنة وأنذروا علياً ، فاضطر كارهاً إلى الإذعان لرأي الكثرة من أصحابه ، وتقررت الهدنة بين الفريقين . على أن يرسل كل فريق منهما حكماً يرضاه ، وعلى أن يجتمع هذان الحكمان فيقضيان بما قضى به القرآن بين الفريقين المختصمين . واشتد معاوية وأصحابه في كتاب الهدنة ، فأبوا أن يلقب عليّ نفسه أمير المؤمنين . واضطر عليّ إلى أن يمحوها ، وذكر صلح الحديبية حين أبت قريش على النبي في كتاب الهدنة أن يسمي نفسه رسول الله ، فمحا هذا الوصف واكتفى باسمه . ولست أدري أتفاءل عليّ حين ذكر يوم الحديبية أم لا . ولكن عاقبة الهدنة على كل حال لم تشبه عاقبة الهدنة التي أمضاها النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل مكة . كانت عاقبة هدنة الحديبية فتحاً قريباً ونصراً مؤزراً ، وكانت عاقبة الهدنة في صفين فُرقة واختلافاً على عليّ أي أختلاف . وفي هذه المواقع التي كانت بصفين قتلت ألوف كثيرة من المسلمين من أهل العراق وأهل الشام .

وكان بين قتلى أصحاب عليّ عمار بن ياسر الذي كان يقاتل في حماسة أي حماسة ، وهو شيخ قد بلغ التسعين أو جاوزها . وكان يقاتل عن إيمان أي إيمان بأنه يدافع عن الحق . وكان يرتجز .

نحن ضربناكم على تنزيله — واليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله — ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

وكان يوم قتل يحرض الناس ويقول : من رائح إلى الجنة ؟ اليوم ألقى الأحبة : محمداً وحزبه .

وكان قتل عمار تثبيتاً لعلي والصالحين من أصحابه وتشكيكاً لمعاوية ومن معه ، ذلك أن كثيراً من المهاجرين والأنصار قد سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقول ، وهو يمسح رأس عمار أثناء بناء المسجد : ويحك يا ابن سمية ! تقتلك الفئة الباغية .

وكان رجل من صالح الأنصار ، هو خزيمة بن ثابت يشهد صفين مع علي ، ولكنه لم يكن يقاتل كأن قلبه لم يخل من بعض الشك . فلما رأى مقتل عمار بسيوف أهل الشام قال : الآن ظهر الحق . وقاتل حتى قتل .

فأما معاوية وعمرو بن العاص فما أسرع ما وجدا مخرجاً من هذا الحرج ، فقالا : لم نقتله وإنما قتله الذين جاؤوا به إلى الحرب. وأذاعا مقالتهما هذه في أهل الشام ، تثبيتاً لقلوب الذين أدركهم شيء من الشك والقلق .

ورجع عليّ إلى الكوفة مرجعاً لم يكن ينتظره ، ذلك أن جيشه اختلف عليه ، رضيت كثرة الجيش بالهدنة وفرضت على عليّ أن يقبل اختيار أبي موسى الأشعري حكماً . وقد اختار معاوية عمرو بن العاص . وأبت قلة من جيش عليّ هذه الهدنة ورأتها مخالفة للقرآن ، فكان الناس يقتتلون ويتضاربون ويتشاتمون في طريقهم إلى الكوفة ، ثم وصل علي إلى الكوفة فلم ير فيها إلا مظاهر الحزن والحداد ، لكثرة من ذهب معه من أهل الكوفة ثم لم يعد بعد أن لقي مصرعه بصفين .

ولم يلبث المنكرون لأمر الهدنة أن نظموا أمرهم وخرجوا من الكوفة أرسالا ، وكتبوا إلى إخوانهم في البصرة فانضموا إليهم وأعلنوا العصيان ، بل أعلنوا أكثر من العصيان . أعلنوا أن علياً وأصحابه ، الذين قبلوا الهدنة ، قد كفروا لأنهم خالفوا عن أمر الله حين قال في الآيتين الكريمتين من سورة الحجرات :

« وَإِنْ طائِفَتَانِ مِنَ المؤْمِنينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهما . فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلى الأُخْرَى فَقَاتلوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ

إلى أَمرِ ٱللهِ . فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَينهما بِالعَدْلِ وأَقْسِطوا إنَّ ٱللهَ يُحِبُّ المقْسِطِينَ . إنما المؤْمنُونَ إخْوَةٌ فأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيكم واتَّقُوا ٱللهَ لَعَلَّكم تُرْحَمُون » .

ولما كان عليٌّ قد عرض الصلح غير مرة على معاوية وأصحابه فرفضوه ، ثم كانت الحرب بينهم ، فكان يجب على عليٍّ وأصحابه — فيما رأى الخوارج — أن يمضوا في الحرب حتى يقضي الله أمره ، فيحق الحق ويبطل الباطل . ولكنهم لم يمضوا في الحرب وإنما قبلوا التحكيم فحكموا الرجال في دين الله ، والله وحده هو أحكم الحاكمين . وما كان ينبغي لعلي وأصحابه أن يضعوا السيوف حتى يفيءَ معاوية وأهل الشام إلى أمر الله .

ومن هنا اتخذ الخوارج لأنفسهم شعاراً من هذه الكلمة : لا حكم إلا لله . أي لا حكم إلا لله بواسطة الحرب ينصر الحق ويهزم الباطل . وكانوا كثيراً ما يجهرون بدعوتهم هذه في مسجد الكوفة ؛ وربما قاطعوا بها علياً أثناء خطبته . وكان علي يقول : كلمة حق أريد بها باطل . ثم قوي أمر هذه الفئة حين التقى الحكمان فلم يصنعا شيئاً ، إنما اختلفا وتشاتما وافترقا كما التقيا ، لأن عمراً أعلن خلعه لعلي وإثباته لمعاوية ، ولأن أبا موسى زعم أنه كان اتفق مع عمرو على خلع الرجلين جميعاً وجعل الخلافة شورى بين المسلمين . فلم يتحرج عمرو بن العاص من أن يخالف عما تراضى عليه الحكمان . وقد رفض عليٌّ هذا الحكم طبعاً وقبله معاوية . وعادت الحرب بينهما سيرتها الأولى .

هنالك ازداد الخوارج ثقة بأنهم على حق ، وبألا حكم إلا الله ، وكثر خروجهم من الكوفة سراً حتى أصبح لهم شيءٌ من قوة .

وقد تجهز عليٌّ مرة أخرى للقاء أهل الشام ، ولكن أشير عليه أن يفرغ من هذه الفئة التي خرجت عليه ، وجعلت تفسد في الأرض وتسفك الدماء ، ترى كل من تبع علياً ومعاوية كافراً حلال الدم والمال .

وقد أرسل عليٌّ إلى الخوارج عبد الله بن العباس ليحاورهم ويحاول إقناعهم

بالرجوع إلى الجماعة ، ولكن ابن عباس لم يصنع شيئاً . فذهب إليهم علي بنفسه فناظرهم وأقنع كثيراً منهم بالرجوع ، ولكن آلافاً منهم أبوا عليه فاضطر إلى قتالهم ، فقاتلهم وظهر عليهم . وهمّ بعد ذلك بالمضي إلى الشام ، ولكن المنافقين من أصحابه أشاروا عليه بالعودة إلى الكوفة ليصلحوا من أمرهم بعد هذه الموقعة ، وليذهبوا إلى عدوهم بما ينبغي لهم من العدد والعدة . فعاد بهم إلى الكوفة ولكنه لم يخرج منها : تفرق أصحابه إلى أهلهم ، أقبلوا على أعمالهم ، وزهدوا في الحرب حتى أيأسوا علياً منهم ، فجعل يدعوهم ويلح في دعائهم ، ولكنهم لا يسمعون منه ولا يستجيبون لدعائه ، حتى قال ذات يوم في خطبة له : لقد أفسدتم عليّ رأيي بالعصيان حتى قالت قريش: ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب . لله أبوهم ! ومن يكون أعلم بها مني ؟ ثم أنشد — فيما زعم الرواة — هذين البيتين :

تلكم قريش تمناني لتقتلني فلا وربك ما بروا ولا ظفروا
فإن قتلت فرهن ذمتي لهمُ بذات ودقين لا يعفو لها أثر

وكثيراً ما كان علي — رحمه الله — يحرض أصحابه على القتال ويثيرهم إليه ويتهمهم بالجبن تحميساً لهم حتى أنشدهم ذات يوم ذلك البيت القديم :

القوم أمثالكم لهم شعر في الرأس لا ينشرون إن قتلوا

ولكنه — رحمه الله — لم يبلغ من أصحابه شيئاً ، حتى طمع معاوية وأهل الشام في العراق وفي جزيرة العرب نفسها . فكان معاوية يرسل الكتائب تغير على أطراف العراق فتقتل وتنهب ، وكان عليّ يرسل في إثر هذه الكتائب قطعاً من جيشه تردهم عن أطراف دولته .

وقد أسرف معاوية في ذلك فأرسل بسر بن أرطاة في جيش إلى الحجاز ، فأفسد فيه كثيراً وأفسد في اليمن أيضاً ، واقترف من القسوة ما لم يكن للمسلمين به عهد .

ثم ما زال معاوية بمصر حتى أخذها وقتل والي علي : محمد بن أبي بكر ،

واهداها إلى عمرو بن العاص حياته . وقد جعل أمر علي يضعف شيئاً فشيئا ويقوى أمر معاوية بما يتتابع على عليّ من هذا الضعف . ثم كانت الكارثة التي امتحن بها علي – رحمه الله – حين خالف عن أمره ابن عمه عبد الله ابن العباس والي البصرة ، فأخذ كل ما في بيت المال وفر به إلى الحجاز ، فأقام بمكة آمناً مغاضباً لابن عمه لعرض من أعراض الدنيا . وأطمع ذلك معاوية فأرسل رسله إلى البصرة فأثاروا أكثر أهلها ، واضطر علي إلى أن يرسل إلى البصرة جيشاً يخضعها ويردها إلى الطاعة .

وفي أثناء ذلك عظم أمر الخوارج فأتمر نفر منهم بقتل هؤلاء الثلاثة ، الذين ملأوا الأرض شرّاً بزعمهم ، وهم : عليّ ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص . ولم يبلغ أربه من هؤلاء الثلاثة إلا صاحب عليّ : عبد الرحمن بن ملجم قتله في المسجد وهو خارج للصلاة .

وكذلك أصبحت هذه الأمة الاسلامية التي تركها النبي صلى الله عليه وسلم مجتمعة الكلمة ، والتي همت أن تتفرق فردها أبو بكر إلى الوحدة ووجهها إلى الفتح ، والتي قهر بها أعظم دول العصر القديم ، وتركها مجتمعة الكلمة متحدة الرأي – أصبحت هذه الأمة منقسمة أشنع انقسام وأبغضه إلى الله ورسوله : نسيت قول الله عز وجل في سورة آل عمران .

« وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا » .

ونسيت قول الله عز وجل في سورة الانفال أيضاً :

« ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكم . »

ثم نسيت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

نسيت كل هذا واستجابت لفتنة المال وحب السلطان والاستئثار بخيرات الدنيا فضرب بعضها رقاب بعض يوم الجمل ، ويوم صفين ، ويوم حروراء ،

وفي تلك الأيام التي كان معاوية يرسل فيها كتائبه لتغير على الآمنين في المدن والقرى والبوادي أيضاً على نحو ما كانت العرب تفعل في جاهليتها . وقد صدق علي - رحمه الله - في البيتين اللذين أنشدهما ذات يوم على منبر الكوفة ورويناهما آنفاً وفي الثاني منهما بنوع خاص :

فإن قتلت فرهن ذمتي لهم   بذات ودقين لا يعفو لها أثر

فقد قتل رحمه الله ، ومنذ قتله أظل المسلمين شر لم تنقشع سحبه إلى الآن ، فقد انقسمت الأمة إلى فريقين عظيمين : فريق يرى أن علياً هو الإمام الشرعي للأمة وأن الإمامة يجب أن تكون في ولده ؛ وفريق آخر يذهب إلى ما ذهبت إليه جماعة المسلمين بعد وفاة النبي حين اختاروا أبا بكر للخلافة ، وحين بايعوا بعده عمر لا يرون أن الخلافة تورث في أهل البيت ، وإنما يليها من كان كفئاً لولايتها من صالحي المؤمنين . واشتد العداء بين هذين الفريقين وجعل بعضها يكفر بعضاً . ونجم بينهما فريق ثالث ، وهو الفريق الخوارج الذين ذهبت ريحهم الآن ، والذين كانوا يكفرون الشعة والجماعة معاً ويستبيحون دماءهم وأموالهم .

صدق عليٌ في بيته ذاك ، وصدق عثمان - رحمه الله من قبله - حين قال لمحاصريه : إن تقتلوني لا تصلُوا جميعاً أبداً . وقد قتلوه فلم يصلوا جميعاً أبداً ، انقسموا شيعاً وأحزاباً . وكان كل فريق منهم لا يستحل الصلاة مع الفريق الآخر . وكانت الدنيا وزهرتها مصدر هذا الخلاف ، ومصدر ما جرى من دماء ، ومصدر ما بقي من آثاره إلى اليوم .

فلولا أن بني أمية طمعوا في الدنيا وغلبوا ذلك الشيخ على أمره لما كانت الفتنة بقتل عثمان . ولولا أن معاوية قد كان رجلا من بني أمية ، طمع كما طمعوا وألف حكم الشام فكَرِه أن يتركه ، ثم طمع في أن يضم إليه سائر أقطار المسلمين ، لما كانت الحرب بينه وبين علي ؛ ولولا أن طلحة والزبير طمعا في الخلافة ، أو في أن يشاركا علياً فيها ، ولولا أن عائشة كانت تكره علياً منذ قصة الإفك ، لما كانت الفتنة يوم الجمل .

وقد اجتمعت لمعاوية أقطار البلاد الإسلامية كلها بعد أن صالحه الحسن ابن علي رحمه الله، فسمى نفسه أمير المؤمنين ، ولكنه لم يسر سيرة من عرفنا من أمراء المؤمنين ، وإنما جعل الخلافة ملكاً وأورثها ابنه من بعده ، واستباح أشياء حرمها الله في القرآن ، فاستلحق زياداً ورغب به عن أبيه عبيد ، والله ينهى أشد النهي في القرآن عن هذا الاستلحاق وأمثاله في قوله من سورة الأحزاب :

« مَا جَعَلَ ٱللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ. ومَا جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُم . وَمَا جَعَلَ أَدْعِياءَكم أَبْنَاءَكم . ذلكمْ قَولكم بِأَفْوَاهِكمْ وَٱللهُ يَقولُ الحقَّ وهُوَ يَهْدِي السَّبِيل . ٱدْعُوهمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ ٱللهِ فإِنْ لم تَعْلَمُوا آباءَهم فَإِخْوَانكُم في الدِّينِ وَمَوالِيكمْ وليْسَ عَلَيكم جُنَاحٌ فيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ ولكن ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وكانَ ٱللهُ غَفُورًا رَحِيماً » .

وكان زياد يعرف أباه عبيداً الرومي حين قبل هذا الاستلحاق،وفرح به. وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الاستلحاق وأمثاله حين قال — فيما روى الشيخان — : « ومن ادعى لغير أبيه فليتبوأ مقعده من النار » . وحين قال — فيما روى الشيخان — أيضاً : « من رغب عن أبيه فهو كافر » .

ثم تتابع الخروج على الكتاب والسنة ، لأن الإثم يدعو الإثم ، ولأن حب الدنيا لا يقنع صاحبه . فالله قد حرم مكة في القرآن ، وحرم النبي المدينة فيما روى الشيخان عن علي . وقد استباح بنو أمية المدينة ومكة جميعاً . بدأ يزيد ابن معاوية فاستباح المدينة وأنهبها ثلاثاً ، وثنى عبد الملك بن مروان فأذن للحجاج في أن يستبيح مكة ، واستباحها الحجاج ففعل فيها الأفاعيل . كل ذلك لتخضع البلاد المقدسة لبني أبي سفيان ولبني مروان من بعدهم . واستباح ابن زياد

عن أمر يزيد بن معاوية قتل الحسين وأبنائه وإخوته ، وسبي بنات النبي وكان من الممكن أن يستجيب ابن زياد للحسين حين سأله أن يسيره إلى يزيد ، ولو قد فعل لعصم أحفاد النبي من هذه المذلة . ولكن الشر يدعو الشر والإثم يستتبع الإثم . وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له .

وأصبح مال المسلمين ملكاً للخلفاء ، ينفقونه كما يحبون لا كما يحب الله ، وفيما يريدون لا فيما يريد الله من وجوه الإنفاق . فكان معاوية يشتري ضمائر كثير من أهل الكوفة والبصرة ليفسدهم على عليّ ، ثم ظل على ذلك بعد أن استقام له الأمر ، وجعل يتألف قلوب الناس حول عرشه بمال المسلمين ، لا يرى بذلك بأساً ولا يرى فيه جناحاً . ومضى الخلفاء من بني أمية على سنته فأسرفوا في أموال المسلمين ، وتجافوا عن سيرة النبي والشيخين من بعده وعلي رحمه الله .

وكان عليّ كثيراً ما يقول لأهل الكوفة : إني لأعرف ما يصلحكم ولكني لا أفسد نفسي بصلاحكم . وصدق عمر رحمه الله حين قال : لو ولوها — يريد الخلافة — ابن أبي طالب لحملهم على الجادة . وقد همّ علي أن يحمل المسلمين على الجادة ، ولكن المسلمين أبوا عليه ، أو أبت عليه ظروف الحياة الجديدة التي أتيحت للمسلمين بعد الفتح من إحياء سنة النبي وصاحبيه . ومن أجل ذلك قال كثير من المتأخرين : إنه رحمه الله لم يكن محسناً للسياسة ، وقصوره في السياسة هو الذي فرق عنه الناس وعرضه لما تعرض له من القتل .

وما أشك في أنه — رحمه الله — كان يحسن السياسة كل الإحسان ، وكان جديراً لو اصطنعها أن يجمع إليه الناس ويوحد كلمتهم ، ولكنه آثر الدين على الدنيا . فلم يشتر ضمائر الناس ، ولم يستبح ما حرم الله ورسوله ، وأبى أن يصلح الناس ويفسد نفسه . وذكر أنه سواء مات أو قتل فسيلقى الله وسيحاسب عما عمل في حياته ، وذكر قول الله للمؤمنين في سورة المائدة :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ » .

فحرص — رحمه الله — على أن يهتدي ، وبلغ من ذلك ما أراد ، وفارق الدنيا راضيا مرضيا ، لم يحتمل خطيئة ولم يقترف إثما .

٦

وعن انقسام المسلمين إلى هذه الأحزاب الثلاثة : الشيعة والخوارج والجماعة لم ينشأ ما أشرنا إليه من الشر المادي في حياتهم فحسب ، بل نشأ شيء آخر ليس أقل مما ذكرنا خطراً ، وهو تفرق المسلمين في الرأي وتفرقهم في الدين نفسه ، فقد جعل بعضهم يكفر بعضاً ، وجعل رأي بعضهم يسوء في بعض ، حتى لم يأمن خارجي لرجل من الشيعة أو الجماعة ولم يأمن رجل من الشيعة أو الجماعة لخارجي ، ثم لم يأمن رجل من الشيعة لرجل من الجماعة ، ولم يأمن رجل من الجماعة لرجل من الشيعة . فسد رأي بعضهم في بعض ، وقامت الحياة بينهم على السيف أحياناً وعلى الغش والنفاق أحياناً أخرى . وأصبح شرق الدولة ينكر غربها ويثور به كلما وجد إلى الثورة طريقاً ، وأصبح غرب الدولة يبغض شرقها ولا يظفر بطاعته إلا بالعنف كل العنف والاستبداد كل الاستبداد ، وأصبح الطغيان أصلا من أصول الحكم بين الشرق والغرب. فجعل زياد وبنوه يفسدون في الأرض ليضبطوها لبني أمية ، وأباح لهم بنو أمية هذا الفساد ، وجاء الحجاج بعد زياد وبنيه فملأ العراق شرّاً ونكراً .

ولم يكف هذا كله بل فسدت الحياة العقلية للمسلمين نفسها ، فهذه الأحزاب المختصمة كانت تقتتل بالسيف حين يتاح لها الاقتتال بالسيف ، وكانت تختصم بالألسنة حين تضطر إلى الأمن والدعة ، فنشأت المناظرات بين الجماعة والشيعة والخوارج ، وجعلوا يلتقون في المساجد وفي مساجد العراق خاصة ليختصموا ، ويحاج بعضهم بعضاً .

وما أسرع ما نشأت الفرقة في داخل الأحزاب ، فتفرقت الشيعة فرقاً ، وانقسم الخوارج إلى طوائف ، وانشق من الجماعة من انشق وألفوا فرقاً وأحزاباً ، حتى كان بيت «الحماسة» مصوراً لامرهم أبرع تصوير ، وهو :

وتفرقوا شيعاً فكل جزيرة   فيها أمير المؤمنين ومنبر

وعن هذه المناظرات نشأت الفرق الكلامية ، فللشيعة فرقها ، وللخوارج فرقهم ، ومن الجماعة نشأت المرجئة ونشأت المعتزلة ، ولم تلبث المعتزلة أن انقسمت فرقاً أيضاً ، وأهل السنة أنفسهم لم يعصموا من هذا التفرق ، فذهب بهم الجدال مذاهبه ، وإذا نحن أمام فرق من المتكلمين تتجاوز السبعين ، كلها يقول : لا إله إلا الله ، فيعصم دمه ونفسه وماله ، وحسابه بعد ذلك على الله ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه في بعض الحديث. ولكنهم على ذلك يكفر بعضهم بعضاً ، ويستبيح بعضهم دم بعض ، ويستبيح السلطان امتحان المخالفين له في المذهب بالفتنة العظيمة والبلاء الشديد . وليس من شك في أن هذا الجدال والاختلاف وتفرق الرأي قد ملأ الدنيا علماً ، وجعل للأمة الإسلامية تاريخاً فكرياً رائعاً خصباً .

ولكن ليس من شك أيضاً في أن هذا كله قد ضر الدين أكثر مما نفعه ، وأساء إلى الإسلام أكثر مما أحسن إليه .

وتستطيع أن تتصور هذا في وضوح حين توازن بين أصحاب النبي ، الذين كانوا يسمعون القرآن وحديث النبي فتصدق عقولهم وتؤمن قلوبهم ، ولا يخطر لهم أن يجادلوا فيما سمعوا ؛ لأن القرآن واضح كل الوضوح ، ولأن الحديث الصحيح الذي يثبت عن النبي واضح كل الوضوح أيضاً ، ولأن من سفه النفس وسخف الرأي أن يقول الله أو يقول رسوله فيختصم الناس فيما قال الله ورسوله .

تستطيع أن توازن بين أصحاب النبي الذين سمعوا القرآن ينبئهم بأن الله سميع بصير ، وبأنه عليم حكيم ، وبأنه واحد ، وبأنه قدير ، فلم يخطر لواحد منهم أن يسأل عن هذه الصفات التي وصف الله بها نفسه : أهي زائدة عن ذاته أم هي عين ذاته ، كما اختلف المسلمون حين جعل المعتزلة ينكرون أن تكون لله صفات تقوم بذاته ، وإنما صفاته هي ذاته . وسموا أنفسهم من أجل ذلك أصحاب التوحيد . وحين جادلهم خصومهم في ذلك فأكثروا وأسرفوا وسموهم معطلين . وكما اختصموا في قول الله :

« يَدُ ٱللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم » .

وجعلوا يتساءلون عن هذه اليد التي أضافها الله إلى نفسه ، استعملت في القرآن مجازاً أم حقيقة . كذلك في السمع والبصر وما إليهما من الصفات التي ذكرت في القرآن .وتستطيع كذلك أن توازن بين أصحاب النبي حين سمعوا الله يوعد الكافرين بالعذاب الخالد المقيم . ويعد المؤمنين بالنعيم الخالد المقيم ، ويخوف المذنبين من المسلمين عقابه الشديد ولا يوئسهم مع ذلك من عفوه ومغفرته ، ويعدهم عفوه ومغفرته إن تابوا وأصلحوا .

سمع أصحاب النبي هذا كله فلم ينكروا ولم يسرفوا في السؤال ولم يتورطوا في الجدال ، وسمع المتكلمون ذلك فجعلوا يسألون ، أو جعل فريق منهم يسأل عن مقترف الكبيرة : أمؤمن هو أم كافر ؟ ثم لم يستطيعوا أن يقولوا إنه كافر ، لأنه يعلن أن لا إله إلا الله ، ولم يستطيعوا أن يقولوا إنه مؤمن ، لأنه خالف عن أمر الله باقتراف الكبيرة ، فزعموا أنه ليس مؤمناً ولا كافراً ، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين ، وقالوا : إنه فاسق . وحظروا على الله العفو عن مقترف الكبيرة لأنه إن عفا لم يكن عادلا والعدل واجب لله . كما حظروا على الله عقاب المؤمن الذي لم يذنب لأنه إن عاقبه لم يكن عدلا . ولجوا في هذه المقالات حتى أسرفوا على أنفسهم وعلى الناس ، وحتى أغروا بأنفسهم شاعراً كأبي نواس الذي قال لبعض المعتزلة :

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة   حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

لا تحظر العفو إن كنت امرءاً فطناً   فإن حظرا له بالدين إزراء

وقال قائلهم : إنه لا تقبل شهادة طلحة والزبير — رحمهما الله — في باقة بقل ، لأنهما في زعمه قد خالفا عن أمر الله . ولم ينسوا إلا شيئاً واحداً وهو أن الله عز وجل يقول في سورة النساء :

« إِنَّ ٱللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ

يَشَاءُ وَمِنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا » .

ويقول في سورة الزمر :

« قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ الرَّحِيم

فهؤلاء الوعيدية ييأسون ويؤيسون الناس من عفو الله ورحمته ومغفرته إذا أذنبوا ، على حين أن الله في هاتين الآيتين وفي آيات أخرى من القرآن ، يفتح لهم أبواب الأمل واسعة . وقد بينا فيما مضى من هذا الحديث أن الله عز وجل يوعد الناس إن اقترفوا الذنوب حتّى يشرف بهم على اليأس ، ثم يفتح لهم باب الأمل حتّى يعصمهم من هذا اليأس ، ويغريهم بالتوبة والإقلاع عن الذنوب . وما أكثر ما يقرن الله وعده بوعيده . كما قال في سورة الحجر :

« نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا ٱلْغَفُورُ الرَّحِيم . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ » .

وهذا الاختلاف بين الفرق الإسلامية يرجع قبل كل شيء الى الفتنة الّتي سادت بقتل عثمان — رحمه الله — وبما كان من الحرب بين أصحاب النبي بعد مقتله . فالفرق الأولى الّتي نشأت عن هذه الفتنة اختصمت فيما بينها أشد الاختصام . حتّى قالت الخوارج بكفر عليّ وأصحابه ، وكفر معاوية وأصحابه . وقالت الشيعة بكفر معاوية ومن ناصره من أهل الشام . وجعلت هذه الفرق تتقاذف بالكفر . وأبى المعتزلة من أصحاب النبي ، كسعد ابن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة أن يشاركوا في شيء من هذه الفتنة ، وأبوا كذلك أن يكفروا احداً من المسلمين حتّى كان بعضهم يقول : لا أقاتل حتّى تأتوني بسيف ينطق فيقول : هذا مؤمن وهذا كافر ، وكره قوم هذا التقاذف بالكفر ، والحكم فيما لا ينبغي أن يحكم فيه إلاّ الله وحده فوقفوا موقف الإرجاء ، وتركوا أمر هؤلاء المختصمين الى الله يقضي بينهم يوم

القيامة فيما اختلفوا فيه ، فيحسن ثواب البر ويشدد عقاب الفاجر إن شاء أو يخففه أو يعفو عنه .

وتجاوزت المعتزلة التي نجمت فيما بعد ما ألف الصالحون من القصد فأغرقوا في تحكيم العقل فيما لا يستطيع العقل أن يحكم فيه . تكلموا أولا فيما تكلمت فيه الفرق القديمة من هذا التقاذف بالكفر . فاخترعوا المنزلة بين المنزلتين وقرروا أن مقترف الكبيرة ليس مؤمناً ولا كافراً ، وإنما هو فاسق خالف عن أمر الله فلم يعد مؤمناً ، وأظهر الإسلام واعترف بوحدة الله وصدق نبيه فلم يصر الى الكفر ، ورتبوا على هذا المذهب أن مقترف الكبيرة لا تقبل شهادته في الدنيا وأنه مخلد في النار بعد الموت .

وبينما كان المسلمون يختصمون في هذه المسائل لقوا اليهود والنصارى وغيرهم من الفرس والهند ، وجادلوهم في دياناتهم كما جادلهم أولئك في الإسلام . فعرفوا من مذاهبهم في الدفاع عن دياناتهم أشياء لم يكونوا يعرفونها ، ثم لم يلبثوا أن عرفوا ألوانا من الثقافات الأجنبية ، والثقافة اليونانية خاصة ، والفلسفة اليونانية على وجه أخص . فتأثروا بهذا كله واتخذوه وسيلة الى الدفاع عن دينهم كما فعل النصارى واليهود ، ثم مضوا الى أبعد من ذلك فآمنوا بالعقل وحكموه في كل شيء ، وزعموا أنه وحده مصدر المعرفة ، وأنه هو الذي يحسن ويقبح من أعمال الناس حسنها وقبيحها . وأنه يستطيع أن يعرف الله ، وأن يعرفه بقوته ، سواء جاءته الأنبياء الهداة الى الله أو لم يجيئوا . وقد غرهم إيمانهم بالعقل فدفعهم الى شطط بعيد . ولم يخطر لهم أن العقل الإنساني ملكة من ملكات الإنسان ، وأن هذه الملكة كغيرها من ملكات الإنسان محدودة القوة ، تستطيع أن تعرف أشياء وتقصر عن معرفة أشياء لم تهيأ لمعرفتها . وهذا هو الذي فتح عليهم أبواب هذا الاختلاف الذي لا ينقضي ، وجعلهم فرقاً نيفت على السبعين .

ثم لم يكفهم هذا كله فزعم الزاعمون منهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نبأ بهذا الاختلاف ، ونبأ بعدد الفرق التي ستنشأ في الإسلام ، ونبأ بأن

فرقة واحدة منها هي الناجية — في الحديث الذي رواه رواتهم — وأن سائرها هالك . وذلك كله في الحديث الذي رواه رواتهم ، والذي أكاد أقطع بأنه اخترع بأخرة ، مهما يكن السند أو الأسانيد التي ركبت له ، هو قولهم عن النبي : ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة والباقون هلكى . قيل : ومن الناجية ؟ قال : أهل السنة والجماعة . قيل : ومن أهل السنة والجماعة ؟ قال : « ما أنا عليه اليوم وأصحابي » .

والشيء الذي لا شك فيه أن كثرة هذه الفرق ، وما يضاف اليها من المقالات ، إنما نشأت عما كان من إلتقاء الإسلام بالديانات والثقافات الأجنبية على اختلافها . ونحن نعلم كيف فتن كثير من المسلمين بالفلسفة اليونانية ، وبما رأوه من أن فلاسفة اليونان قد استكشفوا ألواناً من المعرفة لم تكن تخطر للعرب على بال ، في شؤون الرياضة والطبيعة والطب . وهم قد رأوا فلاسفة اليونان قد تجاوزوا بعقولهم ما تستطيع أن تعلم الى ما لا تستطيع أن تعلم ، فبحثوا عن الله وعن صفاته وخصائصه وذهبوا في ذلك مذاهبهم المعروفة ، فما يمنع المفلسفين من المسلمين أن يذهبوا مذهب هؤلاء الفلاسفة من اليونان ، وأن يحاولوا أن يستكشفوا بعقلهم الطبيعة ، وما وراء الطبيعة ، وما يمنع المتكلمين من أن يذهبوا مذهب الفلاسفة فيعملوا العقل فيما لا يحسن العقل أن يعمل فيه من البحث والنظر ، ويتخذوا وسائل الفلسفة سبيلا الى محاجة غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى ، فيعود عليهم هذا كله بالاختلاف فيما بينهم ، كما اختلف غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى حين عرفوا الفلسفة وأقحموها في شؤون الدين . وهذا هو الذي جعل المعتزلة مثلا يقرأون القرآن والسنة فيرون أن الله قد وصف نفسه بصفات فيبحثون عن هذه الصفات ، ويأبون الا أن يصلوا فيها الى ما يرون أنه الحق ، وهم قد قرأوا في القرآن أمر الله للناس أن يتفكروا ويتدبروا ، ليعلموا أن هذا العالم بما فيه من العجائب والنظام الدقيق لا يمكن أن يوجد من غير موجد له ، فظنوا أن العقل يستطيع أن يعرف كل شيء ، وأن يعرف الله ذاته ، وحقائق ما يصف به نفسه من الصفات . فتورطوا في أشياء أساغتها عقولهم ولا تستطيع عقولنا نحن أن

تسيغها ، ولسنا في حاجة اليها لنحسن الإيمان بالله والعلم بقدرته ، وبما وصف نفسه به من الصفات ، لأننا قد عرفنا أن العقل الإنساني ليس من القوة والنفوذ بحيث ظن فلاسفة اليونان ومن تبعهم من متفلسفي النصارى واليهود والمسلمين ، وإنما هو كما يقول أبو نواس : قد حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء .

وانظر الى رجل حكيم كأبي العلاء ، كيف غرّه الإيمان بالعقل فظن أنه هو الإمام ولا إمام غيره ، وأنه وحده يهدي الناس في المسير والإرساء ، فقال في الرد على بعض غلاة الشيعة :

كذب الظن لا إمام سوى العقـ ـل مشيراً في صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرحـ ـمة عند المسير والإرساء

وكيف انتهى بـه إيمانه بالعقل الى مقالة لا يسيغها الدين ولا يقرها الإسلام في قوله :

قلتم لنا خالق حكيم قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بـلا مكان ولا زمان ألا فقولوا
هـذا كلام لـه خبيء معناه ليست لنا عقول

فعقله لم يستطع أن يتصور الخالق الحكيم في غير زمان ولا مكان ، فاضطره ذلك الى أن يصف الخالق الحكيم بما يصف به سائر المخلوقات من الخضوع للزمان والمكان ، وهذا سخف لا يقول به مؤمن .

وأكبر الظن أن أبا العلاء نفسه لم يثبت عليه فهو يقول في قصيدة أخرى :

أما ترى الشهب في أفلاكها انتقلت بقدرة من مليك غير منتقل

وما يجوز عليه التحيز في مكان يجوز عليه الانتقال منه الى مكان غيره ، ولا يجوز أن يقضي أبو العلاء على الخالق الحكيم القادر الذي يؤمن به بالعجز ، وبالتزامه مكاناً واحداً لا يريمه ، إن كان مستقراً في مكان .

وكل هذا وأمثاله عند أبي العلاء وغيره ، من الذين غرهم العقل فأسرفوا

في الإيمان به ، وحكموه فيما لا يستطيع أن يحكم فيه ، لا يدل إلا على الحيرة والعجز ، والقصور عن بلوغ الحقيقة الّتي حاولوا أن يبلغوها .

ومثل ذلك يقال في المجسمة والمشبهة وكل الذين حاولوا أن يعرفوا الله بعقولهم معرفة دقيقة . ولم يكتفوا بما اكتفى به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه — رحمهم الله — من قبول نص القرآن وفهمه في يسر وإسماح ، وفي غير تكلف ولا إسراف في التأويل والله عز وجل ينبئنا في القرآن بأنه أنزل الكتاب فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، وبأن الذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، مع أن العلم بتأويله موقوف على الله عز وجل ، وبأن الراسخين في العلم يقولون آمناً به كل من عند ربنا ، وذلك في قوله عز وجل من سورة آل عمران :

« هُوَ الذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أَمُّ الكِتَابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهَات . فَأَمَّا الذِينَ في قُلوبهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشَابَه مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأويلِهِ . وَمَا يَعْلَمُ تَأْويلَهُ إلاَّ الله . وَالرَّاسِخُونَ في العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وما يَذَّكَّرُ إلاَّ أَولُو الأَلْبَاب . رَبَّنَا لا تُزِغْ قلوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رحمة إِنَّكَ أَنْتَ الوهَّاب » .

وهذه هي المقالة الّتي يجب على كل مؤمن أن يقول بها ويتخذها ديناً . ولست أدري أيصل العقل يوماً الى أن يبلغ ما لم يبلغه الى الآن من القوة أم لا ، ولكن الشيء المحقق هو أن عقل القدماء وعقل المحدثين من أصحاب الفلسفة والعلم ما زالا أضعف وأقصر باعاً من أن يصلا الى استكشاف حقيقة الله ، أو البحث عن صفاته وإصدار هذه الأحكام الّتي أصدرها الفلاسفة والمتكلمون،

اغتراراً بالعقل واستجابة لما لا تنبغي الاستجابة لـه .

ومن أجل هذا أقول : إن المؤولين من المحدثين كالمؤولين من القدماء قد استجابوا لعقولهم القاصرة واغتروا بها ، وقالوا فيما ليس لهم أن يقولوا فيه ، وطمعوا فيما ليس لهم أن يطمعوا فيه . ولـو قد تواضع أولئك وهؤلاء ، ووقفوا أنفسهم حيث تنتهي بهم قوتهم ، لكان خيراً لهم وللذين افتتنوا بهم من الناس .

فهؤلاء الذين يزعمون أن الطير الأبابيل ، وما رمت بـه جيش الحبشة أمام مكة ، إنما كانت وباء من الأوبئة ، وكانت الحجارة ضرباً من الميكروبات إنما يقولون هذا من عند أنفسهم ، وهم يعلمون حق العلم أن النبي وأصحابه لم يفهموا هذه السورة على هذا النحو ، وما كان لهم أن يفهموها على هذا النحو ، فهم لم يكونوا يعرفون الميكروب ، وما كان لهم أن يعرفوه . والذين يقولون إن السماوات السبع التي تذكر في القرآن هي الكواكب السيارة ، إنما يرجمون بالغيب ويقولون ما لم يقله النبي وأصحابه . ومصدر هذا أنهم يريدون أن يلائموا بين القرآن ومستكشفات العلم الحديث ، فيضطرهم ذلك الى تكليف النصوص من التأويل ما لا تحتمل . وليس على الدين بأس أن يلائم العلم الحديث أو لا يلائمه ، فالدين من علم الله الذي لا حد لـه ، والعلم الحديث كالعلم القديم محدود بطاقة العقل الإنساني ، وبهذا العالم الذي يعيش الإنسان فيه .

ومن أسخف السخف أن نحاول الملاءمة بين ما لا حد له وما هو محدود بطبعه . وصدق الله حين أنبأ بأن الراسخين في العلم يقولون : ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لـنـا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

وشر آخر نشأ عن اختلاف هذه الفرق فملأ حياة المسلمين فساداً أي فساد ، وهو الغلو في التأويل الى أبعد ما يتصور العقل ، والى غير ما يفهم صراحة من نصوص القرآن . وذلك حين اضطرت بعض الأحزاب الى أن تسر دعواتها ، وتستخفي بمذهبها في السياسة أولا وفي الدين بعد ذلك ، كهؤلاء الباطنية

الذين زعموا أن العلم بالدين علمان : علم الظاهر وهو ما عليه الناس في كثرتهم ، وعلم الباطن وهو ما هم عليه . وجعلوا يتركون ظاهر النص لأنه لا يليق إلا بعامة الناس ولا يلائم خاصتهم ، ثم يلتمسون للنص تأويلا يخالف كل المخالفة ما يفهم منه لغة ، وما فهمته جماعة المسلمين حين سمعوا النبي يتلو عليهم القرآن ويبين لهم ما أنزل اليهم ، وغلوا في ذلك كل الغلو حتى أحدثوا لأنفسهم ديناً لا يدين به غيرهم من المسلمين فأفسدوا الدين والعقل معاً . ثم نشأ التصوّف ونشأ في أول أمره زهدا غلا فيه أصحابه وأنكره النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو قد ردّ على عثمان بن مظعون — رحمه الله — رهبانيته ، وشدد على عبد الله بن عمرو بن العاص حين أزمع أن يصوم الدهر وحين غلا في قراءة القرآن ، وأراد أصحابه على أن يأخذوا دينهم بالرفق وبالإسماح ، وذكرهم بما أنبأهم به القرآن من أنه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر ، ومن أنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج ؛ وأمر الغلاة منهم في الصيام والقيام أن يصوموا ويفطروا وأن يقوموا ويناموا ، ولا يحرموا على أنفسهم ما أحل الله لهم ، بل بالغ النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك حتى استخفى من أصحابه ببعض عبادته مخافة أن يشق عليهم ، وأن يتقيدوا به فيتكلفوا ما لا يطيقون ، ونهاهم عن أن يواصلوا في صومهم فيصوموا الليل والنهار جميعاً . فلما قالوا له : إنك تواصل . قال : إني لست كهيئتكم ، إني أظل يطعمني ربي ويسقيني ، يريد أن الله قد منحه من القوة والجلد على عبادته ما لم يمنحهم .

وعلى رغم هذا ظهر الزهد ، وأبى فريق من صالحي المسلمين إلا أن يرفضوا لين الحياة ، ويشددوا على أنفسهم في العبادة والتقشف والإعراض عن اللذات . وليس بهذا كبير بأس ، فالناس أحرار في أن يزهدوا إن أطاقوا الزهد ولم يسوءوا به أحداً ، ولكن هذا الزهد لم يلبث أن تطور حين نشأت الفرق وجعل أمره يتعقد شيئاً فشيئاً ، حتى نشأ عنه التصوّف الذي عرف في أواخر القرن الأول وازداد تعقيداً حين اشتد اتصال المسلمين بالثقافات الأجنبية ، فلم يلبث التصوف أن تأثر بما عرف المسلمون من ثقافة الهند والفرس ، ومن ثقافة اليونان خاصة ، وتحوّل الزهد من تفرّغ للعبادة وإمعان فيها الى

محاولة الإتحاد بالله أو الاتصال بـه ، أو معرفته من طريق الإشراق . ثم اختلط التصوف بمذاهب الباطنية فازداد تعقيداً الى تعقيد ، وانحرف عما عرف الناس من شؤون الدين ، وأصبح مذهباً بعينه بل أصبح مذاهب يختلف فيها المختلفون ، وتكلم المتصوفون بأشياء أنكرها الفقهاء والمحدثون والمتكلمون ، وامتحن فيها بعضهم محنة شديدة انتهت أحياناً الى القتل والصلب كما جرى على الحلاج .

وليس التصوف مقصورا على الإسلام بل هو معروف في الديانات الأخرى وفي المسيحية خاصة . ولكن متصوّفة الإسلام أسرفوا على أنفسهم . ثم أسرفوا بعد ذلك على الناس ، فصار أمر التصوف بعد أن فشا الجهل والجمود الى ألوان من الشعوذة والدجل حتّى أصاب عامة الناس منه شر كثير ، لو رآه أئمة الصوفية الأولون لضاقوا بـه أشد الضيق وأنكروه أعظم الإنكار .

ثم لم يقف أمر الاختلاف بين المسلمين عندما وصفنا ، ولكنهم اختلفوا في استنباط الأحكام الّتي يحتاج اليها الناس في حياتهم الاجتماعية ، بل في عباداتهم أيضا اختلافا كثيرا نشأ عنه جدل لا يحصى بين الفقهاء . فكان أهل الحجاز في القرن الأول والثاني يستنبطون الأحكام من القرآن والسنة ، وما أجمع عليه أصحاب النبي ، وما عمل به الممتازون منهم ، يرون أن أصحاب النبي لا يجمعون على شيء إلا أن يكونوا قد استندوا في إجماعهم على سنة من النبي ؛ ويرون أن الممتازين من الصحابة قد اشتد اتصالهم بالنبي حتّى فقهوا بالدين حق فقهه وتحروا سنته في أحكامهم . وكان أهل العراق يستنبطون الأحكام من القرآن والسنة والإجماع . ولكنهم لا يكرهون أن يلجأوا الى الرأي اذا أعوزتهم هذه الأصول ، واشتد الجدال بين أولئك وهؤلاء ، وكثر الخلاف بين أصحاب الرأي أنفسهم ، فكثر الكلام في الفقه ، كما كثر الكلام بين الذين اشتغلوا بأصول الدين الى اختلاف الفرق القديمة في استنباط الأحكام . فللشيعة فقههم ، وللخوارج فقههم . كل يقيم مذهبه في استنباط الأحكام على مذهبه في السياسة وفي أصول الدين أيضاً .

وكذلك بلغ الخلاف بين المسلمين في الأصول والفروع أقصى ما كان

يمكن أن يبلغ . ثم أدركهم ما يدرك الأمم قبلهم وبعدهم من الضعف والجهل والإنحطاط . فصار أمرهم الى شر عظيم .

وقبل الحديث عن الجهل وما ترك في حياة المسلمين من شر يشقون به الى الآن ، لا بد من وقفة قصيرة عند ألوان من التعصب نشأت عن كثرة الفرق في الأصول والفروع جميعاً ، فكما كانت الأحزاب السياسية في أول الأمر تتقاذف بالكفر ، ويستبيح بعضها دم بعض حين تمكنه الفرصة ، أو يتاح له الخروج على السلطان ، جعلت فرق المتكلمين تتقاذف بالكفر أحياناً وبالفسق غالباً ، وتستبيح امتحان الناس بالسجن والضرب والقتل ، ان أتيح لها الاتصال بالسياسة والاستيلاء على عقول الحكام وقلوبهم ، كالذي كان حين غلب المعتزلة على عقل المأمون ، وألقوا في قلبه مقالتهم هذه السخيفة ، التي لا تقدم ولا تؤخر في فقه أصول الدين وفروعه ، والتي لم يدفع اليها إلا الغلو في البحث والإمعان في الجدل ، وهي مقالتهم في خلق القرآن . فهم قد أنكروا أن تكون لله صفات تقوم بذاته ، وقرروا أن الله عالم بذاته وقادر بذاته الى آخر ما قرروا فيما يسمونه التوحيد . ونظراً لأن الله قد أنبأ في القرآن بأنه كلم موسى تكليماً وبأنه أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمر النبي أمراً مباشراً بأن يبلغ الناس عنه ما أنزل اليه ، وأمره أمراً مباشراً غير مرة بأن يقول لهم أشياء مختلفة ، يوجه بعضها الى المسلمين ويوجه بعضها الى الكافرين ويوجه بعضها الى الناس جميعاً ، فقد استنبطوا من كل هذا أن كلام الله مخلوق محدث قد أنشأه الله بعد أن لم يكن وأنزله على أنبيائه ، فهو كغيره من الكتب التي ينشئها الناس ، إلا أنه هنا قد أنشأه الله كما أنشأ غيره من المخلوقات . ولو قد قالوا مقالتهم هذه ولم يفتنوا بها الناس لكان حسابهم الى الله وحده ، ولكنهم سيطروا على المأمون وأقنعوه بمقالتهم هذه ، وأقنعوه أيضا بأن القول بغيرها إشراك بالله وخروج من الدين ؛ لأن قدم القرآن معناه أن يكون هناك قديمان ، مع أن القديم واحد لا شريك له ولا نظير له في القدم ، وهو الله عز وجل . ثم لم يكفهم ذلك فحملوا المأمون على أن يفرض رأيهم هذا على المسلمين ، ويبدأ بعلمائهم وفقهائهم

ومحدثيهم . واستجاب لهم المأمون بعد تردد ، وجعل يمتحن علماء المسلمين ، ويفرض هذه المقالة على كل من يعمل في خدمة الدولة بل في خدمة الأمة من القضاة والعمال والشهود ، وقرّر أنه ليس في حاجة الى أن يستعين على خدمة الدولة الإسلامية بالمشركين . وألزم العمال أن يمتحنوا القضاة في ذلك فمن أجاب الى رأيه أقر على عمله ومن أبى صار الى العزل . وأمر القضاة أن يمتحنوا الشهود ولا يقبلوا إلا شهادة من يقول برأيه ويعلن إيمانه بأن القرآن مخلوق . ثم جعل يمتحن الفقهاء والمحدثين ، فمنهم من أجاب الى رأيه تقية وتجنباً لاحتمال المكروه ، ومنهم من أبى فتعرض للسجن وتعرض للضرب ، ولو قد عاش المأمون لتعرض خصومه من العلماء للقتل ، فهو قد أمر عامله على بغداد أن يمتحن جماعة من العلماء ، فمن أجاب الى رأيه أطلقه ومن خالف عن رأيه ضرب عنقه وأرسل اليه رأسه .

وكان حين أصدر هذا الأمر الى عامله على بغداد قد خرج من العراق محارباً للروم . والناس جميعاً يعرفون أن أحمد بن حنبل — رحمه الله — لقي في هذه المحنة بلاء عظيماً ، فصبر صبر الأبطال واحتمل السجن الطويل والحرمان الشديد والضرب المبرح الذي أضعفه الى أن توفي . وأكبر الظن أن المعتزلة صاروا بالمأمون في هذه المقالة الى شيء يشبه الجنون ، ولولا أنه قد مات في سفره ذاك لملأ الأرض شراً ونكراً ، ولكن الواثق والمعتصم سارا في هذه المسألة سيرة المأمون مع شيء من القصد ، فلم يصلا بالممتحنين الى القتل كما همّ المأمون أن يفعل ، وإنما اكتفيا بالسجن والضرب والحرمان . ولولا أن المتوكل ألغى هذه المحنة وعاد الى القصد في حكم المسلمين لتعرض أمر الخلافة العباسية لخطر أي خطر .

وكذلك الأمر كلما اتصل رجال الدين ، والغلاة منهم في الرأي ، بالسلطان وسيطروا عليه . فقد أشرنا آنفاً الى الحلاج وقتله وصلبه . وقد حدث شيء من هذا الامتحان لبعض العلماء في الغرب الإسلامي ، فمنهم من سجن ، كابن رشد ، ومنهم من حرقت كتبه ، كابن حزم . وليس لهذا كله مصدر إلا أن الغلاة من الأحرار كالمعتزلة في المشرق ، والغلاة من المحافظين

كالفقهاء في المغرب الإسلامي ، قد استطاعوا أن يستأثروا ببعض الحكام ويفرضوا عليهم غلوهم في الرأي ، وأخذهم الناس بما لم يعرف عن النبي صلى الله عليه وسلم . والذين يقرأون القرآن والسنة يعرفون ما لقي النبي وأصحابه المؤمنون من المنافقين في المدينة وفي باديتها . ويعرفون أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعرض لأحد منهم بسوء ، وإنما احتملهم صابراً عليهم مطاولا لهم ، طامعاً في أن يثوبوا يوماً الى الرشد ، أو أن تمسهم رحمة من الله فتخلص قلوبهم للدين ، وكان يستغفر لأحيائهم ويصلي على موتاهم ، حتى قال الله له :

« ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لهم إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لهم » .

وقال له :

« وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ »

وربما عرض عليه عمر بن الخطاب أو غيره من أصحابه أن يقتلوا بعض المنافقين فلم يأذن لأحد منهم في ذلك .

وقد روى الشيخان أن شيئاً من الخصومة وقع بين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار في غزوة بني المصطلق ، وتعصب لكل واحد منهما نفر من أصحابه ، فبلغ ذلك عبد الله بن أبيّ بن سلول ، رأس المنافقين من أهل المدينة ، فقال : لئن رجعنا المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . وارتفعت القصة الى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عمر بن الخطاب أن يأذن في قتل هذا المنافق ، فأبى وقال : لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه . وذكر الله هذه المقالة التي قالها عبد الله بن أبي بن سلول فقال في سورة « المنافقون » :

« يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » .

واعترض رجل على إعطاء النبي من غنائم حنين لبعض المؤلفة قلوبهم ، وواجه النبي باعتراضه ، فقال : اعدل يا محمد فانك لم تعدل . فلم يزد النبي في جوابه على أن قال : ويحك ! فمن يعدل إذا لم أعدل ؟ واستأذنه بعض أصحابه في قتل هذا الرجل ، فأبى .

وإذن فقد علم الله ما أضمر المنافقون من الكفر في قلوبهم فلم يحرض النبي عليهم ، ولم يأذن له في قتل أحد منهم ، وإنما نهاه أن يصلي عليهم إن ماتوا أو يقوم على قبورهم .

ولم ينطق النبي عن الهوى حين قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

وحين قال : « ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

وكان الفقهاء والمحدثون الذين همّ المأمون بقتلهم يقولون : لا إله إلا الله . فيعصمون بها دماءهم وأموالهم . ثم لم يكونوا يقولون هذه الكلمة بألسنتهم وإنما كانو من صالحي المؤمنين وأصحاب الورع والزهد فيهم . ومن الخلفاء العباسيين من غلا في امتحان بعض الناس وأسرف في قتلهم . يأخذ بعضهم بالشبهة والوشاية وسوء القالة ، كالذي صنع المهدي حين تتبع الزنادقة . فقتل منهم أفراداً لم يتثبت من كفرهم وإنما أخذهم بسوء القالة وسعي بعض الناس فيهم بالسوء . وغلا في ذلك حتى أمر بعض وزرائه أن يقتل ابنه بيده . وقال له : قم فتقرب الى الله بدمه .

وكل هذا إسراف لم يأته النبي ولا نعرف أن خلفاءه الراشدين قاتلوا ، أو قتلوا المسلمين ، إلا حين جاهروا بالخروج من الدين وأظهروا له العداوة ولم يعصموا دماءهم وأموالهم بالإسلام .

ولست في حاجة الى أن أذكر زياداً ، ذلك الذي أعلن في خطبته المشهورة أنه سيأخذ البرىء بالمسيء والصحيح في دينه بالسقيم . ولا أذكر الحجاج

الذي أسرف في القتل بغير الحق . فقد كان زياد والحجاج طاغيتين أطلق خلفاء بني أمية أيديهما وأيدي عيرهما من ولاة العراق في دماء الناس وأموالهم فأفسدوا وأمعنوا في الفساد .

وجملة القول : ان الغلو في الرأي . حمل الناس على ما لا يؤمنون به . وأخذ الناس بالشبهة وقتلهم أو تعذيبهم بالظنة ، كل هذه أشياء ينكرها الإسلام ويأباها أشد الإباء ويبرأ الله ورسوله منها . ولا يعمد اليها من حكام المسلمين إلا الذين يطيعون الهوى ويمتنعون على العقل ويخالفون عن القوانين الصريحة للدين .

وعن اختلاف الأحزاب واختصامها بالسيف أحياناً ، وباللسان غالباً في القرن الأول وصدر من القرن الثاني . وعن اختلاف الفرق بعد ذلك ولجاجها في الخصومة . نشأت الدعوة السرية لبعض المذاهب السياسية ، وكان هذا مصدر اضطرابات كثيرة زعزعت أحياناً مركز الخلافة في دمشق أولا ، وفي بغداد بعد ذلك .

كانت قوة السلطة المركزية في العصر العباسي خاصة تمنع الناس من الجهر بآرائهم في السياسة والنضال عنها ، فلم يكن لهم بد من أن يسروا آراءهم ، ويستخفوا بدعوتهم ، ويدبروا ثوراتهم من وراء الحجب الصفاق . أضف الى هذا أن الثقافة في العصر العباسي تجاوزت طبقة العلماء المتخصصين وطبقة الأغنياء الذين كانوا يستطيعون أن يأخذوا منها بحظوظ مختلفة ، وتغلغلت في بعض طبقات الشعب . فلم يلبث الناس أن عرفوا حقوقهم ، وشعروا بما كان يفرض عليهم من ظلم السلطان ، واستئثار الأغنياء دونهم بطيبات الحياة ، واستذلالهم للفقراء ، واستغلال الأقوياء للضعفاء . فنشأت عن ذلك الدعوة الى لون من الثورة ، لم يخلص للسياسة ولم يخلص للدين أيضا ، وإنما كان مطالباً بالحقوق الاجتماعية ، وجهاداً في سبيل تحقيق العدل وشيء من المساواة . فكانت ثورة الزنج في البصرة ، تلك التي ثار فيها الرقيق بالسادة ، والتي عرضت مركز الخلافة لخطر عظيم . واضط أولو الأمر في بغداد

الى أن ينفقوا في مقاومتها جهداً مضنياً ومالا مبهظاً ، ولم يستطيعوا إخمادها إلا بعد حرب عنيفة شديدة العنف ، طويلة مسرفة في الطول .

ولم تكد هذه الثورة تخمد حتّى نشأت ثورة اجتماعية أخرى ، كانت أشد منها خطراً وأعظم منها انتشاراً ، وهي ثورة القرامطة الّتي دعت الى شيء من العدل والمساواة ، يوشك أن يكون هدماً للنظام الاجتماعي الذي كان قائماً . وقد ملأت الدنيا شراً في العراق والشام وبلاد العرب، وكادت ترد كل شيء الى الفوضى . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل عمل الشيعة العلويون سراً وجدّوا واجتهدوا ، واتقنوا الكتمان والاستخفاء بدعوتهم ، حتّى أتيح لهم أن ينشئوا لحزبهم دولة في شمال أفريقيا ، لم تلبث أن انتشرت وقوي أمرها ، حتّى سيطرت على مصر والشام وبلاد العرب .

ونظر المسلمون ذات يوم فاذا هم خاضعون لثلاثة من الخلفاء ، أضعفهم الخليفة العباسي في بغداد . ذلك الذي لم يكن له من الحكم إلا ظاهره . وكان الخليفة الثاني في مصر ، بعد أن أنشأ الفاطميون مدينة القاهرة واستقروا فيها ، وكان الخليفة الثالث في قرطبة بالأندلس ، حيث أوت سلالة الأمويين الّتي فرت حين نشأت الدولة العباسية في المشرق . فأنشأت دولتها في الأندلس ضعيفة أول الأمر قوية بعد ذلك .

وكانت هذه الدول الثلاث تتنافس أشد التنافس ، ويبغض بعضها بعضاً أعظم البغض ، قد انقسم بنو هاشم الى خلافة عباسية في بغداد وخلافة علوية في القاهرة ، وقام بنو أمية في قرطبة يبغضون العباسيين والعلويين جميعاً ، وظهر بين علماء الأندلس رجل كابن حزم لم يتّردد في الجهر بأن تعدد بخلفاء جائز لا بأس به . وقد رأيت من قبل أن الله أمر المسلمين أن يعتصموا بحبله جميعاً ولا يتفرقوا .

فانظر الى ما صار اليه اعتصامهم بحبل الله من الفرقة والانقسام ، واستباحة الحرب بينهم ، مع أن النبي والصالحين من أصحابه لم يكونوا يبغضون شيئاً كما كانوا يبغضون الفرقة والانقسام ، حتّى روي عن النبي صلى الله

عليه وسلم قوله : « من حمل علينا السلاح فليس منا » . وقد روينا لك غير مرة قوله صلى الله عليه وسلم : « ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » . وليس لشيء من هذا كله مصدر إلا افتتان الناس بزهرة الحياة الدنيا ، وانحرافهم عما أراد الله للمسلمين من أن يقيموا أمرهم كله على العدل والمساواة والإنصاف . واختلافهم في فهم القرآن تأثراً بالأهواء ، واستجابة لما كان يملأ نفوسهم من الطموح .

٧

على أن هذا كله لم يلبث أن صار الى شر عظيم حين غلبت العناصر الأجنبية على شؤون الحكم ، فأقامت هذه الشؤون على المنافع ، غير حافلة بما يأمر به الله من العدل والإنصاف والمساواة ، والشعور المتصل بهذه الرقابة الرهيبة التي فرضها الله على الناس ، فراقب أعمالهم الظاهرة ونياتهم الباطنة ، وأنبأ بأنه سيسأل الناس عما تعمل جوارحهم وما تضمر قلوبهم — أعرضوا عن هذا كله وأقاموا أمور الحكم على المنافع العاجلة ، وعلى المنافع العاجلة لأنفسهم ولأعوانهم وذوي خاصتهم ، ولم يحفلوا بالعامة ولم يفكروا في أن للأمة حقوقاً يجب أن تؤدى اليها ، وعليها واجبات يجب أن تحمل على أدائها . بل نظروا الى الأمة على أنها وسيلة لإرضاء المطامع ، وأداة لتحقيق المآرب . والأصل الديني في كل حكم صالح أن تكون الأمة غاية وتكون الحكومة وسيلة ، وتكون الغاية الكبرى التي تشترك فيها الحكومة والأمة هي إرضاء الله بتحقيق العدل ومحو الجور حيثما وجد ، وشعور الحاكمين والمحكومين جميعاً بأنهم لم يخلقوا عبثاً ولم يتركوا سدى ، لم يستخلفوا في الأرض ليفسدوا فيها ويسفكوا الدماء ، ويطغى بعضهم على بعض ويستغل بعضهم نشاط بعض . وإنما خلقوا ليصلحوا ويحسنوا ويعملوا على أن يلقوا ربهم كما يجب أن يلقوه أتقياء أنقياء مبرئين من الذنوب والآثام ، التي تعرضهم لها الفتنة ، وإيثار المنافع العاجلة الفانية على المنافع الآجلة الباقية .

ثم لم يكتف الحكام الأجانب بهذا كله ولكنهم جهلوا اللغة العربية فلم يقدروها حق قدرها ، ولم يلتفتوا الى أنها لغة القرآن والسنة والثقافة وأن إهمالها إهمال لهذا كله ، وأن عاقبة هذا الإهمال إنما هي الجهل ؛ جهل الدين أولا ، وجهل الثقافة والعلم ثانياً ، والانتهاء آخر الأمر إلى أن تقوم أمور الناس على الجهل الذي يناقض العلم ، وعلى الجهل الآخر الذي يناقض الحلم والأناة وكبح الشهوة وقهر النفس ، وأخذها في أمرها كله بالحق والعدل والمساواة بين الناس ، وأداء الواجبات مهما تثقل .

والى الجهل بهذين المعنيين صارت أمور المسلمين آخر الأمر ، جهل الحكام شؤون الدين وشؤون الثقافة والعلم فلم يحفلوا بنشر الدين والثقافة والعلم ، فانتهى أمر الأمة نفسها الى الجهل العام . وعن هذا الجهل العام نشأ الشر الذي يحاول المسلمون في هذا العصر الحديث أن يخلصوا منه ، فلا يبلغون من ذلك بعض ما يريدون إلا بأشق المشقة وأعظم الجهد . واذا أهملت الحكومة شؤون الدين فلم تشجع العلماء على أن ينشروه بين أصحابه ، وبين الذين لم تصل اليهم دعوته بعد ، ولم تشجع الناس على أن يتعلموا دينهم ، هان أمر العلماء بالدين على الحكومة أولا ، وعلى الأمة ثانيا ، وعلى أنفسهم آخر الأمر . فأهملوا ما كان يجب عليهم أن يعنوا به من الدرس والبحث وتعمق الأصول ، واستخراج فروع الأحكام التي تلائم حياة الناس على مرّ الأيام وتطور الظروف .

ومن أجل هذا كله غاضت تلك الينابيع الغزيرة التي كانت تمد عقول الفقهاء بهذا الانتاج الخصب الرائع ، الذي لا نعرف أنه أتيح لأمة قديمة قبل الأمة الإسلامية ، حتى الأمة الرومانية التي برعت في الفقه وتعمقته . وقد كان فقهاء المسلمين في أول أمرهم يجتهدون في فهم القرآن والسنة وسيرة الصالحين من أصحاب النبي ، ويستنبطون الأحكام من هذا كله ، لا يصدهم عن ذلك شيء ، ولا يردهم عنه رضى السلطان عنهم أو سخطه عليهم ،

ولا التفاف الناس حولهم أو انصرافهم عنهم ، فأنشأوا هذا العلم الخصب وذهبوا فيه المذاهب ، وكان اختلاف مذاهبهم نافعاً للناس في حياتهم العامة ، وفي حياتهم الخاصة كان مذكياً لعقولهم وقلوبهم أولا ، وكان بعد ذلك يوسع عليهم ألوان الحل لما كان يعرض لهم من المشكلات .

وكان الناس يجدّون ، حين يطلبون العلم ، في العناية بالفقه وتعمقه ، والتصرف في معضلاته ، حتى اذا أهمل العلم والدين وجمد العقل وانقطع التفكير الخاص صار الناس الى هذا التقليد البغيض ، يتحرّج علماؤهم من الاجتهاد ، ويطمئن عامتهم الى هذا التقليد ، وفرضت على الأمصار والأقاليم مذاهب هؤلاء الأئمة الأربعة : مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل ، رحمهم الله .

وفرغ الفقهاء لدرس مذهب من هذه المذاهب يجادلون عنها ويتكلفون التعمق لها ، يقلد كل جماعة منهم إماماً من هؤلاء الأئمة ويضعون مذهبه موضع التقديس ، لا ينحرفون عنه ولا يغيرون فيه . ثم انتهى أمرهم الى التعصب لأئمتهم والتنكر لغيرهم من المجتهدين ، حتى أضاعوا علماً كثيرا ذهب مع الزمن لشدة الانصراف عنه وقلة التفكير فيه ، ثم تعصب أصحاب الأئمة الأربعة لأئمتهم فثارت بينهم الخصومات السخيفة التي لا تغني عنهم ولا عن عامة الناس شيئاً . ثم صار العقل الفقهي الى شيء من التحجر ، وجعل الفقهاء يبدأون ويعيدون فيما قال قدماؤهم ، لا يزيد متأخر على متقدم شيئاً ، ثم صار الفقه الى كتب تقليدية مختصرة توضع لها الشروح وتضاف اليها الحواشي . وجعل شباب الطلاب يحفظون المختصرات عن ظهر قلب ، ويختلفون الى أساتذتهم ليسمعوا منهم شروحاً وحواشي ، يفهمون منها ما يستطيعون ويتركون منها ما لا يحسنون فهمه ، وأتيح لبعض البلاد الإسلامية حكام يقلدون مذهباً من المذاهب ، فيفرضونه على المحكومين ، ويختارون القضاة من فقهاء هذا المذهب لا يتجاوزونه الى غيره . وجمدت العامة مع الفقهاء فأصبح هذا الشعب يدين بمذهب أبي حنيفة ، لا يستبيح أن تحل مشكلاته بحكم مذهب آخر . وشعب آخر يدين بمذهب مالك

لا يعدوه الى غيره ؛ وأتيح لبعض الشعوب أن يكون من أبنائه الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة . ولم يحفل الحكام بذلك ولم يهتموا له ، وإنما اكتفوا بأن يختاروا لكل أصحاب مذهب قضاة من أهل مذهبهم .

وكذلك كان في مدينة كالقاهرة قاض للحنفية ، وآخر للشافعية ، وثالث للمالكية ، وعلى هذا النحو . وأي شر أعظم أثراً في حياة الناس من ألا يجمعهم قانون واحد تقوم عليه الأحكام فيهم ، وتحل به المشكلات التي تعرض لهم .

ولم يكن الكلام أحسن حظاً من الفقه . فقد انتهى أمره الى الجمود والعقم . وفرض على الناس مذهب بعينه من مذاهب المتكلمين ، يراه علماؤهم ديناً ويرون ما عداه من المذاهب انحرافاً عن الجادة وجوراً عن الطريق . وأصابه ما أصاب الفقه من اختصار الكتب ووضع الشروح والتعقيب عليها بالحواشي ، حتى أصبحت العقول أدوات لا عمل لها إلا أن تبدىء وتعيد ، وتهذي في غير انقطاع كما يهذي المحمومون .

وصار أمر العلوم كلها الى ما صار اليه أمر الفقه والكلام ، مختصرات تحفظ عن ظهر قلب ، وشروح تفسر هذه المختصرات ، وحواشي وتقارير تردها الى الغموض والتعقيد بعد اليسر والإسماح . وإذا جمدت عقول العلماء على هذا النحو جمدت عقول تلاميذهم ، وأصبح الجمود شيئاً تتوارثه الأجيال جيلا عن جيل .

ثم تعرضت العقول للخرافات والسخافات والأساطير ، التي يتراكم بعضها الى بعض ويتراكب بعضها فوق بعض ، وصار العلم الى شيء من الإعجام وأغلق بابه على أوساط الناس فضلا عمن هم أقل منهم ، وأطبق على علماء الأمة وعامتها سحب متكاثفة من الجهل والتواء التفكير ، ثم الاستسلام والإذعان لكل ما يقال لهم وكل ما يراد بهم . وبعد الأمد الى أقصى حدود البعد بينهم وبين قديمهم ، فنسوا تاريخهم ونسوا علومهم وما ترك الأولون فيها من الكنوز التي لا تقدر ولا تحصى والتزموا كتباً بعينها تتوارثها أجيالهم

يفهمونها أو لا يفهمونها ، فليس الفهم هو الشيء المهم وإنما المهم هو أن تقرأ الكتب الطوال في مجالس الدرس ، وتحفظ الكتب القصار قبل الاختلاف الى مجالس الأساتذة .

والاستاذ مقيد بما يقرأ من ألفاظ الشراح وأصحاب الحواشي لا يضيف اليها شيئاً ، قد وقف عقله عن التفكير واقتصر جهده كله على قراءة النص المختصر وتفسيره بالشرح المكتوب والتعقيب عليه بالحواشي المكتوبة أيضاً على هذه الشروح .

وأصبح الأساتذة والطلاب أشبه شيء بالببغاء يحكي كل واحد ما سمع من شيخه ويحكيه بلفظه ما وجد الى ذلك سبيلا . وقد أتيح للمسلمين لحسن حظهم أفراد من العلماء في عصور مختلفة لم يجحدوا التقليد جملة ، وإنما حاولوا أن يعملوا عقولهم ويثبتوا شخصيتهم وينشروا النور من حولهم ، وينظروا من علم القدماء فيما أعرض الناس عن النظر فيه .

وكان هؤلاء العلماء يجدون نفوراً منهم وإعراضاً عنهم وربما وجدوا تشهيراً بهم ومقاومة لهم ، وربما أصابهم أذى يكثر ويقل باعتبار الظروف التي تحيط بهم وتحيط بالناس من حولهم .

وانظر إن شئت الى سيرة ابن تيمية وما أصابه من إنكار العلماء الجامدين عليه ، وبطش الحكام المستبدين به .

وكذلك صار أمر المسلمين الى هذا النكر الذي عرضهم لألوان من المكروه ما كانوا ليتعرضوا لها لو سلكوا طريق قدمائهم . فلم يتركوا عقولهم تصير الى هذا الجمود والخمود .

والكوارث السياسية بالطبع هي مصدر هذه المحنة التي امتحن بها المسلمون قروناً طوالا ، والتي أطمعت فيهم دولا أجنبية لم تكن من الإسلام في شيء ، رأتهم جاهلين غافلين مذعنين للظلم راضين بما كان يصب عليهم من الجور والهضم والاستذلال . واذا بلغت الشعوب هذا الحد من الضعف ضعفت

حكوماتها فلم تجد من القوة الا ما يمكنها من ظلم الرعية واستذلالها واستغلالها . ولم تستطع أن ترد عن نفسها ولا عن شعوبها طمع الطامعين فيها ، وكيد الكائدين لها ومكر الماكرين بها ، واعتداء المعتدين عليها ، بل ربما وجدت الشعوب شيئاً من السرور والرضى بسقوط حكوماتها وانهزامها أمام العدو المغير ، يئست من عدل هذه الحكومات ونظرت اليها على أنها شر سلط عليها ، فتمنت أن يزول عنها هذا الشر ، فهي طامعة في شيء من العدل قليل أو كثير عند المغيرين عليها والمحتلين لبلادها ، نسيت كرامتها وجهلت هذه الكرامة وغفلت عن حقوقها وعن واجباتها أيضا ، وطمعت في شيء واحد هو أن تخلص من هذا الشر الجاثم عليها .

وكذلك كثر المغامرون أولا ، وكثر معهم الاضطراب والفساد ، ثم جاء المستعمرون فوجدوا كل شيء قد مهّد للاستعمار . ففتحوا واستعمروا ، وفتحوا أبواباً من الآمال الكاذبة أمام هذه الشعوب اليائسة . حتّى اذا استقرت لهم الأمور تبين اليائسون البائسون أنهم لم يخرجوا من بؤسهم ذاك إلا ليفرض عليهم بؤس أشد منه . وأي بؤس أشد نكراً من أن يتحكم الأجنبي في حياة الناس وأرزاقهم ومصالحهم ، وفي آمالهم ومستقبلهم .

كانوا عبيداً أو كالعبيد لقوم يمتّون لهم ببعض الأسباب ، فأصبحوا عبيداً أو كالعبيد لقوم ليسوا منهم في قليل ولا كثير ، يختلفون عنهم في كل شيء ولا يقاربونهم في شيء .

واذا هم يعودون الى شر مما كانوا فيه من البؤس واليأس والقنوط .

ولم يصر شأن علوم اللغة العربية والعلوم العقلية الى خير مما صارت اليه أمور الفقه والكلام ، تقليد في هذه كالتقليد في تلك ، وجمود مطبق في هذه كالجمود المطبق في تلك . شمل القصور ملكات العقول كلها ، فلم تبتكر شيئاً ولم تحسن التفكير في شيء ، بل لم تحتفظ بقديمها نفسه ، وانما خلت بينه وبين الجهل يلقي من دونه حجباً كثافاً وأستاراً صفاقاً .

ولو أن هذا الجهل المطبق ردّ عقول الناس الى فطرتها الأولى ، وجعلها

متهيئة لتلقي ما يمكن أن ينقل اليها من علم جديد ، لكان قليل هذا العلم الجديد جديراً أن يذكرها بكثير علمها القديم . ولكن الناس أحبوا الجمود واطمأنوا اليه ، وحرصوا على الاستمساك به ، ورأوا كل جديد بدعة أي بدعة وإثماً أي إثم ، بل رأوا إحياء التراث القديم نفسه شراً يجب اجتنابه ، وينبغي للرجل الكريم أن يتقي شره ، ووصفوا إحياء القديم العربي في الأدب واللغة والفلسفة بأنه عناية بالقشور وإهمال للباب ، واللباب بالطبع هو ما يبدأون وما يعيدون فيه من الكلام المعقد الذي لا يغني عنهم ولا عن غيرهم شيئاً . ولم يقصر هذا الجمود على وطن بعينه من الأقطار العربية والإسلامية ، ولكنه جثم على العالم الإسلامي كله كما تجثم ظلمة الليل على الأرض ، وأبطأ إسفار الشمس التي تذود هذه الظلمة عن القلوب والعقول جميعاً ، حتى أصبح العالم الإسلامي نهباً للطامعين فيه والمعتدين عليه من المستعمرين الغربيين .

ثم كان الاتصال بهؤلاء الغربيين حين أقبلوا عليهم مستعمرين لهم ، فنبههم أو نبه أقلهم من هذا النوم العميق ، واذا هم يشعرون على مر الزمن بما تتابع عليهم من الكوارث وما أطبق عليهم من الجهل ، حتى ناموا واستيقظ الناس ، وسكنوا وتحرك الناس . واذا هؤلاء الأقلون يحاولون إيقاظ الكثرة النائمة ، ويبلون في ذلك أحسن البلاء ، ويحتملون في سبيله فنوناً من النكير والتشهير والأذى.

وما أظن المصريين نسوا جهاد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده — رحمهما الله — في هذه السبيل ، وما لقيا من السخط عليهما والمكر بهما ، والتنكر لمن ذهب مذهبهما أو اختلف الى دروسهما . وليس لهذا مصدر إلا أن النائمين يكرهون اليقظة ، ويكرهون بالطبع من يدعوهم اليها ، كما أن الذين استراحوا الى الجمود لا يبغضون شيئاً كما يبغضون الحركة والداعين اليها .

ومع ذلك فقد نامت الأمة الإسلامية قروناً طوالا ، ولكنها حين استيقظ بعض الممتازين منها ودعوها الى اليقظة في إلحاح ، أتيح لها في الوقت القصير شيء لا بأس به من التنبه ، بل شيء لا بأس به من التقدم وإن لم تزل بعيدة أشد البعد عن أن تكون جديرة بتاريخها الإسلامي البعيد .

وما أحب أن أثبط الهمم ، ولا أن أفل العزائم ، ولا أن أشيع اليأس ، ولكني أقول ما أقول تقوية للأمل ، وتمضية للعزم ، وإلحاحاً مع الملحين في أن يثوب الناس الى أنفسهم ، ويتمثلوا هذه الآماد البعيدة أشد البعد بينهم وبين قدمائهم من جهة ، وبينهم وبين الأمم الحديثة المتحضرة المسيطرة على العالم الحديث من جهة أخرى . ليعلموا أن الطريق بينهم وبين الرقي الصحيح طويلة شديدة الطول ، شاقة عظيمة المشقة ، وأنهم قد أتيح لهم الآن شيء من يقظة تمكنهم من أن يختاروا بين اثنتين : إحداهما أن يظلوا كما هم الآن أيقاظاً كالنيام ونياماً كالأيقاظ . فيتعرضوا لخطوب أشد هولا وأعظم أثراً من الخطوب التي تتابعت عليهم . والثانية أن يستيقظوا حقاً ويستدركوا ما فاتهم حين وقفوا ومشى الناس ، ليصبحوا أكفاء لقدمائهم من جهة ، وأنداداً للذين يحاولون أن يستذلوهم من جهة أخرى . ويجب عليهم أن يذكروا أن حكامهم من الأجانب في العصور الماضية كانوا جهالا ففرضوا عليهم الجهل ، وأن الطامعين فيهم الآن بعيدون كل البعد عن الجهل ، فسيكون ظلمهم لهم أقوى وأعنف من ظلم حكامهم الأجانب فيما مضى .

والمستعمرون في هذا العصر الحديث يوشكون أن يفرضوا عليهم ضروباً من العلم قد تخرجهم من الجهل ، ولكنها ستقطع الأسباب حتماً بينهم وبين تاريخهم وتفنيهم في الأمم المستعمرة إفناء .

فلينظروا بين هاتين الخطتين وليختاروا إحداهما ، وما أرى إلا أنهم سيختارون ، بل عسى أن يكون كثير منهم قد اختار بالفعل ، خطة اليقظة والنهوض .

٨

وسبيلهم الى هذه اليقظة الخصبة واحدة لا ثانية لها ، وهي أن يذكروا ما نسوا من تراثهم القديم ، لا ليقولوا إنهم يذكرونه ، بل ليعرفوه حق معرفته ،

ويفقهوه جد الفقه ، ويحسن المتخصصون منهم العلم بدقائقه وتيسيره لغير المتخصصين .

هذه واحدة ، والثانية أن يستدركوا ما فاتهم من العلم الحديث ، ويبتغوا اليه الوسائل التي تتيح لهم أن يتحققوه كما يتحققه أصحابه ، وأن يوطنوه في بلادهم ويجعلوه ملكاً لهم ، وأن يبذلوا من الجهد ما يمكنهم في يوم قريب من ألا يكونوا فيه عيالا على المستأثرين بـه ، بل من أن يشاركوا فيه مشاركة الأنداد الأكفاء .

بهذه الخطة وحدها يستطيعون أن يسلكوا سبيل قدمائهم ، الذين عرفوا حق المعرفة كيف يحافظون على ما ورثوا من العرب القدماء : الجاهليين والمسلمين الأولين . وكيف يدرسونه أحسن الدرس وأوسعه وأعمقه . وعرفوا في الوقت نفسه كيف يأخذون الثقافات الأجنبية ، وكيف يسيغونها ويتمثلونها ويضيفون اليها من عند أنفسهم ، وكيف ينشرون نور المعرفة بهذا كله في البلاد التي تستأثر بالعلم الآن ، وتريد أن تفرض عليهم سيطرتها .

وواضح أن هذا الحديث لا يطمع في أن يرسم للمسلمين خطة دقيقة للرقي ، وإنما يطمع في شيء هو أهون من ذلك ، ولكنه عظيم الخطر الى أبعد ما يمكن أن يعظم الخطر لأمر من الأمور ، وهذا الشيء متصل بالإسلام وحده . فالقرآن بـين أيدي المسلمين يقرأونه ويسمعونه ويتعبدون به ، ولكن الذين يفهمونه حق فهمه من بينهم يمكن إحصاؤهم ، ويجب أن يكونوا من الكثرة فوق الإحصاء ، ويجب أن يتجاوزوا بـه أنفسهم ، وأن ينشروا العلم الصحيح بـه بـين الناس .

والثابت من سنة النبي صلى الله عليه وسلم محفوظ قد نشر في الكتب ، وجعل كثير من الناس ينظرون فيه ، ولكن الذين يفقهونه أقل من القليل . ويجب أن يكثروا وأن ينشروا منها على الناس ما يبين لهم حقائق القرآن أولا ، ويفقههم في أمور دينهم ثانياً .

وسيرة الخلفاء الصالحين من المسلمين معروفة منشورة يقرأها المؤرخون ،

ولكن العلم بها لا ينبغي أن يقصر بها على المؤرخين ، وانما يجب أن يشيع بين الناس ، وأن يتيسر لهم قراءته وفهمه . علم العلماء سجل في الكتب ينشر قليله ، وأكثره ما زال نائماً كما نامت الأمة الإسلامية ، فيجب أن يفيق من نومه ، وأن يكون قريب التناول للذين يحسنون درسه وفقهه من العلماء .

وهذا كله لا يكفي ، لأنه لا يزيد على أنه ترقية للعقول وتزكية للأفهام . وويل للعلم بشؤون الدين وحقائقه إذا لم يتجاوز العقول والأفهام الى القلوب والأمزجة ، ويؤثر في الضمائر أعمق التأثير ، ويؤثر في السيرة الظاهرة لهم أعمق التأثير أيضاً .

وقد عرضت في هذا الحديث صورة إن تكن شديدة الإيجاز ، فانها شديدة الوضوح لحياة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، رحمهم الله .

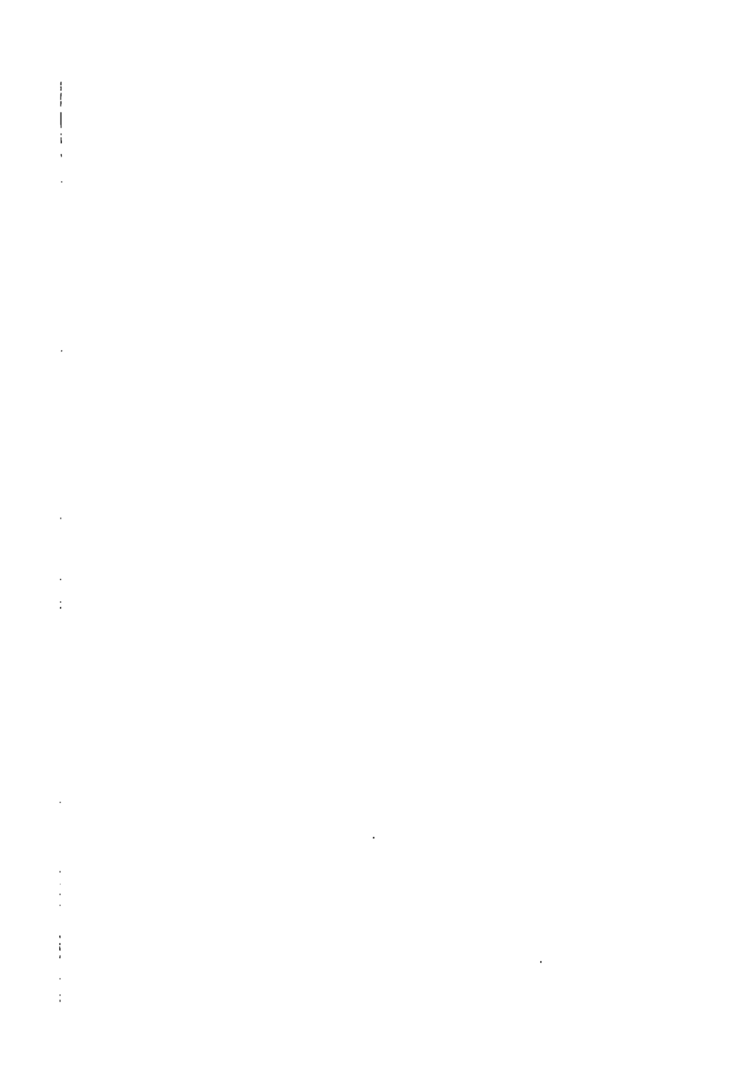
فلو لم يكن لهذا الحديث أثر إلا أن يقرأه الناس ، ويجتهدوا ما استطاعوا في أن يحملوا أنفسهم على أن يسيروا في أمور دينهم ودنياهم سيرة النبي وأصحابه والصالحين من المسلمين ، وينفوا عن أنفسهم وعقولهم وقلوبهم ما أصابها من التقليد والجمود وما استقر فيها من السخف والأوهام — لو لم يكن لهذا الحديث أثر إلا هذا لكان قد بلغ بعض ما أردت ، حين أخذت في إملائه ، وصدق الشاعر القديم حين قال :

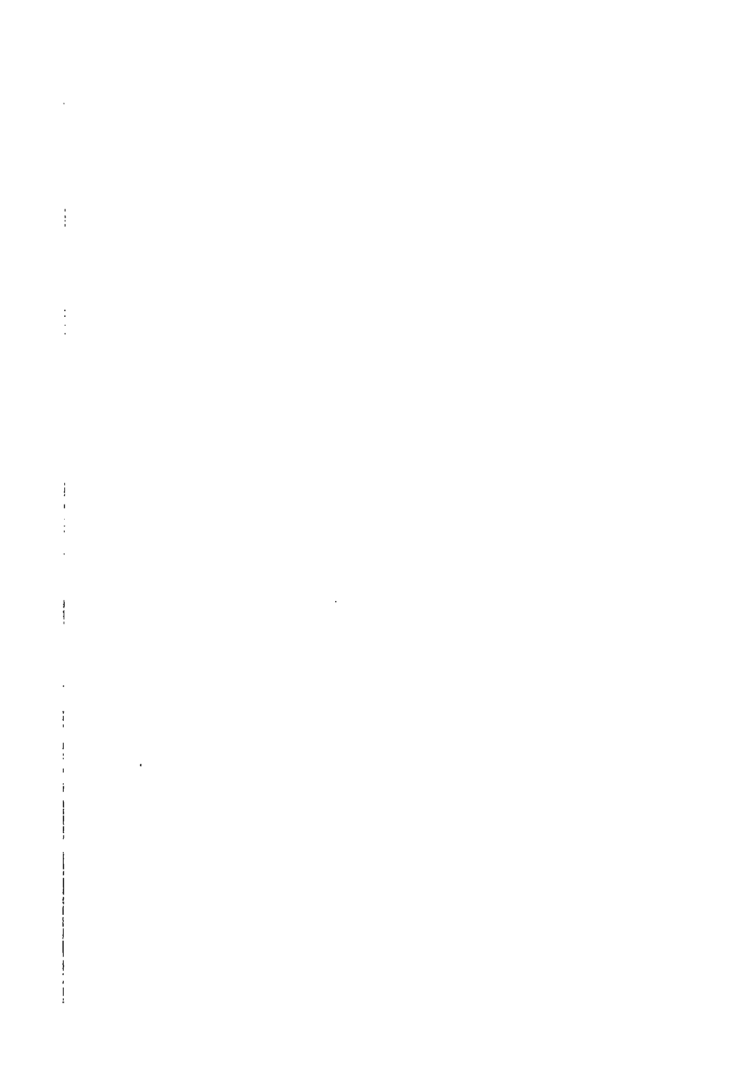
وما أدري إذا يممت أمراً أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي هو يبتغيني

والله يعصمنا من الشر ويوفقنا الى الخير ، وهو قد قال في كتابه العزيز :

« وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِي إِذَا دعَانِ »

فعسى أن يجيبنا الى هذه الدعوة ، وله الحمد أولا وآخراً .







مكتبة المدرسة

الدار الافريقية العربية

الشركة العالمية للكتاب

دار الكتاب العالمي